UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190929

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—2272—19-11-79—10,000

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٩٣٠٥٠٤ Accession No. 70.86

Author ج-ج

Title مشاهير الشرق خزاول

L.14

This book should be returned on or before the date last marked below.

تراجم

مشاهير الشرق

في القرن التاسع عشر

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الاول

يشتمل على تراجم امراء العائلة الخديوية
ومن نبغ في الشرق من الملوك والامراء والقواد ورجال
الادارة والسياسة ورجال الاعمال واهل البر
والاصلاح في اثناء القرن التاسع عشر

الطبعة الثالثة

مطبعة الهلال بشارع نوبار
بمصر سنة ١٩٢٢

تراجم
مشاهير الشرق
في القرن التاسع عشر

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

الجزء الاول

يشتمل على تراجم امراء العائلة الخديوية
ومن نبغ في الشرق من الملوك والامراء والقواد ورجال
الادارة والسياسة ورجال الاعمال واهل البر
والاصلاح في اثناء القرن التاسع عشر

الطبعة الثالثة

طبع بمطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر سنة ١٩٢٢

مقدمة الطبعة الاولى

رأينا من جمهور القراء ارتياحاً لما ننشره في الهلال من تراجم مشاهير الناس. وتقدم الينا غير واحد من حضراتهم ان نؤلف من تلك التراجم وامثالها كتاباً على حدة مع ما تقتضيه من الرسوم ونحوها ليسهل الاطلاع عليها والاعتبار بها. فرأينا ان نلبي الطلب على ان يكون عملنا قاصراً على مشاهير الشرق دون سواهم وان لا يتجاوز وفيات القرن التاسع عشر

ومما يهوّن ذلك علينا اننا قضينا العقد الاخير من القرن المذكور في البحث عن مشاهير رجالنا في السياسة والادارة والعلم والادب وقد نشرنا كثيراً من تراجمهم في اهلة السنين الماضية. فعمدنا الى جمع تلك التراجم في كتاب نرتب فيه اولئك المشاهير باعتبار ما اشتهروا به. فقسمناه الى جزئين الجزء الاول في رجال الحكومة. والثاني في رجال العلم مع ملاحظة الشروط الآتية:

١ اننا لا ننشر الا تراجم المشاهير الذين توفوا في أثناء القرن التاسع عشر — الا في أحوال خصوصية أهمها ان يكون المترجم قد فرغ من العمل الذي انتدب نفسه له او اوقف سيرته عند حد لا يرجى له ان يتعداه

٢ توسعنا في المراد من لفظ الشرق الى آخر الشرق الاقصى فترجمنا الذين بلغت الينا شهرتهم من رجال فارس والهند والصين واليابان

٣ عددنا في جملة مشاهير الشرق رجالاً من الافرنج خدموا الشرق وقضوا معظم حياتهم فيه مثل سليمان باشا الفرنساوي والدكتور كلوت بك والدكتور فنديك وغيرهم وفعلنا نحو ذلك بمشاهير المسلمين في بلاد المغرب

٤ قسمنا كلاً من جزئي الكتاب الى أبواب ورتبنا رجال كل باب باعتبار سني وفاتهم بقطع النظر عن اهليتهم (١)

(١) قد اختل معنا هذا الترتيب بعد ما أضفناه من التراجم بهذه الطبعة

فالجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق — وهو هذا — يحتوي على تراجم من اشتهر في الشرق من رجال الحكومة في أثناء القرن الماضي . وهو يقسم الى ربعة أقسام

أولاً امراء العائلة الخديوية

ثانياً الملوك والامراء

ثالثاً القواد

رابعاً رجال الادارة والسياسة

والجزء الثاني يشتمل على من اشتهر في الشرق من رجال العلم والادب في اثناء القرن التاسع عشر وهو اربعة اقسام ١ اركان النهضة العلمية الاخيرة ٢ المنشئون وكتاب الجرائد ٣ سائر رجال الاقلام وخدمة العلم والادب ٤ الشعراء

فالجزء الاول عبارة عن تراجم رجال الحكومة وتاريخ اعمالها الادارية في الاستانة ومصر والشام والسودان وسائر المشرق او هو تاريخ الشرق السياسي في القرن التاسع عشر . والجزء الثاني عبارة عن تاريخ العلم والادب في النهضة الشرقية الاخيرة . وقد توخينا تحري الحقائق جهد طاقتنا والعصمة لله وحده

ونظراً لما يعتور هذا المشروع من العقبات في انتقاء الرجال والبحث عن تراجمهم لقلة المآخذ المؤدية الى ذلك لقرب عهدنا من الحضارة الجديدة فلا يخلو ان يكون قد فاتنا ذكر بعض المشاهير من رجالنا فنرجو من اهل الاطلاع ان ينبهونا الى ذلك ويبعثوا الينا بما يعلمونه من تراجم اولئك الرجال لندرجها في ملحق نجعله جزءاً ثالثاً لهذا الكتاب ان شاء الله

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٢ فلم تمض بضع سنين حتى نفدت نسخها واضطررنا الى اعادة طبعها . وكنا قد حصرنا موضوع الكتاب في ترجمة الرجال العظام الذين توفوا في الشرق قبل انقضاء القرن التاسع عشر . ثم رأينا في ذلك تقصيراً بحق جماعة نبغوا في القرن المذكور لكنهم توفوا في اوائل القرن العشرين وفيهم جماعة من ارباب الاقلام او غيرهم وآخرون من كبار الرجال لا يدخلون في باب من الابواب الاربعة التي عيناها في الطبعة الاولى وفصلناها في مقدمتها المنشورة مع هذه . فاضفنا الى ابواب الجزء الاول هذا باباً خامساً سميناه « باب رجال العمل واهل البر والاصلاح » فدخل في الكتاب بسبب ذلك جماعة من خيرة الرجال كالشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين وغيرهم فنشرنا تراجمهم في هذا الكتاب مع تراجم اخرى فاتتنا في الطبعة الاولى ونبهنا اليها بعض الادباء

فاصبحت أبواب هذا الكتاب خمسة وهي :

١ امراء العائلة الخديوية

٢ الملوك والامراء

٣ القواد

٤ رجال الادارة والسياسة

٥ رجال الاعمال وأهل البر والاصلاح

واضفنا الى الجزء الثاني تراجم كثيرين من اهل العلم والادب فاتنا ذكرهم في الطبعة الماضية ولا نزال نوالي البحث عن تراجم رجالنا لنضيفها الى ما عرفناه في فرصة اخرى وبالله التوفيق

وقد طبع ثالثة سنة ١٩٢٢



١ العائلة الخديوية



ش ١ : محمد علي باشا

﴿ صبوته وشبيبته ﴾ انظر الى خارطة بلاد الروملي في سواحلها الجنوبية على مسافة ٣٢٠ كيلو متراً من الاستانة غرباً ترَ قرية اسمها قواله لا يزيد عدد سكانها على ثمانية آلاف نفس . وكان في تلك القرية في أواسط القرن الثامن عشر رجل اسمه ابراهيم آغا كان متولياً خفارة الطرق ولد له سبعة عشر ولداً لم يعش منهم الا واحدٌ وفي سنة ١٧٧٣ توفي هذا الرجل وامرأته عن ذلك الولد وسنه أربع سنوات واسمه محمد علي

فاصبح الغلام يتيما ليس له من يعوله الا عماً اسمه طوسون آغا وكان متسلماً على قواله فجاء به الى بيته شفقة عليه غير ان المنية عاجلت طوسون فقتل بامر الباب العالي بعد ذلك بيسير فاصبح الغلام يتيما قاصراً وليس من ينظر اليه

وكان لوالده صديق يعرف بجربجي براوسطة فشفق على الغلام وجاء به اليه

وعني بتربيته مع أولاده . غير ان ذلك لم ينسه حاله من اليتم فكان يشعر بالذل وضعف النفس . ويروى عنه بعد ان ارتقى ذروة المجد واعتلى منصة الاحكام انه كان يحدث أخصاءه عما قاساه في صبوته من الذل الى ان يقول :

« ولد لابي سبعة عشر ولداً لم يعش منهم سواي فكان يحبني كثيراً ولا تغفل عينه عن حراستي كيفما توجهتُ ثم توفاه الله فاصبحت يتيما قاصراً وأبدل عزي بذل وكثيراً ما كنت اسمع عشرائي يكررون هذه العبارة التي لا انساها عمري وهي (ماذا عسى ان يكون مصير هذا الولد التعيس بعد فقد والديه) فكنت اذا سمعتهم يقولون ذلك اتغافل عنه ولكنني أشعر باحساس غريب يحركني الى النهوض من تحت هذا الذل . فكنت أجهد نفسي بكل عمل استطيع معاطاته بهمة غريبة حتى كاد يمر عليَّ أحياناً يومان ساعياً لا آكل ولا انام الا شيئاً يسيراً . وفي جملة ما قاسيته اني كنت مسافراً مرة في مركب فتعاظم النوء حتى كسره وكنت صغيراً فتركني رفاقي وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا اما انا فجعلت أجاهد في الماء وسعي تتقاذفني الامواج وتستقبلني الصخور حتى تهشمت يداي وكانتا لا تزالان يانعتين . وما زلت حتى اراد الله ووصلت الجزيرة سالماً وقد اصبحت هذه الجزيرة الآن قسماً من مملكتي »

ومما يحكى عنه في أيام صبوته انه كان يتردد على رجل فرنساوي مقيم في قواله اسمه المسيو ليون وكان من كبار التجار محباً للفضيلة وحالما رأى محمد علي للمرة الاولى شفق عليه وأحب مساعدته لما توسم فيه من الفطنة والنباهة فكان يقدم له كثيراً من حاجياته ويسعفه بكل ما في وسعه حتى ألفه محمد علي كثيراً . وهذا هو سبب وثوقه بالامة الفرنساوية بعد توليه الاحكام في مصر واستخدامه أفراداً منهم في مصلحة البلاد . ويقال انه رحمه الله بعث سنة ١٨٢٠ الى المسيو ليون المشار اليه يدعوه الى مصر يقضي فيها زمناً في ضيافته فاجاب دعوته ولكنه مات قبل قدومه فاسف عليه محمد علي كثيراً وبعث الى شقيقته هدية تساوي عشرة آلاف فرنك

قلنا انه ربي في صبوته ببيت جربجي براوسطة وتعلم في صغره ما يتعلمه ابناء تلك البلاد من العاب السيف والجريد والحكم وما شاكل فنبغ فيها حتى اذا بلغ أشده انتظم في سلك الجهادية تحت ادارة مربيه فاظهر في جباية الضرائب مهارة وبسالة عجيبتين فرقاه الى رتبة بلوك باشي وزوجه احدى ذوات قرابته وكانت مطلقة ولها مال وعقار فترك الجهادية وتعاطى التجارة وعلى الخصوص في صنف التبغ لانه اكثر اصناف التجارة في بلاده . وقد برع في تلك التجارة حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى

لدى عملائه وكان قد ذاق لذة التجارة وأحبها مذ كان يتردد على المسيو ليون المتقدم ذكره ولذلك رأيناه بعد ان تولى مصر يوجه انتباهه بنوع خاص لتنشيط التجارة

وما زال يتعاطى التجارة الى سنة ١٨٠١ حينما عزم الباب العالي على اخراج الفرنساوية من مصر بمساعدة انكلترا . وكان الفرنساويون قد جاؤا مصر تحت قيادة نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٨ فحاربوا الامراء المماليك ودخلوها عنوةً وأقاموا فيها ثلاث سنوات والحكومة العثمانية تبعث اليهم الجنود وتحاربهم تارة وحدها وطوراً بمساعدة انكلترا وهم قائمون بين اقدام واحجام الى سنة ١٨٠١ فبعثت العثمانية اليهم عمارة قوية تحت قيادة قبطان باشا وفيها قوات انكليزية وبعثت الصدر الاعظم في حملة من جهة البر

﴿ ارتقاؤه منصة الاحكام ﴾ وكان محمد علي في جملة القوة البحرية وقد تجند اليها في جملة من تجند في براوسطة بصفة معاون لعلي آغا ابن مربيه على ثلاثمئة جندي الباني (ارناؤوط)

فجاءت العمارة الى أبي قير وكانت الغلبة هناك للفرنساويين ثم عاد علي آغا الى بلاده تاركا رجاله تحت قيادة محمد علي وكان هذا قد ترقى الى رتبة بيكباشي

ثم تغلب العثمانيون بمساعدة العمارة الانكليزية وحملة الصدر الاعظم ودخلوا البلاد واخرجوا الفرنساويين منسحبين انسحاباً قانونياً وجعلوا يهتمون بتأييد سلطة الباب العالي فيها

وكان في الجنود العثمانية جماعات من الارناؤوط والانكشارية والغليونجية فتفرقت هذه الجنود لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . اما الانكليز فكانوا تحت قيادة الجنرال هتشنسون فنزلوا الاسكندرية ريثما يقيمون في القطر المصري والياً عثمانياً يؤيد سلطة الباب العالي ويكبح جماح المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال

فاقاموا محمد خسرو باشا وكان في الاصل من مماليك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية فجاء القاهرة وقاصَّ الذين كانوا فيها من محالفي الفرنساوية . وكان في يده أوامر سرية باعدام المماليك جملة باي وسيلة كانت فبعث الى محاربتهم وكانوا في الصعيد فتضايقوا ولم يروا وسيلة الا الالتجاء الى فرنسا فكتبوا اليها يستنجدونها متعهدين باجراء كل ما تطلبه منه فلم يسعدهم الحظ بمساعدتها

اما الحملة التي بعثها خسرو باشا الى الصعيد فانها عادت ولم تأت بفائدة ثم حاربهم مراراً في اماكن مختلفة وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ترقى الى رتبة سرچشمة وصار قائداً لاربعة آلاف من الالبانيين فامره أن يسير في

رجاله مدداً لتلك الحملة فسارت الحملة وحاربت المماليك وانكسرت قبل وصول محمد علي ورجاله فنسب قائدها انكساره الى تأخر محمد علي عن المجيء وابلغ ذلك لخسرو باشا . وكان هذا حاقداً على محمد علي فاستقبل ذلك البلاغ بالصدق واقرّ على اعدامه سرًّا وكتب اليه ان يوافيه في منتصف الليل للمخابرة ببعض الشؤون فادرك محمد علي مراده ولم يجب الدعوة ولم ير وسيلة لنجاته من مكيدته وعدوانه الا بالالتجاء الى المماليك فانحاز اليهم واخذ في مخابرتهم سرًّا وجهراً فتمكنوا بذلك التحالف من اخراج خسرو باشا من القاهرة قهراً ففر الى دمياط واقاموا مكانه طاهر باشا ثم قتل طاهر واحتل محمد علي القلعة برجاله فقام احمد باشا والي الشرطة اذ ذاك يطلب الولاية فاخرجه المماليك من القاهرة ذليلاً ثم اتحد الجميع وساروا لمحاربة خسرو باشا في دمياط فامروه وجاؤا به الى القاهرة وحجروا عليه في القلعة



ش ٢ : امراء المماليك أوطه باشي (ابو طبق) جندي

أما الباب العالي فلما بلغه ما حصل في مصر بعث اليهم والياً اسمه علي باشا الجزائرلي فلم يصل القاهرة الا بعد شق الانفس ولما وصلها عمد الى الكيد بالمماليك ومحمد علي فعادت العائدة عليه

وكان للمماليك زعيمان الالفي والبرديسي يتنازعان السلطة وكان الالفي قد سار الى انكلترا يطلب مساعدتها على رفيقه للاستئثار بالسلطة فلما عاد من سفرته اغتنم محمد علي تلك الفرصة وأوغر صدر مناظره البرديسي عليه فنصب له مكيدة لم يقع فيها ولكنه فرّ الى الصعيد فظن البرديسي ان جوّ القاهرة قد خلا له ولكن محمد علي كان له

بالمرصاد فحرك الالبانيين عليه واوعز اليهم سرًا ان يثيروا ويطالبوا بمرتباتهم فقاموا وهددوا البرديسي بالاذى اذا لم يدفع اليهم المتأخرات فضرب على اهل القاهرة اموالاً واستبد في تحصيلها بقساوة فثاروا جميعاً عليه فاضطر الى مغادرة القاهرة ولم يعد يرجع اليها . وكل ذلك سنة ١٨٠٤

فلما فرَّ الاميران لم يبق في القاهرة من رجال السلطة الا محمد علي فجمع اليه العلماء والمشائخ وتفاوضوا في اخلاء سبيل خسرو باشا فاقرُّوا على ذلك وان يعود الى منصبه فاعادوه ولكنه لم يمكث فيه الا يوماً واحداً ثم اخرجوه من القاهرة الى رشيد ومنها الى الاستانة وكل ذلك بمساعي محمد علي ودهائه وحسن سياسته

ثم تظاهر ان الامور لا تستقيم في مصر الا بتنصيب والعثماني حر واشار بتنصيب خورشد باشا وكان في الاسكندرية فوافقه العلماء والمشائخ في ذلك على أن يكون هو نائباً عنه في الاحكام بصفة قائمقام وبعثوا الى الباب العالي يخبرونه بذلك ويسترحمون تثبيت انتخابهم فاجيب طلبهم



ش٣ الجند الالباني (الارناؤط)

غير ان خورشد باشا رأى محمد علي مستأثراً بالنفوذ عليه بمن معه من الجند الالباني فخاف عاقبة ذلك فاستقدم جنداً مغربياً (الدالاتية أو الدلاة) يكونون له عوناً وقت الحاجة فادرك محمد علي قصده فوقف له بالمرصاد ثم جعل الدالاتية يسيئون معاملة أهل القاهرة وينهبون ويقتلون اعتماداً على نفوذ الباشا فسئم اهل القاهرة منهم ولا سيما المشائخ والعلماء

وفي ٢ صفر سنة ١٢٢٠ ورد لمحمد علي خط شريف بولاية جدَّة فالبسهُ خورشد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وقد توسم قرب تخلصه منه فخرج محمد علي يريد الذهاب الى جدة وفي نفسه ان لا يخرج من مصر فقامت العساكر وطالبوه بالعلوفة فقال « هذا هو الباشا طالبوه بها » وسار الى منزله في الازبكية (قرب أوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا له حباً ولخورشد باشا كرهاً

وبعد ثلاثة ايام (لا ندري ما دار في اثنائها بينه وبين علماء البلاد ومشائخها) سار المشائخ والعلماء جميعاً الى محمد علي في منزله ينادون بصوت واحد « لا نقبل خورشد باشا والياً علينا » فقال « ومن تريدون اذاً » قالوا « لا نريد احداً سواك »

فامتنع اولا وجعل يرغبهم في خورشد ويحملهم على الاذعان والسكينة وهم لا يزدادون الا اصراراً على طلبهم فوافقهم فاحضروا له الكرك والقفطان والبسوه اياهما وبعثوا الى خورشد ان ينزل من القلعة فابى فحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بذلك فورد الفرمان بولاية محمد علي في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ (٩ يوليو (تموز) ١٨٠٥) وعزل خورشد باشا فخرج هذا من القلعة بامر من الاستانة وغادر البلاد وفي نفسه من الغيظ على محمد علي ما ليس وراءه غاية

ولكن المماليك كانوا أشد غيظاً منه لما ظهر لهم من تلاعب محمد علي بهم واستخدامه اياهم لاغراضه فثاروا وفي مقدمتهم الالفي فانه حالما علم بتولية محمد علي نزل بعصابته وخابر حكومة انكلترا لخلع محمد علي واشترط على نفسه انها اذا فعلت ذلك سلمها البلاد حالا فعلم قنصل فرنسا بذلك فعرقل مسعاه فعكف على مصالحة محمد علي باشا على شيء يرضى به الاثنان فلم يتفقا فعاد الالفي لمخابرة سفير انكلترا فاقنع هذا الباب العالي فبعث والياً اسمه موسى باشا مع العفو عن المماليك وكادت تنطلي هذه الحيلة لو لم يقم العلماء والمشائخ من جهة وسفير فرنسا في الاستانة من جهة اخرى ويوضحوا للباب العالي مقاصد المماليك فتثبت محمد علي ولكنه امر ان لا يتعرض للمماليك فيما بعد لصدور العفو عنهم قبلا ولكن التقادير ساعدته فتوفي البرديسي بعد قليل ثم الالفي فتولى على المماليك شاهين بك ولكن شوكتهم ضعفت ولم تعد تقوم لهم قائمة

اما انكلترا فاعتبرت ارجاع محمد علي مخلاً بنفوذها فبعثت حملة تحت قيادة الجنرال فرازر لارجاع سلطة المماليك ولكن المماليك كانوا قد تبعثروا في البلاد فاقامت الجنود الانكليزية على سواحل القطر مدة ثم عادت بخفي حنين بعد الاتفاق على صلح فاجتمعت السلطة في قبضة محمد علي باشا ثم سعى بعضهم في المصالحة بينه وبين شاهين بك زعيم المماليك فتصالحا وقدم هذا الى مصر بالهدايا الثمينة فاكرمه محمد علي وبنى له قصراً لسكناه في الجيزة وفي ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ بويع السلطان محمود الثاني على عرش الاستانة العلية

(اعماله الحربية) فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر أخذ في تسليم مصالح حكومته الى من يثق بهم من ذوي قرباه لانه كان شديد المحبة لعائلته ولا شك ان ازره اشتد بهم . ثم استفحل أمر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود خان يعهد الى محمد علي باشا أمر اخضاعهم وتخليص البلاد من ايديهم

والوهابيون فئة من المسلمين ذهبوا الى اغفال كل الكتب الدينية الاسلامية الا القرآن الشريف فهم بمنزلة الطائفة الانجيلية عند المسيحيين . زعيمها الاول يدعى محمد

عبد الوهاب ولد سنة ١١١٠ هـ (سنة ١٦٩٦ م) ولما شب تفقه وحج ثم اظهر دعوته فالتفت عليه احزاب كثيرة فافتتح نجداً فالحجاز فالحرمين وما زال يفتتح في بلاد العرب حتى توفي سنة ١٢٠٥ هـ (سنة ١٧٨٩ م) وسنه ٩٥ سنة فاستمرّت احزابه في أعمالهم حتى سنة ١٢٢٤ هـ سنة ١٨٠٩ م) تحت قيادة الامير سعود وقد اصبحت حدود مملكتهم من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الاحمر فنهبوا الكعبة وقد استفحل أمرهم ولم ير الباب العالي بدًّا من تكليف بطل مصر اخضاعهم

فاجاب محمد علي باشا مطيعاً وجعل يجمع القوّات اللازمة لتلك الحملة لكنهُ فكر في امر المماليك فخشي اذا سارت الحملة ان لا تكون البلاد في أمن منهم فيجمعون كلمتهم ويعودون الى ما كانوا عليه من القلاقل فعمد الى اهلاكهم قبل مسير الحملة لكنه في الوقت نفسه عمل على اعداد مواد الحملة فجند اربعة آلاف مقاتل تحت قيادة ابنه طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس بالاخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فارسل اليه ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركباً واعدّها عند السويس في انتظار الحملة

اما المماليك فكانوا قد يئسوا من الاستقلال بالاحكام لما رأوا ما حل بسلفائهم وما عليه محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بارزاقهم وممتلكاتهم في حالة سلمية فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة وتشتتوا في انحاء القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رئاستهم بعد وفاة الالفي قد اذعن لمحمد علي باشا كما تقدم فاقطعه أرضاً بين الجيزة وبني سويف والفيوم فأوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ هـ (فبراير (شباط) سنة ١٨١١ م) سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون باقي الحملة ومعها طوسون باشا . وتعين يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله الى قبة العزب فاعلن ذلك في المدينة ودعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال وفي جملتهم المماليك وطلب اليهم أن يكونوا بالملابس الرسمية

ففي يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ (اول مارس (اذار) سنة ١٨١١) احتشد الناس الى القلعة وجاء شاهين بك في رجاله فاستقبلهم الباشا في قصره بكل ترحاب ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة امر محمد علي بالمسير فسار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين المماليك الى الوراء يكتنفهم الفرسان والمشاة حتى اذا اقتربوا من باب العزب من أبواب القلعة في مضيق بين هذا الباب والحوش العالي أمر محمد علي فاغلقت الابواب واشار الى الالبانيين (الارناؤط) فهجموا على المماليك

بغتة فانذعر اولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لان الالبانيين كانوا اكثر تعوداً على تسلقها . واقتحم المشاة المماليك من ورائهم بالرصاص فطلب المماليك الفرار بخيولهم من طرق أخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسالك على الخيول ولما ضويق عليهم ترجل بعضهم وفروا ساعين على اقدامهم والسيوف في ايديهم فتداركهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك امام ديوان صلاح الدين وحاول بعضهم الالتجاء الى الحريم او الى طوسون باشا بدون فائدة ثم نودي في المدينة ان كل من يظفر باحد المماليك في اي محل كان يأتي به الى كخيا بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليه أفواجاً وهو يقتلهم



ش ٤ : امين بك (المملوك الشارد)

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة أربعمئة فلم ينج منهم الا اثنان احدهما احمد بك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير كان غائباً بناحية موش والثاني امين بك كان قد أتى القلعة متأخراً فرأى الموكب سائراً نحو باب العزب فوقف خارج الباب

ينتظر خروج الموكب. ثم لما أقفلت الابواب بغتة وسمع اطلاق النار علم المكيدة فهمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتبادر على الالسنة ان امين بك هذا كان داخل القلعة فلما حصلت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو . والاقرب للحقيقة ان هذه الاشاعة مختلفة او مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق ان شاهين بك زعيم المماليك قد قتل فخاف الناس ثم طافت العساكر في المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وجواريهم وعلا الصياح

وفي اليوم التالي نزل الباشا من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة يأمر الناس بايقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنه حرّض على قبض من يظفرون به من المماليك في سائر انحاء القطر فكانوا يأتون بهم افواجاً يسوقونهم كالغنم الى الذبح فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٣ بيكاً . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا الى الاسواق في فرقة من الجند لتسكين الخواطر وايقاف النهب . اما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفراً جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي باشا بحماية نساء المماليك ولم يسمح بتزويجهن الا لرجاله

ولما خلت البلاد من المماليك عكف محمد علي على المهام الاخرى واخصها مسألة الوهابيين فكتب الى غالب شريف مكة يخبره باعداد حملة تنقذه من الوهابيين فيفتح طريق الحرمين لجميع المسلمين وطلب اليه ان يمهد له السبيل فاجابه شاكراً ووعده بالمساعدة

أما سعود أمير الوهابيين فانبأته الجواسيس بما نواه محمد علي فامر فاجتمع حوله خمسة عشر الفاً ليدفع بهم جنود مصر . اما حملة طوسون فركبت البحر من السويس حتى أتت ينبع على الساحل الشرقي من البحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة فتملكوا ينبع وساروا منها الى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون باشا فتقهقر سعود ورجاله اولا ثم ارتدوا على الجيوش المصرية فانهزموا تاركين كل مؤنهم وذخائرهم وجمالهم وعادوا الى ينبع . فعلم محمد علي باشا بذلك فجند جنداً كبيراً مدداً لابنه فاشتد ازر طوسون وجمع اليه القوتين وسار حتى أتى المدينة فاطلق عليها النار فهدم بعض السور ثم دخلها وانخن في حاميتها حتى سلمت فكف السيف عنها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز فخاف الوهابيون وفرح اعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وكان في جدة لا يدري ماذا يكون من امر تلك الحملة فلما علم بانتصارها كاد يطير من الفرح

واجلى الوهابيون عن مكة خوفاً من اهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى ابيه ففرح فرحاً لا مزيد عليه لما اتاه الله من النصر على يد ابنه نصراً لم يتأت لغيره من القواد العثمانيين وجيء اليه بقائد حامية المدينة من الوهابيين فارسله في خفر الى الاستانة فقتلوه حال وصوله اليها . اما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في مأمن من خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٨١٢ (سنة ١٢٢٨ هـ)علموا ان جنود طوسون لا يحتملون حر تلك البلاد وانهم اذا ناهضوهم اذ ذاك يتغلبون عليهم فجندوا وساروا الى تربة شرقي مكة فحاربوها واستولوا عليها ثم ساروا الى المدينة وهددوها بعد ان استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن فاتصل الخبر بمحمد علي فلم ير بدّاً من ذهابه بنفسه لنصرة الجنود المصرية وقد اصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم . فسار في جند عظيم حتى أتى جدة فنزلها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ (٢٨ اغسطس) آب (سنة ١٨١٣ م) فلاقاه الشيخ غالب شريف مكة ورحب به وبعد ان ادى فروض الحج رأى ان الشريف ليس ممن يعتمد عليهم في الدفاع فعمد الى خلعه بطريقة تضمن حقن الدماء ففاز ثم وضع يده على ممتلكاته وبعث به وبعائلته الى القاهرة ومنها الى سالونيك فعاش فيها اربع سنوات ومات . اما الوهابيون فمات قائدهم سعود في درعية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هـ (١٧ افريل (نيسان) سنة ١٨١٤ م) فانحطت سطوتهم فاقاموا عليهم ابنه عبد الله ولم يكن كفوءاً فحصلت بينه وبين الجنود المصرية مناوشات كبيرة لم تأت بنتيجة .وفي ٢٨ محرم سنة ١٢٣٠ هـ (١٠ يناير (ك ٢) سنة ١٨١٥ م) حصلت معركة بين جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل أخي عبد الله شفت عن انتصار المصريين فتقدم طوسون الى نجد الا انه اضطر أخيراً الى التوقف لقلة المؤن وهو لم يبلغ درعية

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين ولكنه لم يبد جميع الوهابيين فوصل القاهرة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ فاهتم بتدريب الجند على نظام جند اوربا وهو اول من فعل ذلك في مصر فاصدر أمراً عالياً في شعبان سنة ١٢٣٠ هـ مؤداه ان الجنود المصرية ستدرب على النظام الحديث وهو النظام الفرنساوي فعظم على رجاله ولا سيما الارناؤط الامتثال الى هذه الاوامر فرأى ان يدخل هذا النظام اولاً بين الجنود الوطنية لانهم اقرب الى الطاعة من هؤلاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم

وفي أثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز فخرج الناس لملاقاته بالاحتفال

والاكرام ثم نزل الاسكندرية حيث كان أبوه مقيما فوجد امرأته قد وضعت في أثناء غيابه غلاماً دعته عباساً . وبعد يسير أصيب طوسون بألم شديد في رأسه وحمى لم يعش بعدها الا بضع ساعات . وكان محمد علي في القاهرة . ولما اتصل به الخبر كان على ضفة النيل الغربية بجوار اهرام الجيزة . فقالوا له ان طوسون مريض فاسرع الى الاسكندرية لمشاهدته فلما دنا من المكان علم بوفاته فوقف مبغوتاً لا يبدي حراكاً وبقي على مثل هذه الحال ثلاثة ايام متوالية . ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودفنت قرب مسجد الامام الشافعي وراء جبل المقطم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم



ش ٥ : ابراهيم باشا بلباسه العسكري

وبعد قليل عاد محمد علي الى روعه فأخذ يهتم في أمر الوهابيين خشية ان يعودوا الى ما كانوا عليه فكتب الى عبد الله بن سعود ان يأتي اليه بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وان يتأهب متى قدم للمسير الى الاستانة . فاجابه يعتذر بعدم الشخوص وقال ان تلك الاموال قد تفرقت على عهد ابيه وارسل له هدايا فاخرة فارجع اليه محمد علي تلك الهدايا وأوسعه تهديداً . ثم جرد اليه حملة عهد قيادتها الى ابنه ابراهيم وكان باسلاً مقداماً وقائداً مجرباً لا يهاب الموت شديد الغضب سريعه

ولكنه كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامه عادلة صارمة

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم باشا بحملته من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شاطىء البحر الاحمر ومنها بحراً الى ينبع ثم الى المدينة وتربص هناك يجمع قواته استعداداً لهجوم شديد امتثالاً لمشورة ابيه . فالتفت حوله عصبة جديدة من القبائل المتحابة ولما تكاملت قواته أقام الحرب سجالا وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبد الله فارسله الى أبيه فوصل القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ هـ فأذن له بالمثول بين يدي الباشا وتقبيل يديه فرحب به كثيراً لانه كان يعجب بجسارة الوهابيين ثم سأله ما ظنه بابراهيم فأجابه قائلاً « انه قد قام بواجباته ونحن قمنا بواجباتنا وهكذا أراد الله » . وفي ٢٠ محرم أرسل الى الاستانة وطافوا به في أسواقها ثلاثة أيام ثم قتلوه . وخلع السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأة له وسماه والياً على مكة . فاتصلت هذه الاخبار بدرعية فخاف أهلها فهدموا المدينة وفروا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة وانتهى أمر الوهابيين . اما محمد علي باشا فانه نال من انعام السلطان محمود لقب خان مكافأة لاخلاصه وبسالته وهو لقب لم يمنح لاحد من وزراء الدولة الا حاكم القرم

ولما انتهى هذا الرجل الخطير من محارباته في بلاد العرب فكر في افتتاح السودان على أمل ان يلاقي فيها الكنوز الثمينة من معادن الذهب بجوار البحر الازرق ناهيك بما هنالك من المحصولات والواردات العجيبة من الصمغ والريش والعاج والرقيق وغير ذلك . فجند خمسة آلاف من الجند النظامي وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا احد اولاده فسارت الحملة من القاهرة في شعبان عام ١٢٣٥ هـ (يونيو) حزيران ١٨٢٠ م) في النيل فقطعت الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس فاتت شندي والمتمة وقد اخضعت كل ما مرت به من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت الى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم . ولم يكن من القبائل التي يعتد بها هناك الا الشائقية فقاوموا قليلاً ثم سلموا ودخلت سنار وكوردوفان في املاك مصر فسار اسماعيل باشا في جنوده الى فزغل وهناك ظن نفسه اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجاله الوباء فمات منهم كثيرون ثم اتته نجدة من ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة صهره أحمد بك الدفتردار فاشتد ازره فاقام صهره هذا على كردوفان وسار في جيش الى المتمة على البر الغربي من النيل ثم عدى الى شندي في البر الشرقي لجباية المال وجمع الرجال فاستدعى اليه ملكها واسمه النمر وقال له « اريد منك ان تأتي اليّ قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب وألفين من

العساكر » فجعل الملك يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر فقبل منه اخيراً عوضاً عن الذهب مبلغ عشرين الف ريال من الفضة فاجابه الى ما اراد ولكنه لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب اليه تطويل الاجل فضربه اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجهه قائلاً « لا . ان كنت لا تدفع المال فوراً ليس لك غير الخازوق جزاء » فسكت النمر وقد أضمر له الشر وصمم على الانتقام فطيب خاطره ووعده باتمام ما يريد وفي تلك الليلة جعل يرسل التبن الجاف أحمالا الى معسكر اسماعيل علفاً للجمال ولكنه أقامه حول المعسكر كانه يريد اشعاله . وفي المساء أتى الى اسماعيل في سرب من الاهالي ينفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم فطرب اسماعيل ورجاله وضباطه ثم اخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يتزايد شيئاً فشيئاً حتى اصبح كل اهل المدينة هناك . فلما تكامل العدد أمرهم ملكهم بالهجوم فهجموا بغتة على اسماعيل ورجاله ثم داروا بالنيران على التبن فاشعلوه فمات اسماعيل باشا وكثيرون ممن كانوا معه بين قتل وحرق . وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة

فاتصل الخبر باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظاً واقسم انه لا يقبل اقل من عشرين الف رأس انتقاماً لاسماعيل فنزل بجيشه القليل ولم ينفك حتى انفذ قسمه فقتل ذلك العدد من الرجال متفننا في طرق قتلهم على اساليب مختلفة فهدأت الاحوال بعد ذلك وهكذا تم افتتاح السودان . وما زال احمد بك على حكومة سنار وكردوفان الى عام ١٢٤٠ هـ (عام ١٨٢٤ م) ثم ابدل برستم بك

وفي عام ١٢٣٩ هـ أرسل محمد علي باشا بامر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا لمحاربة الموره في بلاد اليونان فسار وحارب وأظهرت العمارة المصرية في تلك الحروب شجاعة الابطال ولولا اتحاد الدول مثنى وثلاث على الجنود العثمانية والمصرية لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب ولكننا نقول ان ابراهيم باشا عاد عود الظافرين بعد ان بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل

ثم كانت حملة ابراهيم باشا على سوريا لافتتاح عكا لاسباب تتضح للقارىء من مراجعة ترجمة الامير بشير الشهابي الثاني في هذا الكتاب فجرد محمد علي باشا عام ١٢٤٧ هـ (عام ١٨٣١ م) حملة في البر والبحر فارسل البيادة والطبجية عن طريق العريش برًّا وسار ابراهيم باشا الى يافا وسار في جيشه الى عكا فوصلها في ٢١ جمادي الاولى سنة ١٢٤٧ هـ فحاصرها برًّا وبحراً الى ٢٦ ذي القعدة منها فهجم عليها هجمة نهائية شفت عن تسليمها . ثم سار قاصداً دمشق فاخضعها ولم تدافع الا يسيراً وبارحها الى حمص حيث كانت تنتظره الجنود العثمانية تحت قيادة محمد باشا والي طرابلس

فوصلها في ٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٢٢ م فهجم عليه محمد باشا وبعد الاخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسألة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السر عسكر بجيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حده فجاء وعسكر في اسكندرونة فلاقاه ابراهيم باشا وحاربه وانتصر عليه ولم يعد يلاقي بعد ذلك مقاومة تستحق الذكر . ثم تقدم في آسيا الصغرى تاركا طورس وراءه . وكان الباب العالي قد ارسل رشيد باشا في جيش لملاقاته فجند ابراهيم باشا جنداً كبيراً من البلاد التي افتتحها وسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في قونية جنوبي آسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجاله واخترق ابراهيم اسيا الصغرى حتى هدد الاستانة

فتعرضت الدول وفي مقدمتهن الدولة الروسية فانفذت الى مصر البرنس مورافيل لمخاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديده فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن المسير . ثم عقدت بمساعي الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا حاكماً عليها وجابياً لخراج ادنة وقد تم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٨ (١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وجعل مقامه اولا في انطاكية وابتنى فيها قصراً وقشلاقات وولى اسماعيل بك على حلب واحمد منكلي باشا على ادنة وطرسوس اما الاجراآت العسكرية فلم يكن يسوغ لاحد ان يتولاها سواه

وكان ابراهيم باشا سائراً بالاحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى الا انه مع ذلك لم ينج من ثورة ظهرت في ضواحي السلط والكرك في أواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف عام ١٨٣٤ م) وامتدت الى اورشليم وبعد الاخذ والرد اضطر ابراهيم باشا الى الاعتصام باورشليم لانها ذات اسوار منيعة ثم امتدت الثورة الى السامرة وجبال نابلس

وفي ٢٦ يونيو (حزيران) منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماهير من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وفتكوا بنسائهم واصبحت تلك المدينة في حوزتهم ثم أجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة وبيت لحم واورشليم ولكنهم لم يتمكنوا مما تمكنوه بصفد . ويقال بالجملة ان سوريا أصبحت بسبب ذلك شعلة ثورية فاتصل الخبر بمحمد علي باشا فبرح الاسكندرية الى يافا فتقربت منه وجهاء البلاد وسراتها ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين فنشتت العصاة الا النابلسيين فانهم قاوموا

طويلاً لكنهم أذعنوا أخيراً . ثم هاجم المصريون السلط والكرك وهدموهما وبعد قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض اهلها فرقة من الجند كانت سائرة من اللاذقية الى حلب وأعادوها الى حيث اتت . فارسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين تحت قيادة الامير خليل بن الامير بشير أمير لبنان وسار الجميع الى النصيرية واخضعوهم ثم سعى ابراهيم باشا في تجريد السوريين من السلاح خوفاً من عودتهم الى الثورة ففعل لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين . وكان الامير بشير وابراهيم باشا على وفاق تام وكانهما خلقا ليتحدا

وبعد ان أتم ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير هجم برجاله على أهالي الشوف والمتن من لبنان وجمعوا ما استطاعوا جمعه من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوه منها الى عكا وكانوا يصطنعون منها نعالا لخيولهم فاستتبت الراحة في سوريا وأذعنت البلاد . الا ان محمد علي باشا لم يقف عند هذا الحد فاحب استخدامها لتوسيع دائرة حكمه فجعل يجمع منها الرجال والخيل بطرق زجرية فشق ذلك على الباب العالي فعقد مجلساً في يناير سنة ١٨٣٩ للنظر في مقاصد المصريين فاقر المجلس على تجريد حملة من ثمانين الف مقاتل منهم خمسة وعشرون الفاً من الباشبوزق طبقاً لارادة السلطان محمود الثاني وان تسير تحت قيادة حافظ باشا لمحاربة المصريين

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة تحت قيادة حفيده عباس باشا فلما عاد اليها علم باعدادات الباب العالي فانذعر لها فكتب الى ابنه يستحثه فاخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشه في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة برّاً . ثم علم ان معظم الاهالي راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان احد ابطالهم المعدودين . فحصلت مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في نزيب انتهت بانهزام الاولى الى مرعش . وكان السلطان محمود قد ارسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فاصابها ما أصاب الحملة البرية ولكنه توفي قبل بلوغه خبر تلك الوقائع فخلفه السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩

ثم توالت الحوادث الى ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م فانعقدت معاهدة لندرا قاضية باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية . الا ان ذلك لم يكن ليوقفه عن مقاصده ولديه اذ ذاك نحو ١٤٦ ألفاً من الجنود النظامية و ٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وكريد ومصر لكنه علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما يلزمه لاتمام مشروعاته

فجعل يضم اليها كل تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى. ثم عمد الى انشاء خفر وطني احتياطيا ولكنه لم ينجح به كل النجاح على انه مع ذلك لما عرضت عليه معاهدة لندرا لم يصادق عليها فعرض عليه ان يأخذ ولاية عكا ترضية له ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض ايضاً

وبعد ذلك بيسير جاءت الجيوش الانكليزية الى صيدا وفرّ ابراهيم الى الجبل. وكان الكومودور نابيه قد سار في عمارة بحرية انكليزية لمحاصرة بيروت وكانت تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوي وقد حصنها تحصيناً منيعاً ومعه فرقتان من الجند وانما لسوء الحظ جاءته الانباء ان ابراهيم قتل وتشتت رجاله فخاف سليمان ورأى ان لا بدّ له من تأكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم اليه ما بقي من الجيوش للمدافعة فبرح بيروت بعد أن جعل عليها صادق بك أحد أمير الايات الفرقتين. أما هذا فلما رأى نفسه منفرداً في بيروت خاف فترك المدينة وفرّ فاستولى عليها الانكليز ثم اتصل به من سليمان ان ابراهيم باشا لا يزال حياً ويأمره بالثبات امام العدو بينما يحضر فخاف صادق بك الوقوع في شر اعماله فانضم الى الانكليز هو ورجاله. ثم سار نابيه من بيروت الى عكا وحاصرها ففر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلمت المدينة

ثم سار نابيه الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقع عليها الطرفان ولما ارادوا تثبيتها مانعت الدول في ذلك وبقيت الامور على حالها حتى دارت المخابرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا فاراد السلطان ارضاء محمد علي فاعطاه ان تكون ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها فتردد محمد علي في بادىء الرأي. ثم أمر جيوشه ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مئة وثلاثين الفاً فلم يرجع منها الا خمسون الفاً وقد أخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً فلم يرَ بدّاً من قبول انعام السلطان. فبعث الى الباب العالي بذلك فارسل اليه خطاً شريفاً بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م بتثبيته على مصر مع حقوق الوراثة لاعقابه وان يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب وغير ذلك. ثم صدر فرمان آخر يثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار فاصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان. وبمقتضى الخط الشريف تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبق عنده الا ثمانية عشر الفاً بين مشاة وفرسان وغيرهم فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاوقف كثيراً من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للنفقة عليها ومن ضمنها مدرسة شبرا الزراعية

وابدل الاساتذة الاوربايين لما بقي من المدارس باساتذة اتراك أو وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعاً بما قسم له من البلدان فعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ الى جلالته ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية

ثم أصاب ابراهيم باشا انحراف في صحته فسار الى اوربا لقضاء فصل الصيف سنة ١٨٤٥ فاصاب ترحاباً عظيما في سائر الممالك الاوربية ولا سيما في فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في أواخر صيف ١٨٤٦ م وكان والده قد توجه قبل وصوله بيسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقدم عبوديته لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) عام ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالمثول بين يدي السلطان فرحب به ولما اراد تقبيل الاعتاب الشاهانية امسكه جلالته واجلسه بجانبه ومكثا ساعة يتحادثان ثم انصرف شاكراً وزار عدوه القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ اوغسطس من تلك السنة برح الاستانة قاصداً قواله مسقط رأسه فاقام فيها عدة ايام لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم بارحها الى الاسكندرية فقوبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهنئون من الاصدقاء افواجاً افواجاً يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلألأ كالشمس

وفي منتصف عام ١٨٨٤ توعك مزاج محمد علي باشا وازدادت فيه ظواهر الخرف فلم يعد ثم بدٌّ من تولية ابراهيم باشا فتوجه هذا الى الاستانة في أغسطس من تلك السنة لاجل تثبيته على ولاية مصر خلفاً لابيه فثبته السلطان بنفسه فعاد لمعاطاة الاحكام . ثم راجعه المرض واشتد عليه بغتة ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار الامام الشافعي بالقاهرة

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستقدم حالا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر بعد أن قضى فروض الحج وبما انه اكبر ابناء العائلة لم يكن ثم اعتراض على توليته فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد أخذ منه الضعف مأخذاً عظيماً وما زال يهزل جسداً وعقلاً الى ٢ اوغسطس عام ١٨٤٩ م فتوفي ولم يستغرب الناس ذلك لانه مكث في حالة الخراع مدة طويلة وفي ٣ منه تقاطر الناس من الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم فاذا هو في قاعة الاستقبال موضوعاً في محمل تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن

الكريم وعلى رأسه طربوشه الجهادي احمر تونسي وحوله العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام محزنة . وكان سعيد اكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوه خطابات التعزية . ونقلت جثة الفقيد ودفنت في جامعه في القلعة ولا تزال هناك الى الآن

﴿ اصلاحاته ﴾ استولى محمد علي على مصر وهي في معظم الخراب والفساد سياسياً وماليا وتجارياً وزراعياً وادبياً فاخذ على نفسه اصلاح شؤونها وبذل في ذلك من الجهد والعناية ما ليس وراءه غاية وقد فاز بما أراد فاحيا الديار المصرية وانعشها وانماها من سائر الوجوه حتى اصبحت تجاري مدن اوربا ولذلك لقبه كتاب عصره بموجد الديار المصرية يريدون انه اوجدها من العدم

﴿ الاصلاح الاداري ﴾ واول شيء باشره من الاصلاح مسح الاراضي والانتفاع بزرعها وتوزيعها . وتفصيل ذلك ان الاراضي المصرية كانت منقسمة من حيث ملكها الى قسمين أحدهما الاراضي التي كاد يكون لواضع اليد عليها الحق في ملكها ملكاً مطلقاً وكانت معافاة من الضرائب والقسم الثاني الاراضي التي لم يكن لزارعها الا حق التمتع بريعها وهي الاراضي التي كانت عليها الضريبة الخراجية اما نفس العقار في هذين القسمين فكان ملك بيت المال او الحكومة أو السلطان

هذا كان شأن الاراضي المصرية قبل الفتح العثماني وبعده الى القرن السابع عشر حينما استأثر الامراء المماليك بالقوة والسلطة واختل نظام الارضين وصار الناس يهاجرون فاهملت الاشغال العمومية وقل ريع الارض فاصبحت الحكومة في عجز كلي عن استحصال النقود فالتجأت الى تلزيم الخراج وذلك ان الحكام كانوا يضمنون خراج النواحي والبلاد لاناس وكان ذلك الضمان او الالتزام إما بالمزايدة أو بالاتفاق بين الملتزم من جهة والرزنامة بالنيابة عن الحكومة من جهة أخرى حتى اذا تم الامر اعطت الرزنامة للملتزم تقسيطاً أي عقد تلزيم يصدق عليه شيخ البلد وهو كبير أمراء المماليك

فاذا دفع الملتزم الضريبة يعطى له حق التصرف في تحصيل المال الذي عجله وعلى فوائده التي كان يقرر سعرها هو بنفسه كما يريد وكانت الحكومة تتعهد بمساعدته في التحصيل وتجعل له في مقابل ما ينفقه ويكابده في ذلك التحصيل اراضي غير التي التزمها معافاة من كل ضريبة تعرف بالاواسي . اما الفلاحون فلم يكونوا يملكون أرضاً قط على ان الملتزمين انفسهم كانت تنزع منهم الالتزامات اذا تصدى لهم من كان اكثر صولة

منهم واشد بطشاً . ولا يخفى ما كان ينجم عن هذا التصرف من اختلال الامن وضياع الحقوق والاتعاب

فلما استقام الامر لمحمد علي باشا امر بمسح كل اراضي مصر المزروعة ثم قسمها الى مديريات والمديريات الى مراكز أو أقسام وهذه الى نواحي وعين فيها من يقوم بادارة أمورها وآخرين لجباية الضرائب وابطل الالتزامات جملة ووزع اراضي كل ناحية بين أهالي تلك الناحية نفسها بحيث يصيب كل فلاح قادر على الشغل جانباً من الارض بقدر جانب الاخر فبلغ نصيب كل فلاح ثلاثة أفدنة وبعضهم أربعة أو خمسة وجعل لمشائخ البلاد جانباً من الارض اعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة جباة الاموال الاميرية الذين كانوا يمرون في بلادهم وما كانت الحكومة تكلفهم به من المهام ودعا تلك العطايا مسموح المشائخ او مسموح المسطبة وهي تقابل الاواسي المتقدم ذكرها

ثم رأى رحمه الله ان الفلاح لا يستطيع من نفسه امراً كافلا اخراجه مما هو فيه من الضيق الذي تراكم عليه بمرور الاجيال وكان قد انتهى من اعماله الحربية ولم يعد ثم حاجة الى بقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع بقاء رواتبهم جارية عليهم في حالة السلم وان ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيناتهم وهم عطل من الاعمال ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشد يهديه الى الطرق اللازمة لاستقامة امره ووازع يدفعه الى النهوض بواجباته. وعلم ايضاً ان المرء مهما كان صادقاً في خدمة الحكومة يشتغل لنفسه اكثر مما يشتغل لغيره فارتأى ان يعهد بامر البلاد من حيث الزراعة الى اولئك الضباط مفوضاً اليهم تعميرها واصلاحها بانفسهم ففعل ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابه بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها اصولا وقوانين تقضي بان لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت رائجة ومقتدرة على اداء ما عليها من الاموال في اوقاتها . أما الاطيان غير الرائجة فتحال الى عهدته باختيار اربابها وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة وبهذه الواسطة نشطت الزراعة وتحسنت تحسيناً عظيماً وما زالت تلك الاراضي في ايدي المتعهدين الى ايام المغفور له عباس باشا وهو الذي استردها

ومن أعماله الادارية انشاء الدواوين ومنها ديوان المعاونة وفائدته النظر فيما يعرض من الدواوين الاخرى والمديريات وسائر الجهات ثم الديوان الخديوي وكان يقوم باشغال ديواني الداخلية والخارجية والضابطة . ثم ديوان الاشغال وديوان المبتعات وديوان الفردة ثم انشأ بعد ذلك ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة

المالية وما يتعلق بها وديوان الاوقاف وديوان المعامل وديوان التفتيش والحقانية والترسخانة والابنيـة وديوان المدارس وجميع ذلك او معظمه عهد بادارة اعماله الى مديرين ورؤساء من ابناء هذا القطر السعيد وكلها ترجع باحكامها الى ديوان المعاونة المتقدم ذكره

ثم أنشأ مجالس للقضاء وما يقتضي لها من القوانين والاحكام ورتب البريد يحمل على ايدي السعاة برّا وبالسفن بحراً وأنشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة ابنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة بين البنـاء والآخر مسافة تكفي لفهم الاشارة لا يزال بعض منها قائماً اثراً لهمة ذلك الرجل

وانشأ لتأييد السلم وتوطيـد الامن فرقة الضابطة وفرقهم في انحاء البلاد فامن الناس غائلات السبل ولا سيما الاوربيون فانهم كانوا يقاسون اثناء تجولهم في القطر اهانات ومشاق جسيمة فاصبحت السبل في مأمن وتسهلت الصلات التجارية على الخصوص بين انكلترا والهند على طريق البحر الاحمر فاستعاضوا بها عن طريق رأس الرجاء الصالح في امور كثيرة

﴿ الاصلاح الزراعي ﴾ ولم تقف اصلاحاته عند هذا الحد ولكنه رأى خصب التربة المصرية وامكان استخدامها لغير انواع المزروعات المعروفة بمصر فجاء اليها بالقطن البذار (التقاوي) الاميركاني وجاء بنبات النيلة من جهات الهند وبنبات الافيون من اسيا الصغرى وجاء بغير ذلك من انواع المغروسات المفيدة وجاء باناس عالمين بكيفيـة زراعتها واستغلالها . واكثر من غرس الحدائق والاشجار في القـاهرة وضواحيها تلطيفاً لحرارة الهواء واستزادة للغيث من جملة ذلك مغارس الليمون في شبرا والحدائق في الروضة وحديقة الازبكية فقد كان في مكانها قبل ايامه بركة كبيرة يتصل اليها الماء من النيل ايام فيضانه وكان الناس يأتون اليها في المواسم والاعياد في قوارب عليهـا الانوار وسائر الزخارف فاحتفر محمد علي حولها ترعة ينصرف اليها الماء فظهرت ارض البركة فجعل حول هذه الترعة صفوفاً من الاشجار تحيط ببقعة كلها غرس طيب . اما الحديقة التي نراها الان فهي من آثار الخديوي الاسبق اسماعيل باشا

ومن آثاره الزراعيـة السدود التي اجراها في ابي قير وترعة الفرعونية واشتوم الديبة واشتوم الجميل وغيرها وأنشأ كثيراً من الجسور والترع ونظر في تطهيرها وأنشأ الترع الصيفية لانماء الزراعـة الصيفية وابدل الحول بالمهندسين في اعمال الري وبعث كثيراً من ابناء البلاد الى اوربا لدرس فن الزراعة واتقانه ليخدموا بلادهم به

ومن مشروعاته الخطيرة من هـذا القبيل القناطر الخيرية القائمة عند رأس الذلتا

والسبب في بنائها انه رأى النيل لما يصل الى رأس الدلتا ينفصل الى فرعين وهما فرعا رشيد ودمياط أو الفرع الغربي والشرقي ورأى ان الغربي اكبرهما ويمر في بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب كثير من مائه هدراً والشرقي يخترق بقاعاً واسعة حسنة التربة فاذا كانت ايام التحاريق لا يبقى من مائه ما يكفي للري فاراد اتخاذ وسيلة ينتفع بها مما يزيد من ماء الفرع الغربي باضافته الى الشرقي . ورأى الصعيد في زمن التحاريق يشح فيه الماء لارتفاع ارضه وقد لا يرتوي جيداً الا في زمن الفيضان فاقر على بناء قناطر على عرض الفرعين عند اول تفرعهما عند رأس الدلتا وان يجعل لهذه القناطر أبواباً من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء فاذا أقفل قناطر هذا الفرع انصرف جانب من الماء المنحدر فيه الى الفرع الآخر فيستطيع صرف المياه كيف شاء واذا كان الفيضان قليلا يقفل قناطر الفرعين جملة فيرتفع الماء في الصعيد فيروي اراضيه ثم لا يصرف منه الا ما يلزم لري الوجه البحري فاذا كانت ايام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض في حاجة اليها . فباشر هذا العمل الخطير ولم يضع الحجر الاول منه الا عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) ولم ينثن عن عزمه حتى اتم بناءه بدراية لينان باشا المهندس الفرنساوي . غير ان ذلك المشروع لم يأت بالفائدة المطلوبة ولا سيما بما يتعلق بارتفاع الماء في الصعيد ولكن الحكومة جعلت همها في السنين الاخيرة اصلاح ما هو فاسد منها وسد ما فيه من الخلل

(الاصلاح العسكري) كانت القوة العسكرية في مصر لما تولاها محمد علي اخلاطاً من الالبانيين (الارناؤوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية ومن جرى مجراهم ونظامهم الحربي النظام القديم الذي كان متبعاً في الازمة السالفة عند الدولة العلية قبل هذا القرن فرأى رحمه الله ان يدربهم على النظام الفرنساوي الذي اتبعه بونابرت في غزواته واخذته عنه دول اوربا . فحاول ذلك مراراً فعظم على جنوده ولا سيما الارناؤوط وعصوا أوامره فيه لانهم اعتبروا ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ولما ألح عليهم ثاروا وتجمهروا الى القلعة يطلبون الرفق بهم فرأى من الدراية والحزم ان يعاملهم بالحسنى فاجابهم الى ما أرادوا وأخذ يدخل ذلك النظام أولا بين الجنود الوطنيين لانهم أقرب الى الطاعة من الالبانيين ومن شاكلهم فأسس مدرسة حربية في الخانكاه قرب المطرية تعلم فيها اللغات والحركات العسكرية وجعل سراي مراد بك في الجيزة مدرسة للفرسان وأقام فيها اساتذة من الافرنج وانشأ مدرسة للطبجية وجعل في القاهرة معامل لسبك المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند . والفضل في تدريب الجند على النظام الجديد راجع لقائد من قواد الفرنساويين اسمه

الجنرال « سيف » ولكنه اسلم ودعى نفسه سليمان باشا وقد خدم الحكومة المصرية خدمات صادقة في حروبها ببر الشام وغيرها

وبنى محمد علي في الاسكندرية دار صناعة أتى اليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية واقام فيها مدرسة جاء اليها بالاساتذة من فرنسا وانكلترا وبنى حول الاسكندرية حصناً منيعاً وحصوناً أخرى في أماكن أخرى



ش ٦ جند محمد علي النظامي الجديد يجلدون رجلا بين يدي الكاشف

﴿ الاصلاح التجاري ﴾ ولما اصلح الزراعة وكثرت حاصلات البلاد وجه التفاته الى تنشيط التجارة فاراد انشاء مينا أمين تأوي اليه السفن التجارية فلم تعجبه رشيد ولا دمياط لخشونة مرساهما فاختار الاسكندرية فاحتفر ترعتها الموصلة بينها وبين النيل ودعاها ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني فكثر نقل البضائع فيها بين الاسكندرية وداخل القطر فاكتسبت الاسكندرية بذلك اهمية كبرى وتقاطر اليها التجار من اماكن مختلفة من أوربا وغيرها واقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والنزل للغرباء . واصلح مرفأ بولاق وغيره ووسع للاجانب في الاستيطان والاتجار فاتسعت التجارة وكثرت العلائق وعاد كل ذلك بالنفع الجزيل . وتوطيداً لاعماله هذه انشأ مجلساً تجارياً مؤلفاً من الوطنيين والاجانب للحكم في القضايا التجارية

﴿ الاصلاحات الصناعية ﴾ اما الاصلاحات الصناعية فكثيرة ولكن لم يبق منها الى الآن الا آثار بالية مع ما توخاه رحمه الله من انشاء المعامل واستجلاب الصناع من

اقطار أوربا فانه أنشأ في هـذا القطر معامل عـديدة لمالجة القطن والنيلة واصطناع الطرابيش التونسية والورق والغزل وانواع الاقمشة من الحرير والكتان والقطن والصوف في سائر جهات القطر ومعامل الاسلحة على أنواعها وغيرها . أما سبب حبوط معظم تلك المعامل فعائد الى عـدم وجود معادن الفحم الحجري في القطر المصري

﴿ الاصلاحات الصحية ﴾ رأى ذلك الرجل العظيم ان البلاد في احتياج كلي لهذه الاصلاحات لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجابة وما شاكل فاستقـدم أحد مشاهير الاطباء الفرنساويين واسمه الدكتور كلوت (ثم صار كلوت بك واليه ينسب شارع كلوت بك في القاهرة) فانشأ المدارس الطبية والمستشفيات وفي مقدمتها المدرسة الطبية في قصر العيني (وكان هـذا القصر قبلاً مسكناً لابراهيم بك الكبير من امراء المماليك) يدرس فيها الطب والجراحـة ومدرسة أخرى في فن التوليد ومستشفى كبيراً في أبي زعبل قرب المطرية وانشأ مجلساً صحيًّا ومدرسة بيطرية ورتب مستشفيات واطباء للعساكر واخرى للاهالي وعـين اطباء لمراقبة الاحوال الصحية في المديريات

﴿ الاصلاحات العلمية ﴾ أما الاصلاحات العلمية فلا تقل أهمية عما تقدم لانه الف مجلساً للمعارف العمومية قصد به تعليم خدمة الحـكومة الملـكيين والجهاديين ما يؤهلهم للقيام بمهام اعمالهم وفتح مدارس كثيرة لتعليم الشبان من اهل البلاد وبعث بعضاً منهم الى أوربا لاتقان الدروس على مثال الارساليات العلمية بعد ذلك . وانشأ المطبعة الاهلية في بولاق وامر بترجمة كثير من الـكتب المفيـدة وانشأ الجريدة المصرية الرسمية (الوقائع المصرية) وديوان المهندسخانة وغير ذلك

﴿ صفاته ومناقبه ﴾ كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة اصلعها بارز القوس الحاجبي اسود العينين غائرهما صغير الفم باسمه كبير الانف متناسب الملامح مع هيبـة ووداعـة . ابيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة . اذا مشى يجعل يديه متصالبتين وراء ظهره غالباً على الخصوص اذا مشى في داره مفكراً في امر وكذلك كان يفعل بونابرت وقلما كان يفاخر باللباس فكان لباسه غالباً على زي المماليك وعلى رأسه الطربوش الجهادي ثم أبدله بالعمامة فزادته هيبة ووقاراً وابدل اللباس العسكري بلباس واسع بسيط لا يمتاز به عن بعض اتباعه

وكان يكره التفاخر بالحاشية فلم يكن على بابه الاّ رجل واحد يخفره . واذا استوى في مجلسه لا يتقلد السلاح انما يجلس وفي يده حقة العطوس والمسبحة يتلاهي بها وكان يحب العاب البلياردو والداما ولا يأنف من مجالسة صغار الضباط . وأما جلساؤه العاديون فالقناصل وكبار السياح وكانوا يحبونه ويجلون قدره ويلقبونه بمبيد المماليك او مصلح الديار المصرية . وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة . سريع التأثر لا يعرف الكظم فكثيراً ما كان ينقاد بدسائس المفسدين وكان كريم النفس سخي العطاء وفي بعض الاحوال مسرفاً وكان يتفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته . وكان محبّاً للاطلاع ولا سيما على الاخبار السياسية وكان يعتبر الجرائد وتأثيرها في الهيئة الاجتماعية فكانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن

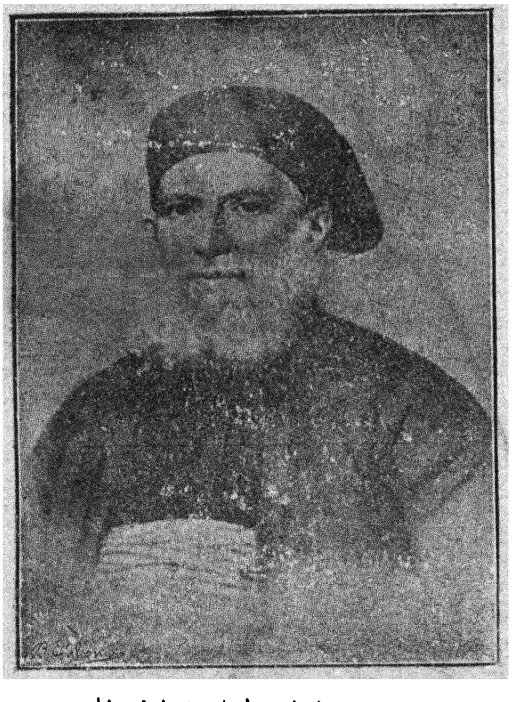
أما هواجسه السياسية فكانت تقلق راحته فلا ينام الا يسيراً وقلما يرتاح في نومه ولا ينفك متقلباً من جانب الى آخر فكان يجعل عند فراشه اثنين من خدمته يتناوبان اليقظة لتغطيته اذا انكشف عنه الغطاء من التقلب . ويقال ان من جملة دواعي ارقه الشهقة المرتجفة التي كانت تترد اليه كثيراً وكان قد أصيب بها في حملته على الوهابيين على أثر رعب شديد . على ان ذلك الارق لم يكن ليضعف شيئاً من سرعة حركته فكان يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهاره في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شوراه أو مراقبة استعراضات العساكر أو استطلاع أمور أخرى تتعلق بمصالح الامة . وكان بارعاً في الحساب بغير تعلم لانه شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والاربعين من عمره . ويقال انه ابتدأ بتعلم احرف الهجاء على أحد خدمة حريمه والكتابة على أحد المشائخ وهذا مما يزيده شرفاً وفخراً ويبرهن على ما فطر عليه من قوة الادراك والحذاقة والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورفة وحسن الاسلوب . وكان متمسكا بالاسلام مع احترام التعاليم الاخرى ولا سيما التعاليم المسيحية فكان يقرب اصحابها منه ويعهد اليهم اهم اعماله

ويقال بالاجمال انه كان لرعيته اباً حنوناً وصديقاً مخلصاً ولذوي قرباه نصيراً مسعفاً ولاولاده اباً حقيقياً ولذلك تراه بعد ان اصيب بفقد اكثرهم غلب عليه الحزن حتى أثر في صحته تأثيراً رافقه الى اللحد . أما حبه للرعية فلا يحتاج الى دليل فهذه الديار المصرية عموماً اذا قصرت السنة اهلها عن تعداد مآثره ينطق جمادها بمزيد فضله . هذه الترع والجسور والبنايات والشوارع والجنائن هذه المطابع والمدارس هذه النظامات الجهادية والملكية والقضائية هذه الزراعة والفلاحة هذه شبه جزيرة العرب

تردد ما لاقتـه من نجدته . وقد كان محترماً لدى رعيته وذويه ومن الاجانب البعيدين منه وطناً ودياناً ومشرباً وكثيراً ما تقربوا اليـه بالنياشين والهدايا اقراراً بفضله على العالم عموماً بتمهيد سبل التجارة بين اوربا والهند على الخصوص

ابراهيم باشا

هو نجل محمـد علي باشا وقد تقدم في سيرة ابيه معظم سيرة حياته لانهما عملا معاً في مصر وكان ابراهيم ساعد ابيه الايمن في فتوحه وسائر اعماله العسكرية ولد في قوله عام ١٢٠٤ هـ ومال من صغر سنه للاعمال الحربية وفيه مواهب أعاظم القواد يشهد بذلك



ش ٧ : ابراهيم باشا ـ في اواخر ايامه
ولد سنة ١٢٠٤ هـ وتولى وتوفي سنة ١٢٦٥ هـ

ما أتاه من الاعمال العظمى في مصر والشام والمورة والسودان وغيرها مما فصلنـاه في ترجمة ابيه

وكان يعرف الفارسية والتركية والعربية وله اطلاع واسع في تاريخ البلاد الشرقية تولى الامارة المصرية بعد تنازل ابيه عام ١٢٦٥ فسار على خطواته سيراً حسناً وان كان في الحقيقة يختلف عنه بمواهبه الاصليـة فقد كان ابراهيم صارم المعاملة صعب المراس شديد الوطأة كما يغلب ان يكون رجال العسكرية . وكان ابوه لين العريكة حسن السياسة

ذا دهاء وحكمة . ولم يطل حكم ابراهيم الا ١١ شهراً وتوفي قبل والده

وكان ربع القامة ممتلىء الجسم قوي البنية مستطيل الوجه والانف اشقر الشعر في وجهه أثر الجدري كثير اليقظة قليل النوم وكان نقش خاتمه « سلام على ابراهيم »

عباس باشا الاول

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ هـ او ١٨١٣ م وربي احسن تربية وكان محباً لركوب الخيل فرافق عمه ابراهيم باشا في حملته الى الديار الشامية وشهد اكثر الوقائع الحربية . وفي سنة ١٢٦٥ هـ تولى زمام الاحكام على الديار المصرية بعد وفاة عمه ابراهيم وكان على جانب من العلم والمعرفة لان المرحوم جده كان



ش ٨ : عباس باشا الاول

ولد عام ١٢٢٨ وتولى سنة ١٢٦٥ هـ وتوفي عام ١٢٧٠ هـ

يحبه كثيراً فاعتنى بتعليمه في مدرسة الخانكاه

ومن مشروعاته المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك

وكان له غلام يدعى البرنس ابراهيم الهامي كان على جانب عظيم من الجمال والذكاء

واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠ هـ وتشرف بمقابلة جلالة السلطان عبد المجيد فاحبه وزوجه بابنته وغمره بنعمه فرجع الى مصر شاكراً حامداً والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق ووالدة الخديوي عباس الثاني

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيده وقد كان لذلك احتفال عظيم حضره كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيه الذبائح وفرقت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة

وفي أيامه كانت بين الدولة العلية والروسيين حروب فبعث لنجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسه لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فالقى في الجمهور خطاباً بليغاً منشطاً

وتوفي عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ او يوليو سنة ١٨٥٤ م في قصره في مدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة

سعيد باشا

هو ابن محمد علي باشا ولد في الاسكندرية عام ١٢٤٧ هـ (١٨٢٢ م) وكان محباً للعلم بارعاً فيه وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنساوية جيداً. تولى زمام الاحكام عام ١٢٧٠ هـ او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن اخيه وكان محباً للعدل والفضيلة وكان مهتماً بالاصلاح الاداري ومن أعماله المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين اسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعهدين الى اربابها وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورفع كثيراً من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا ونزح ترعة المحمودية وفي ايامه تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطاً كبيراً وأقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دعيت باسمه وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية

وفي السنة الثانية من توليه على مصر وضع الحجر الاول لاساس القلعة السعيدية عند رأس الذلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت اركانها الآن وقد عثرنا على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على احد وجهيها رسم النيل عند تفرعه والقناطر الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر وبينهما عند رأس الذلتا القلعة السعيدية وكل ذلك في اجمل ما يكون من الرسم. وعلى الوجه الاخر كتابة تركية تفيد « ان المغفور له سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع اساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيده في يوم الاحد ٢٣ جمادى الاخرة عام ١٢٧١ هـ لاجل حماية الديار



ش ٩ : سعيد باشا

ولد سنة ١٢٣٧ هـ وتولى سنة ١٢٧٠ هـ وتوفي سنة ١٢٧٩ هـ

المصرية » نشرنا نصها التركي في كتابنا تاريخ مصر الحديث

وفي ايامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها واخمد الثورة فهدأت الاحوال . ولما اختتن نجله طوسون اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى القاتلين . وفي أيامه أعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولى عليها البرنس حليم باشا حكمداراً . وفي عام ١٢٧٦ هـ أو ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت ثلاثة ايام ونزل ضيفاً كريماً على وجهاء المدينة وكان في اثناء مروره في الطرقات ينثر الذهب على الناس

وفي عام ١٢٧٨ هـ او ١٨٦١ م توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولى السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب عام ١٢٧٩ هـ أو ١٧ يناير (ك ٢) ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ودفن فيها

اسماعيل باشا

(ترجمة حاله) هو اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير وكان

لوالده ثلاثة أولاد ذكور اكبرهم البرنس احمد (ولد عام ١٨٢٥) ثم البرنس اسماعيل (ولد عام ١٨٣٠) ثم البرنس مصطفى (ولد عام ١٨٣٢) وكان البرنس احمد نابغة من نوابغ الزمان ذكاء وفطنة كثير الشبه بوالده شكلا وأخلاقاً ولكنه توفي في أثمن سني حياته بين الشباب والكهولة فاصبح صاحب الترجمة كبير أبناء ابراهيم

وربي اسماعيل باشا في حجر والده وتعلم وتثقف بحياطة جده لان جده رحمه



شكل ١٠ : اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وخلع سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٥

الله كان قد انشأ لاولاده الصغار وأولاد أولاده الكبار مدرسة خصوصية في القصر العالي فيها نخبة من مهرة الاساتذة فتلقى صاحب الترجمة فيها مبادىء العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية ونذراً يسيراً من الرياضيات والطبيعيات فلما بلغ السادسة عشرة من عمره بعث به جده مع ولديه المرحومين البرنسين حليم باشا وحسين باشا والمرحوم البرنس احمد باشا مع ارسالية فيها نخبة من شبان مصر الاذكياء الى مدرسة باريس يتولى رئاستهم وجيه أرمني اسمه اسطفان بك فقضوا في تلك المدرسة بضع

سنوات تلقوا بهـا العلوم العالية ثم عادوا الى مصر الا حسين بك فان المنية أدركته هنـاك . ومن العلوم التي تلقاها اسماعيل اللغة الفرنساوية والطبيعيات والرياضيات وخصوصاً الهندسة وعلى الاخص فن التخطيط والرسم وهذا هو سبب شغفه بعد ذلك بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء

ولما عادت الارسالية كان عباس باشا الاول والياً على مصر فمكث اسماعيل معه على صفاء ومودة حتى وقع بين عباس باشا وسعيد باشا نفور مبني على اختلاف في اقتسام التركة وانحاز سائر أفراد العائلة الخديوية الى سعيد وفي جملتهم اسماعيل فساروا كافة الى الاستانة ورفعوا دعواهم الى جلالة السلطان فصدرت الارادة الشاهانية بانفاذ المرحوم فؤاد باشا الصدر الاعظم وكان يومئذ فؤاد افندي وجودت افندي وهو جودت باشا الوزير والمؤلف الشهير الى مصر فاتيا وسوَّيا الخلاف وتصالح أفراد هذه العائلة الكريمة فعادوا الى مصر الا اسماعيل فانه بقي في الاستانة وتعين عضواً في مجلس أحكام الدولة العلية

وفي سنة ١٨٥٤ توفي عباس باشا الاول وتولى عمه سعيد باشا فعاد صاحب الترجمة الى مصر فولاه عمه المشار اليه رئاسة مجلس الاحكام فاهتم بشأنه أعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس أحكام الدولة العلية

وفي عام ١٨٦٣ توفي المغفور له سعيد باشا فافضت ولاية مصر الى اسماعيل باشا وهو خامس ولاتها من السلالة المحمدية العلوية فاخذ منذ تبوئه الاحكام في رفع شأن هذه الديار واعادة رونقها الذي كان لها في عهد محمد علي باشا فاطلق يده في النفقة لتنظيم الشوارع وتشييد الابنية وانشاء المشروعات النافعة على انواعها مما سيأتي تفصيله غير مبال بما قد يجر اليه ذلك من الضيق

وكانت ولاية مصر تنتقل في العائلة الخديوية الى من يختاره جلالة السلطان بقطع النظر عن علاقته بالوالي السابق وكان ولاة مصر يلقبون بالعزيز أو الوالي أو الباشا واذا لقبوا أحياناً بالخديوي فانما يكون ذلك على سبيل التجمل والتفخيم . أما اسماعيل باشا فهو أول من نال رتبة الخديوية ولقب الخديوي فاصبحت ولاية مصر ارثاً صريحاً في نسله ينتقل منه الى اكبر اولاده ومنه الى اكبر أولاده وهكذا على التعاقب وهاك أهم نصوص الفرمان المؤذن بذلك الصادر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ٨ يوليو عام ١٨٧٣

« ان كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الاخر عام ١٢٨٥ هـ قد غيرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوئي كرسيها الى بكر ابنائه

ومن هذا الى بكر ابنائه أيضاً وهلم جرا علماً بان ذلك ادنى الى المصلحة وأشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية . واختصاصاً لك بانعطافي الذي صرت له اهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وامانتك واثباتاً لذلك اجعل قانون الوراثة لخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر ابنائك ثم لبكر ابنائه من بعده . فاذا لم يرزق من تولى الخديوية ولداً ذكراً كانت الولاية من بعده لاكبر اخوته أو لاكبر بني اخيه الاكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغي ان تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصراً على الصورة الاتية وهي :

« اذا توفي الخديوي وكان كبير ولده قاصراً اي غير بالغ من العمر ثماني عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديوياً بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة واذا كان الخديوي المتوفى قد نظم قبل وفاته اسلوباً للوصاية وعين كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فاولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك أزمة الاعمال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب العالي ليثبتهم في مناصبهم . ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصراً فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولي ادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديريات فيجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوي وصياً باجماع الرأي او باغلبيته فاذا تساوت الاراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصايا من الباقين فيباشرون جميعاً امور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف. وكما انه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى أي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفى فكذلك لا تغير في الصورة الثانية . واما اذا توفي الوصي أو أحد أعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول أحد اعضاء المجلس وبدل الثاني احد ذوات المملكة وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشداً فيباشر ادارة امور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية

« ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر اسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً للحكومة

المصرية . وذلك انه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها واحواهـ ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم ان ادارة اي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها مما لا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والمواقع وامزجة السكان وطبائعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم . ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية او من قبل الحكومة مع الاجانب ولتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير اسباب التجارة منحناكم ايضاً الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأموري الدول الاجنبية في امور المملكة الداخلية وغيرها على شرط ان لا يكون ذلك موجباً للاخلال بمعاهدات الدولة السياسية

« ولكون خديوي مصر حائزاً لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد اعطيت له الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوماً على شرط ان يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما ان امر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق (وهو اهم الامور واحوجها الى العناية) من أقدم الوظائف المختصة بخديوي مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك اسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير او تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وابقينا كذلك لخديوي مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون اعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كاعلام عساكرنا السلطانيـة بلا فرق أو تمييز ولا يجوز لخديوي مصر أن ينشيء البوارج المدرعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته ان ينشئها متى شاء » انتهى

وقد امتاز اسماعيل باشا عن سائر ولاة مصر قبله أنه حبب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من جالية اوروبا وأميركا وغيرهما بما مهده من وسائل الراحة والطمأنينة مع الاخذ بناصرهم وتأييد مشروعاتهم وتنشيطهم وتوسيع نطاق التجارة فتقاطروا اليها افواجاً واقاموا فيها على الرحب والسعة لما آنسوه من الكسب الحسن والعيش السهل

وفي عام ١٨٦٩ احتفل اسماعيل باشا بافتتاح ترعة السويس وكان قد بوشر بحفرها على عهد سعيد باشا فحضر ذلك الاحتفال جميع ملوك أوربا او من يقوم مقامهم وكان

له رنة بلغ صداها أربعة اقطار المسكونة لما اعده فيه اسماعيل من وسائل الزينة مما قد تقصر عنه همم الملوك العظام . وفي جملة ذلك انه بنى الاوبرا الخديوية بالقاهرة لتكون مرسحاً يشاهد فيه ضيوفه صنوف التمثيل وكانت المدة غير كافية لتشييد ذلك البناء فبذل الدراهم والدنانير فلم تمض خمسة اشهر حتى تم البناء وسائر مدات التمثيل على ما نشاهده الان وهو من المراسح التي لا مثيل لها الا في عواصم اوربا العظمى . ومما اختص به صاحب الترجمة من الشرف العظيم دون سواه من الولاة ان ساكن الجنان السلطان عبد العزيز حلت ركابه في القطر المصري في السنة الاولى من ولاية اسماعيل فلاقى ترحاباً عظيما

وفي عام ١٨٧٢ تعدى الحبشة على حدود مصر مما يلي بلادهم وأسروا بعضاً من رعايا مصر فبعثت الحكومة المصرية تطلب ردهم فجرت المخابرات قال ذلك الى حرب جرد فيها اسماعيل حملة لم تنل غرضاً فانتهت الحرب بالصلح . وفي عام ١٨٧٣ شخص رحمه الله الى دار السعادة فاحتفل بقدومه فؤاد وقد حاز رضى الحضرة الشاهانية ورجال المابين الهمايوني وفي تلك السنة احتفل بزواج انجاله الثلاثة وهم المغفور لهم الخديوي توفيق باشا والبرنس حسن باشا والبرنس حسين باشا احتفالا واحداً تحدث به الناس زمناً طويلاً ومما زاد ذلك الاحتفال بهجة انهم نالوا عندئذ رتبة الوزارة الرفيعة معاً

ولنأت الآن الى أمر هو أهم الامور المتعلقة بصاحب الترجمة وعليها مدار ما آل اليه أمره نريد به أمر الديون التي تعاظمت على مصر في ايامه . وايضاحاً لذلك نذكر ملخص تاريخ الدين المصري . فاول من وضع جرثومة الدين المصري المغفور له سعيد باشا عام ١٨٦٢ وقدره الاسمي ٣٢٩٢٨٠٠ جنيه بفائدة ٧ بالمائة وفي السنة التالية تولى صاحب الترجمة تخت الحكومة المصرية فاخذ في البذل والنفقات في التشييد والبناء وغير ذلك حتى زادت النفقات على الدخل فكان اذا أراد عملاً جنح الى الاستقراض لا يبالي بعاقبة ذلك حتى بلغت ديون مصر نحو مئة مليون جنيه واصبحت حملاً ثقيلاً على الخزينة المصرية وعلى أهالي البلاد لانه كان يضرب الضرائب الفادحة ليفي منها فائدة تلك الديون ويستخدم العنف في تحصيلها من الاهالي حتى آل الامر الى مداخلة الدول الاجنبية للمحافظة على أموال رعاياها أصحاب الديون

فتخابرت الدول وتشاورت في أحسن الوسائل لضمان تلك الاموال واستهلاكها فالفت لجنة دولية مشتركة سموها لجنة صندوق الدين العمومي صدر الامر العالي

بتشكيله في ٢ مايو عام ١٨٧٦ وورد في ذلك الامر ان هذا الصندوق قد أنشيء لتأمين ارباب الديون على ديونهم واستلام ما يستحق لهم من الفوائد وغيرها وان الحكومة لا يجوز لها تجديد قرض الا بالاتفاق مع صندوق الدين وان الدعاوي التي يتراءى لصندوق الدين رفعها على الحكومة تنظر في المجالس المختلطة

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنية فضموها في ٧ مايو من تلك السنة الى دين واحد فبلغ قدره ٩١ مليون جنيه وسموه الدين الموحد بفائدة ٧ بالمائة وتم استهلاكه في ٦٥ عاماً ثم رأى اسماعيل باشا ان توحيده على هذه الصورة لا يتيسر له اتمامه فاصدر في ١٨ نوفمبر منها أمراً يقول فيه ان تصدر الحكومة المصرية عليها سندات بمبلغ ١٧ مليون جنيه تكون ممتازة برهن خصوصي هو السكة الحديدية المصرية وميناء الاسكندرية وفائدته ٥ بالمائة وسماه الدين الممتاز

على ان كل هذه الوسائل لم تكن كافية لاقناع الدول لان الحكومة لم تكن تقوم باستهلاك الديون حسب الشروط فعينت الدول عام ١٨٧٨ لجنة مالية مختلطة المراقبة حسابات الحكومة المصرية فرأت فيها عجزاً مقداره مليون ومائتا الف جنيه فتنازل اسماعيل باشا عن أملاكه الخاصة وأملاك عائلته للحكومة وهي التي تعرف باملاك الدومين وتقرر في تلك السنة استقراض ثمانية ملايين جنيه ونصف وجعلوا أملاك الدومين رهناً لها وهذا هو الدين المعروف بدين روشيلد

وكانت أعمال الحكومة المصرية تجري بمقتضى ارادة الخديوي رأساً أما بعد تداخل الاجانب باحوال المالية فلم ير اسماعيل بدًّا من جعل حكومته شورية فشكل مجلس النظار برئاسة نوبار باشا وصادق على تعيين ناظرين أحدهما انكليزي وهو المستر ولسن للمالية والآخر فرنساوي وهو المسيو بلينير للاشغال العمومية . فرأى مجلس النظار ان يقتصد شيئاً من نفقات الجند فرفت جانباً منهم فثار المرفوتون وجاء جماعة منهم وفيهم ٤٠٠ ضابط الى نظارة المالية وامسكوا بنوبار باشا والمستر ولسن وطلبوا اليهما دفع ما تأخر لهم من رواتبهم وخاطبوهم بعنف وشدة حتى علت الضوضاء وكادت تأول الى ثورة لولا ان أقبل اسماعيل باشا وخاطب الجند ووعدهم وأمر بانصرافهم . أما هم فلما رأوه ذعروا وكأنه جاءهم برقية او سحر فانكفأوا راجعين والمظنون ان ذلك حصل بالتواطؤ من قبل

ثم استقال الوزيران نوبار ورياض تخلصاً من عبء التبعة لما آنسوه في أعمال الخديوي من الخطر فشكل مجلساً آخر برئاسة ابنه توفيق باشا على ان ذلك لم يقلل شيئاً من القلاقل لان الداء لم يكن في المجلس ولكنه كان في مقاصد

اسماعيل لانه استعظم اغلال يديه بمجلس فيه ناظران أجنبيان فقلب هيئة ذلك المجلس في ٧ افريل عام ١٨٧٩ وأخرج الناظرين الاجنبيين وعهد برئاسة المجلس الى المرحوم شريف باشا فعظم ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لانهما اعتبرتا تلك المعاملة اهانة لهما فعمدتا الى الانتقام فسعتا في ذلك لدى الباب العالي سرًّا وجهراً وفي ٢٥ يونيو عام ١٨٧٩ صدر الامر الشاهاني باقالته وتولية المغفور له توفيق باشا وفي ٣٠ منه وقيل في ٢٦ سافر اسماعيل باشا من القاهرة الى الاسكندرية ومنها الى اوربا ويقال انه خاطب ابنه توفيق باشا عند سفره قائلاً

« لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوي مصر فاوصيك باخوتك وسائر الآل برًّا واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان أزيل بعض المصاعب التي أخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأي ذوي شوراك وكن أسعد حالاً من أبيك »

وما زال بعد سفره مقيماً في اوربا حتى افضت به الحال الى الاقامة في الاستانة العلية فاقام فيها الى ان توفاه الله في ٦ مارس عام ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ عاماً فحملت جثته الى مصر ودفنت فيها

﴿ أعماله وآثاره ﴾ قلنا ان اسماعيل باشا كان شغفاً بتنظيم المدن حتى قيل انه يريد ان يجعل القاهرة تضاهي باريس بالنظام والترتيب فنظم طرقها ووسعها واكثر من فتح الشوارع الجديدة وبناء الابنية الفاخرة كالاوبرا الخديوية والقصور الباذخة في القاهرة والاسكندرية واعظم تلك الابنية سراي الجيزة وهي مما تقصر عنه همم الملوك حتى ضربت بها الامثال وأنشأ المتحف المصري في بولاق والمكتبة الخديوية بالقاهرة وهما من اجل الاثار وأنفعها واما المتحف فقد أنشأه باشره ماريت باشا وقبره فيه وكان المتحف اولا في بولاق ثم نقل على عهد الخديوي توفيق الى سراي الجيزة وهو اليوم في بناية بنوها له خاصة بجوار قصر النيل . أما المكتبة فقد كانت أولا في درب الجماميز ثم بنوا لها بناية خاصة في ميدان باب الخلق نقلوها اليها والمكتبة نفيسة تفتخر بها مصر على سائر الامصار الشرقية لما حوته من الآثار العلمية وبينها جانب كبير من الكتب الخطية التي يعز وجودها

ومن اعماله انه جرَّ الماء بالانابيب الى بيوت العاصمة وكان الناس يستقون قبلاً بالقرب والصهاريج وعمم زرع الاشجار في المدن وضواحيها وانار القاهرة بالغاز وتدارك ما يحم عن الحريق باستجلاب آلات الاطفاء

وهو الذي نظم معظم فروع الادارة على ما هي عليه الآن فقسم القطر المصري

الى ١٤ مديرية وعين لها المراكز وأسس مجلس النواب ونظمه ونظم مجالس القضاء الاهلي والقضاء الشرعي وجعل لكل روابط وحدوداً ووضع نظام المجالس الحسبية وأنشأ مجلس حسبي القاهرة . وعلى عهده أنشئت المجالس المختلطة بمساعي دولتلو نوبار باشا وقد أراد بها تقليل نفوذ القناصل وحصر النفوذ الاجنبي ولكنها كانت سبباً لزيادة النفوذ واتساع دائرة المداخلة. وكانت مصلحة البريد قبلاً شركات أجنبية فانشأ مصلحة البوسطة المصرية وجعلها من المصالح الاميرية كما هي الآن وحسن مطبعة بولاق وزاد فيها وأمر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها وأسس معملاً للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة قبله الا جريدة الوقائع المصرية ولم تكن تصدر على نظام فجعل لها ادارة خاصة بها . وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية كجريدة التجارة ومصر والوطن والاهرام والكوكب الاسكندري وروضة الاسكندرية وروضة المدارس واليعسوب ونزهة الافكار وحديقة الابصار وغيرها . وبالجملة فقد كانت للعلم في أيامه نهضة مرجع الفضل بها اليه لانه كان يقرب العلماء ويجيز المجيدين منهم ويأخذ بناصرهم مادياً وأدبياً. وكان يشهد الاحتفال بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز لمستحقيها بيده وقد يقف عند تقديمها تنشيطاً لهم

ولم يكن في القطر المصري يوم توليه الا خط حديدي ممتد بين القاهرة والاسكندرية فانشأ كثيراً من الخطوط الاخرى الممتدة الى سائر أنحاء القطر شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً ومد اسلاك التلغراف حتى أوصلها الى السودان وقد بلغت نفقات الخطوط الحديدية والآلات البخارية والعربات والآلات التلغرافية التي أحدثها بين عام ١٢٨١ و ١٢٩٠ هـ ٩٦٥٨٣٢٧ جنيهاً على تقدير المرحوم صالح مجدي بك

ومن آثاره مدينة الاسماعيلية بناها على قنال السويس وسماها باسمه وجعل فيها الحدائق والقصور . وأنشأ المنارات في البحرين الابيض والاحمر وزين حديقة الازبكية بغرس أشجارها وتسويرها ورتب فيها الموسيقى وبنى بنايات كثيرة بالقرب من طره على طريق حلوان لمعامل البارود والاسلحة الصغيرة انفق على بنائها مبالغ كبيرة ولكنه لم يستعملها. وبنى ليمان الاسكندرية والحمامات المعدنية في حلوان ولولاها لم تعمر حلوان . وبنى المرصد بالعباسية وكثيراً من معامل السكر في سائر انحاء القطر هذا فضلاً عن الترع الكثيرة والجسور الهائلة . ومن اشهر تلك الترع الابراهيمية بالصعيد والاسماعيلية بين القاهرة والسويس . ومن أعظم الجسور كبري قصر النيل الموصل بين القاهرة والجزيرة وبنى حوضاً لترميم السفن في السويس

ومما تمَّ على يده من الاعمال العظيمة ابطال تجارة الرقيق واتمام فتح السودان واخضاعها فافتتح مملكة دارفور عام ١٢٩١ هـ وما بعدها حتى بلغت جنوده الدرجة الرابعة من العرض الجنوبي وراء خط الاستواء. وعني في تحسين احوال السودان فمهد شلال عبكة وفتح سدًّا كبيراً جنوبي مديرية فشوده طوله ستون ميلاً كان يعيق مسير السفن في النيل الابيض فتسهلت طرق التجارة كثيراً. ومن مآثره تسهيل اكتشاف ما غمض من قارة افريقيا بمد اصحاب الخبرة

وكانت المدارس التي أنشأها جده رحمه الله قد اخذت في الاضمحلال لاغفال امرها بعده فاعاد رونقها وأحدث غيرها. فمن المدارس التي اسسها او حسنها مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والالسن والعمليات والادارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة البنات في السيوفية وغير ذلك من المدارس في القاهرة والاسكندرية والارياف. وفي عهده تأسست المحافل الماسونية الوطنية وبحمايته تعزز شأن الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادئها حتى انتظم في سلكها نجله المغفور له الخديوي توفيق باشا وجماعة كبيرة من امراء البلاد ووجهائها

وخلاصة القول ان مصر كانت في أيامه زاهية زاهرة والناس في رغد ورخاء وخصوصاً بعد ارتفاع اثمان الاقطان اثناء حرب اميركا فان ثمن القنطار الواحد بلغ ١٦ جنيهاً فكان سكان هذا القطر السعيد وفيهم الكاتب والشاعر والتاجر والصانع يتحدثون بمآثره وانعامه وتنشيطه. على ان العقال منهم كانوا لا يغفلون عن ذكر ما كان من اسرافه فوق ما تحتمله حال البلاد وتنبأ بعضهم بمنقلب تلك الحال ووقوع مصر في وهدة الدين وتعريضها لمطامع الدول الاجنبية والواقع انه لم يترك هذه الديار الا وقد بلغت ديونها زهاء مئة مليون جنيه كما رأيت وهي لا تزال تئن من وطأتها الى الان وكان ذلك من أعظم الاسباب لمداخلة الاجانب في ادارة البلاد ومراقبة أعمالها

على اننا لا ننكر ان الاصلاحات التي أجراها بعض تلك الاموال قد عادت على البلاد بالنفع الجزيل. ولكننا لا نرى انها تعوض الخسارة كلها وزد على ذلك انه لو أحسن التصرف في النفقات وسار بها سيراً قانونياً لكانت العواقب أحسن كثيراً ولاصبحت مصر في غنى عن كل هذه التقلبات ويقال ان مقدار الاموال التي دفعت من خزينة الحكومة المصرية بأمره بغير تسمية المدفوع اليه بمعنى انه كان يرسل الى المالية تذكرة بامضائه يقول فيها ادفعوا الى رافعه المبلغ الفلاني فيدفعونهُ وهم لا يعلمون مصيره - فقد جمعت هذه المبالغ فبلغت ٨٤ مليوناً من الجنيهات. فاذا صحت هذه

الرواية كان هذا المبلغ وحده كافياً لوفاء دين مصر

(صفاته) كان اسماعيل باشا ربعة ممتلىء الجسم قوي البنية عريض الجبهة كثيث اللحية مع ميل الى الشقرة أما عيناه فكانتا تتقدان حدة وذكاء مع ميل قليل نحو الحول او ان احداهما أكبر من الاخرى قليلاً

وكان جريئاً مقداماً ذا قوة غريبة على اقامة المشروعات كثير العمل لا يعرف التعب ولا الملل ولا مستحيل عنده . وكان ساهراً على ماجريات حكومته لا تفوته فائتة وأما أعمال الدائرة السنية فقد كان يطلع على جزئيات أعمالها وكلياتها فلا يباع قنطار من الفحم الا بمصادقته

وكان عظيم الهيبة جليل المقام لا يستطيع مخاطبه الا الانقياد الى رأيه حتى قيل على سبيل المبالغة ان الذين يخاطبونه يندفعون الى طاعته بالاستهواء او النوم المغنطيسي

وكان حسن الفراسة قلَّ أن ينظر في أمر الا استطلع كنهه فاذا نظر الى رجل عرف نواياه أو تنبأ بمستقبل أمره . ومما يتنافلونه عنه انه ادرك مستقبل احمد عرابي وهو لا يزال ضابطاً صغيراً فاوصى المنفور له الخديوي توفيق باشا ان لا يرقيه لئلا يتمكن من بث نواياه الثورية فتقود الى ما لا تحمد عقباه

وكان يتكلم الفرنسوية جيداً وهي اللغة التي يخاطب بها الاجانب ويحسن العربية والتركية والفارسية ويحب الفخر والبذخ والابهة وكان منغمساً في الترف مكثراً من السراري والحظايا

ولكنه مع ذلك كان كثير الميل الى تنشيط المعارف ورفع منار العلم والاخذ بناصر المظلومين . ومما يؤيد ذلك ان مصر بليت عام ١٨٧٤ م بطغيان النيل فاصابها جهد عظيم فوجه التفاته الى حال المزارعين والتجار فاراد جماعة من تجار الاسكندرية ان يقيموا له تمثالا تذكاراً لفضله فأبى وأمر أن يقام بدل ذلك التمثال مدرسة للتعليم

(تركته ووصيته) يعسر تقدير تركة صاحب الترجمة تقديراً مدققاً لكثرة فروعها واختلاف جزئياتها وتفرقها في البلاد ولكن المعروف من تركته انه استبدل معاشه قبل مماته باثنين وعشرين الف فدان من الاطيان باع الفين منها للاوقاف العمومية و ١٥٠٠ للجناب العالي فبقي له ١٨٥٠٠ فدان منها ١٢ الف فدان في تفتيش اتياي البارود وقفها على زوجاته الثلاث في حياتهن ثم يرثها ورثته بعدهن والباقي وقدره ٦٥٠٠ فدان يقسم على الورثة . وترك غير ذلك مما ورثه عن والدته وهو ٥٠٠٠ فدان وهبها لها المرحوم عباس باشا الاول وهي مرهونة و ٩٠٠ فدان وقصر في حلوان وسراي القصر العالي و ٣٤ فداناً تابعة لها . وما ورثه عن ابنه

المرحوم البرنس علي باشا جمالي وهو ٦٠٠ فدان . وترك في العباسية قصر الزعفران وفي الاستانة قصر ميركون وهو يحتوي على قصرين كبيرين وقصرين صغيرين. وترك فيها أيضاً قناق بايزيد وتقدر قيمة أرضه بثلاثين الف جنيه وأصله للمرحوم البرنس حليم باشا ورثه عن اخته زينب هانم فأخذه السلطان منه ووهبه للفقيد . فهذه التركة كلها ما عدا سراي الزعفران تقسم على الورثة بعد ايفاء ديونه التي تقدر بنحو ١٨٠ الف جنيه

أما وصيته فانه كان قد أضاف ٤٧٠٠ او ٤٨٠٠ فدان من اطيانه في أيام ولايته الى الاطيان الموقوفة على اهل قوالة وقدرها ١٠ آلاف فدان في كفر الشيخ وجعل لنفسه الشروط العشرة في هذا الوقف بما فيها من حق التغيير والابدال . ثم آلت نظارة هذا الوقف اليه ففصل ٤٧٠٠ فدان التي أضافها اليه عملاً بحقه ووقفها على حاشيته كلها ولم يستثن أحداً منهم فرنسوياً كان مثل سكرتيره أو انكليزياً مثل طبيبه أو غيرهما من الاتباع والجواري اللواتي يبلغ عددهن ٤٥٠ جارية عدا ٤٠٠ بيضاء كان قد زوجهن باعيان مصر قبل مفارقته هذه البلاد

وقد أقام صديقه الحميم دولتلو راتب باشا وكيلاً لحرمه وأوصى ان يعطى ١٥٠ جنيهاً شهرياً وان تعطى حرمه ٥٠ جنيهاً شهرياً وان يضاف راتبها الى راتبه اذا توفيت في حياته . ويؤخذ راتبهما كليهما من تفتيش اتياي البارود

وتأول نظارة وقف قوالة بعده الى حضرة دولتلو عصمتلو البرنسيس زبيدة هانم بنت محمد علي باشا الصغير ابن محمد علي باشا الكبير وتأول نظارة وقف القصر العالي الى البرنس عثمان باشا فاضل ولهذا الوقف بيوت ونحو ١٢٠ فدان من الاطيان ويبلغ دخله نحو ٥ آلاف جنيه سنوياً . وقد ترك سراي الزعفران لحرمه الثلاث . وكذلك كل منقولاته وقيمتها غير معلومة

محمد توفيق باشا

ولد سنة ١٨٥٢ وتوفي سنة ١٨٩٢

هو أكبر انجال المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق ولد سنة ١٨٥٢ وأدخله والده مدرسة المنيل وسنه تسع سنوات فدرس فيها اللغة والجغرافية والتاريخ والطبيعيات والرياضيات واللغات العربية والتركية والفرنساوية والانكليزية وكان ميالاً للعلم من صغر

سنه فاحرز منها جانباً أهله لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده وسنه ١٩ سنة . ثم تقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال ورئاسة مجلس النظار

ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره تزوج بكريمة المرحوم الهامي باشي وهي مشهورة بالجمال والتعقل والكمال . وفي السنة التالية (١٨٧٤) ولد لهُ بكره فسماه عباس حلمي . ثم ولد البرنس محمد علي سنة ١٨٧٧ والبرنسس خديجة هانم سنة ١٨٧٧ والبرنسس نعمت هانم سنة ١٨٨١

وما زال يتقلد المناصب في عهد المرحوم ابيه حتى قضت الاحوال باقالته كما تقدم في ترجمته فاستلم رحمه الله ازمة الاحكام في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وجاءه الفرمان



ش ١٣ — محمد توفيق باشا

الشاهاني المؤذن بذلك . وكان مشهوراً بحبه للوطن المصري وقد شعر باحتياجه الى الحرية والرفق بالرعية فخفف الضرائب ونظر في تأمين أصحاب الديون وفي ايامه تشكلت لجنة التصفية وأنشأت قانونها فصادق هو عليه ثم طاف القطر المصري لتفقد الرعية واستطلاع احوالهم فدرس في أثناء تلك الرحلة ما يحتاج اليه القطر من الاصلاح وحالما عاد محمد علي اصلاح حال الفلاح من حيث ما عليه من الضرائب فامر

بتقسيط الاموال والعشور على اشهر معلومة وان تقتضى من الكبير والصغير على السواء مع اتخاذ الرفق في تحصيلها ومن تأخر عن السداد تباع ارضه . فانتظمت الاحوال أحسن انتظام

ثم وجه عنايته الى اصلاح شؤون المعارف فامر بانشاء المدارس العالية والابتدائية ووسع دوائر المدارس التي انشأها آباؤه ونظم شؤونها وجعل للبلاد نظامات شورية وشكل مجالس المديريات ومجلس الشورى القوانين والجمعية العمومية



ش ١٤ ـ محمد توفيق باشا

امام مدافن قتلى واقعة طوشكي بين كروسكو وحلفا

وفي ايامه أنشئت المحاكم الاهليـة وتحسنت حال الري بانشاء الترع وبناء القناطر الخيرية ورفع العونة والسخرة وانشأ لائحة المستخدمين الملكية والعسكرية ومعاشاتهم

وكان مع سهره على مصالح رعاياه تقياً ورعاً بنى المساجـد ونظر في الاوقاف الخيرية واصلح فيها وكان شفوقاً على رعاياه كثير الرفق بهم فاكثر من تنشيط اهل العمل بالرتب والنياشين وكانت الرتب على عهد ابيه تستلزم زيادة الرواتب فلما كثرت في ايامه جعلها لا تستلزم الرواتب بل هي علامة شرف من امير البلاد

وكأنه بالغ في اكرام الناس وزاد في اطلاق الحرية قبل استعداد البلاد لها فانقلب النفع المنتظر منها الى ضرر فحدثت الثورة الوطنية المعروفة بالثورة العرابية وسيأتي

تفصيلها في ترجمة احمد عرابي (باشا) . والحوادث السودانية وسيأتي تفصيلها في ترجمة محمد احمد المهدي

واصيب رحمه الله بالنزلة الوافدة اصابة شديدة لم تمهله إلا أياماً قليلة فتوفي في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ فبكاه الناس على اختلاف الطبقات والعناصر والمذاهب لما كان عليه من صدق النية واخلاص الطوية والرفق والعدل ودفن في مصر

عباس حلمي باشا

ولد سنة ١٨٧٤ وتولى عرش الخديوية سنة ١٨٩٢

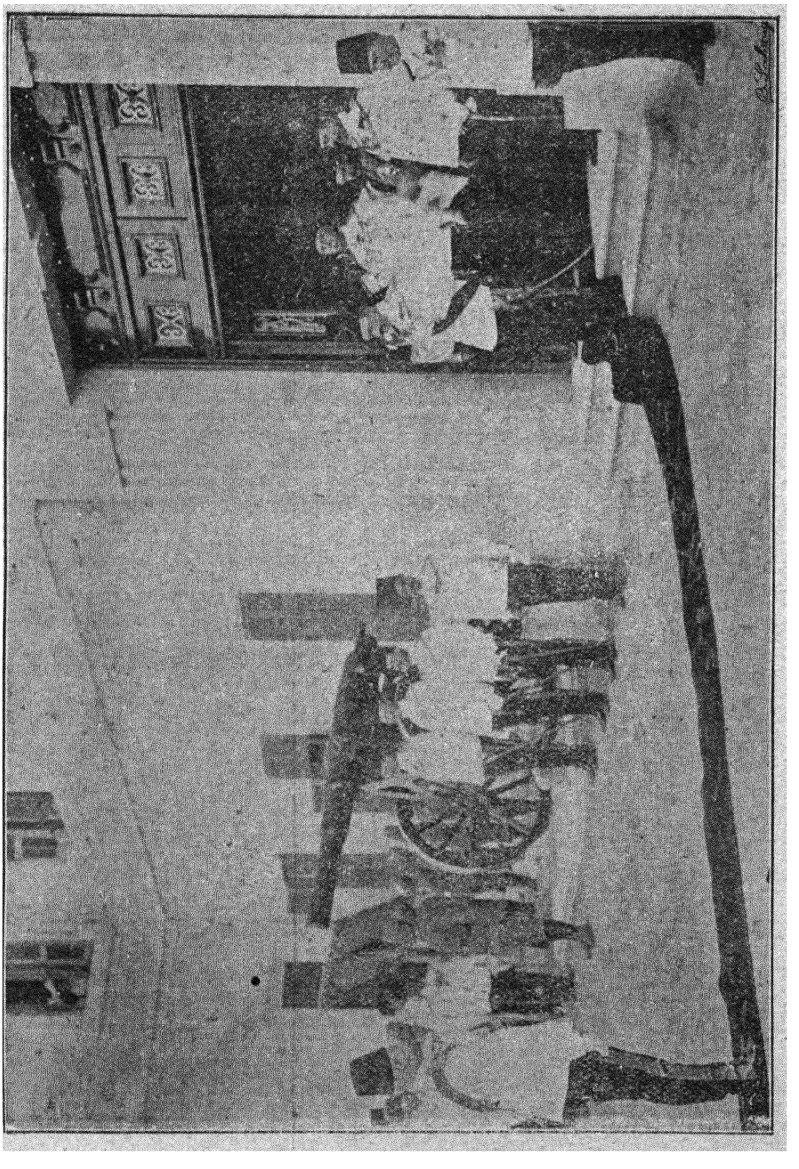


ش ١٥ ـ عباس حلمي باشا

هو بكر محمد توفيق باشا ولما توفي والده كان سموُّه في مدرسة ڤينّا . وكان قبل ذهابه اليها قد تثقف في مدرسة عابدين التي شادها والده لهُ ولدولة شقيقه البرنس محمد علي فلما أتما دروسهما فيها ارسلهما والدهما الى مدرسة جنيف بسويسره فمكثا فيها مدة يجدان في تحصيل العلوم ثم برحاها الى ڤينّا وانتظما في مدرستها الملوكية العليا . وفي أثناء اقامتهما في تلك المدرسة استأذنا والدهما المرحوم بالتجول

في انحاء اوربا لاستطلاع احوال تلك المدينة من مصادرها فزارا المانيا وانكلترا وروسيا وايطاليا وفرنسا ولقيا من ملوك هذه الممالك ترحاباً حسناً وزارا الممالك الاخرى

وفي سنة ١٨٨٩ عادا الى مصر واستأذناه في زيارة معرض باريس لذلك العام فاجابهما الى ذلك فلقيا هناك ترحاباً جميلاً وعادا الى المدرسة . وفي سنة ١٨٩١ عادا



ش ١٦ ـ الخديوي يقرأ خطابه امام سراي الخرطوم

الى مصر في اثناء الراحة المدرسية ثم رجعا الى المدرسة في فينا . وفي ٨ يناير من السنة التالية عام ١٨٩٢ جاءهما النبأ البرقي بوفاة والدهما فاصبح سمو اكبرهما خديوياً على مصر من ذلك اليوم . ثم جاءته رسالة الصدر الاعظم بتثبيته على ذلك العرش فاسرع الى مقر حكومته فوصل الاسكندرية في ١٦ يناير المذكور فاحتفل القطر بقدومه احتفالا يليق بمقامه

واشتهر سمو الخديوي بانعطاف المصريين اليه اكثر مما الى كل خديوي سواه لما يلاقونه من دعته ولطفه وصدق محبته لهم . ويمتاز عصره عن عصور سائر اسلافه بنهضة الاقلام واتساع نطاق الصحافة واطلاق حرية المطبوعات وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات والمكاتب وسائر عوامل النهضة العلمية

وفي ايامه تم فتح السودان وانقضت دولة الدراويش بتعاضد الجيشين المصري والانكليزي . ورحل الجناب العالي الى السودان في شتاء سنة ١٩٠١ لتفقد احواله فاحتفلوا بوطء اقدامه هناك احتفالا عظيما . وتلا في الخرطوم خطاباً دل على حسن ظنه بحكومة السودان المشتركة

الملوك والامراء

السلطان محمود الثاني

ولد سنة ١٧٨٥ وتولى سنة ١٨٠٨ وتوفي سنة ١٨٣٩

هو السلطان الثلاثون من سلاطين آل عثمان شقيق السلطان مصطفى الرابع وابن السلطان عبد الحميد الاول . تبوّأ السلطنة العثمانية وهي في اختلال عظيم وارتباك لم يسبق له مثيل . وكان السلطان سليمان القانوني آخر من قاد جنوده بنفسه من سلاطين آل عثمان وتقاعدوا بعده عن المسير الى ساحة الحرب تاركين قيادة الجند الى وزرائهم ورجال دولتهم الامر الذي آل الى تقهقر الدولة واختلال احوالها وانتقاض ولاياتها واصبح الانكشارية عثرة في سبيل فلاحها بعد ان كانوا حصناً لها وقواماً لسطوتها وكان السلطان سليم الثالث ابن عم صاحب الترجمة قد شرع في اصلاح ما فسد من شؤونها فبثّ لابن عمه كل ما كان في نيته من ذلك

فلما اتيح للسلطان محمود تولي السلطنة أخذ على عاتقه القيام بتلك المهام واخراجها من حيز القوّة الى حيز الفعل . وكان أعظم وزراء الدولة اذ ذاك مصطفى البيرقدار وهو الذي اجلس السلطان محمود على سرير السلطنة بعد سفك الدماء فولاه السلطان الصدارة العظمى لما تبينه فيه من الشجاعة والاقدام وشدة البطش . فباشر البيرقدار اول كل شيء قطع شأفة الاحزاب المضادة فقتل بعضاً ونفى آخرين حتى خلا له الجو فاخذ في اصلاح شؤون المملكة باذلاً في ذلك جهد الطاقة عملا بارادة مولاه فرأى ان يبدأ باصلاح القوة العسكرية وتنظيمها على النمط الحديث الذي وضعه نابوليون بونابرت وهو المعول عليه في تنظيم جنود اوربا

وعلم ان مباشرته ذلك تقضي بتغيير الانكشارية وتمردهم لما يرون في الامر من انحطاط سطوتهم وتقلص ظل مجدهم فاحتال على العلماء والوزراء وكبار اهل الدولة واستجلب مصادقتهم في تنظيم جند جديد واصلاح جند الانكشارية بتدريبه على النظام الجديد . فتعهد له اولئك ببذل ارواحهم واموالهم توصلا الى تلك البغية فعلقت الآمال باصلاح الحال على يد ذلك الوزير

وكأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ ان يتم ذلك على يده فجاء البيرقدار أموراً غيرت عليه القلوب أخصها انه طمع في أموال الناس فاكثر من الضرائب واستخدم في

استخراجها طرقاً غير قانونية تخاف الناس الانتظام في الجندية واوجس العلماء والمشائخ خيفة على مال الاوقاف لئلا يصبح طعمة له . أما السلطان فانه لم يكن أقل حذراً منهم وقد رأى كل شيء سائراً على ما يريده هذا الوزير والاحكام في يده يديرها كيف شاء

وما زالت الاحزاب تتعاظم وتتكاثر حتى صاروا يجاهرون بذلك في مجتمعاتهم العمومية . واتفق ذات يوم ان البيرقدار كان سائراً بموكبه الحافل والشوارع غاصة بالجماهير فامر رجاله أن يبعدوا الناس عن الطريق بالعنف وان يضربوا من لا يطيع الامر حالاً فنفر الناس الى القهوات والجوامع وقد عدوا ذلك استبداداً وعتوًّا واخذوا يتقمون عليه فاجتمع جماعة منهم الى أغا الانكشارية وتوسلوا اليه ان ينقذهم



ش ١٧ ـ السلطان محمود الثاني

من استبداد ذلك الرجل . وكان الانكشارية أشد منهم رغبة في قتله فتواطأوا على مهاجمة منزله بغتة واحراقه فهجموا عليه وأحرقوه بما فيه من الرجال والنساء . وكان البيرقدار في جملتهم فذهب فريسة النار فتخلصت الاستانة منه . ولكنه لا يزال مع ذلك معدوداً في جملة اهل الاصلاح لما اتاه من الاعمال العظيمة وما خصه الله به من المواهب التي رفعته من حضيض الفاقة الى منصة الصدارة العظمى ويروى عنه أعمال تدل على قسطه وعدالته مما يطلق الالسنة بالثناء عليه

وكان في جملة من قتل اثناء تلك الثورة السلطانية مصطفى الرابع وكان معتزلا عن السلطنة فلم يبق من عصبية آل عثمان الا السلطان محمود ولم يعد للانكشارية باب للعزل والتولية فامن دسائسهم ولاح له لحسن سياسته ان يصلح ما بينهم وبين العساكر الذين

سيباشر تدريبهم على النظام الحديث فاصلح ذات بينهم وأبعد من بقي من أصدقاء البيرقدار فسكنت الخواطر فتربص ينتظر فرصة لتنفيذ ما يريده من الاصلاح فشغلته الاعمال الحربية التي قامت بين الدولة العلية والروسيين وقد أخذوا يزحفون بعدتهم ورجالهم نحو الدانوب فاحتلوا بعض المدن هناك فجرد السلطان جنداً لدفعهم . واتفق اثناء ذلك تجريد نابوليون بونابرت على روسيا سنة ١٨١٢ فاضطر الروسيون لعقد معاهدة الصلح في ١٦ مايو (ايار) من تلك السنة مع الباب العالي وسحب جيوشهم عن الحدود لقتال نابوليون

وبقي ذلك الصلح مرعياً ثماني سنوات اهتم السلطان اثناءها في اخماد ما ثار اذ ذاك في ولايتي بغداد وآيدين وقمع عصيان الوهابيين الذين ظهروا في شبه جزيرة العرب بدعوى دينية حتى تماظم امرهم فبعث السلطان الى محمد علي باشا والي مصر اذ ذاك فجند عليهم وقطع دابرهم

وفي عام ١٨٢١ ثار اليونان في المورا وشقوا عصا الطاعة حتى صاروا يهاجمون سواحل سوريا والاناضول وغيرهما ويصادرون العمارات العثمانية فبعث السلطان جنداً عظيما لردهم فقامت الحرب على ساق وقدم وبعث الباب العالي الى محمد علي باشا اذ ذاك ايضاً فارسل حملة تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا انضمت الى جيوش الدولة وضيقوا على اهل المورا فاستنجدت اليونان الدول الاوربية فتوسطت دولتا انكلترا وفرنسا . فلم يرض السلطان بتوسطهما فبعثا عمارتيهما وانضمت اليهما العمارة الروسية وهددوا ابراهيم باشا وعمارته في مينا نافارين من أعمال المورا وطلبوا اليه ان يكف عن القتال فابى الا ان يكون ذلك بامر من السلطان فدخلوا المينا وأطلقوا النار على العمارتين المصرية والعثمانية في ٦ يوليو (تموز) عام ١٨٢٧ وظهروا عليهما بعد دفاع شديد فاضطر السلطان محمود لقبول اقترح الدول المتحدة وامضى معاهدة تقضي باستقلال اليونان

وكان السلطان في اثناء ذلك مشتغلا بتنظيم الجند الجديد لعلمه ان جند الانكشارية لا يقوى على مدافعة جنود اوربا المنظمة ولكنه علم بما يحول بينه وبين ما يريد فجمع اليه رجال دولته بحضرة المفتي افندي وخطب الصدر الاعظم اذ ذاك محمد سليم باشا خطاباً عدد فيه ما وصلت اليه قحة الانكشارية مع ما هم فيه من القصور في النظامات الحربية الجديدة وطلب اليهم أن يبدوا رأيهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لملافاة ما يهدد المملكة العثمانية بسبب ذلك فقر الجميع وفي جملتهم آغا الانكشارية على اتخاذ الوسائل الفعالة فتلا المكتوبجي امراً قاضياً بتنظيم جيش جديد باسم (ايكنجي)

وتهذيبه فوقع الجميع على وجوب تنفيذ ذلك الامر وتلي ذلك بعدئذ على ضباط الانكشارية فقبلوا به فاخذوا في تنظيم الجيش . وفي ٦ ذي الحجة عام ١٢٤١ هـ (١٢ يونيو ١٨٢٦) استعرضوه وشرعوا في تهذيبه للمرة الاولى في ساحة اتميدان

اما الانكشارية فالما شاهدوا ذلك نسوا عهودهم لما رأوا في الامر مما يحط من سطوتهم ونفوذهم وأخذوا يتحدثون سرًّا وينقمون على تلك البدعة فحاول الصدر الاعظم قمعهم سرًا وجهراً فلم يزدادوا الا عناداً حتى هجموا أخيراً على منزله للايقاع به فلم يظفروا بشخصه لانه لم يكن هناك فتفرقوا في المدينة يصادرون المارة والباعة فبعث الصدر الى السلطان بالامر وامر ضباطه وجنده الخصوصيين فحضروا في السراي. اما الانكشارية فاصروا على اعمالهم وجاهروا بطلب رؤوس الذين اشاروا بتنظيم ذلك الجيش فوقف الصدر الاعظم وحوله من رجاله والعلماء والمشائخ عدد غفير في انتظار مجيء السلطان وكان في بشكطاش فاسرع الى السراي وخطب في الجماهير فانهض هممهم فاقسموا على الثبات حتى يفوزوا او يقتلوا فداء عن سلطانهم وطلبوا اليه ان يجرد العلم النبوي الشريف فجرده ومشى فتبعه الناس وتقاطروا من انحاء المدينة للدفاع عن السلطان والسنجق الشريف ففرق فيهم الاسلحة ثم سلم العلم الى المفتي وجلس في قصر (كشك) فوق باب السراي حيث يشرف على الساحة ويشاهد الجماهير

ثم اجتمع الصدر الاعظم والمفتي والعلماء في جامع السلطان أحمد وتلوا الفاتحة وسوراً اخرى بالخشوع التام ثم نهضوا في هيئة الحرب وفيهم العساكر واهل المدينة فادركوا الانكشارية وقد تجمهروا في ساحة اتميدان فحاولوا ردهم بالتي هي أحسن فابوا فاطلقوا عليهم الرصاص والتحم الفريقان وكانت المذبحة هائلة عادت فيها العائدة على جند الانكشارية ومن لم يقتل منهم قيد أسيراً فنجت البلاد منهم وهدأت الاحوال كما نجت مصر من أمراء المماليك بعد ان ذبحهم محمد علي قبل ذلك ببضع عشرة سنة

وأخذ السلطان محمود بعد ذلك بتنظيم الجند على النمط الفرنساوي المتقدم ذكره فاغتنمت الدولة الروسية انهماكه بذلك وأشهرت الحرب وزحفت بجنودها الجرارة لجهة الدانوب في اوربا وجهة القرص وارضروم وغيرهما في اسيا وبعثت عمارتها البحرية الى البحر الاسود . فعظم ذلك على السلطان لما يعلمه من قصور جنده الجديد ولكنه جند على الروسيين . وجاهد العثمانيون جهاد الابطال دفعاً لعدوهم عن حدود البلاد ما ليس فوقه غاية وقد شهد لهم بذلك اعداؤهم . على ان جهادهم وبسالتهم وثباتهم لم تغن عنهم شيئاً لانهم كانوا يحاربون ثلاث دول عظام وليس الروس وحدهم

كما علمت من نجدة انكلترا وفرنسا للمورة وانقضت الحرب الروسية هـذه باحتلال بعض المدن في رومانيا وفي اسيا

ولما علم السلطان بذلك اضطرب قلبه ولم يكن يعرف الاضطراب قبل ذلك ولـكنه أظهر ثباتاً وحزماً جديرين بالسلاطين الفخام والمصلحين العظام وانهت تلك الشرور بعقد معاهدة ادرنة في ٦ سبتمبر (ايلول) عام ١٨٢٩ القاضية باستقلال اليونان استقلالا تاماً والتنازل عن اقليم السرب لعائلة دوبرينوفيتش وعن اقليمي الفلاخ والبغدان . وقد انضم هذان سنة ١٨٦١ الى امارة واحدة عرفت بامارة رومانيا تدفع جزية سنوية للدولة العلية كالديار المصرية . والتنازل عن بعض الجزائر الواقعة عند مصب الدانوب وعن بلاد اخرى في آسيا مع غرامة حربية مقـدارها مائة مليون وعشرة ملايين من الفرنكات

وقد يستغرب القارىء رضوخ السلطان محمود لتلك المعاهدة وهو من سلاطين آل عثمان الذين دوخوا العالم وارجفوا ملوك الارض ودانت لهم اعظم ممالك الدنيا . ولـكن ليس ذلك محل الاستغراب وانما الغرابة في ثبات هذه الدولة أيدها الله ودفاعها الدولتـين والثلاث او اكثر معاً بعزم ثابت . وكانت كل دول اوربا ضدها تنتظر فرصة لابتلاعها فلو لم تكن اقوى الدول واشدهن بطشاً ما استطاعت دفع تلك الصدمات ناهيك بما كان مستحكماً في داخليتها من الخلل وما افسده الانكشارية ومن جرى مجراهم

فلم تكد تتخلص من تلك المشاكل حتى كانت حملة الجنود المصرية تحت قيادة ابراهيم باشا على سوريا فافتتحوا عكا واوغلوا في داخل القطر وما وراءه حتى كادوا يهددون الاستانة فتوسطت الدول واوقفتهم في سوريا حيث أقام ابراهيم باشا حاكماً ضمن حدود وعهود تسع سنوات توفي السلطان محمود في السنة التاسعة منها بعد ان حكم احـدى وثلاثين سنة كلها حروب واهوال ولولا حزمه وثباته وقسطه ما قوي على مقاومة تلك الصدمات التي لو كانت على اعظم دول الارض لذهبت بها الى الدمار

وكان رحمه الله ثابت الجنان مقداماً حازماً تجلى في وجهه ملامح الوقار والرزانة وقد قال الذين قابلوه من سفراء الدول الاجنبية انهم لم يجدوا في سائر ملوك اوربا وامبراطوريها المعاصرين ما في السلطان محمود من قوة التسلط على الافكار والتأثير على العقول . وكان يحسن الخط ونظم الشعر متبصراً لا يعمل عملاً ما لم يتدبره وينظر في عواقبه . ومن اعماله ابادة وجاق الانكشارية وتأسيس النظام الجندي الجديد .

وهو اول من لبس الطربوش واللباس الافرنجي على الزي المعتاد (في أواخر حكمه) وأول من ركب عربة (فايتون) من سلاطين آل عثمان وقد كان السلاطين قبله يلبسون العمامة والجبة ويركبون الخيل وفي عصره ظهرت أول جريدة في المملكة العثمانية ويقال انه اذن بنقل رسمه بالزيت وعرضه في الترسانة العامرة وقد طبع ذلك الرسم بمطبعة الحجر وبيع في الاستانة

الامير بشير الشهابي الثاني

المعروف بالكبير او المالطي

ولد سنة ١٧٦٧ وتولى سنة ١٧٨٨ ونفي سنة ١٨٤٠ وتوفي سنة ١٨٥٠

هو اعظم امراء بني شهاب حكام جبل لبنان في الاجيال الاخيرة وهم عرب يتصل نسبهم الى قريش قدموا بلاد الشام في صدر الاسلام وما زالوا يتناوبون الاحكام في لبنان ووادي التيم مع الاسر الاخرى من الامراء وغيرهم تحت رعاية الباب العالي الى اواسط القرن التاسع عشر

(ترجمته واعماله) اما الامير بشير فهو اعظم الامراء الشهابيين سطوة وهيبة وبسالة وبطشاً وأطولهم حكماً تنصر والده في آخر ايامه ثم توفي عن ولدين حسن وبشير فتزوجت والدتهما وتركتهما وهما في ضنك من العيش وكان حسن اكبرهما سناً فانتظم في خدمة الامير يوسف الشهابي أمير جبل لبنان اذ ذاك وأقام في قصبة الامارة بلدة دير القمر. فاصبح الامير بشير وحيداً منفرداً وكان لوالده خادمة امينة فلازمت الغلام شفقة عليه واقاما في برج البراجنة قرب مدينة بيروت . اما والدته فسكنت مع زوجها الجديد في قرية الحدث قرب البرج وكانت تعول ولدها بشيراً وتسعفه بما يقوم باود حياته من الطعام واللباس

ولما ناهز السادسة عشرة انفت نفسه من تلك المعيشة فغادر البرج قاصداً دير القمر ونزل في بيت الدين بالقرب من الدير في منزل رجل يقال له الشيخ ابو علي البتديني وكان شيخ مجلس (خلوة) محترماً محباً للبر . وكان يؤانس في وجه الامير بشير مهابة الاسود وشهامة الرجال ففتح له صدر بيته وانزله على الرحب والسعة فاقام عنده بضع سنين يقضي نهاره في الصيد وليله في التحرق لما هو فيه من ضيق المعيشة مع شرف الحسب والنسب . ولكنه كظم على مضض الحياة ينتظر فرصة ينهض بها من حضيض الذل الى ما تطلبه نفسه من المعالي

فاتفق ان دروز لبنان وهم الفئة الكبرى من سكانه انفوا من حكومة الامير يوسف واجمعوا على انزاله واقامة امير سواه وكان كبير الدروز اذ ذاك الشيخ بشير جنبلاط وكان نافذ الكلمة شديد البطش فشاور العقلاء والاعيان فاخبره بعضهم عن الامير بشير وقال « ان هذا اذا تولى الامارة كان آلة بيدنا لصغر سنه وقلة احزابه » فقال الشيخ بشير الي به وليكن مجيئه الى منزلي سراً لاراه ولا يعلم به احد فبعثوا اليه فجاء في منتصف الليل ودخل على الشيخ وحياه فسأله اذا كان يريد ان يتولى لبنان فقال « ومن اين لي ذلك ولا مال عندي ولا رجال » فقال « أما المال والرجال فنحن نقوم بتقديمهما لك فكن ثابت الجأش وتربص ريثما نخلع الامير يوسف » وأمر وكيله



ش ١٨ ـ الامير بشير الشهابي الثاني

فجاء بصرّة من الدراهم دفعها اليه قائلا خذ هذه الان ومتى انفقتها ابعث اليك بمثلها واحفظ هذا سراً حتى يؤون الوقت . فشكره الامير بشير وخرج ولم يعلم به احد

ولكن صدق من قال « كل سرٍ جاوز الاثنين شاع » فالامير يوسف علم بما تواطأ عليه الدروز والامير بشير فعزم على اعدامه قبل تمكنه من الحكم فبعث اليه اخاه حسناً وامره ان يقتله ويأتي برأسه فسار حسن بالرغم منه حتى أتى بيت الدين فبلغ الامير بشير ذلك فجاء ببندقيته وذخيرته وجلس في صدر الحجرة فلما أطلّ عليه اخوه من بعيد ناداه قائلاً « لا تقرب من هـذا البيت والاّ فاني قاتلك لا محالة » وهوّل عليه بالبندقية فقال له « انما جئت لاخاطبك في امر » قال « لا تخاطبني في شيء اما كفاكم اني مقيم هنا ولا ينظر اليّ احد كأنما انا من السوقة — أليس ذلك عاراً على

الامير يوسف » فخجل حسن وعاد واخبر بما كان وحسن للامير الرفق باخيه فبعث اليه جواداً يريد تقريبه منه وهو غير واثق بما سمعه عنه

اما الدروز فكتبوا الى الجزار والي ولاية صيدا (وكان لبنان تحت ولايته) يشكون من الامير يوسف واستبداده فبعث اليه الجزر ان ينزل او أن يبعث اليه احداً من ذوي قرابته رهناً ضامناً لتسديد ما تأخر عليه من مال الحكومة . فارسل الامير بشيراً تخلصاً منه ويقال انه لما امره بالذهاب الى عكا ليكون رهناً عند الجزار قال له « سر يا ولدي الى الجزار في شغل » فاجابه « اخاف ان اذهب ولدك وارجع ولد الجزار » فلم يفقه الامير لما قاله

فوصل عكا ومعهُ كتب التوصية من الشيخ بشير للجزار وغيره من رجال حكومته وفي جملتهم رجل يهودي اسمه حايم كان مديراً لدائرة الجزار وبيده الحل والعقد وعائلة سكروج وكانوا كتاباً في ديوانه فساعدوا الامير بشيراً مساعدة قوية فولاه الجزار الامارة على لبنان والبسه الفروة واعطاه العدة والرجال وامره بالذهاب الى دير القمر لاستلام مقاليد مصلحته . فسار في مائتي جندي وعلم الامير يوسف بقدومه ففرّ من الدير ودخلها الامير بشير وتولاها . وكان الشيخ بشير جنبلاط وانصاره انصاراً للامير في كل ما يريد فتعززت سطوته وذاع صيته

ولكن لم يستتب له الامر الا بعد مقتل الامير يوسف لان اعوجاج حكم الجزار كان يقضي لمن يدفع اليه الرشوة الكبرى فكان يتعهد له الامير يوسف تارة بدفع قدر اعظم مما يدفعه الامير بشير فيوليه ثم يزيد هذا على ذاك القدر فيعيده ويعزل ذاك . وكان اللبنانيون يشتكون احياناً من قساوة الامير فيتامرون عليه ويتظالمون منه وبقي الحال كذلك حتى قتل الامير يوسف في عكا بامر الجزار سنة ١٧٩٠ . وكيفية ذلك ان الجزار كان سائراً الى الحج فوصل اليه وهو في المزرايب كتاب من الامير بشير يشكو فيه من دسائس الامير يوسف وكان هذا قد التجأ الى حمى الجزار في عكا فكتب الجزار الى نائبه هناك ان يقتله ثم ندم على مسارعته فبعث اليه ان لا يقتله ولكن سبق السيف العزل . فقتل الامير يوسف شنقاً قبل وصول الكتاب الثاني ويقال انه وصل واخفاه ابن السكروج كاتب الجزار خدمة لمصلحة الامير بشير ولما عاد الجزار وتحقق ذلك منه قتله

فاستتب الامر للامير بشير غير ان الفتن بين ولايتي صيدا ودمشق لم تكن تنقطع واللبنانيون تارة يثورون على اميرهم وطوراً يستبد فيهم محصلو الاموال . ونظراً لكثرة الفئات والطوائف في لبنان لم يكن يخلو ذلك الجبل من فتنة تهرق في سبيلها

الدماء وتسلب الاموال . وكان الامير بشير يتدبر كل ذلك حيناً بالحكمة وآونة بالقوة وتارة بالحيلة والدهاء حتى بهر الحكام وسحر الرعية . وزد على ذلك انه لم يكن في مأمن من صداقة رئيسه الجزار والي صيدا لان الجزار لم يكن يرعى ذماماً ولا يتفاضل الامراء عنده إلا بنسبة ما يدفعونه اليه من الخراج والاموال . وكان اذا ولى اميراً لا يأمن انتقاضه فيسترهن عنده ابنه أو اخاه أو زوجته فاذا عزله بعث اليه بالرهن ويسترهن احداً من ابناء الامير الجديد وهكذا

وفي سنة ١٧٩٩ قدم بونابرت بجيوشه لافتتاح سوريا بعد ان دوّخ الديار المصرية فافتتح يافا ثم جاء عكا وحاصرها وكان الامير بشير عوناً كبيراً للفرنساوية يمدهم بالمؤونة والزاد وقد سر نصارى لبنان بقدوم تلك الجيوش وخاف الدروز . ولما طال الحصار على الفرنساويين وامتنعت عكا عليهم بمساعدة العمارة الانكليزية تحت قيادة السير سدني سميث ملّ الامير بشير من معاضدتهم . ثم وردت عليه كتابات من السير سدني يبين له فيها « ان الفرنساوية لما دخلوا مصر نشروا منشورات ادعوا انهم مسلمون وقد كسروا الصلبان في روميلية » وبعث اليه بنسخة من ذلك المنشور فنفر الامير من الفرنساوية وقطع المؤنة عنهم . وكان ذلك من جملة اسباب فشلهم وعودهم على الاعقاب ولم يفتحوا عكا مع انهم حاصروها زهاء شهرين

وكان الجزار قد تغير على الامير لمساعدته الفرنساوية ثم علم بكفه عن مساعدتهم ولكنه لم يقره في مكانه فتوسط له السير سدني سميث وكان بين هذا والامير صداقة ومهاداة . وسافر الامير في اثناء تغير الجزار عليه في مركب من عمارة السير سدني الى الاسكندرية وكان ذلك المركب بانتظاره في طرابلس وبالغ السير سدني في اكرام الامير واحبه محبة شديدة لما رأى من هيبته وجسارته وأمر بتصويره وخاطب بشأنه الصدر الاعظم وكان قد قدم غزة لمحاربة الفرنساوية ليعيده الى منصبه في امارة لبنان فاعاده

ولكنه اضطر بعد قليل لمغادرة لبنان لعدم رضوخ اصحاب المقاطعات له فسافر في عمارة السير سدني الى قبرص واقام فيها ستة اشهر ثم سافر معه الى الاسكندرية وما زالوا في البحر المتوسط بين ذهاب وايابٍ نحو شهرين . وبعد ذلك عاد الى امارته في لبنان وكانت بينه وبين الجزار ومن ولاهم مكانه حروب دامت اربع سنوات ثم تصالح والجزار سنة ١٨٠٣

وفي السنة التالية توفي الجزار وخلفه ابراهيم باشا (غير ابن محمد علي باشا) ولم تطل ولايته فخلفه سليمان باشا وكان من مماليك الجزار وبينه وبين الامير صداقة فاقره

في امارته وايد نفوذه وكان اولاد الامير يوسف من اكبر مناظري الامير في الامارة وكثيراً ما كانوا يتمكنون من اغراء الجزار على عزله والتولي مكانه بمساعدة مديرهم جرجس باز واخيه عبد الاحد فلم يصف له الكاس حتى قتلهما بدسيسة سنة ١٧٠٧ وفي سنة ١٧٠٩ بنى الامير بشير جسر نهر الكلب وبعد سنتين بنى جسر نهر الصفا وكان للامير بشير ثلاثة أولاد الامراء قاسم وخليل وامين

وفي سنة ١٨١٣ جاء الى الامير رجل حمصي اسمه بطرس بن ابراهيم كرامه وكان شاعراً فصيحاً ومنشئاً بليغاً حسن الخط وكان قد قرأ صناعة الانشاء والشعر على الشيخ امين الجندي الشاعر المشهور فجعله الامير نديماً عنده ثم وكل اليه تعليم ابنه الامير امين وصار بعد ذلك كاتب يده

وكان بجوار دير القمر قرية يقال لها بيت الدين وقد تقدم ذكرها فاتخذها الامير مسكناً له وبنى فيها الدور لسكناه ولسكنى اولاده وفي جملتها السراي الباقية الى هذا العهد المعروفة بسراي بيت الدين وفيها مقرُّ متصرفية لبنان الى هذه الغاية . واجرى الى بيت الدين قناة من ماء تحت عين زحلتا على مسافة ثلاث ساعات يسمى نبع القاع بجانب نهر الصفا وغرس فيها المغارس والبساتين حتى اصبحت من اجمل المساكن وابهاها

وكان الجنبلاطية عوناً كبيراً له في كل حروبه واعماله لانهم هم الذين سعوا في امارته وقد شدوا ازره وقاموا بنصرته وأيدوا حكومته مادياً وادبياً . ولكنهم كانوا يفعلون ذلك حباً بتعزيز سطوتهم وتأييد نفوذهم فكانوا ينظرون من وراء مساعدتهم الى ما يؤيد نفوذهم على الاسر الاخرى الدرزية التي كانت تناظرهم في السطوة ونفوذ الكلمة وقد سعوا في استخدام الامير بشير لاغراضهم حتى سئم هو من استبدادهم واعتراضهم له في اعماله فرأى ان الجو لا يخلو له إلا اذا كسر شوكتهم وتفرد بالاحكام فعوّل على التخلص منهم

ولكنه لم يكن يتظاهر بذلك فاتفق ان احد الامراء المدعو الامير حسن اراد التزوج بابنة ولم يرض ابوها به فغضب وقتله — فعل ذلك برضاء الشيخ بشير جنبلاط فغضب الامير بشير على الامير حسن وأمر بالقبض عليه ففر الى دمشق وهناك اسلم ووشى بالامير انه مسيحي وهيج عليه الوالي فحقد الامير على الشيخ بشير لانه نسب ذلك اليه . وفي اثناء ذلك بنى الشيخ بشير جامعاً في المختارة بالقرب من بيت الدين وتظاهر بالاسلامية فازداد حقد الامير عليه واضمر له الشر وعزم على تعضيد الاحزاب المضادة له من الدروز ولكنه كتم ذلك في باطن سره وبقي مظهراً الصداقة له كالعادة

وفي سنة ١٨١٩ توفي سليمان باشا والي عكا وخلفه عبد الله باشا الخزنه دار بن علي باشا احد مماليك الجزار فاقر الامير في امارته ولكنه اخلف بعد قليل وولى غيره مدة قصيرة ثم عادت الامارة اليه فعاد مكرماً مع الهدايا والتقادم على أن يكون اميراً على لبنان مدة حياته . ولكن بعض اللبنانيين لم يذعنوا له بدسيسة ممن كان اميراً قبله وأبوا دفع الاموال كما اراده هو فقامت بينه وبينهم حروب آلت الى خصام طويل بين ولايتي صيدا ودمشق وكان الامير يحارب مع عبد الله باشا والي صيدا او عكا ضد درويش باشا والي دمشق وقد اخلص النية وبذل قصارى الجهد في تلك المساعدة حتى اوجس درويش باشا خوفاً منه وكان عالماً ان الفضل في ذلك النصر للامير بشير فكتب اليه يستجلب رضاه ووعده بالولاية على صيدا ولقبه بوالي الشام وصيدا فأعرض الامير عن اجابته وبعث الكتاب الى عبد الله باشا فسر هذا من صداقته وكتب اليه ان يثابر في محاربة الدمشقيين ولقبه بوالي الشام وصيدا أيضاً . اما الامير فجاء عكا يريد ارجاع عبد الله باشا عن عزمه في ذلك فلم يجبه فسار في الجند كما امره وعاد الى المحاربة فاعتبرت الدولة العلية اعمال عبد الله باشا هذه تعدياً على حقوقها فانجدت درويشاً وانذرت الامير بذلك فاذعن ولكنها اشترطت عليه بواسطة الشيخ بشير شروطاً صعبة في امارته فلم يرض فاتفق الامير والشيخ على تولية الامير عباس فقبل درويش بذلك وعقد الامير مع الامير عهداً ان يحافظ هذا على بيت الامير وكل ماله اثناء غيابه وركب قاصداً عكا فعلم ان درويش باشا بعث للقبض عليه فعرج الى صيدا ونزل من ضواحي بيروت في المراكب ومعه من الحاشية نحو المئة وخمسين رجلاً قاصداً مصر سنة ١٨٢١ وفيها اذ ذاك المغفور له محمد علي باشا والياً فلاقى منه كل رعاية واكرام

وكان الغرض من قدومه اليه الالتماس منه ان يتوسط لدى الباب العالي في العفو عن عبد الله باشا لان الدولة كانت تحب محمد علي باشا وتراعي خاطره على أثر ما أوتيه من النصر في حرب الوهابيين في بلاد العرب بعد ان تعبت الدولة في قهرهم

وكان محمد علي باشا اذ ذاك في شاغل من امر الحرب في المورة وكانت الدولة قد بعثت اليه ان يجند جنداً لمحاربتها فلما جاءه الامير مستنجداً طيب خاطرهُ ووعده بالمساعدة وكتب الى الباب العالي بذلك واسكن الامير في بني سويف ريثما يرد الجواب وشدد في طلب العفو تشديداً كبيراً لانه كان راغباً في امتلاك قلب الامير ولسانه ليكون له عوناً في ما نواه من فتح الشام

ولبث الامير في مصر حتى وردت الاوامر بالعفو عن عبد الله باشا فحملها شاكراً . ـد ان تداول مع محمد علي سرًّا بشؤون كثيرة تعود الى مقاصد الباشا في بر الشام

وسار الامير من مصر الى عكا بكل اكرام ومعهُ سلاحدار الباشا حاملاً العفو فوصلوا عكا وبلغوه ذلك فسر عبد الله باشا بفوزه ولكن الجنود العثمانية في الشام طلبت النفقات المعينة في مثل هذا الصلح ولم يكن عند عبد الله باشا نقود وكان الامير قد جاء نحو نصف القدر اللازم من محمد علي فضرب عبد الله باشا الباقي ضرائب على المقاطعات وفي جملتها جانب على الامير . وكان الامير قد زاد حقداً على الشيخ بشير ولا سيما لما بلغه تواطؤه مع الامير عباس عليه فاحب التخلص منه قطعياً ففرض عليه مبلغاً كبيراً من ذلك المال فدفع جانباً واعتذر عن الباقي فالح عليه ففرَّ الى دمشق فطابه من واليها فامره بالذهاب ثم التمس من عبد الله باشا التوسط له عند الامير بالعفو فاظهر الامير القبول فحضر الشيخ بشير وكان لا يزال خائفاً من الغدر به فجاء في جماعة من رجاله الى بيت الدين وسار توًّا الى مقابلة الامير في قصره فجعل رجاله صفين مرّ بينهما ذليلاً خائفاً من الغدر به حتى دخل على الامير وسلم عليه فامره بالجلوس فجلس مكتئباً واجساً . وامر له بالقهوة فلم يستطع تناولها لما كان فيه من الارتعاش ولكنه امسك الفنجان واراد الارتشاف منه فنظر اليه الامير بعين الغضب فازداد ارتعاش يده حتى انسكبت القهوة على ثيابه وكان منظر الامير مخيفاً بغير غضب فكيف بالغضب ولم يستطع الوقوف حتى حوّل الامير نظره عنه الى نافذة بقربه فنهض الشيخ مستأذناً وخرج

ثم بعث اليه الامير ان يصرف من جاء بهم من الرجال لئلا يتكدر خاطره عليهم فانصرفوا عنه فخاف الشيخ ففر الى حوران فضبط الامير ارزاقه وممتلكاته فعاد الشيخ بشير ناقماً وجمع اليه احزابه الدروز وبعض احزاب الامراء مناظري الامير وقدموا لمحاربته فانتشبت الحرب بينهما شديدة حتى اضطر الى استنجاد ولاة طرابلس وعكا ومحمد علي باشا في مصر فبعث اليه محمد علي باشا « ان ألفي مقاتل متأهبة تنتظر أمركم »

ولكن لم تبق حاجة اليها لان والي الشام قبض على الشيخ بشير وباقي المشايخ وقتل احدهم الشيخ علي العماد لانه من اكبر زعماء الثورة وكان لوالي دمشق ثأرٌ عليه وبعث بالباقين الى عكا اما الامراء المتحزبون معهم فقبض عليهم الامير وأمر بسمل عيونهم وقطع رؤوس السنتهم

أما الشيخ بشير فكتب الامير الى عبد الله باشا ان يقتله لان اصل الشر منه ثم علم الامير ان الباشا اطلق سراحه واذن له بالسكنى خارج السجن فبعث الى محمد علي باشا على يد ابنه الامير امين — لانه كان اذ ذاك في مصر — يخبره بالامر

ويلتمس منه كتاباً الى عبد الله باشا بقتل الشيخ بشير فبعث اليه برسول خاص بشأن ذلك فقتله شنقاً مع شيخ آخر وبقيت جثتاهما معلقتين امام باب عكا ثلاثة أيام

وبقتل الشيخ بشير خلا الجو للامير بشير ففرق أولاده وذويه حكاماً في المقاطعات وهدأت الاحوال الى سنة ١٨٢٦ حينما قدمت مراكب اليونانيين الى بيروت وكان قدومها عدوانياً لان اليونان كانوا في حرب مع الدولة العلية في المورة فبعثوا بمراكبهم الى سواحل سوريا لافتتاح الثغور

فلما بلغ الامير قدوم تلك المراكب جمع اليه رجاله ونزل الى حرج بيروت لدفعها وكانت قد اطلقت بعض القنابل على المدينة فلما علم اليونان بتجمع الرجال لدفاعهم تحولوا عن المدينة . وفي سنة ١٨٣٠ انتدبه عبد الله باشا لفتح قلعة سانور في نابلس فسار وفتحها فتحاً أيد ما عرف به اللبنانيون من الشجاعة والاقدام وفي السنة التالية قدم المغفور له ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا لحصار عكا

والسبب الحقيقي لقدومه يكاد يكون مجهولا لان المؤرخين قلما افصحوا عن حقيقته ولكننا قد عرفناه ممن عاصر الامير وكان من حاشيته وسمع حقيقة الخبر من فيه قال : ان محمد علي باشا لما قدم اليه الامير بشأن العفو عن عبد الله باشا تداولا في امور كثيرة تعود الى التعاضد والتعاون عند الحاجة . ولذلك رأينا عزيز مصر لم يتقاعد عن نجدة الامير في حروبه مع الشيخ بشير كما قدمنا . وأما محمد علي فكان عازماً على توسيع نطاق حكمه بافتتاح سوريا وكان يظن صنعه الجميل مع عبد الله باشا والامير يكفي لبلوغ امانيه ولكنه رأى من عبد الله باشا اعوجاجاً عن غرضه والغالب ان عبد الله كان طامعاً بمثل مطامع محمد علي فلما علم بما نواه هذا صار يحاذره

وادرك محمد علي ذلك فعزم على اختباره والتعويل على تنفيذ مقاصده بالقوة فبعث الى الامير بشير أن يبعث اليه بجانب من الاخشاب التي يحتاج اليها في بناء المراكب فباشر الامير اجابة طلبه فمنعه عبد الله باشا فشق ذلك على محمد علي واعتبره بظاهر الامر مخالفاً لاوامر الدولة العلية لان تلك المراكب انما هي للحكومة فجرد لمقاصته حملة تحت قيادة ولده ابراهيم باشا فسار لحصار عكا كما قدمنا

فبعث عبد الله باشا الى الامير ان يعد رجاله ويأتي لدفع الجنود المصرية عن عكا وكتب ابراهيم باشا بمثل ذلك لما بينه وبين والده من العهود فوقع الامير في حيرة بين ان يطيع رئيسه الشرعي او يقوم بمواعيده لدى والي مصر وكان حاقداً على عبد الله باشا لانه رأى منه استبداداً فيه بعد ان كان هو السبب في عوده الى ولاية عكا فترجح

لديه افضلية نصرة الجنود المصرية فجمع رجاله وسار قاصداً عكا وكان ابراهيم باشا قد استبطأ حضوره فكتب الى والده بذلك فغضب محمد علي وكتب الى الامير يهدده فادركه الكتاب وهو قادم الى عكا وفي جملة ما قال له فيه « اذا تأخرتم عن الحضور الى ولدنا ابراهيم أخربنا ديارکم وغرسنا موضعها زيتوناً » فظل سائراً الى صحراء عكا فاستقبله ابراهيم باشا بترحاب لانه كان في حاجة كلية الى مساعدته فيما جاء من اجله

وكان الامير عضداً قوياً للجنود المصرية في حصار عكا وغيره من اعمالهم في سوريا . وكان ابراهيم باشا يحترمه كثيراً ويدعوه « والدنا » وكان اعتماده في كثير من المواقع عليه وعلى اولاده ولا سيما الامير خليل فانه حارب عنه حروباً كثيرة في طرابلس وغيرها . أما أهل لبنان فكان دروزهم ضد ابراهيم باشا ونصاراهم معه غير ان الدروز اضطروا أخيراً الى الاذعان بمساعي الامير وتهديده وقد جاهد هذا مع الجنود المصرية جهاداً حسناً وعرض بنفسه للخطر مراراً حتى كان يضطر احياناً الى التنكر بلباس الفعلة وغيرهم خوفاً من مكامن الدروز

وبعد ان فتح ابراهيم باشا عكا وقبض على عبد الله باشا وبعث به الى الاسكندرية سار الى دمشق وبعث الى الامير ان يوافيه اليها فجنّد اليها وفتحوها وعاد الامير الى بيت الدين وخرج ابراهيم باشا لفتح حمص ففتحها وسار منها الى حلب يحارب الجنود العثمانية ففتحها ثم فتح ايقونية وهناك قبض على الصدر الاعظم قائد الجنود العثمانية وزحف على مرسين فترسيس . ومازال في فتوحاته حتى توسطت الدول الافرنجية وتم الصلح بين الدولة العلية وابراهيم باشا على ان يقف عند حدوده في سوريا وان يكون والياً عليها جابياً لاموالها كما تقدم في ترجمة محمد علي باشا

ولما كادت تهدأ الاحوال انتفض النابلسيون وهاجوا وماجوا حتى اضطر محمد علي الى المجيء بنفسه لنجدة ولده فاتى وأخمد الثورة وعاد وكان ذلك عام ١٨٣٤

ثم رأى ابراهيم باشا ان الامر لا يستتب له الا اذا جرد اللبنانيين والنابلسيين وغيرهم من السلاح فعهد بذلك الى الامير فجمع السلاح ولم يكن جمعه كافياً لاستتباب الراحة لان البلاد لم ترضخ لحكومته رضوخاً تاماً والدولة لم تفتأ عن محاربته تارة بعد اخرى فقضى ابراهيم باشا في سوريا نحواً من تسع سنوات لم يهدأ له فيها بال . وفي سنة ١٨٣٧ قدم الدكتور كلوت بك كبير الاطباء المصريين الى بيت الدين فطلب اليه الامير ان يستأذن محمد علي باشا في ارسال بعض اللبنانيين يدرسون الطب في القصر العيني على نفقة الحكومة فنال ما طلبه وبعث بعضاً منهم الى تلك المدرسة . وفي سنة ١٨٣٨

أمر ابراهيم باشا ان يلبس اولاد الامير بدل العمائم الطرابيش وكتب الامير الى اقاربه أن يفعلوا ذلك ايضاً ففعلوا

وفي سنة ١٨٤٠ توسطت الدول الاوربية ثانية في فض الخلاف فعقدوا مؤتمراً أقروا فيه على وجوب اخلاء الجنود المصرية للديار السورية . ومما حملهم على اخلائها أيضاً ان الحكومة المصرية جندت عسكراً أدخلت فيه شباناً من الذين كانوا قد أرسلوا لدراسة الطب في مصر . فلما بلغ نصارى لبنان وسوريا ذلك خافوا ان يجري هذا التجنيد عليهم اذا استقام الامر للمصريين بينهم فانتقضوا عليهم وكان الامير بشير مع ذلك يحاول اقناعهم في الخضوع فلم ينجح وحاول جمع سلاحهم ثانية فلم يفز

ورأت الدول ان ابراهيم باشا لا بد من اخراجه من سوريا بالقوة فجاء ريشارد وود الانكليزي بمأمورية سرية وكان يعرف العربية فاغرى السوريين على كتابة عرض يطلبون فيه من الدولة العلية وسفراء دول انكلترا وفرنسا والنمسا ان يخرجوا الجنود المصريين من بينهم فكتبوا وأرسلت الكتابة الى الاستانة

فجاء الاميرال نابيه في عمارة انكليزية الى مينا بيروت وبعث يتهدد متسلمها ويبشر اللبنانيين والسوريين بقدوم عمارات أخرى لانقاذ سوريا من الدولة المصرية ثم جاءت العمارة العثمانية وفيها بوارج افرنجية كما تقدم واطلقت المدافع على بيروت فتحققت الجنود المصرية ان الانسحاب أولى بهم بعد ان دافعوا دفاع الابطال وصبروا صبر الرجال

أما الامير فخاب أمله وكان يظن فرنسا تساعده عند الحاجة فلم يتحقق ظنه فاضطر الى التسليم فسلم فأمر بالذهاب بمن أراد من أهله وذويه للاقامة في مالطة فاخذ اولاده وحفدته وكاتبه المعلم بطرس كرامة وسائر الحاشية وسار مودعاً لبنان بدموع الاسف في مركب اعدّ له حتى اتى مالطة فاقام فيها مكرماً نحو سنة ثم استأذن للاقامة في الاستانة فاذن له فاقام فيها مع أولاده نحو ثلاث سنوات ثم ارسل الى الاناضول الى بلدة اسمها زعفر انبول فاقام فيها سنة ونصف ثم أقام في بروسة سنتين منفياً أيضاً ثم عاد الى الاستانة ومات هناك شيخاً هرماً ودفن في كنيسة الارمن الكاثوليك بغلطة

أما أولاده فالامير امين اعتنق الديانة الاسلامية بعد مجيئه الاستانة واستأمن فلم يسر مع والده الى المنفى واما الامير خليل فبقي مسيحياً حتى توفي في الاستانة

أما بطرس كرامة فتعين مترجماً في الباب العالي وبقي مع ذلك محافظاً على صداقة الامير وتوفي بعده ببضعة اشهر في الاستانة أيضاً

هكذا كانت نهاية هذه العائلة بعد الحروب الطويلة والمعاناة الشديدة

﴿ صفاته ومناقبه ﴾ كان الامير بشير ربع القامة كثير الشعر حادَّ العينين عظيم الهيبة جدًّا ويروى عن هيبته وشدة بأسه وصرامته روايات أشبه بالخرافات منها بالحقائق

ومما يحكى عنه انه كان لعظم هيبته لا يستطيع أحد ان يطيل النظر اليه بغير ان يخافه . وكان جهوري الصوت حتى قد يسقط الرجل خوفاً ورعباً بمجرَّد سماع صوته اذا غضب . ولولا ذلك لم يستطع ان يحكم اللبنانيين المعروفين بالشجاعة وشدة البأس وقوة الاجسام والعقول . ومما يحكى عن صرامته ان احد رجاله الذين كان يبثهم في انحاء لبنان لصيانة الطرق من اللصوص جاءه يوماً قائلا « رأيت أيها الامير بالامس في وادي العليق فتاة منفردة في ظلام الليل غير خائفة فعجبت من جسارتها فسألتها عما جرَّأها على المسير وحدها في ذلك الوادي المخيف فقالت اني لا اسير وحدي لان أبا سعدى (تريد الامير بشيراً) سائر معي . فعجبت لجسارتها وتركتها » فحملق الامير بالرجل حتى كاد يقع صريعاً من الخوف وقال له « لقد صدقت الفتاة ولكن ما الذي جرَّأك أنت على مخاطبتها وهي سائرة بنفسها في طريقها » وامر فقبض عليه ويقال انه قتله

ويروى عنه من امثال هذه الحكاية شيء كثير تشيب لهوله الاطفال

ومما يحكى عن هيبته انه لما كان في الاستانة وقد زاده الشيب هيبة ووقاراً دعاه الصدر الاعظم لزيارته في مجلس الوكلاء فلما حضر وقف له واكرمه فلما خرج عنف الوكلاء الصدر على وقوفه له فوعدهم انه اذا جاء ثانية لا يقف له . فلما زاره المرة الثانية لم يستطع الا الوقوف بالرغم منه فسأله الوكلاء بعد خروجه عما حمله على الوقوف واخلاف وعده قال « اني وقفت له بالرغم مني لاني حالما رأيته وما هو فيه من الهيبة لم أشعر الا اني وقفت بغتة »

وكان اذا جلس في مجلسه لا يجلس الا جاثياً على طرف مقعد وغدارته محشوَّة الى جانبه

اما لباسه فكان بسيطاً لا يزيد عن القفطان الحريري والجبة والعمامة وفي آخر أيامه لبس الطربوش كما يشاهد في الصورة

وكان عفيف النفس قليل النهم في الطعام وكان يدخن في شبق كبير يسع ربع رطل مصري من التبغ فاذا اخذ في التدخين يتصاعد الدخان من فيه كدخان الاتون متخللاً شعر شاربيه ولحيته

وكان قويّ البنية شديد البطش . أما آدابه فكانت من العفة على جانب عظيم وكان بعيداً عن مغازلة النساء ورعاً تقياً مثابراً على الفروض الدينية حتى أقام كنيسة للصلاة في نفس منزله في بيت الدين وقضى حياته طاهراً عفيفاً لم يدنس عرضه ولا

شرفه بدنيئة حتى توفاه الله . وقد أوضحنا اخلاق هذا الرجل وسائر مناقبه في روايتنا « المملوك الشارد »

محمد احمد المتمهدي السوداني

ولد سنة ١٨٤٨ وتوفي سنة ١٨٨٦

﴿ المهدوية في الاسلام ﴾ المشهور بين المسلمين من أوائل الاسلام الى الان انه سيظهر رجل منهم يؤيد الدين وينشر لواء العدل ويستولي على الممالك الاسلامية يسمى المهدي ويسندون ذلك الى احاديث نبوية بحث كثيرون من علماء الاسلام في صحتها وفسادها وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون . ومن اوثق الاحاديث المروية من هذا القبيل رواية الترمذي وهي « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم ابيه اسم أبي » ورواية الحاكم وهي « تملأ الارض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعاً أو تسعاً فيملأ الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » ولم يرد في هاتين الروايتين لفظ المهدي ولكنهم ذكروا احاديث اخرى ورد فيها لفظه انتقدها ابن خلدون انتقاداً طويلاً في كلامه عن امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس الخ في مقدمته الشهيرة فمن أراد الاسهاب فليراجعه هناك

على ان ذلك لم يقلل شيئاً من اعتقاد الجمهور في مجيء المهدي فما انفك المسلمون ينتظرون مجيئه فادى ذلك الى ظهور جماعة كبيرة في ازمان مختلفة ادعى كل منهم انه المهدي المنتظر فالتفت حوله الاحزاب واسس بعضهم دولاً عظمى لا يزال ذكرها باقياً الى الآن على ان كثيرين آخرين لم يكادوا يظهرون بدعواهم حتى طوى الزمان ذكرهم لان الاحوال لم تكن معدة لقبولهم

على ان بين الشيعة والسنة خلافاً من قبيل المهدي وزمن ظهوره فاهل الشيعة يعتقدون انه ظهر في أواخر القرن الثالث للهجرة في شخص ابي القاسم محمد بن الحسن العسكري الامام الثاني عشر وانه سيظهر ثانية قبل انقضاء العالم من سرداب في سر من رأى بالعراق . واما اهل السنة فيقولون انه لم يظهر بعد وتتمة للموضوع نذكر أشهر الذين ادعوا المهدوية من اول الاسلام الى الان

(١) محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٥٤ﻫ في عهد الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين فدعا الناس اليه وكان له أخ اسمه ابرهيم نصره

وقام بدعوته ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عماله الى اليمن وغيرها وكان ذلك في زمن الامام مالك فافتى له وشد ازره فكثرت دعاته حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لو لم يستدرك المنصور امره ويتغلب عليه ويقتله (وترى تفصيل اخباره في الجزء السادس من تاريخ ابن الاثير)



ش ١٩ : محمد أحمد المتمهدي السوداني

(٢) عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في اواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر . وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت ايام حكمهم (وترى تفصيل اخبارهم في الجزء الاول من كتابنا تاريخ مصر الحديث)

(٣) محمد بن عبد الله تومرت المعروف بالمهدي الهرعي ويكنى ابا عبد الله اصله من جبل السوس في اقصى بلاد الغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بابي حامد الغزالي وغيره فاخذ العلم عنهم واشتهر بالنسك والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب واقام بمراكش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في اوائل القرن السادس للهجرة هي دولة عبد المؤمن (وترى تفصيل ذلك في الجزء الثاني من تاريخ ابن خلكان)

(٤) العباس الفاطمي ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدوية فتكاثف الناس حوله وعظمت شوكته حتى دخل مدينة فاس عنوة واحرق اسواقها وبعث العمال الى الانحاء لكنه قتل غيلة فانقضى اجله وسقطت دعوته

(٥) السيد أحمد ظهر في أوائل القرن التاسع عشر للميلاد في جهات الهند وحارب الاسياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ ولم تقم له قائمة

(٦) محمد المهدي السنوسي بن الشيخ محمد السنوسي الذي ظهر في المغرب في أواسط القرن المذكور وأصله من جبل سوس بجزائر الغرب نبغ (والده) سنة ١٨٣٧ ولاقى من بعض اولي الامر الاسلامي ترحاباً لنشر دعوته وايدها وكان مقامه الرئيسي في جغبوب على مقربة من واحة سيوا نحو الغرب ولكنه أنشأ زوايا عديدة في اماكن أخرى من بلاد الغرب يبلغ عددها ثلاثمائة كلها تعلم طريقته وتعاليمه

اما زاوية جغبوب (او جربوب) فانها أعظمها كلها تجتمع اليها الطلبة من تونس ومصر والشام ومن بادية الغرب وفيها كان يقيم الشيخ محمد السنوسي وقد وفق هذا الشيخ الى نشر تعاليمه ونفوذه توفيقاً غريباً وانتشرت طريقته بين القبائل المغربية وامتدت الى سلطنة وداي ودارفور ونال هناك نفوذاً عظيماً حتى اصبحت تلك السلطنة في قبضة يده . فلما توفي سلطانها سنة ١٨٧٦ استخاروا السنوسي في من يخلفه فاختار لهم سلطاناً اسمه يوسف

فالسنوسي هذا توفي ولكنه لمح قبل وفاته ان المهدي المنتظر سيظهر قريباً ولعله ابنه فاستوضحوه فلم يزدهم الا كلمة « لا أعلم » على انه أنبأهم بان ظهوره سيكون في ختام القرن الثالث عشر للهجرة (١٨٨٢ م) فالسنوسيون يعتبرون شيخهم المشار اليه مهدياً وقد سموه محمد المهدي وهو رجل عاقل شديد البطش والمشهور من كراماته خيمة سحرية يحملها في حربه يزعمون ان الزاد لا يفرغ منها

(٧) محمد احمد المهدي السوداني وقد نحا في دعواه منحى الشيعة فقال انه

الامام الثاني عشر الذي ظهر مرة قبل هذه وفي تسمية اتباعه بالدراويش تأييد لرغبته في قول الشيعة لان لفظة درويش فارسية

﴿ سبب ظهور المهدي السوداني وقيامه ﴾ لو بحثنا عن قيام دعاة المهدية المتقدم ذكرهم لرأينا لكل منهم داعياً حمله على القيام واحوالاً ساعدت في تأييد دعواه . فالاسباب التي دعت الى قيام محمد احمد وساعدت في وقوع دعوته موقع القبول لدى اهل السودان كثيرة نذكر اهمها وهي :

(١) ذكرنا انتظار جمهور المسلمين للمهدي وأهل السودان في جملتهم ولكن السودانيين كانوا ينتظرونه قريباً اعتماداً على قول الشيخ السنوسي كما تقدم

(٢) من المتداول بين شيوخ أهل السودان وفقهائهم ان المهدي سيظهر من بينهم استناداً الى اقوال يروونها عن بعض الأئمة منها قول الامام القرطبي في طبقاته الكبرى ونصه « وزير المهدي صاحب الخرطوم » وقول السيوطي وابن حجر « ان من علامات ظهور المهدي خروج السودان » وغير ذلك

(٣) كان تحصيل الضرائب في السودان منوطاً بجماعة الباشبوزوق فكانوا يسومون السودانيين في تحصيلها انواع الخسف والذل وقد يقتضونها مراراً وروى المستر فرنك باور فنصل انكلترا بالخرطوم اذ ذاك ان الضرائب كانت تضرب على اهل السودان بلا شفقة فيضربون ضريبة على كل فرد منهم وعلى الاولاد والنساء يقتضونها ثلاث مرات في السنة مرة لصاحب القضاء وأخرى للجابي وأخرى للحكمدار . وكان الزارع اذا زرع حنطة لا يؤذن له بزراعتها حتى يدفع ثلاثة جنيهات كل سنة ويدفع سبعة أخرى في مقابل التصريح له بريها من ماء النيل . فاذا تردد في الدفع سيق الى السجن واذا صح زرعه دفع ذلك المال مرتين مرة للحكومة ومرة لجيب الباشا . واذا كان من اصحاب السفن التجارية التي تجري في النيل فرض عليه أربعة جنيهات عن كل سفينة فاذا لم يرفع العلم المصري على سفينته غرم باربعة أخرى ومن تأخر عن تأدية تلك الضرائب اقتضتها الحكومة منه بالكرباج وقد يعاقب ذلك المسكين باحراق منزله أو سلب امتعه . والخلاصة ان السوداني لم يكن يباشر امراً الا ادى عليه ضريبة

(٤) من المقرر المشهور ان التجارة السودانية محصورة في اصناف معدودة اهمها تجارة الرقيق . والنخاسون او تجار الرقيق اشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار في حاشية كل منهم مئات أو الوف من الرجال بين خدمة وعمال وعبيد يقومون لقيامه ويقعدون لقعوده . فالنخاسون عمد السودان وعيون اعيانه وقادة اعماله تهابهم الحكام وتخشى سطوتهم الحكومة . ومازالت تجارتهم رابحة واعمالهم سائرة حتى قام اهل العالم

المتمدن لابطال تجارة العبيد فجاء السودان السير صموئيل باكر للقيام بتلك المهمة ثم انيطت بغوردون باشا فاخذ بالكف عن الاسترقاق جملة . وهي صدمة قوية ارتجت لها اركان السودان لان منع النخاسة لم يقتصر على تقليل ارباح النخاسين ولكنه عرّضهم لاستبداد الجباة لانهم كانو يؤدون الجانب الاكبر من الضرائب عبيداً او ماشية فاصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقوون على تأديتها فاستبد بهم الجباة وساموهم الذل والعسف حتى خيف عصيانهم . ولكن غوردون باشا لحسن سياسته ولين جانبه لم يحدث في ايامه اضطراب فلما غادر السودان تولاه رجل لم يكن عالماً بمحل الضعف ليتلافى خطره فكان غوردون اوقد ناراً في بعض جهات البيت فجاء غيره لا يدري كيف يطفىء تلك النار فتعاظمت والتهمت المدينة برمتها . فلما قام المهدي يدعو الناس الى رفع المظالم آنس من اولئك التجار اصغاء وكانوا له عوناً في اضطرام تلك الثورة

محمد احمد المتمهدي السوداني

هو من قبيلة الدناقلة ولد في جزيرة اسمها نبت مقابل دنقلا (وقال آخرون في حنك) سنة ١٨٤٨ ويقال ان نسبه ينتهي الى الشيخ القرفي صاحب كتاب الفروق اشتهرت عائلته باصطناع سفن سودانية يضرب المثل بدقة صنعها ومتانتها وكان اسم والده عبد الله هاجر الى شندي باولاده كلهم ومحمد احمد لا يزال طفلاً . فقضى محمد احمد حداثته في صناعة السفن ولم يكن ميالاً اليها على انه كان يختلف في اثناء ذلك الى المدرسة فحفظ القرآن وهو في الثانية عشرة . ويقال انهم عهدوا بتربيته وتدريبه في اتقان صناعة السفن الى عمه شريف الدين في جزيرة شبكة بالقرب من سنار فاتفق ان عمه هذا ضربه مرة ففر الى الخرطوم وانتظم في سلك طلبة طريقة الفقراء وهي من الطرق الشهيرة في السودان بمدرسة خوجلي بالقرب من الخرطوم وخوجلي هذا مقام شهير هناك يؤمه اهل الخرطوم وضواحيها يتبركون به فقضى في هذه المدرسة بضع سنين ثم انتقل الى بربر فدخل مدرستها ثم انتقل منها الى قرية ارداب وتناول العلم فيها على الشيخ نور الدايم وعنه تناول سرّ طريقة الفقراء سنة ١٨٧١ ويقول الامام السيد الميرغني انه اخذها عن القرشي هذا كان عنده فرس لا تلد فقال ان فرسي هذه ستلد ويركب نتاجها المهدي فاخذها محمد احمد فولدت عنده

وكان قوي الذاكرة فحفظ القرآن وشيئاً من الحديث وجاء جزيرة ابا جنوبي الخرطوم واقام فيها وكان حسن الاسلوب لين العريكة فطناً حاد الذهن فصيحاً

قوي الحجة اذا خطب أثر في السامعين فمال الناس اليه واحبوه فكان يذكر ويعظ ويصلي ويظهر التقوى والزهد والاعتزال عن العالم والناس يتقاطرون اليه أفواجاً واكثرهم من قبيلة البقارة المشهورين بالقوة والشدة فكانوا يتألفون حوله حلقات يذكرون وينشدون

وقد قال سلاتين باشا في حداثة هذا المهدي ما يخالف هذا القول من ذلك قوله انه ولد في جزيرة ارقو قرب دنقله وانه سار الى بربر وانتظم في حلقة محمد الخير ثم ذهب الى الخرطوم وانتظم في حلقة الشيخ محمد الشريف من شيوخ الطريقة السمانية ثم انتقل الى جزيرة ابا واتفق ان بعض التلامذة احتفل بختان اولاده فاجتمع في الحفلة جماعة كثيرة غنوا ورقصوا فنهاهم محمد احمد عن ذلك لان الشريعة لا تجيزه وان شيخ الشريعة نفسه لا يقدر ان يجيزه . فبلغ الشيخ محمد الشريف ذلك فغضب واستحضر محمداً فجاء ذليلاً والتمس العفو فلم يعف عنه بل وبخه ومحا اسمه من سجل الطريقة . فخرج محمد احمد مطروداً ثم عاد وقد ذر الرماد على رأسه وجعل في عنقه الشعبة وهي عود ذو شعبتين توضع في العنق علامة التذلل والاستعطاف فانتهره محمد الشريف وطرده واهانه . فلم يعد محمد يستطيع الكظم فالتجأ الى شيخ آخر من الطريقة المذكورة اسمه الشيخ القرشي وكان بينه وبين الشيخ الشريف منافسة فخاف هذا عاقبة الامر فاستقدم محمد احمد واستدناه فابى وكان لذلك الاباء رنة في آذان اهل السودان وعظم محمد احمد في عيني الناس وانتقل الى جزيرة أبا . وبعد قليل مات الشيخ القرشي فبنى محمد على قبره قبة . وبالغوا في اكرامه نكاية بالشيخ الشريف وازداد الرجل شهرة بالتقوى والكرامة في معظم انحاء السودان وهو الى ذلك الحين لم يدع المهدوية

وكان استبداد جباة الاموال ضارباً اطنابه وحال السودان كما تقدم من القلاقل والاضطراب فكان محمد احمد اذا ذكر الضيق الذي اصابهم من ظلم الجباة نسب ذلك الى خطية بني الانسان وان العالم قد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فنالهم ما نالهم من غضب الله وان الله سيبعث رجلاً يصلح ما فسد ويملأ الارض قسطا وعدلا هو المهدي المنتظر . وقد كان ذلك حديث الناس في سائر انحاء السودان فحيثما اجتمعوا تحدثوا في ما يقاسونه من الضنك وما ينتظرونه من الفرج على يد ذلك المنتظر حتى اصبح لفظ « المهدي » يدوي في سائر مجتمعاتهم ومنازلهم في الاكواخ والاسواق والمساجد والزوايا على الطرق وفي العطمور وحيثما وجد اثنان أو ثلاثة فلا حديث لهم الا الفرج المنتظر على يد المهدي

فلما رأى محمد احمد ذلك وآنس من الناس ارتياحاً الى اقواله واصغاء الى مواعظه خطر له ان يكون هو صاحب ذلك الامر على انه لم ينطق به حتى سألوه أهلك المهدي المنتظر فقال « اجل انا هو » فاخذ يبث تعاليمه والناس يقدمون اليه ويسلمون له فانتشر خبره رويداً رويداً من جزيرة ابا على ضفاف النيل حتى وصل الخرطوم وما والاها فآمن بدعوته قبائل البقارة ورئيسها علي ولد حلو ولم يكن ايمان البقارة به لمجرد اعتقادهم بمهديته ولكن اكثرهم من النخاسين الذين نقموا على الحكومة لمنع الرقيق. ومكن هو علاقته معهم بعد ذلك بالتزوج ببنات كثيرين من كبارهم

وكان في جملة الذين يجتمعون عليه عبد الله التعايشي من قبيلة التعايشة وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الاحجبة وله شأن كبير في قبيلته فقال له محمد احمد انت وزير المهدي فقال عبد الله اني في انتظار مجيئه فاذا كنت اياه اظهر وانا ناصرك فقال نعم انا هو فآمن به فاستوزره فكان هو وقبيلته انصاراً له واتفق ظهور نجم ذي ذنب سنة ظهوره فاعتقد اهل السودان ان ذلك النجم انما هو راية المهدي تحملها الملائكة

ووصل خبر هذه الدعوة الى الخرطوم سنة ١٨٨١ وحكمدارها رؤوف باشا فانفذ اليه رجلاً من خاصته اسمه أبو السعود ليستقدمه الى الخرطوم فسار في أربعة من العلماء على باخرة حتى اتوا جزيرة ابا فلما نزلوا الشاطىء نادوا باعلى اصواتهم اين المهدي فجاء محمد احمد ويداه مخبأتان في ثوبه وجلس على عنقريب (مقعد سوداني) بجانب أبي السعود فقال له أبو السعود « ماهذا الذي قمت به » فاجابه محمد احمد بلطف ودعة « انا هو المهدي » فقال ابو السعود « ولكن يجب ان تذهب » فنهض محمد مغضباً ويده على قبضة حسامه وصاح به « لا لا اذهب » فخاف أبو السعود وترك الرجل للحال وأخذ علماءه وعاد بباخرته الى الخرطوم فوصلها ليلاً فايقظ رؤوف باشا من فراشه وأنبأه بما كان وقال له اعطني خمسين رجلا وانا آتيك بهذا المنافق فاذن له فسار بهم حتى اتوا الجزيرة فنزلوا اليها وبقي أبو السعود في الباخرة. وهم يفكرون في كيفية الهجوم على المتمهدي هجم رجاله عليهم بغتة وقتلوهم عن آخرهم فاشتد أزر المهدي وتمكن اعتقاد اتباعه بدعوته

على انه أدرك خطر مقامه بالقرب من مركز الحكومة فرأى ان يوغل في السودان ريثما تتكاثر احزابه فولى مكانه رجلا اسمه احمد المكاشف وغادر أبا قاصداً جبال كردوفان وسمى انتقاله هذا « الهجرة »

وكان في كاوا على النيل الابيض على مسافة خمسين ميلا من ابا شمالاً قوة عسكرية مصرية مؤلفة من ١٤٠٠ رجل تحت قيادة محمد سعيد باشا فاقتصت آثار محمد احمد

فاوغل هو في جنوبي كردوفان فتعقبته شهراً حتى هلكت ولم تدرك منه وطراً . ثم انتقل محمد احمد الى جبل قدير فحارب رشيد بك حكمدار فشوده وتغلب عليه في ٩ دسمبر سنة ١٨٨١ وكتب الى القبائل يدعوهم الى الاعتقاد بدعوته والاخذ بناصره

فلما علم رؤوف باشا بفشل سعيد باشا ورشيد بك هاله امر المتمهدي واخذ يجمع الجند من دنقله وبربر ودار الشايقية والثورة آخذة في الانتشار فانضم الى المهدي عرب الشلك وأصبحت قبائل الكبابيش في شمالي كردوفان والرفاعة في سنار والبشارين بين سواكن وبربر تتردد بين الطاعة والعصيان

وفي مارس سنة ١٨٨٢ اقيل رؤوف باشا فقام مقامه موقتاً جيكلر باشا فانفذ يوسف باشا الشلالي لمحاربة المتمهدي فجنحت به السفينة عند كاوا فتركه رجاله وفرّوا فلما علم المكاشف بذلك تشدد وخرج برجاله على سنار ومديرها حسين بك شكري فدخلها وقتل بعض حاميتها وتجارها فحاصر المدير ورجاله في المديرية فبلغ ذلك جيكلر باشا فانفذ لانقاذهم صالح بك في خمسمئة جندي فجاؤا المدينة ودخلوها ورفعوا الحصار عن المديرية فتقهقر الدراويش الى كركوج وراء سنار فخرجت عليهم الجنود المصرية من ابي حراز ومعهم ٥٠٠ مقاتل من عرب الشكرية بقيادة اميرهم عوض الكريم باشا ابي سن فلقيهم العصاة في المسلمية وارجعوهم على اعقابهم بعد ان قتلوا منهم جمعاً كبيراً . فخرج جيكلر باشا على العصاة بنفسه فغلبهم في ابي حراز وفي موقعة بالقرب من سنار ثم عاد الى الخرطوم . وكان قد وصلها عبد القادر باشا حكمداراً بدلاً من رؤوف باشا (في ١١ مايو سنة ١٨٨٢)

وكان الشلالي باشا قد أعدّ حملة في كاوا للخروج على المهدي في جبل قدير فسار بحراً في ستة آلاف مقاتل حتى اتى فشوده في مايو فسار برّاً واقام مدة على جبل في منتصف المسافة بين فشوده وجبل قدير ثم استأنف المسير في السهول والجبال حتى دنا من العدو في ٧ يونيو وكانوا فئة ضعيفة جائعة ولكن الشلالي استخف بهمته ولم يحسن التحصن فهاجموه بغتة وكسروه شر كسرة وأخذوا كل ما كان معه من المؤن والذخيرة ولم يبقوا الا على القليل من رجاله وكان ذلك النصر أعظم ما ناله المتمهدي الى ذلك الحين فاتخذ السودانيون نصرة هذا مع قلة رجاله دليلا على صدق دعوته وكان قد طاف كردوفان قبل ان صرح بدعوته واشتهر بين اهلها بالتقوى والكرامة والغيرة على الدين فجاء نصره هذا مصداقاً لما في أذهانهم فتقاطروا اليه بالمال والرجال من اقاصي كردوفان وعظم امره في عين الحكومة فاخذ عبد القادر باشا في تحصين الخرطوم وفرض لمن يقتل الدراويش جنيهين عن كل درويش و ١٨ جنيهاً عن كل

أمير وبعث الى الدراويش ان يثوبوا الى الطاعة ووعدهم خيراً وأخذ من الجهة الثانية يجمع الجند فاستقدم فرقاً من حاميات القلابات وسنهيت وجيرا وجند غيرهم فاجتمع لديه ١٢ الف مقاتل وامدَّ حامية الابيّض بالف

وفي اثناء ذلك هجم المكاشف على شات وافتتحها وقتل حاميتها وحاول فتح الدويم فلم يستطع. وكان المهدي لا يزال في جبل قدير لا يبدي حراكا اما قواده فكانوا يسيرون برجالهم يفتحون البلاد في جهات كردوفان فحاربوا الحامية المصرية في اماكن مختلفة وهددوا بارا وكشجيل والبركة وغيرها. ثم سار المهدي برجاله الى الابيّض عاصمة كردوفان وفيها محمد سعيد باشا فلما علم بقدوم العصاة جمع جنده من الجهات وحصن المدينة وفي اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٢ اصبح المتمهدي برجاله على مقربة من الابيض فكتب الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فجمع الباشا رجال مجلسه وشاورهم في الامر فاقروا على شنق الرسل وان لا يبعثوا جواباً ولكن اهل الابيض كانوا على دعوة المهدي سرًّا وهم الذين دعوه الى فتحها وفي مقدمتهم الياس باشا اعظم تجار كردوفان وحاكمها السابق فانضموا الى العصاة في تلك الليلة هم وبعض الحامية وبقي محمد سعيد باشا في نحو عشرة آلاف من الجند الباشبوزوق واما جيش المتمهدي فكان جراراً فيه ٦٠٠٠ تحمل البنادق التي غنموها من الجنود المصرية بالمواقع الماضية. وأما سائر قواته فتبلغ ستين الفاً ويقول سلاتين باشا في كتابه (النار والسيف في السودان) ان حملة البنادق لم تأت معه الابيض بل بقيت في قدير

وفي ٨ سبتمبر هجم العصاة على الابيض فارتدوا خاسرين وقد غنم الجند المصري ٦٣ راية من جملتها راية المتمهدي نفسه واسمها « راية عزرائيل » وقتلوا منهم نحو عشرة الاف وفي جملتهم محمد اخو المهدي ويوسف اخو عبد الله التعايشي ولم يقتل من الحامية الا ٣٠٠ فعظم ذلك على المتمهدي وأدرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعول من ذلك الحين ان لا يهاجم سوراً وانما يفتح البلاد بالتضييق عليها بالحصار حتى يضنيها الجوع وتعتمد الى التسليم. ثم جاء العصاة مدد فاشتد ازرهم فشددوا الحصار على الابيض وعلى بارا وكان في بارا نور عنقره أحد أمراء العرب وكان موالياً للحكومة ولكنه رأى مقامه حرجاً وتحقق الفشل فكتب الى المهدي سرًّا انه اذا ارسل اليه أميراً من اكابر امرائه سلم له فارسل اليه ولد النجومي فخرج نور عنقره مع محمد الخير وكان يلقب سر سواري أي قائد الخيالة وسلما لولد النجومي فقبلهما وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الابيض وبارا والعصاة يتكاثرون في سنار وغيرها

وكان المهـدي قد أرسل فرقاً من رجاله لنشر دعوته في دارفور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولـكنهم لم يغتنموا سنة ١٨٨٢ الا بعضاً من بلادها وفي اوائل سنة ١٨٨٣ فتحوا دارا في ٥ يناير واضطرت الابيض الى التسليم من الجوع في ١٩ منه فدخلت كردوفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكما على كردوفان وقبض على سعيد



ش ٢٠ : طبيب المهدي

باشا ورجاله وبعد اسرهم مدة اكتشف على تقرير بعثوا به سراً الى الخرطوم فأمر بقتلهم

وكان عبد القادر باشا قد سار بنفسه وجنده لقمع العصاة في جهات سنار فوشى به بعضهم في مصر فاستقدمته الحـكومة اليها على حين غفلة وعينت مكانه علاء الدين باشا وكان قبلاً في مصوّع وعهدت بقيادة الجنـد الذي كان في سنار الى حسين باشا وارسلت حملة جديدة لاسترجاع كردوفان عهدت بقيادتها الى ضابط انكليزي اسمه الـكولونيل هيكس ثم سمي هيكس باشا

وكان المهدي لما فتح الابيض ودانت له كردوفان وآمن به معظم أهل السودان أخذ ينظم حكومته على غير نظام الحكومة . وأهم اقسام الادارة على ابسط وجوهها ثلاثة الجند والمال والقضاء فجعل على الجند خليفته عبد الله التعايشي قائداً عاماً لجماعة الدراويش يدير حركاتهم . وانشأ ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفطرة والزكاة والغرامات التي يضربونها على شارب المسكر أو السارق . وعهد بادارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان . أما القضاء فاقام عليه رجلا اسمه احمد ولد علي كان قاضياً في دارفور وسماه قاضي الاسلام . وكان محمد احمد منذ اوائل ظهوره قد عين خلفاءه وجعلهم اربعة مثل الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر اولهم عبد الله التعايشي والثاني علي ولد الحلو والثالث محمد الشريف والرابع محمد السنوسي ولكن هذا رفض الخلافة

وعلم هذا المتمهدي ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردوفان من يديه فاخذ يحث الناس على الجهاد ويحقر الدنيا في اعينهم ويحبب الآخرة اليهم وهم يفدون اليه زرافات وقبائل يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد أن ذاقوا الراحة والاستقلال على يده فتخلصوا من الضرائب ونجوا من الباشبزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر الذي جاء « ليملأ الارض عدلا وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » ومما ساعدهم على هذا الاعتقاد تظاهر هذا الرجل بالتقوى والزهد فلم يكن يلبس غير السراويل والجبة فوقها منطقة من خوص يقضي نهاره في الصلاة ونشر المنشورات يحث بها الناس على ترك الدنيا والتمسك بالآخرة ويضع لهم القوانين والاحكام ومن امثلة ذلك منشور نشره من الابيض سنة ١٣٠١ هـ وقعت لنا نسخة منه ننشرها مثالا لتعاليمه وهاك نصها بالحرف الواحد على علاتها اللغوية :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله أعلاماً منه الى كافة المشائخ في الدين والامراء والنواب والمقادم اتباع المذكورين . يا عباد الله اسمعوا ما اقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بها وهو ظهورنا فهو شرف لكم على سائر الامم ولكن المطلوب منكم يا احبابنا المهاجرة في سبيل الله والمجاهدة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها فالى البوار ولو كانت لها بال لكان ربكم يحليها وانظروا في اهلها الذين كانت في كل ما يطلبوه وصارت لهم بعد ما كانت عسلا خنظلا وسماً وصاروا في غاية العذاب والهلاك بعده وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا وبعد ذلك فلهم العذاب الشديد فان

عجبكم هذا فافعلوا والا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وجاهدوا في سبيل الله فلهزة سيف مسلم في سبيل الله افضل من عبادة الله سبعين سنة ووقفة في الجهاد قدر فواق ناقة يعني حلبة ناقة أفضل من عبادة سبعين سنة . وعلى النساء الجهاد في سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها ارب الرجال فلتجاهد بيدها ورجليها والشبابة فليجاهدن نفوسهن ويسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهليـة الاولى ولا يخرجن الا لحاجة شرعيـة ولا يتكلمن كلاماً جهراً ولا يسمعن الرجال اصواتهن الا من وراء حجاب ويقمن الصلاة ويطعن ازواجهن ويسترن بثيابهن فمن قعـدت كاشفة فاتحة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطاً ومن قال لاخيه يا كلب أو يا خنزير أو يهودي او يا ... او يا ... فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام ومن قال يا فاجر او يا سارق أو يا زاني أو يا خائن او يا ملعون فعليه ثمانون سوطاً او يا كافر أو يا نصراني أو يا لوطي فعليه ثمانون سوطاً ويحبس سبعة أيام. ومن تكلم مع أجنبية وليس بعاقد عليها ولا لامر شرعي يجوز ذلك الـكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن حلف بطلاق أو حرام يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين ويحرق النبباك ان كان عنده وكذلك من خزنها في فمه ومن عملها بانفه ومن ابقاها في فيـه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الخمرة ولو مصة ابرة فيؤدب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام وجاره ان لم يقدر عليه يكلم امير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين صوتاً ويحبس سبعة ايام ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء أو اناء فيؤدب كذلك ويحبس ويجاهد نفسه في طاعة الله حقيقة أشد من الجهاد بالارماح لان النفس اشد من الـكافر مقاتلة فالـكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومسلـكها تعب . ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصي الله ورسوله قيل كافر وقيل يقتل وجاره ان لم يقدر عليه يكلم أمير البلد فان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام وقيل اموالهم غنيمة . وبنت خمس سنين ان لم يستره اهلها فيضربون من غير حبس ومن علم بامة معها زوج بغير عقـد وصبر يوماً قيل يقتل وقيـل يحبس وماله غنيمة . واعلموا ايها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لاجـل ان تشفقوا على الخلق وتزهدوهم في الدنيا ليتركوها وترغبوهم في الآخرة ليرغبوها ويطلبوها او تعلموهم عداوة نفوسهم ليحذروا منها وتنصفوا من انفسكم اذا أدعو عليكم فيها فما اشكل فامروهم فيه بالصبر لغاية

طلب الامراء وجمعهم عندنا ويصير تخييره بحسب الحكم فيه من الله ورسوله واعلموا يقيناً ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . واعلموا ايها الاحباب ان القضايا التي كانت من اثنى عشر رجب الماضي عام ١٣٠٠ بمقعة ماسة قد صار رفعها مطلقاً ما عدا الامانة والدين ومال اليتيم وأما التي بعد الاثنى عشر رجب الماضي وقبل الفتوح تسمع فيه الدعاوي وأما قتل النفس ففيه تفصيل في كونه مخير ولي المقتول في أخذ الدية أو القصاص وأما بعد الفتوح بالنسبة الى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير فاعملوا بذلك طبق المنشور وكذلك مال الخلع أخذه عموماً من الازواج بعد الدخول بهنّ والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن فلا يصح أخذه منهن فاحكموا فيه بالحكم الذي فصله الله تعالى في القرآن العظيم واعلموا يا احبابي ولا تخالفوا وامتثلوا الامر وكونوا سامعين طائعين لامري ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التي منّ الاله عليكم بها فقيدوها بالشكر . وتزوج الغنية بعشرة ريال مجيدي أو انقص والعزبة بخمسة ريال مجيدي أو انقص ومن خالف هذا فعليه الادب بالضرب والحبس في السجن حتى يتوب او يموت في سجنه ومقطوع من أهل زمرتنا ونحن بريئون منه وهو برىء منا والسلام (الختم)

وكان مع ذلك لا يغفل طرفة عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة اغراضها فكان يعرف كل ذلك في حينه معرفة تامة فلا تحدث حادثة أو تنوي الحكومة نية أو تخطو الجنود المصرية خطوة الا ويعلم بها هو وأرسل في اثناء ذلك قواده تبث دعوته في انحاء السودان فبعث عثمان دقنة الى السودان الشرقي يتولى قيادة العصاة هناك وارفقه بالمنشورات الى قبائل السودان الشرقي لتكون عضداً له وكان عثمان دقنه هذا من تجار الرقيق في سواكن وكان ناقماً على الحكومة

(حملة هيكس باشا) هذه هي الحملة التي زادت الويلات على مصر وكان من امر فشلها وهلاكها ما هو اشهر من نار على علم فيجدر بنا بسط واقعتها وسبب هلاكها وكيفيته لان الناس ما زالوا حتى الآن يعجبون لهلاك تلك الحملة وذهابها ادراج الرياح وعدد رجالها احد عشر الفاً أو تزيد معظمهم من الجنود المنظمة

جاء هيكس باشا في بادىء الرأي الى الخرطوم والحكومة لم تصمم على فتح الابيّض فاقام هناك مدة فبلغه ان بضعة آلاف من العصاة البقارة بقيادة الامير احمد المكاشف وكيل المهدي هناك فخرج اليهم هيكس وحاربهم عند مرابية بالقرب من جزيرة ابا فقتل المكاشف وعدد من قواده ورجاله وفر البافون وكان لتلك الواقعة

تأثير حسن في ارجاع ثقة اهالي سنار والخرطوم الى الحكومة وقوة جنودها

فصممت الحكومة على ارسال حملة تفتح الابيض فكتب هيكس باشا الى الحكومة بالقاهرة انه لا يتحمل تبعة هذه الحملة الا اذا كانت القيادة اليه وحده فسلمت له بذلك ولكنها ارسلت معه علاء الدين باشا حكمدار الخرطوم فطلب هيكس مدداً من الرجال والمال وسار علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاستحضر اربعة آلاف جمل وفي أواخر اوغسطس تمت كل معدات الحملة من ام درمان



ش ٢١ - هيكس باشا

وفي ٨ سبتمبر استعرض هيكس باشا جنوده وفي ٩ منه خرجت الحملة من أم درمان قاصدة الدويم وبينهما مئة وعشرة أميال وكانت تلك الحملة مؤلفة من أربع ارط من الجنود المصرية معظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابية وخمس ارط سودانية وارطة من الطبجية والخيالة وكانت الجنود المصرية تحت قيادة سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر وابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق . والباشبوزوق بقيادة خير الدين بك وعبد العزيز بك ووالي بك وملحم بك ويحيي بك. والطوبجية والسواري

بقيادة عباس بك وهبي وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر ألفاً منهم سبعة آلاف من المشاة المصريين والباقون من الباشبوزوق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم وفيها ٥٥٠٠ جمل و٥٠٠ فرس واربعة مدافع كروب وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس اركان حرب والبكباشية سكندروف ووورتر وماسي وايفانس وغيرهم ومكاتبو التمس والدالي نيوز والغرافيك

وفي ٢٠ سبتمبر وصلت الحملة الى الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا أما هيكس فكان لا يزال في الخرطوم وقد ارسل تلغرافاً الى القاهرة أنبأ الحكومة بخروج الحملة من الخرطوم وبين الصعوبة التي ينتظر ملاقاتها في طريقه نظراً لحرارة الاقليم وقلة المياه وكان في عزمه ان يجعل مسير الحملة من الدويم الى الابيض عن طريق باره وطول هذه الطريق ١٢٦ ميلاً يقيم في اثنائها محطات فيها قوات عسكرية لحفظ خط الرجوع (خط الاتصال) الى الدويم فيفتح اولا بارة يقيم فيها مدة ثم يخرج على الابيض

فلما جاء الدويم وانضم الى الحملة تفاوض هو وعلاء الدين باشا في الامر فقال علاء الدين انه ارسل اناساً جسوا الارض فقالوا ان طريق باره قليلة المياه وان احسن طريق للابيض بمثل هذا الجند الكبير طريق خور أبو حبل والرهد الى الجنوب فان الماء كثير فيها نعم ان طولها ٢٥٠ ميلاً ولكن مئة منها سهلة يسير بها الجند بكل راحة والماء كثير الا ان المسافة بين الدويم ونورابي وطولها ٩٠ ميلاً قليلة المياه فاقنعه علاء الدين باشا ان الماء في تلك المسافة يسهل الحصول عليه وبناء على ذلك قرّرا ان تسير الحملة عن طريق خور ابو حبل فوصلوا في ٢٤ سبتمبر الى شات واستولوا على آبارها وانشأوا نقطة عسكرية . وبدأ الجند منذ خروجهم من الدويم يقدرون العواقب الوخيمة وينتظرون البلاء العظيم . وكان سيرهم على شكل مربع يتأهب للقاء العدو في مقدمته الدليلان فالطلائع فالضباط العظام واركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاة المصريين وفي ساقته الخيالة والجمال والاحمال والاثقال وفي وسط المربع الطوبجية وقد شبه سلاتين باشا ذلك المربع بغابة من الرؤوس والاعناق اذا اطلق العدو عليها رصاصة يستحيل ان تخطئها كلها

وزد على ذلك ان الجمال لم تكن تستطيع المرعى بالنظر الى انحصارها في المربع فجاعت واكلت قش ارحالها وخارت قواها حتى مات كثير منها . وفي ٣٠ سبتمبر وصلت الحملة الى قرية تبعد ٣٠ ميلاً عن الدويم اسمها زريقة

كل ذلك والحرارة تشتد واللغط يتعاظم بين الجند وكلهم خائف من سوء العاقبة ثم حدث نفور بين هيكس وعلاء الدين سببه اختلافهما في الرأي بشأن خطة المسير فرأى علاء الدين ان النقط العسكرية في خط الاتصال لا حاجة اليها لانها تقلل عدد الجند فخالفه هيكس في ذلك لان قطع ذلك الخط يقطع كل امل برجوع احد من رجال الحملة حياً اذا قدّر انكسارها في ساحة الحرب على انهم لم ينشئوا نقطة عسكرية بعد شات

اما محمد احمد فلما علم بمسير حملة هيكس جمع رجاله ودعاهم الى الجهاد في سبيل الله وخرج بنفسه وعسكر بقرب شجرة كبيرة بضواحي الابيض ينتظر وصول الحملة فاقتدى به خلفاؤه وامراؤه فخرج كل منهم برجاله وعسكروا هناك وبنوا الاكواخ والتكول (نوع من العشش)

أما الحملة فما زالت سائرة تسحف سحفاً كانها مثقلة بالقدر المحتوم حتى وصلت عقيلة (ايجلاً) في ١١ اكتوبر . وفي ١٤ منه وصلت بحيرة شركلا فتناولت شيئاً من مائها وهي لم تزدد الا يأساً وخوفاً . وكانت الحكومة المصرية قد انبأت هيكس باشا قبل خروجه من الدويم ان ستة آلاف من أهل جبل تاج الله وبعض الجيانية سينضمون اليه فكان ينتظر وصولهم بفروغ صبر فذهب انتظاره عبثاً . وقبل ان تصل الحملة بحيرة الرهد بقليل فرّ منها رجل الماني اسمه كلوتس من صف الضابطان والتجأ الى العصاة ولكنه لم يكن يعرف الطريق فلقيه بعض الدراويش فارادوا قتله فاشار اليهم انه جاء بمهمة فارسلوه الى الابيض فوقف بين يدي المهدي واخبره عن الضيق المحدق بالحملة وما هي فيه من اليأس فكانت خيانته هذه مساعداً كبيراً على هلاك حملة هيكس فسر المتمهدي سروراً لا مزيد عليه واسلم كلوتس هذا وسمى مصطفى . وبعث المهدي الى هيكس ورجاله ينصح لهم ان يسلموا اليه ويؤمنوا بمهدويته فلم ينل منهم جواباً فضلاً عن احتقارهم كتبه واستخدام اوراقها في سبل هاجت غضب المتمهدي

ووصلت الحملة الى الرهد في ٢٠ اكتوبر فاقامت هناك ٦ ايام شاهدت في أثنائها طلائع الدراويش وشرذمات منهم يهاجمونها وفي ٢٦ اكتوبر سارت ولم تكد تترك معسكرها حتى احتلته العصاة فعلم علاء الدين اذ ذاك خطأه في اهمال خط الاتصال وقد اصبحوا محاطين بالعدو من كل الجهات . وكان في عزمهم المسير الى الابيض عن طريق البركة ولكن الجواسيس اخبروا هيكس ان العصاة نزلوا البركة ومعهم خلفاء المهدي وامراؤه بعددهم ورجالهم فتشاور علاء الدين وهيكس في هل يرجعون الى

الرهد او يسيرون الى كشجيل ومنها الى مليس فالابيض . لان خور ابو حبل يتشعب عند الرهد الى شعبتين تسير احداها الى البركة والاخرى الى كشجيل فاقرّ الرأي على المسير الى كشجيل فساروا في ٣ نوفمبر عشرة اميال بين الغابات والاحراج وقد اخطأوا الطريق ثم وقفوا وانشأوا زريبة باتوا فيها الى الصباح فاستأنفوا المسير حتى صاروا على مسافة ميلين من شيكان بين كشجيل والبركة وقد أجهدهم العطش فهجم عليهم شرذمة من العصاة فتبادلوا اطلاق الرصاص وقبضوا على بعض منهم فعلموا ان الدراويش هناك بكثرة عظيمة فجمع هيكس باشا كبار رجاله وعقدوا مجلساً تشاوروا فيه فلم يتمروا على أمر وكثر اللغط بين الجند وتسلط الرعب على قلوبهم وايقنوا بالهلاك . وفي



ش ٢٢ ـ الافيال في صحاري السودان

الصباح التالي عوّل هيكس على المسير تحت رحمة الله فجعل جيشه ثلاثة مربعات وسار في طريق وعر كثير الاشجار والصخور فحصل بينه وبين الدراويش موقعة قتل فيها كثير من رجاله . ثم سار أيضاً فلم يمض ميلاً حتى هاجموه ثانية في شيكان . وقد رأينا في منشور ارسله المتمهدي الى عثمان دقنه يخبره بتلك الواقعة ويسمي مكان وقوعها علوية وكانت تلك الهجمة القاضية لم تبق على تلك الحملة ولم تذر لان الدراويش هاجموها من كل جانب حتى صار الجنود المصريون يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وهم لا يعلمون فقتل هيكس وكل قواده وجنده ولم ينج منهم الا نحو ثلاثمائة رجل اكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين الشجر أو تحت جثث القتلى وفي جملتهم رجل

اسمه محمد نور البارودي كان في خدمة هيكس باشا وهو الذي روى اكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة وقد سكروا من خمرة النصر وتركوا بعض الامراء يجمعون الاسلاب والغنائم الى بيت المال وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الى الابيض بالمدافع والذخيرة والاموال التي اكتسبوها من حملة هيكس وكان دخول الابيض باحتفال شائق . ولا ريب ان تغلبه في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت اخمصه لان كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربه مع هيكس باشا فلما علموا بما كان انضموا اليه وصاروا من اعوانه



ش ٢٣ ـ سلاتين باشا

وكان سلاتين بك (سلاتين باشا الان) الى ذلك الحين حكمداراً على دارفور وقد قاسى مشقات جسيمة في مناوأة العصاة وتمردهم وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس فلما علم بفشلها لم ير بدًّا من التسليم فبعث الى المهدي بذلك وان ينفذ اليه بعض اقاربه ليسلم البلاد له فبعث اليه الامير محمد خالد ويكنى زقل اميراً على دارفور واوصاه بسلاتين خيراً فوصلت الدراويش دارا ونهبوها وارسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي وجاء سلاتين مخفوراً الى الابيض وبايع المهدي واظهر الاسلام والايمان

بالدعوة وسمى عبد القادر . وهاك نص ايمان البيعة كما رواه سلاتين باشا « بسم الله الرحمن الرحيم بايعنا الله ورسوله على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي بهتان ولا نعصاك في معروف بايعناك على ترك الدنيا والآخرة ولا نفرُّ من الجهاد » ويظهر ان فيه تحريفاً عن الاصل اذ لا يعقل ان يبايعوه على ترك الدنيا والآخرة معاً وهم انما يرغبون في دعوته طمعاً في الآخرة فكيف يبايعونه على تركها والظاهر ان الاصل « ترك الدنيا والتماس الآخرة » واقام سلاتين من ذلك الحين ملازماً لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين

﴿ السودان الشرقي ﴾ وفيما كان هيكس يجشم الاخطار في قطع الصحاري والقفار ينتظر القدر المقدوز وكان عثمان دقنه ينشر دعوة محمد احمد في السودان الشرقي وقد اجتمع حوله احزاب كبيرة . وقد حدثنا صديق فاضل رافق تلك الحوادث في السودان الشرقي وعرف خفاياها قال : ان توفيق بك محافظ سواكن اذ ذاك تصرف مع العربان الذين يتولون خفارة الطريق بين سواكن وكسلا تصرفاً أوجب نفورهم وذلك انه ولى عليهم شيخاً اسمه محمد الامين ليكون مسئولا عنهم لدى الحكومة على جاري العادة وكانوا يكرهون هذا الرجل فالتمسوا من المحافظ ان يبدله بسواه فابى الا توليته فغضبوا جميعاً ونفروا من الحكومة وهم كثار واتفق مجيء عثمان دقنه بمنشور المهدي فانضموا اليه جميعاً فاشتد ازره بهم ثم انضم اليه غيرهم فسار لمناوأة الحكومة في سواكن وضواحيها فهاجموا سنكات في ٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ ولكنهم عادوا خاسرين فساروا الى طوكر وحاصروها فارسلت الحكومة محمود طلما باشا قائد حامية السودان الشرقي لانقاذها فباغته الدراويش وكسروه شر كسرة وحاولت الحكومة مقاومة الدراويش بكل وسيلة وحصلت مواقع كثيرة في تمانيب وترنكتات وغيرها فلم تعد منهم بطائل . وما زالت سنكات وطوكر محاصرتين تطلبان المدد فاعدت الحكومة في أوائل سنة ١٨٨٤ حملة تحت قيادة باكر باشا سارت الى سواكن لفتح الطريق بين سواكن وبربر وطرد العصاة من البلاد الواقعة بينهما فسارت ومعها نجدة من مصوع وكسلا فلاقاها العصاة في التب بغتة في ٢ فبراير فحاربوها ففشلت وعادت بخفي حنين . كل ذلك وحامية سنكات لا تزال محاصرة وفيها توفيق بك محافظ سواكن المتقدم ذكره وكان رجلا باسلاً شهماً أظهر في حصاره شجاعة لم تعهد الا بالقليل من الناس وقد جاء سنكات عرضاً وانحصر فيها وسنكات قرية صغيرة لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنه السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها يهلكون جوعاً فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله فابى الا البقاء على ولاء الحكومة

فلما جاء باكر باشا وعاد خائباً بعث عثمان اليه ان يسلم فيسلم وان الامل بانقاذه قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات ولما رأى توفيق بك أخيراً ان المؤن فقدت والجند جاعت وأهل البلد ملت جمع اليه رجاله واهل سنكات وشاورهم في الامر وحثهم على الثبات على ولاء الحكومة فقالوا نحن على ما تريد فقال اذ قد نفد زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقتلين فاما ان نسير الى سواكن وأما ان يلاقينا العصاة فندافع عن انفسنا حتى الموت

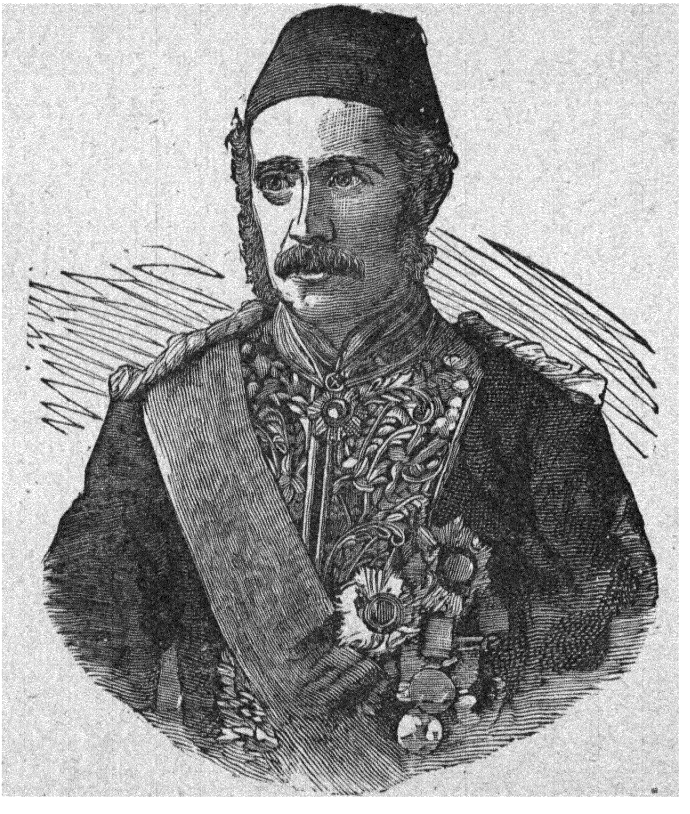
فخرجوا في أوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي وأخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنه برجاله وهاجموهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبسالة ولم ينج من رجاله وأهل القرية الا نفر قليلون

وكان ذلك من جملة العوامل لتأييد دعوى المتمهدي ونشر سطوته وخوف الحكومة عاقبة امره . وبدلاً من مواصلة العمل في كبح جماح العصاة واسترجاع ما ملكوه من بلادها أقرت بمشورة الحكومة الانكليزية على اخلاء ما بقي من السودان في قبضتها وسحب جنودها منها والتخلي عن السودان المصري كله للدراويش وأصدرت بذلك امراً بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وانفذت الحكومة الانكليزية الجنرال غوردون باشا الى السودان للنظر في أفضل الوسائل لسحب حامية السودان وسكانها من الافرنج وغيرهم وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وغير ذلك . فسار غوردون باشا ومعه الكولونيل ستيوارت كاتم اسراره فوصل القاهرة فانبأه السير افلن بارنغ (اليوم اللورد كرومر) ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليه اخلاء السودان واعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمونها لما فتحها محمد علي باشا ويقال لهم الملوك او ان يولي غيرهم كما يتراءى له

فسار غوردون عن طريق كروسكو وابي حمد فوصل بربر في ٩ فبراير سنة ١٨٨٤ وفي ١٨ منه وصل الخرطوم فتلقاه اهلها بالاكرام وكان السودانيون يحبونه ويكرمونه للين جانبه وكرم اخلاقه . ومن الغريب ان يسير غوردون بنفسه بلا جيش الى بلاد اشتعلت بنار الثورة ولكنه كان كثير الاتكال على الله وقد صرح بذلك عند وصوله الخرطوم فقال « لم آت لانقاذ السودان بجيش ولكني اتكلت على الله فلا احارب الا بسلاح العدل »

﴿ سقوط الخرطوم ومقتل غوردون ﴾ سافر غوردون من القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ ومعه مساعده الكولونيل ستيورات قاصدين الخرطوم في عطمور ابي حمد فبربر فالخرطوم ومعهم اوامر عالية تحصر خلاصتها في ما يأتي :

١ ان يسحب الموظفين المصريين وعائلاتهم واموالهم من سائر انحاء السودان الى مصر ٢ ان يقيم مقامهم موظفين من اهل السودان يدبر شؤونهم بحكمته كأنه يؤسس دولة جديدة ٣ ان يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل المهدوة في السودان الشرقي فيفتح الطريقين بين بربر وسواكن وبربر وكسلا ٤ ان ينقذ سنار وسائر البلاد الواقعة بين النيلين الازرق والابيض (الجزيرة) ٥ أن يرسل خمس بواخر لنقل عائلات الجنود المصرية في مديريات خط الاستواء وبحر الغزال ٦ ان



ش ٢٤ ـ غوردون باشا

يدبر طريقة لمن بقي في دارفور ان ينسحبوا الى مصر عن طريق دنقلا

هذه كانت مقاصده عند خروجه من مصر وخلاصتها اخلاء السودان فلما وصل بربر أراد ان يتلوها على اهلها فمنعه حسين باشا خليفة مدير بربر لان التصريح بذلك يعجل على بقية نفوذ الحكومة فأطاعه ولكنه تلاها في المتمة فكانت داعياً الى سرعة سقوط بربر بعد ذلك . واما غوردون فوصل الخرطوم في ١٨ فبراير كما تقدم وفي

يوم وصوله جمع أعيان الخرطوم كافة في بناية المديرية وافهمهم مهمته ثم خرج الى سراي الحكمدارية فـلاقاه مئات من الناس وتراموا على يديه ورجليه يقبلونها وهم يقولون « يا سلطاننا يا والدنا يا مخلص كردوفان » ثم أخـذ غوردون وستيوارت في تدبير شؤون الاحكام فانشأوا اقلاماً مختلفة في الحكمدارية للنظر في قضايا النـاس وانصافهم على اختلاف طبقاتهم . فاخرج دفاتر الحكومة القديمة وفيها قيود الذمات مطلوبة من أصحاب الاطيان خراجاً عن اطيانهم فوضع تلك الدفاتر في باحة عمومية وأوقد فيها النار ولما اتقدت النيران وتعالى لهيبها استخرج الـكرابيج والعصي وسائر ادوات الضرب والصفع التي كان يستخدمها الحـكمداريون قبلا والقاها في ذلك اللهيب وأهل الخرطوم ينظرون فكان لذلك تأثير حسن في اذهانهم ثم انشأ مجلساً وطنياً مؤلفاً من أعيان المدينة وبعد قليل زار الترسانة والمستشفى واخيراً ذهب لتعهد السجن ومعه ستيوارت وكوتلجن والمستر بوار فنصل انكلترا هناك فرأى فيه حوادث تتفتت لها الاكباد فضلاً عن القذارة وشاهد بين المسجونين أولاداً وشيوخاً بعضهم قد ثبتت براءتهم ولا يزالون في السجن وآخرون سجنوا لتهمة فقضوا ثلاث سنين في السجن قبل ان تثبت عليهم جناية . ورأى هناك امرأة قضت خمس عشرة سنة مسجونة لذنب اقترفته في صباها فامر غوردون باخراج المسجونين كافة وتنظيف السجن فلم يأت المساء حتى خرجوا زرافات ووحداناً وهم يطلبون الى الله تعالى ان يطيل عمره . وقضى اهل الخرطوم تلك الليلة سهارى فأضاؤا الانوار الملونة واوقدوا المشاعيل وباتوا فرحين مسرورين

واراد غوردون ان يمكن محبته من قلوب اهل السودان فخفف الضرائب وانصف المظلومين وابطل كثيراً من العوائد ثم اصدر منشوراً يلغي فيه كل الاوامر الصادرة بشأن الغاء تجارة الرقيق وهاك مفاد المنشور :

منشور الى اهل السودان كافة

اعلموا ان راحتكم هي غاية ما نرجوه وبما اني اعلم ان ابطال تجارة الرقيق قد ساءكم وهالـكم ما وضعته الحـكومة من القصاص على من يتعاطاها وغـير ذلك مما صدر من الاوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت التماساً لراحتكم ان ابطل كل تلك الاوامر وأمنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم احد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم والسلام لكم

الخرطوم غوردون باشا

ففرح تجار الرقيق لهذا المنشور ولـكنهم استدلوا منه على ضعف الحـكومة وانها انما اصدرته بالرغم منها لانها لم تقو على تنفيذ اوامرها في ابطال تلك التجارة . ثم حول

نظره الى امر المهدي فارسل اليه في الابيض كتاباً يطلب فيه اطلاق الاسرى ويوليه كردوفان وارفق الكتاب بخلعة نفيسة فرد محمد احمد الخلعة وبعث الى غوردون ان يسلم فيسلم وان المهدي لم يقم بدعوته طمعاً في الولاية

وكان غوردون باشا في اثناء مسيره الى الخرطوم قد تدبر امر مهمته هذه فرأى ان ترك السودان وشأنها بعد اخلائها تعود على مصر بالوبال فلا تلبث الثورة ان تنتشر ويزحف الدراويش الى حدود مصر فبعث يوم وصوله الخرطوم رسالة برقية الى الحكومة الانكليزية يطلب فيها ان تبعث اليه الزبير رحمت باشا حالاً وكان الزبير باشا من اكابر تجار الرقيق في دارفور وبحر الغزال وعاضد الحكومة وفتح لها دارفور ثم جاء مصر قبل الحوادث السودانية ليشكرها على رتبة انعمت بها عليه فلم تأذن له بالعود الى بلاده فظن غوردون باشا انه اذا اخلى السودان ودبر حكومته جعل الزبير باشا خلفاً له عليه خوفاً من استفحال امر المهدي وخروجه على مصر فابت الحكومة ارسال الزبير فشق ذلك عليه كثيراً

ثم ما لبث ان علم بانتشار دعوة المهدي وانضمام معظم القبائل اليه فاصدر منشوراً يتوعد الثائرين بعذاب اليم وينصح لهم ان يثوبوا الى طاعة الحكومة وبعث الى مصر يقول « اذا شئتم ان تخلص مصر من عذاب دائم ارسلوا جنداً لمقاتلة المهدي وسحق قواته وهو امر ميسور لكم الآن اما اذا دخلت الخرطوم في حوزته فيصعب عليكم قهره على انكم ستضطرون الى ذلك ان عاجلاً وان آجلاً التماساً لسكينة القطر المصري وسيكون ذلك شاقاً كثيراً بعد الآن »

وكان الكولونيل ستيوارت قد سار في مئة رجل بالاعلام البيضاء لمسالمة القبائل القاطنة على النيل الابيض وتلاوة منشورات غوردون عليهم فكان كلما بعد عن الخرطوم ازداد نفور الناس عنه حتى صاروا يعترضون مسيره ويحاربونه واكثرهم من قبيلة البقارة فعاد الى الخرطوم خاسراً فارسله غوردون ثانية في ٢ مارس سنة ٨٤ بمنشورات أخرى فعاد بخفي حنين . وما زالت الثورة تقترب من الخرطوم وضواحيها حتى احدقت بها من كل الجهات . وفي اثناء ذلك جاءت حملة من الدراويش لحصار الخرطوم فجاء جمع منهم الى حلفاية شمالي المدينة فانهزمت حاميتها فجرد غوردون في ١٦ مارس عليهم الفي مقاتل بالبنادق وفيهم الباشبوزوق والجند المنظم لاسترجاع حلفاية فاطلهم الدراويش حتى غدروهم وكسروهم شر كسرة فعادوا القهقرى الى الخرطوم وقد قتل منهم جمع كبير ففشل غوردون لهذه الكسرة وحاكم قواد تلك التجريدة واكبرهم سعيد باشا وحسن باشا وكلاهما من اهل السودان فحكم عليهم بالاعدام لثبوت الخيانة عليهما فقتلا وقطعت اعضاؤهما

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ وصلت الاخبار بسقوط بربر والقبض على مديرها وارساله اسيراً الى الابيض وتولى بربر امير من امراء الدراويش اسمه محمد الخير وكان سقوط بربر ضربة قوية على الخرطوم لانها كانت واسطة الاتصال بينها وبين مصر. فادرك غوردون صعوبة مركزه وتحقق يقيناً ان انقاذ مهمته لم يعد ممكناً بالحسنى فلا بد من استعمال قوة الجند فطلب الى حكومته ارسال حملة لمساعدته فترددت انكلترا طويلاً قبل الاقرار على الحملة على انها اقرت في مايو على وجوب ارسالها ولكن جنودها لم تبدأ بالمسير الى السودان إلا في سبتمبر فتذمر اهل الخرطوم وشكوا الى غوردون حالهم وفي جملتهم كل الاجانب المقيمين هناك فقال لهم من أراد الذهاب فليذهب أما انا فلا أستطيع الخروج إلا بعد انقاذ الحامية والناس أو أن أموت معهم. ولكنه أشار على ستيوارت ان يسير الى مصر بمن اراد مرافقته من الاجانب وعهد اليه ايصال تقاريره اليومية عن أحوال الخرطوم من أول مارس الى ٩ سبتمبر وهو يوم سفر ستيوارت وظن غوردون ان ذهاب ستيوارت بهذه التقارير الى مصر يفيد الحملة القادمة لانقاذه فركب ستيوارت باخرة وركب معه بعض الافرنج ورافقته باخرتان فوصل بربر فضربها ومرّ بها فعادت الباخرتان وجرت باخرته حتى اذا تجاوزت أبو حمد الى واد قمر ضايقها الدراويش من البر ثم جنحت فنزل من فيها فلقيهم الدراويش وقتلوهم وحملوا الاسلاب والاوراق الى المهدي. كل ذلك وغوردون يستحث الانكليز ويستنهض هممهم وينذرهم بالخطر القريب فجاءه خبر هلاك ستيوارت ومن معه قبل خروج الحملة . على ان تلك الحملة لم تصل الخرطوم إلا في ٢٨ يناير سنة ٨٥ أي بعد سقوطها ومقتل غوردون بيومين

فلننظر في حركات الدراويش واجراآتهم في أثناء حصار الخرطوم من معسكرهم ملخصاً عما رواه سلاتين باشا في كتابه « السيف والنار في السودان » وما أحكاه غيره من الاسرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها

تركنا المتمهدي وقد عاد ظافراً الى الابيّض بخيله ورجله فبعد وصوله اليها انفذ بعض امرائه لتأييد سلطته في دارفور وبحر الغزال وما جاورها ثم علم ما كان من أمر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنا في سنكات وتمانيب والتب وحصار كسلا وكان قد ولى صهره ولد البصير على الجزيرة ما بين النيلين الازرق والابيض فبلغه انه حارب الجنود المصرية هناك وغلبها وعلم في أثناء ذلك ان غوردون باشا جاء الخرطوم بلا جند ثم وصله كتابه يطلب اليه اطلاق الاسرى ويوليه كردوفان فلم يعبأ به وأجابه بلهجة شديدة كما قدمنا

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره على هيكس وتقاطر الناس اليه قبائل وجماعات قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم وابلهم وخيلهم حول الابيض فقلت مياه الابيض فخاف المهدي ان يصيبهم جهد فاشار بالانتقال الى الرهد وفيها الماء غزيراً فانتقلوا اليها رجالا ونساء وأولاداً في اواسط افريل سنة ١٨٨٤ باحمالهم وأثقالهم ودوابهم وأقاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحث على الجهاد ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم على اهل الجزيرة فبعث محمد أبا جرجا أميراً عليها في عدد عظيم من الدراويش على ان يمد اهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم فحصلت بينه وبين جنود الخرطوم مواقع انتصرت في اولها الجنود المصرية ثم عادت العائدة عليهم بعد ذلك كما رأيت . وأرسل المهدي الشيخ محمد الخير اميراً على بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وأرسل مديرها حسين باشا خليفة اسيراً الى معسكر المهدي في كوردوفان فالتقى بسلاتين باشا وتشاطرا مصيبة الاسر . أما دنقلا فكان مديرها مصطفى بك ياور (ثم صار مصطفى باشا) قد كتب الى المهدي غير مرة يسلم اليه فلم يركن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقية ليجسوه فحاربهم وفرق جمعهم وكان الماجور كتشنر (اللورد كتشنر باشا) قد جاء بمهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور واحوال السودان فشهد بعض مواقعه مع الدراويش

وخلاصة الامر ان حجار السودان ورماله كادت تنطق بصوت واحد « صدق محمد احمد بدعواه » وكان الى ذلك الحين مقيما في الرهد فكتب اليه امراؤه من انحاء مختلفة ان ينزل برجاله الى النيل الابيض فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة اعدائه والاعتداد بقوته ويستعرض جنوده كل جمعة استعراضاً عمومياً يحضره هو بنفسه يسمونه (عرضة) والجيش اذ ذاك ثلاثة اقسام يرأس كل منها خليفة من خلفائه ولكن الخليفة عبد الله التعايشي كانت له الرئاسة الكبرى ويلقب « رئيس الجيش » وفرقته تسمى « الراية الزرقاء » ينوب عنه في قيادتها اخوه يعقوب التعايشي وفرقة الخليفة علي ولد الحلو تدعى « الراية الخضراء » وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى « الراية الحمراء » او « راية الشرفاء ». وتحت قيادة كل من هذه الرايات الثلاث رايات صغيرة لا يحصيها عدٌّ يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش

وكيفية الاستعراض عندهم ان يقف امراء الزرقاء براياتهم صفاً واحداً يولون وجوههم المشرق ويقف امراء الراية الخضراء صفاً آخر يقابل الصف الاول وجهاً لوجه ويقف امراء راية الاشراف صفاً آخر يقابل الشمال فيؤلفون مربعاً ينقصه

ضلع كأنه باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمر بجانب الصفوف يحييهـا قائلاً « الله يبارك فيكم »

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انه قد اوحي اليه في الرؤيا (الحضرة) ان ينزل لمحاصرة الخرطوم فبعث الى أبي عنقر وكان قد ارسله في مهمة الى جبل الدير وأوعز الى كل أمير ان يجمع رجاله للخروج على الخرطوم فلما تكامل الجمع زحف المهدي برجاله من الرهد في ٢٢ اغسطس (آب) سنة ١٨٨٤ في ثلاث فرق سارت كل منها في طريق أعظمها الفرقة التي فيهـا المهدي وخلفاؤه فهذه سارت على طريق حملة هيكس السيئة الحظ اي من الرهد فشركلا فالدويم وكان في هذه الفرقة سلاتين باشا بمعية التعايشي فلما وصلوا شركلا جاءهم غريب أمسكوه اسيراً فوقف بين يدي التعايشي وسلاتين يترجم بينهما فاذا هو فرنساوي واسمه أوليفيه باين قال انه جاء من قبل دولة فرنسا يعرض مساعدتها على المهدي ليقهر الانكليز فابقاه التعايشي في جملة الاسرى ريثما يقيمون فينظر في امره ولكن الرجل مرض من سوء المعاملة واشتدت عليه الحمى فمات في أثناء الطريق قبل ان تصل الحملة الى الخرطوم

أما الحملة فوصلت جوار الخرطوم في اواسط اكتوبر سنة ١٨٨٤ فعسكرت على مسافة يوم منها وهناك بعث المهدي الى سلاتين وأمره ان يكتب الى غوردون يدعوه الى التسليم ويقول له ان المهدي حقٌ وان عبد القادر (يعني سلاتين) نفسه يكون اول المحامين له فاستأذن سلاتين المهدي قائلاً « أخاف اذا كتبت اليه ذلك ان يستغشني فارى ان انصح له بالتسليم للامام المهدي لان جنوده مظفرة لا تقوى جنود الخرطوم عليها وأن أتوسط في أمر تسليمه اليكم » فاستحسن المهدي الرأي فذهب سلاتين الى خيمته وهو لا يصدق انه سيكتب الى غوردون فكتب اليه كتاباً طويلاً عريضاً بالنمساوية (لانه لا يعرف الانكليزية جيداً) شرح فيه حكاية تسليمه دارفور والاحوال التي قضت عليه بذلك وقال له ان الاسرى المقيمين مع المهدي هم على ولاء الحكومة يسلمون لها ويضربون بسيفها حالما يتاح لهم ذلك وأوعز اليه ان يخبره عن حاله بالخرطوم وان يكتب اليه كتاباً في العربية يطلب فيه مقابلته في ام درمان للنظر في شروط التسليم . وكتب كتاباً آخر الى هنزل قنصل النمسا بمثل هـذا المعنى وجاء بالكتابين الى المهدي فامره ان يرسلهما مع أحد خدمه الى أم درمان ولم يكد يسير الرسول حتى جاء خيالة من بربر ينبئون المهدي بمصاب ستيوارت ومن كان معه وجاؤا بالاسلاب وفيها كثير من الاوراق فبعث المهدي الى سلاتين ليخبره بما في تلك الكتب فقلب فيها وقال انها كتب خصوصية ارسلها بعض اهل الخرطوم الى اهلهم في مصر

وغيرها ورأى تقارير غوردون نفسها وعرف خطه فتأسف أسفاً لا مزيد عليه ولكنه أظهر الجلد فقال له المهدي « اكتب الآن الى عملك (يريد غوردون) ان مركبه قد كسر ورجاله قتلوا وارسل اليه هذا التقرير تأييداً لذلك فاظنه اذا تحقق الامر اسرع الى التسليم » فكتب سلاتين اليه والى القنصل كتابين آخرين وأرسلهما مع خادمه الى ام درمان . وكان في مكان ام درمان اذ ذاك طابية من طوابي الخرطوم اسمها « طابية أم درمان » أو « طابية رجب بك » فعاد الخادم من عند القنصل هنزل بجواب مقتضب لم يشف غليلا فارتاب المهدي بنية سلاتين فامر بتقييده فاثقلوه بالحديد وحجزوا عليه في خيمة منفردة

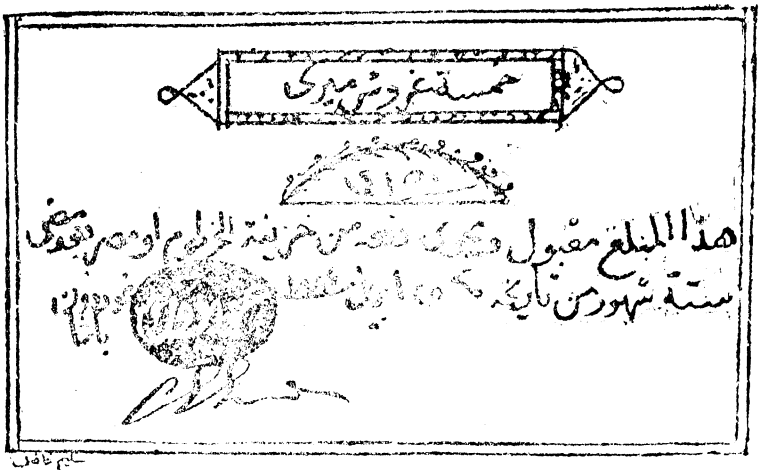
وبعد قليل زحف المهدي برجاله واحمالهم واثقالهم ودوابهم فضربوا نقارتهم وساروا حتى أشرفوا على الخرطوم وسلاتين معهم فعسكروا هناك تحت راية التعايشي وسار الامراء الآخرون يحثون عن مكان آخر يعسكرون فيه . ثم أمر المهدي ان يحدق جنده بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها فامر أبا جرجا وولد النجومي ان يحاصراها برجالهما من البر الشرقي للنيل الابيض عند مكان اسمه كلاكلا وأمر أبا عنقر (أو أبو عنقه) وفضل المولى ان يحاصرا طابية ام درمان على البر الغربي وما زالوا محاصرين تلك الطابية حتى فتحوها في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهي أول طابية فتحوها من حصون الخرطوم . ويؤخذ من تقرير كتبه الشيخ المضوّي احد قواد المهدي في ذلك الحصار ان المهدي كان عازماً ان يشدد الحصار على الخرطوم حتى تسلم من الجوع كما فعل بالابيّض وان رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين الفاً. فربما كانت قوة الدراويش كلها هناك ستين ألفاً او سبعين وأكثر

فلنعد الى الخرطوم ولنشرح حالها اثناء الحصار . قلنا ان غوردون وصل الخرطوم في ١٨ فبراير سنة ٨٤ ولكنه لم يقض فيها شهرين حتى نفدت النقود من خزينتها فاصطنع نقوداً من الورق بفئات متفاوتة يتعامل بها الناس الى اجل مسمى وقد شاهدنا كثيراً منها عند وصولنا المتمة سنة ١٨٨٥ وفي الشكل ٢٥ صورة احداها برسمها الاصلي تماماً

على ان ذلك قلما خفف من ضيق اهل الخرطوم ونزلائها فانهم ما انفكوا يشعرون بالضغط يوماً بعد يوم والحصار يزيدهم تضييقاً حتى اصبحوا محاطين بالعدو من كل جهة وقلّ زادهم أو نفد وجاعوا وغوردون يصبرهم ويعدهم بقرب وصول الحملة الانكليزية لانقاذهم ولكنها تأخرت كثيراً فملّ الناس الانتظار واشتد الجوع حتى أكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور الذرة كل ذلك وهم واثقون بوعد

غوردون ولكنهم كادوا يسيئون الظن به اخيراً

اما الحملة الانكليزية التي أقروا على ارسالها لانقاذ غوردون فبرحت مصر في أوائل الخريف وعدد رجالها ستة آلاف من نخبة الجند الانكليزي وأكثر قوادها من الاشراف فقد تسابق الانكليز الى الانتظام في سلك هذه الحملة لزعمهم انها عبارة عن (فسحة) على النيل فلم يصل من رجالها الى كورتي الاّ بعضهم وتفرق الباقون في نقط خط الاتصال ومن كورتي سارت حملة في عطمور صحراء بيوضة الى المتمة بقيادة الجنرال ستيوارت والقصد منها سرعة الوصول الى الخرطوم وسارت حملة اخرى على النيل الى بربر بقيادة الجنرال ارل . وكنا ممن سار برفقة حملة العطمور فشهدنا وقائعها وسمعنا اطلاق مدافعها ورنات قنابلها ورصاصها وترى تفصيل ذلك في كتابينا « تاريخ

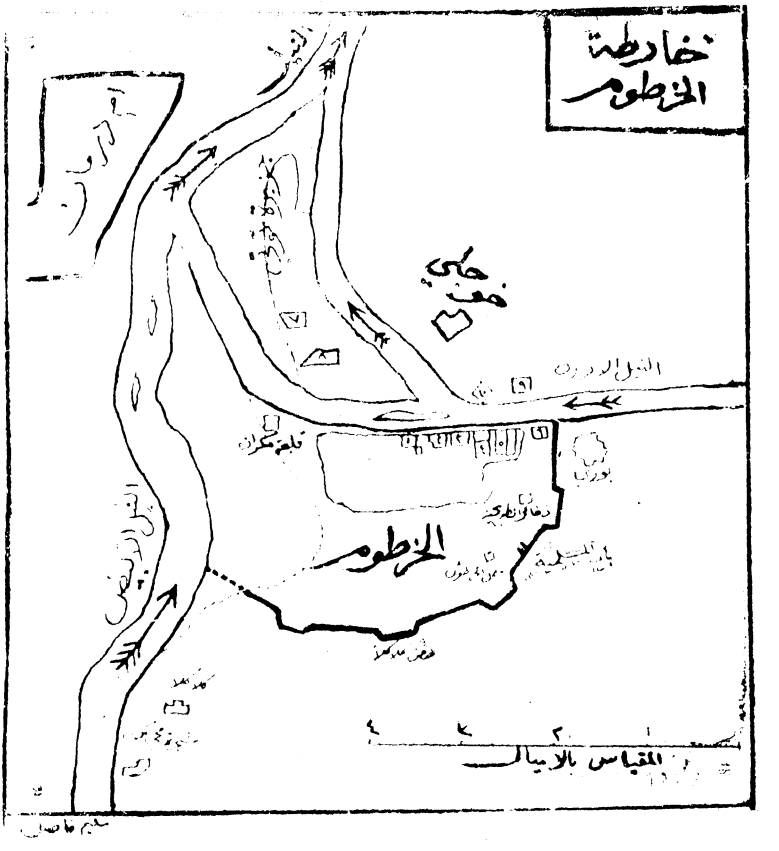


ش ٢٥ ـ نقود غوردون

مصر الحديث » و « رواية أسير المتمهدي » فقطعت الحملة جكدول الى أبي طليح فلاقاها العرب على تلك الآبار فحصلت بين الفريقين واقعة شفت عن انهزام العرب فتعقبهم الانكليز الى المتمة وهناك حصلت واقعة أخرى انهزم بها الدراويش أيضاً وعادوا على أعقابهم . وقبيل هذه الواقعة أصيب الجنرال ستيوارت برصاصة في أحشائه واحيلت القيادة الى السير شارلس ولسن فنزلت الجنود الانكليزية على ضفاف النيل في مساء ١٨ يناير سنة ١٨٨٥ بعد ان قضت ١٣ يوماً في الصحراء واسم مكان الواقعة أبو كرو ونزل الجند بعد الواقعة في مكان اسمه القبة والافرنج حرفوه فجعلوه (جوبات)

وكان غوردون قد أنفذ اليهم اربع بواخر كانت في مياه الخرطوم ليستعينوا بـ

في الوصول اليه وبعث يقول لهم انكم اذا لم تصلوا الينا في بضعة أيام ذهبنا هباء منثوراً. وقد علم السير شارلس بذلك في ٢١ يناير وكان يحب ان يبادر حالا الى الخرطوم بدلاً من ان يقضي أربعة أيام بجوار المتمة بلا داع فغادرها في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ على باخرتين لم تصلا الخرطوم الا في ٢٨ منه وكانت قد سقطت وقتل غوردون في



ش ٢٦ ـ دلالات الارقام في خريطة الخرطوم

١ الحكمدارية ٢ السراي ٣ حواصل الحنطة ٤ الترسخانة ٥ القشلاق ٦ طابية بوري
٧ مخازن البارود ٨ قرية توتي ٩ الطابية البحرية ١٠ السراي الشرقية

٢٦ منه فعاد السير شارلس كاسف البال ولم يصل المتمة الا بعد شق الانفس لان باخرتيه انكسرتا واصابه من الخطر ما لا محل لتفصيله هنا

أما كيفية سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي . من تأمل هذه الخارطة (ش ٢٦) علم ان الخرطوم واقعة موقعاً طبيعياً حصيناً للغاية فهي محاطة من الشمال والغرب بالنيل

ومن الجنوب والغرب بسور منيع وراؤه من الخارج خندق عميق والجند قائمون على السور ليلاً ونهاراً وترى بين بنايات الخرطوم وسورها أرضاً لا بناء فيها

وقد ذكرنا ان المهدي حاصر الخرطوم وشدد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع فلم تمض مدة حتى أنبأه جواسيسه ان حملة انكليزية قادمة لانقاذ الخرطوم وغوردون فبعث اليها جنداً لاقاها في أبي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وأبي صافية فعادت خاسرة فارسل جنداً آخر الى أبي كرو بقيادة نور عنقرة فانكسر أيضاً كما تقدم . فلما بلغه خبر انكسار رجاله أراد التمويه على أتباعه فامر باطلاق مئة قنبلة وقنبلة وهي اشارة النصر عندهم فاطمأن الدراويش ولكن محمد أحمد جمع أمراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقال لهم ان الحضرة جاءته (أي رأى رؤيا روحية) فاوحت اليه ان يهاجر الى الابيّض . فاعترضه الامير محمد عبد الكريم قائلاً « ان الهجرة ميسورة لنا كل حين والطريق الى الابيض مطلق لنا فلنهاجم الخرطوم أولاً فاذا امتنعت علينا هاجرنا الى الابيض واذا فتحناها فلا يقوى الانكليز ولا غيرهم على أخذها منا » فاستحسن المهدي رأيه وصبر بضعة ايام وهو يستقصي أخبار الانكليز وحركاتهم وفي ٢٥ يناير بلغه قيام الباخرتين من المتمة فاقر الرأي على مهاجمة المدينة في صباح اليوم التالي (يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) فبعث المهدي الى القوات المحاصرة يقول انه علم بالوحي ان الله جعل أرواح أهل الخرطوم كلها في قبضته

وفي مساء ذلك اليوم (٢٥ منه) قطع المهدي النيل الابيض من ام درمان وكل من أراد الجهاد معه ونزل الى معسكر ولد النجومي في كلاكلا وتلا هناك خطاباً حث رجاله فيه على الجهاد وأوصاهم أن لا يقتلوا غوردون باشا ويقول سلاتين باشا ان غرضه من ذلك بقاء غوردون أسيراً حتى يفتدي به أحمد عرابي باشا المنفي في سيلان فلما أتم خطبته عاد ببطانته الى ام دومان

وفي الصباح التالي (٢٦ منه) الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلاكلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقة تهاجم السور بين النيل الابيض وباب المسلمية وفرقة تهاجمه من ناحية بوري (انظر الخارطة) وكان السور بين باب المسلمية والنيل الابيض قد تهدم بعضه مما يلي النيل لمجاورته أرضاً يغمرها ماء النيل في فيضانه ترى حدودها في الخارطة منقطة وكان الماء قد انحسر عنه اذ ذاك وتهدم بعضه فتكوّنت فيه ثغور دللنا عليها بتقطيع السور هناك الى نقط . فعوّل الدراويش على ان يدخلوا المدينة من تلك الثغور على انهم اذا فازوا بالدخول منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الابيض

فزحفوا سكوتاً حفاة تحت جناح الليل لا تسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك الثغور فردموا الخندق ووسعوا الثغور وصاحوا صياح الحرب قائلين « في سبيل الله » ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغتت الحامية فاطلقت بعض الطلقات وكان فرج باشا على باب المسلمية فما انتبه الا وقد قضي الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم فانهال الدراويش على المدينة كالصواعق وهم ينادون « للكنيسة .. للسراي » وامعنوا في الاهالي المساكين قتلاً ونهباً لم يبقوا ولم يذروا. وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد يئس من قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ولم يكد يغمض جفنه حتى سمع اطلاق النار فصعد الى



ش ٢٧ – رأس غوردون يريه الدراويش لسلاتين باشا

سطح السراي واشرف على الاسوار فرأى العرب قد دخلوا السور ولم يعد باليد حيلة فلبس ثيابه وتقلد سلاحه وهمّ بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش عند أعلى السلّم فسأل أولهم قائلاً « أين سيدك المهدي » فاجابه بطعنة قاضية وضربه آخر بالسيف فخر قتيلاً لم يبد دفاعاً ويقال ان قتلته من رجال ولد الهجومي ولم يكن ولد النجومي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فامرهم بجر جثته الى باحة السراي وان يقطع رأسه ويحمل الى المهدي في ام درمان فحملوه اليه في منديل كبير في الساعة الاولى من النهار وكان سلاتين مقيداً في خيمته بام درمان وقد سمع اطلاق المدافع وعلم بهجوم العرب على الخرطوم ثم سمع بفتحها فوقف حزيناً كئيباً فمرّ حاملو رأس غوردون به وبينهم

رجل اسمه شطا كان يعرفه سلاتين قبلا فكشف له عن رأس غوردون وقال « أليس هذا رأس عمك الكافر » كما ترى في الرسم ش ٢٧

فأثر ذلك المنظر في سلاتين كثيراً وكان قد هزل جسمه من الاسر والخوف وكاد يغمى عليه ولكنه تجلد وقال بصوت ضعيف « انه مات في سبيل الدفاع عن واجباته هنيئاً له فقد استراح من متاعبه » فقال له شطا ضاحكاً « أتمدح الكافر سوف تلقى ما لقيه قريباً » فتأمل حال سلاتين اذ ذاك

ثم حملوا الرأس الى المهدي فاظهر تكدره لذلك ولكن سلاتين يظن ان المهدي لو اراد ان يبقي عليه وأوصى رجاله بذلك ما استطاع أحدٌ مخالفة اوامره

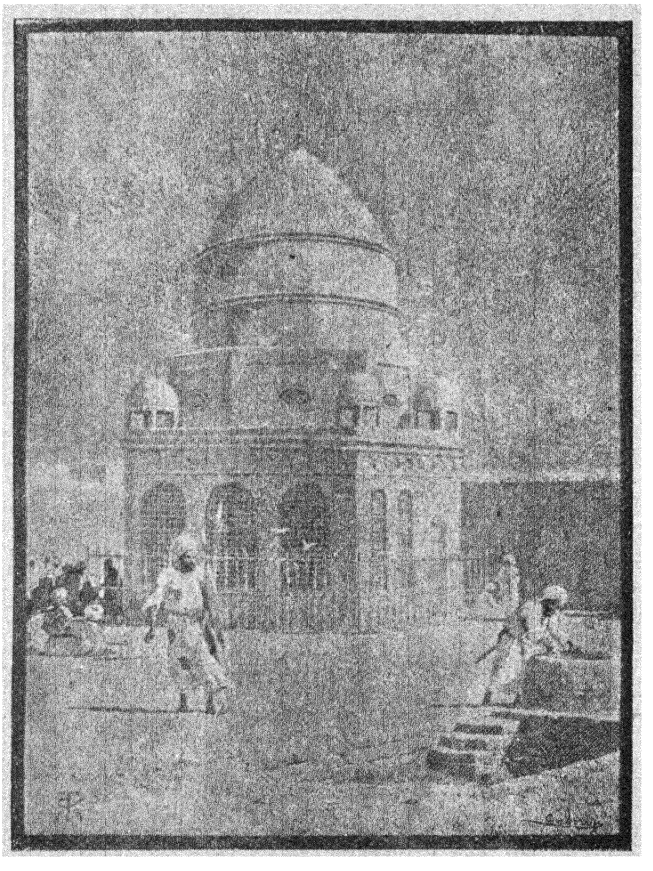
هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في أيدي الدراويش وبسقوطها سقط كل أمل بافتتاحها ولكن المهدي لم يقم فيها بل أقام في أم درمان وبنى هناك مدينة جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين

أما الحملة الانكليزية فانها انسحبت من المتمة الى كورتي فاقامت هناك مدة ثم عادت الى دنقلا فمصر وسحبت معها كل من أراد مرافقتها من سكان السودان شمالي كورتي وأصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدي السوداني

﴿ موت المهدي وخلافة التعايشي ﴾ فلما فتحت الخرطوم وعادت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى المهدي مع ما شاهدوه من توفيقه في مشروعاته فانه لم يشهد موقعة الا انتصر فيها ولا حاصر مدينة الا فتحها (تقريباً) واذا اعتبرت ما لاقت الحملة الانكليزية القادمة لانقاذ غوردون من العراقيل والعوائق عجبتَ لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق فاتخذ اشياعه ذلك دليلاً على انه انما يعمل بوحي من الله وأيقن هو انه أصبح المالك المتصرف في السودان من أقصائه الى اقصائه وخيل له انه سيفتح الامصار ويخضع له الملوك والسلاطين فتنتشر سلطته في الخافقين . على انه لم يكن يرجو ان يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول انه لن يموت الا بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها . ولكن ساء فأله فانه لم يكد يؤيد سلطته ويقيم في عاصمته (أم درمان) بضعة أشهر حتى داهمته الوفاة في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ على أثر اصابة شديدة بالحمى النيفوس لم تنجع فيها حيلة ففارق هذا العالم على عنقريب (سرير سوداني) وحوله خلفاؤه الثلاثة وخاصة امرائه منهم احمد ولد سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد احمد والسيد المكي . فلما شعر المهدي بدنو الأجل قال لمن حوله بصوت منخفض « ان النبي (صلعم) اختار الخليفة عبد الله خليفة الصديق خليفة لي وهو مني وانا منه فاطيعوه ما اطعتموني . استغفر الله » ثم تلا

الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره وتمطط وأسلم الروح

ولم يكد يخرج النفس الاخير من أنفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسموه « خليفة المتمهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امرأته عائشة ويدعونها « ستنا أم المؤمنين » فسارت لابلاغ خبر وفاته الى نسائه الاخريات وتعزيتهن وكان الناس قد تجمهروا مئات وألوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن



ش ٢٨ - قبة المهدي وفيها قبره

سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فاوعز اليهم ان البكاء والندب حرام لان المهدي انما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته ليلتقي وجه ربه . فغسلوا الجثة ولفوها بالا كفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقتها الروح ودفنوها وجعلوا فوقها بعد ذلك مقاماً من الخشب يغشاه ستر أسود وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك واحتفروا بجانب القبة بئراً يستقي الزائرون منها للشرب والوضوء وحول القبة درابزون من خشب (ش ٢٨)

وكان سلاتين باشا قد نال العفو من المهدي قبل وفاته فخلت قيوده وعاد الى معية التعايشي فشاهد تلك الحوادث شهادة عين ووصفها في كتابه السيف والنار والسودان وصفاً تاماً

فبعد دفن المهدي سار خليفته عبد الله الى الجامع وخطب في الناس وأنبأهم بوفاة المهدي فبكى وبكى الناس ثم أوصاهم بالطاعة والاتحاد للعمل باوامره وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته فتلوا صورة المبايعة التي ذكرناها قبل الآن ولكنه غير العبارة الاولى منها فجعلها « بايعنا الله ورسول الله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ »

﴿ أوصاف المهدي ﴾ كان طويل القامة عريض المنكبين اسمر اللون فاتح قوي البنية . وكان أول قيامه بدعوته ربع القامة فأصبح في أواخر أيامه سميناً ضخماً . وكان كبير الرأس عريض الجبهة حاد العينين اسودهما خفيف اللحية اسودها وعلى خديه آثار الاخاديد العرضية ثلاثة من كل جانب كسائر الدنافلة ابناء قبيلته . وكان متناسب الانف والفم لا ينفك مبتسما فتظهر اسنانه وبين الاماميتين منها فلجة تشبه الثمانية (٨) تعد عند السودانيين وغيرهم من المشارقة علامة السعد ويقال لصاحبها أفلج وكان ذلك من جملة ما حبب المهدي الى النساء وكنّ يسمينه (أبو فلجة)

وكان يلبس جبة بيضاء قصيرة مضربة تراها دائماً مغسولة نظيفة مطيبة برائحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد وكان مشهوراً بين اتباعه بهذه الرائحة حتى نسبوها اليه فسموها « رائحة المهدي » وذكر بعضهم خالاً كان في خده ادعى انه من علامات المهدية

وقد علمت من تدبر ترجمة حاله انه كان نبيهاً مدبراً رضي الخلق حسن السياسة ماهراً في التأثير على عواطف الناس اذا تكلم ظهر للسامعين ان جوارحه كلها تتكلم فاذا ذكر مآثم بني الانسان أو وصف النعيم المقبل أو حث على الجهاد بكى وتخشع وأبكى السامعين . ويظهر من مجمل سيرة حياته انه صبور على البلوى كاظم للغيظ مسالم للاحزاب محسن اليهم راغب في امتلاك قلوبهم باللطف وحسن الاسلوب وكان ذلك من اكبر العوامل في نشر دعوته وقيام الناس بنصرته ولو امد الله في اجله لكان فتح السودان صعباً على الجنود المصرية نظراً لاستهلاك قواده في سبيل نصرته . اما خليفته فكان على غير خلقه من اللين والدعة والمسالمة الى حدّ هاج غيرة الخليفتين الآخرين وغيرهما من الامراء فقام الشقاق بين الدراويش فضعفت عزائمهم وفسدت أمورهم وتضعضعت أحوالهم وسهل الفتح على المصريين

﴿ تعاليمه ﴾ ذكرنا فيما تقدم ما كان من اعماله الحربية منذ ظهوره الى وفاته

فنقتصر الآن على ذكر ما احدثه من التعاليم والتقاليد بين مسلمي السودان :

(١) علّم الزهد في الدنيا وملذاتها ونبذ المجد الدنيوي فابطل الرتب والالقاب الرسمية وغير الرسمية وساوى بين الغني والفقير . وفرض على اتباعه لباساً واحداً يمتازون به ويدل على زهدهم وهو الجبة المرقعة

(٢) جمع المذاهب الاربعة (المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) ووحدها بتسوية بعض ما بينها من الخلاف والغاء البعض الآخر واختار آيات من القرآن الكريم



ش ٢٩ — دراويش المهدي

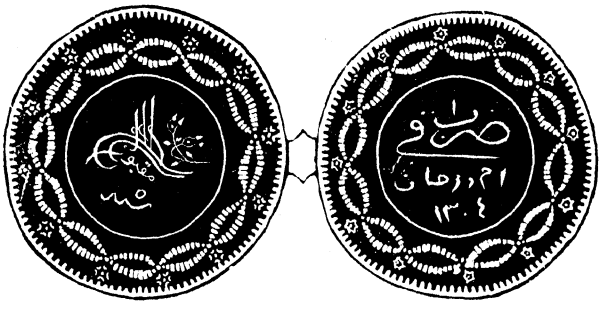
تتلى كل يوم بعد صلاة الصبح وصلاة العصر سماها « الراتب » وسهل طرق الوضوء

(٣) حرّم الاحتفال بالاعراس احتفالا يدعو الى النفقة ومنع شرب الخمر وغيرها مما يتناولونه في الاعراس وخفض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وجازى من يخالف ذلك بسلب امواله كلها . وأبدل ولائم الاعراس بطعام من التمر واللبن فتسهلت بذلك وسائل الزيجة على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة حائلة بينهم وبين الاقتران

(٤) ابطل الرقص واللعب ومن رقص أو لعب فقصاصه الجلد وأخذ أموالا وترى تفصيل ذلك في منشور المهدي الذي تقدم نشره

(٥) منع الحج الى الحرمين خوفاً على قواته من التفريق وتعاليمه من الضياع لعلمه انها تخالف تعاليم اهل الاسلام . ووضع قصاصاً على من يشك في دعوته أو يتردد في تنفيذ أوامره ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ويكفي لثبوت الدعوى عليه شهادة شاهدين وقد يكفي ان يدعي علمه ذلك بالوحي . وتأييداً لدعوته أحرق كل كتاب او ورقة تخالف هذه التعاليم

وقد ضرب المهدي نقوداً باسمه ترى صورة قطعة فضية منها بحجمها الطبيعي (ش ٣٠) على احد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « أم درمان » وعند اسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤ هـ وهي سنة استقلالهم بالاقطار السودانية والى اعلاها رقم واحد



ش ٣٠ ـ نقود المهدي

يقصدون به السنة الاولى من سلطانهم وعلى الوجه الاخر ما يشبه الطغراء يقرأ منها كلمة « مقبول » كانهم يريدون بها ان هذه النقود مقبولة عند حكومتهم . وعند اسفل الطغراء يقرأ سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي أو هجرته

(دولة الدراويش) هذا ما كان من أمر محمد احمد المهدي زعيم هذه الثورة فقد مات وقلبه عالق بما اوتيه من النصر لانه غرس غرساً ولم يذق ثمر غرسه فترك تلك الشجرة وقد آن أثمارها لاقوام اختلفوا على اقتسامها وتوكأوا على اغصانها حتى كادوا يكسرونها . فقد تولى التعايشي الخلافة وهو يخاف مناظرة الخليفتين الآخرين ويخشى احزابهما . على ان الاعمال الحربية ما زالت في بادئ الرأي سائرة بقوة الاستمرار كما كانت على عهد المهدي

وكان المهدي قد بعث امراءه الى الانحاء لبث دعوته وتأييد سلطته وحث الناس للهاجرة الى ام درمان فسعى خالد في دارفور فاتم اخضاعها وسار ابو عنقر (او

أبو عنقه) الى كردوفان وكانت قد سلمت الى المهدي الا سكان الجبال الجنوبية منها فاخضع بعضهم وبقي البعض الاخر مستقلاً . أما ما بقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الابيض الى حدود ودّاي فقد دانت للمهدي برمتها

أما في السودان الشرقي فما زالت سنار وكسلا محاصرتين وقد دافعت حاميتها دفاعاً حسناً حتى اضطرت الى التسليم فلم تنقض سنة ١٨٨٥ حتى بلغ نفوذ المهدي وسلطته جنوباً الى لادو من مديرية خط الاستواء ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية الا سواكن وحدها

واتفق في اثناء حصار سنار ان القوة المحاصرة لها كانت تحت قيادة الامير عبد الكريم وهو من اقارب المهدي فدافعته حامية سنار فانفذ التعايشي ولد النجومي وهو من اعظم قواد الدراويش ففتحها في اوغسطس سنة ١٨٨٥ فبعث التعايشي الى عبد الكريم ان يأتي هو ورجاله الى ام درمان وكان قد أخذ معه لحصار سنار الجنود السودانية بلواء الخليفة الشريف وهو من اقارب المهدي ايضاً فلما فتحت سنار على يد ولد النجومي ثم دعي عبد الكريم الى ام درمان حمل عبد الكريم ذلك من التعايشي محمل الاهانة له وذاع على الالسنة اذ ذاك ان عبد الكريم قال لو ضمت اليه رجاله ورجال الخليفة الشريف لاخرج الخلافة من يد التعايشي ودفعها الى الخليفة الشريف لانه أولى بها من ذاك . فبلغ ذلك الكلام مسمع التعايشي فبعث الى أخيه يعقوب وهو عمدته وقائد جنده واخبره الخبر واوصاه ان يكون الجند على استعداد عند وصول عبد الكريم . فلما وصل عبد الكريم لاقاه التعايشي بالتحية والتهنئة واثنى على ما بذله في حصار سنار ثم شرفه وبعث الى الخليفتين وسائر الأشراف (اقارب المهدي) فادخلهم غرفة داخلية ولما استتب بهم المقام امر كاتبه فتلا عليهم منشوراً كان قد كتبه المهدي في الابيض يحرض اتباعه به على طاعة التعايشي

فلما تمت تلاوة المنشور قال لهم عبد الله ان عبد الكريم خائن فانكروا ذلك عليه ودافعوا عن صداقته وامانته فتظاهر بالعفو عنه ولكنه اشترط اخراج الجنود السودانية من قيادته الى قيادة اخيه يعقوب فقبل الشريف وسائر الاقارب بذلك بالرغم منهم ثم أشار التعايشي الى الخليفة علي ولد الحلو بطرف عينه ان يجددوا المبايعة ويمين الطاعة فوضعوا ايديهم على القرآن واقسموا ان يسلموا الجنود السودانية وان يحافظوا على الطاعة . ولا ريب ان الشريف ورجاله فعلوا ذلك بالرغم منهم وفي انفسهم حزازات يودون لو انهم يذهبون بحياة التعايشي وكانت تلك الحادثة المثولة ذات بال أصبح بها مقاوموه مقصوصي الاجنحة لا يستطيعون حراكا ولكنهم حقدوها عليه .

وأخذ كل من الفريقين ينظر الى الآخر بعين الحذر على ان الظواهر كانت تدل على اتحاد وارتباط متينين . اما التعايشي فما انفك يدعو الناس من الجهات البعيدة للمهاجرة الى ام درمان ليعمرها ويحشد فيها قوة عظمى يستعملها عند الحاجة

وفي اثناء ذلك تعدى بعض السودانيين على الاحباش في بلاد الحبشة واخربوا كنيسة من كنائسهم والتجأ المتعدون الى قلابات وهي في بلاد الدراويش مما يلي حدود الحبشة فجاءهم حاكم المدينة فجاء الاحباش بجند كبير تحت قيادة الرأس عادل واخربوا البلدة واحرقوها حتى صارت قفراً يأوي اليها الضباع والذئاب وساقوا الاولاد والنساء اسارى الى الحبشة فبلغ التعايشي ذلك فكتب الى يوحنا نجاشي الحبشة اذ ذاك ان يرسل الاسرى ويعين الفدية التي يريدها عنهم ولكنه بعث ايضاً يونس أحد قواده بجند الى قلابات وامره ان يحصنها ويقيم فيها حتى يأتيه امر آخر . وبعث ولد النجومي الى دنقلا وابا جرجا الى كسلا وكتب الى عثمان دقنا يؤمره على السودان الشرقي بين كسلا وسواكن — اراد بذلك كله ان يثبت سلطته على تلك الاماكن واخذ من الجهة الاخرى ينظم حكومته في ام درمان ففرض ضريبة سماها « فطرة » تدفع بانقضاء عيد الفطر لا يعفى من دفعها احد كبيراً كان أو صغيراً واخذ في تنظيم المالية وعهد بذلك كله الى ابراهيم عدلان فوضع انواع الضرائب واتخذ كل وسيلة يمكنه اكتساب المال بها وفي جملة ذلك تجار الرقيق

وفي اواسط سنة ١٨٨٦ عاد ابو عنقر الى ام درمان ومعه الغنائم والاسلاب فاحتفلوا باستقباله احتفالاً عظيماً حضره التعايشي وسائر الخلفاء والامراء وضربت به الطبول وغيرها

وبعد قليل جاء التعايشي نبأ ان يونس في ضيق فبعث ابا عنقر يتولى قيادة الدراويش في قلابات فسار في جنده وانقذه من ضيقه . وسبب ذلك الضيق ان بعض رجال يونس ادعى انه عيسى المسيح والتف حوله تلامذة كثيرون بعضهم مؤمن به والبعض الآخر تبعوه نكاية في يونس لاحقاد بينهم وبينه فلما وصل ابو عنقر قبض على ١١ اميراً ظهر له انهم تآمروا على قتل يونس وبعث الى الخليفة يستشيره في امرهم فبعث اليه ان يقتلهم ثم ندم فبعث ان لا يفعل ولكن سبق السيف العزل

وكان جند ابو عنقر اذ ذاك اكبر جند اجتمع في حوزة الخليفة عبد الله مؤلفاً من ١٥ الفاً من حملة البنادق و٥٤ الفاً من حملة الرماح والنبال وثمانمائة فارس

فجمع أبو عنقر هذه القوة وسار نحو رأس عادل لينتقم منه فوفق في هذه الحملة على غير انتظار وتغلب على رجال رأس عادل واخرجهم من محلتهم واستولى على الخيم

والمؤن وكل الامتعة واسر امرأة رأس عادل وابنته وكأنه بهذه الغلبة قد فتح كل مقاطعة أمحرة فسار توًّا الى غندر على أمل ان يلاقي فيها خزائن واموالاً فلم يجد شيئاً فاحرق البلدة وعاد وهو ينهب ويسلب كل ما مرَّ به بطريقه حتى ساقوا امامهم قطيعاً من نساء الاحباش واطفالهم سوق الاغنام فلما وصلوا قلابات بعثوا الامرى الى ام درمان فاخذ الخليفة خمسهم وضموا الباقي الى بيت المال وقد مات منهم في الطريق مئات من الجوع والتعب واصبح الطريق بين قلابات وابي حراز مملوءًا بجثث اولئك المساكين وفي جملتها جثتا ابنة رأس عادل وابنه

وبعث التعايشي الى ابي عنقر ان يحصن قلابات لان الاحباش لا يتقاعدون عن الانتقام ولكن المنية عاجلت أبا عنقر فمات شاباً لم يتجاوز ٣٢ سنة من عمره

ثم ما لبث النجاشي يوحنا ملك الحبشة ان جند للانتقام من الدراويش على خراب غندر فحمل بجند كبير على قلابات وكانت جنود ابي عنقر لا تزال هناك ولم تفقد إلا قائدها الاكبر فتأهبوا للدفاع فوصل النجاشي وعسكر بالقرب من قلابات فانقسم جنده فرقتين هاجمت المدينة من ناحيتين فدخلت احداها المدينة من اثلام في السور واشتغلت بالنهب والقتل وبقيت الاخرى تهاجم السور من الخارج وفيها النجاشي وقد وقف يستحث رجاله ويحرضهم على الدراويش فاصابته رصاصة فقتلته فبعد ان كان النصر للاحباش عادت العائدة عليهم فخافوا وتقهقروا في اثناء الليل فأصبح الدراويش وهم يحسبون لهجمة الاحباش الف حساب فاذا بالارض خالية من الخيم فبعثوا الجواسيس فعلموا ان النجاشي قتل فتعقبوهم وكان الاحباش قد عسكروا على مسافة نصف يوم من قلابات فباغتهم الدراويش ففر الاحباش وتركوا المعسكر غنيمة للدراويش فوجدوا في جملة الغنائم تاج النجاشي يوحنا مصنوعاً من الفضة ومحلى بالذهب وسيفه وكتاباً مرسلاً اليه من ملكة الانكليز فحملوا ذلك غنيمة الى ام درمان

﴿ فتح مصر ﴾ ومن اغرب مطامع التعايشي فتح مصر وضمها الى مملكته على حين ان المهدي نفسه لم يجاهر بذلك صريحاً . فلما توفي هذا كتب التعايشي كتاباً الى جلالة السلطان وآخر الى سمو الخديوي وآخر الى ملكة الانكليز يطلب اليهم جميعاً ان يسلموا له ويذعنوا لسلطانه وارسل الكتب مع رسل خصوصيين الى مصر فعاد الرسل ولم ينالوا جواباً غير الاحتقار والازدراء فشق ذلك عليه وحقده عليهم فلما قدر له الفوز على الاحباش حدثته نفسه أن يجرد على مصر فيفتحها ويقيم

نخاساً من البقارة أو التعايشة أميراً يتولى حكومتها أو يأتي هو بجلالة قدره من بيته في أم درمان فينصب عنقريبه في سراي عابدين

ففي اوائل سنة ١٨٨٩ استشار بعض رجاله في التجريد على مصر فشوقوا اليه سكناها ووصفوا له قصورها وغياضها وأموالها ونساءها . فما أشبه وصفهم هذا بما وصفها به عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب يوم حثه على فتحها قبل ظهور التعايشي بثلاثة عشر قرناً فتاقت نفس التعايشي الى فتح مصر ولم ير بين قواده أولى بهذه المهمة من عبد الرحمن ولد النجومي وكان من أشد الدراويش بطشاً واصعبهم مراساً واكثرهم استهلاكا في نصرة الدعوة وكان قبل ظهور المهدي تاجراً بين مصر والسودان قد خبر الارض وعرف الطرق فارسله في حملة اكثرها من قبائل الجعالين والدناقلة وغيرهم ممن جاوروا حدود مصر العليا وخالطوا سكان تلك الاقاليم متظاهراً ان قصده بذلك فتح مصر برجال هم ادرى بها من غيرهم ولكن الحقيقة انه لم يجهل الخطر الذي يهدد ذلك المشروع فلم يجعل في تلك الحملة احداً من اقاربه وابناء عشيرته ولا من قبائل البقارة وغيرهم من عرب غربي النيل الابيض لانهم من حزبه فاذخرهم لحين الحاجة اما الدناقلة والجعالين فاكثرهم من حزب الخليفة محمد الشريف وقد رأيت ما قام بينه وبين التعايشي وما كان من تغير قلبيهما فما انفك هذا بعد ذلك يعتبر الشريف عدوّاً له تحت طي الخفاء فبعث احزابه في حملته هذه وفي نيته انهم اذا فتحوا مصر عاد الفخر له واتسعت مملكته واذا انكسروا وتقهقروا الى دنقلا وقد ضعف شأنهم وتخلص هو من دسائسهم

فجعل دنقلا محط رحال تلك الحملة واقام يونس ولد الدغيم أميراً على دنقلا يقيم فيها ويدير شؤونها وولد النجومي يقود الحملة ولا يعمل الا بمشورة يونس

واتفق في اثناء تجريد تلك الحملة حادث يدلك على ظلم التعايشي وعسفه فتعلم ان دولته لم تقم الا لاجل قصير لان الظلم مرتعه وخيم . والحادثة ان التعايشي امر جماعة من قبيلة البطاحين ان يرافقوا تلك الحملة وفيهم أحمد ولد جار النبي . والبطاحين قبيلة تسكن شمالي النيل الازرق بين قبيلة الشكرية والنيل مشهورة بالشجاعة والاستقامة من عهد الحكومة المصرية وكان التعايشي قد استعمل جماعة كبيرة منهم في دنقلا وبربر فلم يروا في أعماله خيراً فلما أوعز اليهم أن يرافقوا تلك الحملة ابوا وفرّ ولد جار النبي فتعقبه بعض رجال الخليفة فجرح واحد منهم فشق ذلك على التعايشي فانفذ جماعة قبضوا على البطاحين عن بكرة ابيهم الا نفراً قليلين تمكنوا من الفرار . فجيء بسبعة وستين منهم بنسائهم واولادهم فاوعز التعايشي الى القضاة ان يحكموا عليهم فحكموا

انهم (مخالفين) عصاة فقال « وما قصاص العاصي » قال القضاة « قصاصه الموت » فنصب المشانق وقسم هؤلاء المنكودي الحظ الى ثلاثة أقسام قتل قسما بقطع الرأس وقسماً بالشنق والقسم الثالث امر فقطعت اطرافهم وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً في ام درمان جاء فيه عبد الله على جواده الى ساحة السوق وحوله ملازموه وفي جملتهم سلاتين باشا ووقفوا لمشاهدة ذلك المنظر المريع وكان بعض المحكوم عليهم معلقين بالمشانق ازواجاً واثلاثاً والبعض الآخر مكتوفي الايدي جاثين امام الجلادين وفيهم من قد قطع رأسه وزهقت روحه ومن قد اصابه السيف بضربة لم تفصل رأسه فتململ وتوجع في باطن سره لئلا يقال انه جبان وفيهم الجاثي مكتوفاً ينتظر مجيء الساعة الى غير ذلك مما يفتت الاكباد . أما هم فكانوا يلاقون الموت بصدور منشرحة ومنهم من ينادي باعلى صوته «هذا هو يوم العيد عندي فمن لم ير شجاعاً يقتل فلينظر اليَّ » أما التعايشي فدار بجواده حول تلك الساحة ينزه نظره بذلك المنظر حتى قضي الامر فعاد بموكبه وحاشيته

﴿ عود الى مصر ﴾ فلما اعد التعايشي تلك الحملة بعث كتباً اخرى الى مصر وفيها الانذار الاخير فبقي الرسل مدة في اصوان ثم أعيدوا بلا جواب فبعث التعايشي راس النجاشي يوحنا الى يونس امير دنقلا على ان يرسله الى وادي حلفا تهديداً للمصريين وامر ان يسير النجومي بحملته على مصر فلا يحرك ساكناً في حلفا بل يهاجم اصوان فاذا فتحها يقيم فيها حتى تأتيه أوامر اخرى

فخرج ولد النجومي من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ في جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالمة بكل حركة من حله وترحاله وكان سردار الجيش المصري اذ ذاك الجنرال غرانفل باشا المشهور بالتأني وحسن الروية فضلاً عن الرقة ولين الجانب فحصن حلفا واصوان وسائر الحدود فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شرذمة منهم الى النيل وولد النجومي لا يعلم بها فخرجت اليها الحامية المصريون بقيادة وودهاوس باشا فكسروها شر كسرة

وكان غرانفل باشا قد خرج من أصوان فبعث الى ولد النجومي يبين خطر موقفه وينصح له ان يسلم فيسلم فابى فسار السردار بجيشه معظمه على البر الغربي للنيل وبعضه على البر الشرقي لان الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي فجرت بينهم وبين الحاميات مناوشات ليست بذات بال حتى وصلوا توشكي وهناك حصلت الواقعة التي قضت على تلك الحملة فقتل قائدها وتشتت شملها واليك التفصيل

﴿ واقعة توشكي ﴾ توشكي قرية حقيرة على البر الشرقي وبعضها على البر الغربي

للنيل بين كرسكو وحلفا على بضعة أميال من هيكل ابي سمبل شمالاً مؤلفة من اعشاش صغيرة من الطوب والقش متفرقة على ضفة النيل في مسافة من الارض على موازاة النيل يبلغ طولها ثلاثة أميال وعرضها منه الى الصحراء نحو نصف ميل وفيها بعض النخيل

وفي البر الغربي مقابل توشكي على بعد أربعة أميال منها جنوباً سلسلة تلال عالية من حجر الغرانيت تمتد من الضفة غرباً نحو ثلاثة أميال في الصحراء وعند طرف هذه السلسلة والى جنوبيها كان معسكر الدراويش بقيادة ولد النجومي وعلى نحو تلك المسافة شمالاً سلسلة اخرى وبين السلسلتين سهل واسع متصل بالصحراء وفي هذا السهل جرت الواقعة

وكان السردار مقيماً في توشكي فبعث طلائعه في صباح ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ باكراً لاستكشاف معسكر العدو فعادوا واخبروا بان العرب مستعدون للمسير فخرج السردار لمجرد الاستكشاف فلم يكد يشرف على معسكرهم حتى رآهم هاجمين كالجراد فبعث الى الجند في توشكي وكان بعضهم لم يتناول طعاماً ولا تهيأ للمسير فساروا باسرع من لمح البصر وهم لم يأكلوا بعد ولا حملوا من الماء إلا شيئاً قليلاً فعزم السردار اذ ذاك ان لا يكف عن الدراويش حتى يشتت شملهم في ذلك اليوم وكان قد علم بما كانوا فيه من الضيق والجوع . وهاك أسماء الارط التي شهدت تلك الواقعة وهي الارطة التاسعة بقيادة البكباشي دن والثالثة عشرة بقيادة اليوزباشي كستر والطوبجية بقيادة البكباشي رندل فضلاً عن البيادة الراكبين والارطة الثانية من البيادة جاءت متأخرة . وقال الذين شهدوا واقعة توشكي ان الارط السودانية عملت في ذلك اليوم اعمالا عجيبة وبالغوا برغبتهم في الحرب حتى عصوا أوامر قوادهم لما دعوهم الى الكف عنها . والخلاصة ان الواقعة المشار اليها لم تنقض الى الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم (٣ اوغسطس سنة ١٨٨٩)

وبلغ عدد قتلى الدراويش ١٢٠٠ قتيل وزاد عدد اسراهم على أربعة آلاف وفيهم النساء والاولاد فضلاً عن الاسلاب والاعلام والسيوف والرماح ولم يقتل من الجيش المصري إلا ٢٥ وجرح ٤٠٠

ووجد بين قتلى الدراويش اذ ذاك اعظم امراء تلك الحملة ما عدا عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي وميرغني سوار الذهب وشيخ الابيض فقد نجا هؤلاء نحو الف واربعماية شريد وهم الذين استطاعوا الفرار من تلك الموقعة فقط أما ولد النجومي فقد قتل وحزّ رأسه وجيء به الى السردار

فكان ذلك النصر نصراً مبيناً سر به المغفور له الخديوي توفيق باشا فبعث الى السردار يهنئه به لعلمه انه امثولة علمت التعايشي ما لم يكن يعلم أما الذين قتلوا من الجنود المصرية فابتنوا لهم مقاماً قرب مكان الواقعة ضموهم اليه وبنوا فوقه قبراً نقشوا فوقه باللغة العربية حفراً على واجهة القبر كتابة هذا نصها

« شيد هذا الأثر تذكاراً لواقعة توشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وانهزم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبد الرحمن ولد النجومي فتشتتوا بعد قتل أميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان »

وبعيد الواقعة سار الخديوي توفيق باشا في بعض رجال معيته لتفقد أحوال الحدود فركب الى مكان تلك الواقعة ووقف امام قبر شهدائها يتأمل ما أظهره جنوده من البسالة في ذلك القتال . وقد نشرنا رسمه رحمه الله واقفاً أمام ذلك القبر وقد أسند رأسه على كفه متأملاً (انظر شكل ١٤)

﴿ قحط عظيم ﴾ وكان خبر ذلك الانكسار صدمة قوية على الدراويش في ام درمان فعرفوا قدرهم ووقفوا عند حدهم ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من عواقب تلك الكسرة حتى داهمهم قحط غلت فيه أثمان الحنطة وقلّ الزاد واشتدت وطأة الجوع على الفقراء حتى اكلوا سيور الجلد التي يشدون بها مقاعدهم فكثر النهب وازداد الضغط وقد بالغ سلاتين باشا في وصف هذا الجوع وحال الجائعين ومما حكاه قوله « خرجت في ليلة مقمرة وبينما انا عائد الى منزلي في منتصف الليل اقتربت من الامانة (مخازن الاسلحة والذخيرة) فآنست عن بعد شبحاً يتحرك على الارض فدنوت منه فرأيت ثلاث نسوة عاريات (تقريباً) وقد أرخين شعورهن مجعدة على اكتافهن وجلسن القرفصاء حول جحش صغير ملقى على الارض ولعله مولود حديثاً لم يكد يخرج من جوف امه حتى سرقنه وجئن به الى حيث لا يراهن أحد فشققن جوفه وأخذن يلتهمن احشاءه والجحش المسكين لا يزال حياً يتنفس فلما رأيت ذلك المنظر المريع صحت بهن فنظرن اليّ وقد حملقن اعينهن كأنهن أصبن بجنة وكان بعض الجاعة المتسولين من الفقراء قد لحقوا بي يلتمسون حسنة فتركوني وهموا باختطاف الفريسة منهنّ فتركتهم وسرت في طريقي آسفاً لتلك الحال »

وكانت وطأة الجوع في الغالب أشد على المارين بام درمان والقادمين اليها مما باهلها حتى اتصلت الحاجة ببعضهم الى بيع اولادهم بيع الرقيق انقاذاً لهم من الموت جوعاً . قال سلاتين وكانت الجثث ملقاة في الشوارع والمنازل مئات وليس من يدفنها فاصدر

التعايشي منشوراً قال فيه ان كل صاحب منزل مسئول بدفن الجثث التي تشاهد ملقاة قرب منزله فقلّت الجثث عن الشوارع ولكن بعضهم كانوا يحفرون حفراً بقرب المنازل يدفنونها بها تخلصاً من مشقة الحمل الى المدافن . وكانت مياه النيلين الازرق والابيض تجري امام ام درمان حاملة مئات من الجثث فارق اصحابها الحياة على ضفاف النيل او بالقرب منها فالقوها اهلهم أو اصحابهم فيه . وخلاصة القول ان الجوع اهلك من الدراويش أضعاف ما ابادته الحروب منذ ظهور المهدي الى ذلك اليوم ورافق هذا الضيق جراد جارف اكل ما بقي من الزرع

على ان التعايشي ما زال يبث دعاته في سائر الانحاء لتأييد دعوته وكانت بقية من خط الاستواء لا تزال على ولاء الحكومة بقيادة امين باشا فانفذت المانيا حملة بقيادة ستانلي الرحالة الشهير لانقاذ امين باشا فقاست في ذلك مشقات جسيمة تمكنت بعدها من الخروج به وببعض الحامية فدخلت مديرية خط الاستواء بحوزة الدراويش ولم يبق للحكومة من السودان المصري الاّ سواكن وطوكر

﴿ خصام بين خلفاء المهدي ﴾ اشرنا غير مرة الى النفور الواقع بين التعايشي ومحمد الشريف لتناظرهما على الخلافة فالتعايشي تولاها بارادة المهدي ويرى الشريف انه اولى بها بحق القرابة على ان هذا لولا استبداد التعايشي واحتقاره الاشراف (اقرباء المهدي) ما حدثته نفسه بسوء ولكنه رآه لا يدع فرصة لا يحط بها من شأنه فحقد عليه وما انفك ساعياً في ذلك سرًّا بمساعدة ابني المهدي وهما شابان لا يتجاوز عمر احدهما عشرين سنة وكثيرين من الاشراف فاتحدوا سنة ١٨٨٩ وعقدوا الخناصر على خلع التعايشي والقبض على ازمة الحكومة فالفوا لذلك جمعية سرية في ام درمان ضموا اليها جماعة من القائلين بقولهم وكاتبوا اخوانهم الدناقلة المقيمين في الجزيرة (بين النيلين الابيض والازرق) يدعونهم الى ام درمان للتضافر على ذلك العمل فجاء منهم جمع كبير الا ان أحد امراء الجعالين وشى بهم الى التعايشي وكان قد اقسم الايمان المعظمة ان لا يبوح بسرهم لاحد غير اخوته وأعز اصدقائه فافتى لخيانته هذه بانه يعتبر التعايشي من اعز أصدقائه فاخذ هذا في تدبير الوسائل الفعالة لعرقلة مساعي الاشراف وعلم هؤلاء ايضاً ان سرهم قد انكشف فاسرعوا في تنفيذ مشروعهم قبل ان يستعد التعايشي لدفعهم فاجتمعوا في المنازل المجاورة لقبة المهدي وعاضدهم البحارة وغيرهم ممن اعتبروا تصرف التعايشي في احكامه مخالفاً للشريعة الغراء

وكان الاشراف قد اعدوا الاسلحة وخبأوها في مكان فاخرجوها ذات ليلة من مخابئها وفرقوها في رجالهم ولكنها لم تكن تزيد على ١٠٠ بندقية (رمنتون) وشيء

من الذخيرة وبعض المدافع وكان زعيم تلك الحركة احمد ولد سليمان فقال للقوم ان المهدي ظهر له في الرؤيا وأنبأه بفوز الاشراف ولم يبق من الاشراف احد إلا تقلد الحسام أو البندقية واستعد للقتال حتى أرامل المهدي أنفسهن فقد كن الى ذلك العهد محجورات في منازلهن لا يخرجن ولا يرين احداً فخرجن تلك الليلة في جملة المطالبين وخصوصاً « ام المؤمنين » فانها تقلدت الحسام وتهيأت للحرب

كل ذلك والخليفة عبد الله في منزله وقد اوصى ملازميه باليقظة وفرق فيهم العدة والذخيرة وامر أن يلازموا بابه لا يبرحوه مطلقاً وبعث ملازميه من الجهادية السود فبثهم في الاسواق ليمنعوا المدد عن الاشراف ثم أمر رجاله التعايشية ففرق فيهم ما يزيد على الف بندقية واوقفهم في الساحة بين قبة المهدي ومنزله ليكونوا حاجزاً بين الاشراف وبينه واقام العساكر السود في وسط الجامع ينتظرون اوامر أخرى وهناك كانت الرماحة والخيالة أيضاً تحت قياده اخيه يعقوب . اما الخليفة علي ولد الحلو فاشيع انه على دعوة الاشراف قلبياً فامره التعايشي ان يقيم في اقصى أم درمان شمالا وقطع كل مواصلة بينه وبينهم كل ذلك اجراه التعايشي مساء الاثنين وفي صباح الثلاثاء احاط بالاشراف احاطة السوار بالمعصم وبعث اليهم قاضيه يدعوهم الى الاذعان ويذكر اولاد المهدي بمنشور والدهم وبما قال وهو يحتضر وانهم اذا كانوا يشكون أمراً فهو يتعهد بدفع كل ضيم عنهم فاجابوه انهم يريدون القتال فرأى من الحكمة ان يجتنب الخصام بقدر الامكان لاعتقاده أن الحرب اذا بدأت لا تنتهي الا بخراب ام درمان اد يغتنم الدراويش تلك الفرصة للسلب والنهب . فبعث اليهم ثانية ان يرجعوا عن عزمهم فابو الا القتال ثم أطلقوا بعض الطلقات فاجابهم رجال التعايشي بمثلها فرأى ان يوسط الخليفة علي ولد الحلو في الامر فبعث اليه فلما جاء دفع اليه منشوراً للاشراف يطلب اليهم الصلح والكف عن العدوان فكان جوابهم هذه المرة اقرب الى المسالمة فقالوا نريد ان نعرف ما هي شروط الصلح فاجابهم التعايشي « ضعوا الشروط انتم » وما زالت المخابرة جارية بقية ذلك اليوم وطول ليله الى الصباح التالي فانقضت الازمة وتم الصلح على شروط أهمها (١) ان يعفو التعايشي عفواً عاماً عن كل المشتركين في تلك الثورة (٢) ان يجعل لمحمد الشريف عملاً يليق بمقامه ويخلي له كرسياً في مجلسه (٣) ان يرجع له الرايات التي مات امراؤها في واقعة توشكي لكي ينصبها ويجمع رجالا تحتها (٤) ان يخصص لاقارب المهدي اموالا تنفق عليهم من بيت المال (٥) ان يسلم الاشراف كل سلاحهم ويطيعوا أوامر التعايشي اطاعة عمياء . فكتبت هذه الشروط وامضاها الفريقان وعادت الاحوال الى الهدو ظاهرياً ولكن القلوب ما فتئت على غليها

ويجدر بنا في هذا المقام الاستطراد الى ترجمة التعايشي ووصف أحواله واحوال السودان قبل فتحها الاخير فنقول

هو السيد عبد الله بن السيد محمد التقي ويتصل نسبه بعشيرة الجبيرات من قبيلة التعايشة والتعايشة من قبائل البقارة والبقارة اسم يطلق على القبائل القاطنة غربي النيل الابيض وهم بدو اكثر اشتغالهم برعاية البقر والنخاسة وتجارة الرقيق ويقيم التعايشة في الغرب الجنوبي من دارفور



ش ٣١ — عبد الله التعايشي
قتل سنة ١٩٠٠

وكان السيد محمد التقي مشهوراً في قبيلته بالتقوى والكرامة والاستقامة يؤمه المرضى وذوو الاسقام يلتمسون الشفاء بما يتلوه عليهم من الآيات او يردده من الصلوات أو بما يكتبه من الاحجبة والعقود . وقد ولد له اربعة ذكور واثنى وهم عبد الله ويعقوب ويوسف وسماني وفاطمة وكان عبد الله ويوسف اقلهم ميلاً الى العلم فلم يحفظا القرآن الا بعد الجهد الشديد وكثرة المزاولة وكانا اكثر ميلاً الى النخاسة (اقتناص العبيد) أما يعقوب وسماني فكانا اقرب الى الهدو والسكينة فحفظا القرآن سريعاً ولازما اباهما يساعدانه في صلاته وسائر اعماله

واتفق في اثناء حرب الزبير باشا لدارفور ان عائلة السيد محمد التقي هذا كانت في حملة القائمين على الزبير فوقع عبد الله اسيراً في بعض مواقع شكّا وأراد الزبير قتله

فتوسط بعض العلماء في العفو عنه فابقى عليه فاراد عبد الله ان يكافىء الزبير على عفوه عنه فقال له سرًّا « رأيت في الحلم انك المهدي المنتظر واني احد اتباعك » فاجابه الزبير « لست المهدي ولكنني رأيت هؤلاء العرب قد قطعوا الطرق على التجارة فجئت لفتحها »

فلما فتحت دارفور واستقر الامن فيها نزح التقي وعائلته من وطنهم الى شكا اقاموا فيها سنتين ثم ساروا منها الى دار الحمر فالابيّض فدار القمر ونزلوا اضيافاً على شيخ ذلك المكان عساكر ابي كلام بضعة اشهر وهناك توفي السيد محمد التقي ودفن في شركلة وقبل مماته اوصى عبد الله ابنه الاكبر ان يلازم بعض مشائخ الدين في وادي النيل مدة ثم يهاجر الى مكة فيقيم فيها ولا يعود الى السودان

فترك عبد الله اخوته عند الشيخ عساكر وسار قاصداً وادي النيل فسمع في اثناء الطريق بمحمد احمد المهدي وما يتحدث به الناس من كرامته مع شهرته في طريقه فقصده وطلب الانضمام اليه . واتفق ان محمد احمد كان اذ ذاك في خصام مع استاذ طريقته افضى الى الشحناء فاغتنم عبد الله تلك الفرصة وخدم محمد احمد خدماً حببته اليه فاسس محمد احمد طريقة كان عبد الله من اقدم المشتركين فيها ورأى تجمع الاحزاب حول محمد احمد فقال في نفسه لعل هذا هو المهدي المنتظر . وكان اهل السودان ينتظرون ظهور المهدي قريباً وكلما رأوا رجلا يفضلهم عقلا ودراية ظنوه المهدي فقال عبد الله لمحمد احمد « ان كنت المهدي المنتظر قل » فقال وجعل عبد الله خليفة له فهو اقدم خلفائه وأول القائمين بنصرته ويده اليمنى في كل اعماله كما قد رأيت في سياق تاريخ المهدي مما لا فائدة من اعادته

صفاته واخلاقه وأعماله

﴿ وجهه ﴾ بلغ التعايشي السنة الخمسين من عمره وهو ربع القامة اسمر اللون قليلا على وجهه آثار الجدري اقنى الانف حسن شكل الفم خفيف الشاربين والعارضين كثيف العثنون (شعر الذقن) أشيب الشعر عربي الملامح وكانت ملامحه في اوائل ايامه تتخللها طلاقة وبهجة فامست في اواخرها وقد غشاها انقباض تنقبض منه النفس ويدل على ما انطوى عليه الرجل من الاستبداد والمكر والدهاء . وهو قصير الشفتين تظهر اسنانه من خلالهما وخصوصاً اذا تكلم فانها تبرز لامعة بيضاء كأنه يبتسم .

﴿ لباسه ﴾ وكان قبل وفاة المهدي يلبس الجبة المرقعة الخاصة بالدراويش فلما تولى الخلافة جعل جبته من القطن الابيض الرفيع بلا رقع ولكنه خاط بحوافيها

شرائط ملونة . وكان يلبس السراويل من القطن أيضاً ويلف عمامة بيضاء حول طاقية من الحرير صنع مكة ويلقي على كتفيه احياناً شالاً خفيفاً من القطن . وترى في صورته (ش ٣١) رسمناها بناءً على ما وصفه به سلاتين باشا وغيره ممن شاهدوه لان الرجل لم يتصور صورة منقولة عنه رأساً

وكان في بادىء الامر يحتذي نعالا كنعال سائر الدراويش ثم ابدلها بالخف واليابوج من جلد ضارب الى السمرة فاذا مشى حمل بيساره سيفاً جميلاً ويمينه رمحاً صغيراً جميل الشكل من صنع قبيلة الهدندوة يتوكأ عليه كالعصا . وهو لا يمشي الا محاطاً بحلقة من صغار العبيد واكثرهم من أبناء الاحباش الذين أسروا في المواقع الاخيرة المتقدم ذكرها وواجباتهم ايصال أوامره الى من أراد في أم درمان فاذا بلغ أحدهم أشده انتظم في سلك الملازمين

﴿ أخلاقه ﴾ كان حاد الطبع مقحام غضوب اذا غضب سارع في حكمه وأصر على عناده لا يسمع نصحاً ولا يصغي الى مشورة كثير الشكوك سيء الظن لا يثق بأحد ولو كان من أقرب أقربائه أو من اهل منزله لاعتقاده ان الاخلاص والامانة يندر وجودهما . يرتاح الى الاطراء والتملق فاذا خاطبه احد صدّر خطابه بذكر محامده ونسب كل ما حدث من الحسنات الى حكمته ودرايته وعدله وبسالته وكرمه فيسمع كل ذلك مصغياً ويزداد عجباً وافتخاراً وهو يثق بمقدرته وثوقاً تاماً ويظن نفسه قادراً على كل شيء فما كان من ذلك فوق استطاعة البشر نسبه الى قوة الهية حلت فيه

ومن اخلاقه الحقد والصرامة والعنف والانتقام فيفرح بتكدير الآخرين وخذلانهم . واسعد يوم عنده يوم يضبط فيه الاموال ويلقي الناس في الاغلال والقيود أو يسوقهم الى القتل والذبح فيبعد الولد عن والديه والامرأة عن زوجها ظلماً وعدواناً فكثيراً ما أمر بقتل الالوف من النساء والاولاد الابرياء

﴿ مجلسه ﴾ ويكلف التعايشي القائمين بخدمته والجالسين في مجلسه تذللا لا تستطيعه نفس الحر فالداخل عليه يقف امامه مطرقاً ويداه متقاطعتان على صدره ينتظر أمره بالجلوس والتعايشي جالس في صدر القاعة على عنقريب عليه حصير مصنوع من سعف النخل فوقه فرو من جلد الضأن يرف عن حوافي العنقريب وقد يتكىء الى وسادة من القطن فاذا كان الداخلون عليه أهلاً للجلوس في حضرته أشار اليهم فيجلسون على الارض جلوسهم للصلاة مطرقين ينتظرون ما يلقيه عليهم من الاسئلة فيجيبون وهم ينظرون الى الارض لا يبدون حراكاً الا اذا أمرهم بالانصراف فينصرفون

﴿ داخليته ﴾ ومن الغريب انه مع استبداده في حكومته وعنفه في تنفيذ أوامره

فهو على الضد من ذلك مع أهل منزله فقد كان يحب ابنه عثمان اكبر أولاده حباً شديداً وينعطف نحوه انعطافاً غريباً وقد بذل كل مرتخص وغال في سبيل تعليمه القرآن والتفسير والحديث وسائر العلوم الاسلامية فلما بلغ السابعة عشرة أزوجه ابنة عمه يعقوب واغضى عن وصية المهدي بابطال ولائم الافراح فنصب الموائد ومد البسطة ثمانية ايام حتى لم يبق أحد من أهل ام درمان الا امّ ذلك الاحتفال ثم ازوجه فتاتين اخريين من اقاربه واهداه قطيعاً من السراري والجواري وأوعز اليه صريحاً ان لا يقرب امرأة من نساء وادي النيل (الدناقلة) وزوج ابنته بمحمد بن المهدي وكان محمد هذا ينوي الاقتران ببعض ذوات قرابته لانه لا يحب ابنة التعايشي ولكنه لم يتجرأ على التصريح بذلك لعلمه أن التعايشي يسيء الظن به ويتعرض في أموره تعرض الوصي ويراقبه مراقبة الحرس فكظم غيظه وصبر على بلواه

﴿ نساؤه ﴾ كان التعايشي قبل فتح أم درمان يقيم في منزل كبير على مقربة من الجامع ونساؤه الشرعيات اربع وأما الجواري فعددهن يزيد على الاربعمائة اكثرهن من الفتيات اللواتي أخذن من والديهن بالاسر بعد الحرب . فهن في اعتباره مما ملكت ايمانه وفيهن البيضاء والسمراء والحبشية والسوداء جعلهن اقساماً يرأس كل عشرين منهن رئيسة وعلى كل ثلاثة أو اربعة من هذه الاقسام امرأة حرة هي في الغالب سرية يختارها هو لهذه المهمة . وفي دار الحريم هذه خصيان معظمهم صغار السن وفي جملتهم عشرون خصياً يرأسهم واحد منهم اسمه عبد القيوم

﴿ طعامه ﴾ وكان طعامه في اوائل حكومته قاصراً على العصيدة واللحم المطبوخ والدجاج ولكنه ما لبث أن صار يتناول الاطعمة المركبة التي يتخذها الاغنياء في مصر وغيرها

﴿ ملازموه ﴾ كان بخدمة التعايشي جند من الملازمين يقف جماعة منهم في بابه أو يسيرون الى جانبه اذا ركب . وكان سلاتين باشا واحداً منهم وأراد التعايشي تعزيز حاشيته فامر بتجنيد جند لحرسه الخصوصي فاختار عدداً كبيراً من عساكر الجهادية وأوعز الى أمراء الغرب (غربي النيل الابيض) فاختاروا له عدداً آخر واضاف الى هذا وهذا جماعة من أحسن الجعالين وغيرهم الى الدناقلة والمصريين فانه كان لا يثق بهم فاجتمع من ذلك كله جند عدده ١٢ الفاً قسمهم الا ثلاث فرق يتولى قيادة الاولى منها ابنه عثمان ويتولى قيادة الثانية اخوه هارون ابو محمد وهو شاب لم يجاوز الثامنة عشرة من العمر ويتولى الفرقة الثالثة رجل حبشي اسمه راشد ربي في منزل التعايشي . وتقسم كل من هذه الفرق الى أقسام عدد كل منها مئة يتولى قيادتها ضابط يسمونه

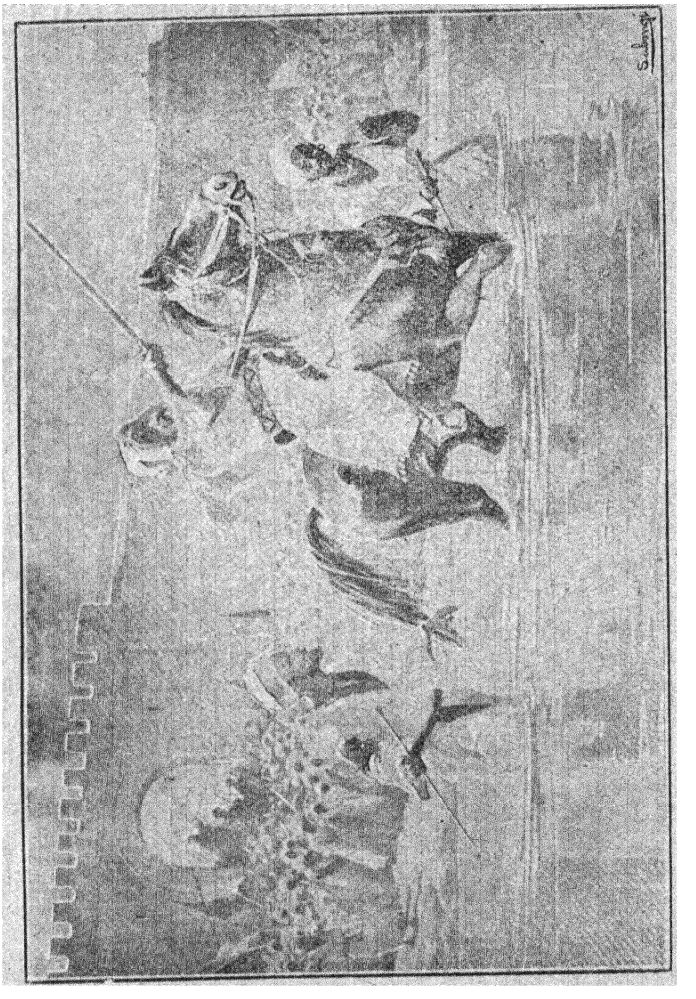
(رأس مئة) على أن ابنه عثمان كان يعتبر في أي حال قائد الملازمين كافة . وراتب الملازم نصف ريال من ريالات الدراويش في الشهر ويصرف لكل منهم وظيفة من الذرة مقدارها ثمن اردب كل اسبوعين . وواجبات الملازمين المحافظة على شخص التعايشي وهو لا يغفل عن مراقبة حركاتهم وتعهدهم بنفسه ليتحقق قيامهم في مراكزهم واخلاصهم في خدمته

﴿ أعماله ﴾ أما واجباته بالنسبة الى رعاياه فاقامة الصلوات الخمس كل يوم في مسجد أم درمان الاكبر فيجلس في المحراب بحيث يرى كل من في الجامع ووراءه ابنه والقضاة وبعض من اختصهم بالتقرب منه والى اليمين واليسار الملازمون ووراءهم من اليمين اخوه يعقوب وسائر الامراء ومن اليسار بعض رجال علي ولد الحلو ثاني خلفاء المهدي وبعض الجعالين والدناقلة ووراء هؤلاء يجلس العامة صفوفاً . ويبلغ عدد الحضور عادة عدة آلاف . وكان التعايشي كثير التدقيق في حضور الامراء للصلاة فاذا تخلف عنها أحد منهم لامه أو حقدها عليه واذا منع التعايشي مانع كمرض أو غيره عن اقامة الصلاة ناب عنه بعض قضاته ولكنه لا يجلس في المحراب . ويشتغل التعايشي ما بين صلاتي العصر والغروب في سماع ما يرد عليه من الاعمال والمداولة بشأنها مع القضاة ولما كان امياً لا يحسن القراءة ولا الكتابة فيتلو الاوراق عليه بعض كتابه أو كتمة سره وهم الذين يكتبون الاوامر والمنشورات ثم يختمها هو بختمه

﴿ البريد ﴾ والمخابرات بين عاصمة الدراويش وسائر أعمالها بواسطة الهجانة وهم عبارة عن ستين أو سبعين هجيناً يتولاها بضعة من الرجال يختارهم التعايشي لحمل أوامره الى العمال ورؤساء القبائل ويعودون اليه بالاخبار والاجوبة وقد أشار عليه ابراهيم عدلان أن يرتب البريد ويعين له مواقيت ومحطات فأبى بدعوى أن الهجانة الذين يحملون البريد رأساً ينقلون اليه أخباراً شفاهية هي أثمن عنده من نظام البريد

﴿ ركوبه ﴾ وكان التعايشي يركب احياناً فيخرج بموكبه لتعهد بعض منازله في اطراف المدينة فينفخ بواق في بوق طويل من قرن الخرتيت اسمه امبايو له صوت مزعج فضلا عن اصوات الطبول فاذا سمع الناس صوت الامبايو والطبل علموا أن التعايشي خارج من ديوانه فيفتح الناس ابوابهم ويطلون من السطوح والكوى لمشاهدة خليفة مهديهم . فاذا مشى الموكب ركب الخليفة في حلقة الملازمين يتقدمها شرذمات منهم وراءهم جماهير الناس من اهل المدينة بين راكب وماش . ويمشي الى يسار التعايشي رجل ضخم اسمه ابو ضحكة يساعده في ركوبه وترجله ويسير أمام التعايشي البواق ينفخ الامبايو بامره ووراءه أصحاب النفير العسكري لتبويق الوقوف أو المسير أو غير ذلك حسب أمره

ويمشي وراءهم خدمته الخصوصيون يحملون له الركوة (ابريق من جلد يملأ ماءً للوضوء) وفروًا للسجود عند الصلاة ورماحاً ويرافق هذه الجماهير الموسيقى العسكرية يضربها خمسون عبداً وهي عبارة عن ابواق من قرون الوعل وطبول مصنوعة من جذوع الشجر مجوفة ومغطاة بالجلد اصواتها تزعج الحواس . وفي اثناء مسير الموكب يلعب بعض الخيالة من الملازمين على ظهور الخيل



ش ٣٢ : عبد الله التعايشي يقطع النيل عند ام درمان ويحرض رجاله على القتال

﴿ الاستعراض ﴾ وكان يستعرض التعايشي رجاله اربع مرات في السنة في الاعياد الاربعة المولد النبوي والمعراج وعيد الفطر وعيد الاضحى باحتفال شائق يحضره أهل ام درمان وغيرهم وكان يستعرضهم قبلاً مرة كل اسبوع في يوم الجمعة

﴿ قواته ﴾ وأما قواته ومقدار ما كان عنده من الذخيرة والمؤونة قبيل ذهاب

دولته فمعظمها من المشاة حملة السيوف والرماح وعددهم ٤٦٠٠٠ ومن الخيالة ٦٦٠٠ ومن العساكر الجهادية ٣٤٣٥٠ وغيرهم . وجملة ذلك نحو مائة الف وخمسة آلاف مقاتل وعدد الاسلحة ٧٤ مدفعاً و ٤٠٣٥٠ بندقية . هذه قوات التعايشي الرسمية ولكنها كانت تتضاعف بما ينضم اليها من القبائل القائمة بنصرته

حكومة التعايشي وادارتها واعمالها

(١) المالية : تسمى المالية عند الدراويش «بيت المال» أو هي بيوت المال يختص كل بيت منها بنوع من انواع الدخل والخرج اهمها خمسة وهي ١ بيت المال العمومي ٢ بيت مال الملازمين ٣ بيت مال الخمس للخليفة ٤ بيت مال ورشة الحربية ٥ بيت مال ضابطة السوق

(بيت المال العمومي) هو عبارة عن الخزينة العمومية لمملكة الدراويش يجمع دخلها من المصادر الآتية ١ الزكاة والفطرة ٢ الاسلاب والغنائم المكتسبة بالحرب ٣ العشور وهي ما يدفعه التجار ضريبة على بضائعهم (المكس) ٤ ضريبة الصمغ ٥ ضريبة القوارب ٦ قروض يعقدها بيت المال مع التجار ولا ينوي دفعها ٧ ضرائب العبور في النيل من ضفة الى أخرى (المعديات) ٨ غلة الارض الواقعة غربي النيل الابيض وشرقي النيل الازرق وهي تمتد جنوباً الى كركوج وفشوده وشمالا الى حجر العسل ٩ معين يستولي عليه بيت المال العمومي من بيوت المال الاخرى . وأما نفقات بيت المال العمومي فهي ١ نفقات نقل الجيوش ومؤنهم وذخائرهم الى المديريات والمقاطعات ٢ اعطيات الجند (رواتب الجهادية) ٣ رواتب المستخدمين ٤ الصدقات

(بيت مال الملازمين) ويراد به خزينة الملازمين وهم جند التعايشي الخصوصيين ومنهم حراسه وياورانه يجتمع دخل هذه الخزينة من محاصيل أرض الجزيرة « بين النيلين الابيض والازرق » واما نفقاتها فمحصورة في رواتب الملازمين

(بيت مال الخمس للخليفة) وهو أشبه شيء بالخزينة الخاصة ودخله من المصادر الآتية ١ معظم ما يفضل في خزائن المديريات بعد نفقاتها المعلومة ٢ محاصيل الجزائر الواقعة في النيل وفي جملتها جزيرة توتي تجاه الخرطوم ومحصول ارض الغنيمة ومنها حلفاية وكمين وكانتا قبلا من املاك الخاصة الخديوية ٣ عشر البضائع التي ترد من بربر الى أم درمان ٤ أثمان العبيد الذين يرسلون من المديريات ٥ محصول اكثر البواخر والسفن . أما خرج بيت مال الخليفة فمحصور في نفقات منزله الخصوصي

(بيت مال ورشة الحربية) ويشبه خزينة الحربية عندنا . دخله من ١ غلة جنائن الخرطوم ٢ محصول بعض السواقي بجوار الخرطوم ٣ العاج الوارد من خط الاستواء . وخرجه ١ نفقات البحرية ٢ نفقات الترسخانة ويسمونها بيت الامانة

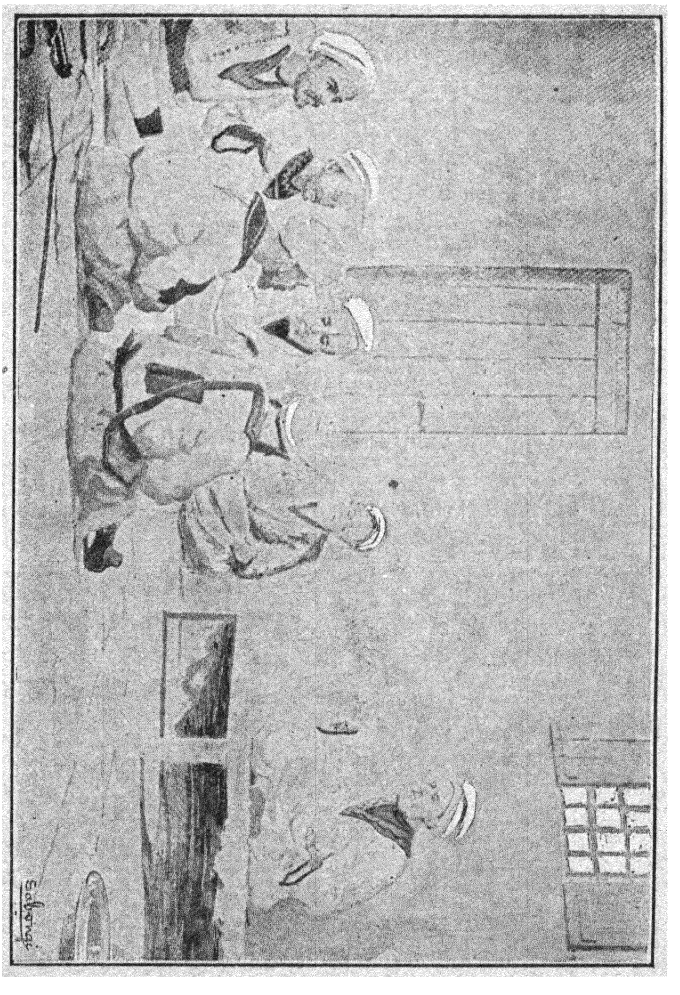
٣ استخراج ملح البارود وتنقيته ٤ نفقات معمل الاسلحة

(بيت مال ضابطة السوق) وهي خزينة الضابطة دخله من أموال السكيرين والمقامرين التي بحكم التعايشي بضبطها ومن ضريبة الحوانيت . وأما نفقاته فعلى ما يأتي ١ رواتب الضابطة من الانفار والضباط ٢ نفقات بيت الضيافة وهو ليعقوب اخي عبدالله التعايشي ٣ نفقات بناء السور الكبير لام درمان . هذه هي اقسام المالية من الدخل والخرج اما المقادير التي تدخل وتخرج فلا تتيسر معرفتها

(٢) النقود والتجارة : لما قام المهدي بدعوته ووفق الى فتح المديريات استولى على خزائنها وأموال أهلها فكان ينفق مما وصل الى يديه من ذلك وهي النقود الدارجة في السودان على عهد الحكومة المصرية اسمها الريال المجيدي والريال ابو مدفع فلما اتسعت مملكته ونفدت تلك الاموال أخذ في ضرب النقود باسمه أشار عليه بضربها احمد ولد سليمان فضرب نقوداً فضية شبيهة بالريال المصري وجنيهات شبيهة بالجنيهات المصرية ولكنهم لم يكونوا يضبطون المقادير اللازمة من كل معدن منها وكان الذهب قليلاً بين ايديهم فكفوا عن ضرب الجنيه واكثروا من ضرب النقود الفضية فضربوا منها ضربات عديدة تعرف باسماء خاصة منها (ريال المهدي) وهذا احسنها كلها ومنها (مقبول) و (أبو سدر) وكلاهما من ضرب نور القيرافوي و (أبو كيس) وعليه رسم رمحين متصالبين . و(العملة الجديدة) على أنهم أخذوا ينقصون مقدار الفضة بالنسبة الى النحاس شيئاً فشيئاً حتى صارت نسبة الفضة الى النحاس كنسبة ٢ الى ٥ مع أنها كانت في بادىء الرأي ٧ الى ١ أي أن الريال كان يحتوي سبعة اجزاء من الفضة وجزءاً من النحاس وهو ريال المهدي فصار يحتوي جزئين من الفضة وخمسة من النحاس وذلك دليل على فقر السودان وفساد حكومته . على ان دار ضرب النقود كان يخدمها كبار الدراويش تجارة يكتسبون بها أموالاً طائلة لانها تعطى حكراً أو ضمانة ومن قوانينها ان يرأسها اثنان معاً يدفع الواحد منهما ستة آلاف ريال كل شهر وما يضربانه من النقود يجب أن يكون مقبولاً لدى التجار وغيرهم فاذا اعترض أحد على صحتها أو تمنع عن قبولها فعقابه الجلد أو سلب الاموال فالريال صار يستبدله تجار أم درمان بثمانية ريالات من العملة الجديدة ويستبدلون الريال ابو مدفع بخمسة ريالات فاضطروا ملافاة لما يلحقهم من الخسارة بهذه المعاملة ان يرفعوا اثمان بضائعهم حتى بلغ ثمن شقة البفتة الزرقاء التي يصطنعون منها ثياب النساء ستة ريالات وكان ثمنها على عهد الحكومة المصرية ثلاثة ارباع الريال واصبح رطل السكر (الرطل ١٤٤

درهماً) بريالين . ومن الغريب ان غلاء الاثمان قاصر على البضائع الواردة من مصر أما ما يجلب من السودان فاثمانه بخسة بالنسبة الى تلك فالجمل مثلا يساوي ستين ريالا والبقرة مائة ريال واردب الذرة ستة ريالات والخروف خمسة ريالات فاكثر

(٣) القضاء : كان القضاء منوطاً عندهم بالقضاة وكبيرهم يسمى « قاضي الاسلام »



مجلس التعايشي

وجميعهم آلات صماء بايدي التعايشي فلا يصدرون حكماً إلا كما يوحيه هو اليهم ما خلا القضايا الطفيفة من الاحوال الشخصية وما شاكلها فقضاة الدراويش بهذا الاعتبار بين جاذبين قويين ضميرهم والاحكام الشرعية من جهة وارادة التعايشي من جهة أخرى وهاك اسماء قضاة ام درمان عام ١٨٩٥

١ حسين ولد زهرة من قبيلة الجعالين
٢ سليمان ولد الحجاز « « الحجماب
٣ حسين ولد قيسو « « الحمر
٤ احمد ولد حمدان « « العراقين
٥ عثمان ولد احمد « « البطاحين
٦ عبد القادر ولد أم مريم وكان قاضي كلاكلا على عهد الحكومة المصرية
٧ محمد ولد المفتي وهو قاضي المواد الجزئية بين الملازمين

وهناك قضاة آخرون للقبائل الغربية اذا حضروا الجلسة لا يصدرون حكماً بل يبدون رأيهم وأما شيخ الاسلام فهو حسين ولد زهرة المتقدم ذكره أول القضاة تلقى الفقه في مدرسة الجامع الازهر وهو اعلم أهل السودان كافة مع الميل الى العدالة وكثيراً ما أصدر احكاماً تنطبق على مقتضى الشريعة الغراء وتخالف ارادة التعايشي فاصبح التعايشي غير راض عنه تمام الرضى وقلما يدعوه لحضور الجلسات

واساس الاحكام عندهم الشريعة الاسلامية وتعاليم المهدي التي أشرنا اليها في كلامنا عن أوصاف المهدي وتعاليمه ويزعمون ان هذه التعاليم انما وضعها المهدي لاحياء ما كان يندثر من احكام الشريعة الغراء بالاهمال . واهم تلك التعاليم الاعتقاد بان محمد احمد هو المهدي المنتظر ومن شك في ذلك فعقابه القتل

وواجبات قاضي الملازمين الحكم في ما يعرض بين الملازمين أو بينهم وبين عامة الناس وفي الحالة الثانية فالحق دائما في جانب الملازمين . وهناك قاضيان ملحقان بيت المال ينظران في القضايا المتعلقة بالاحكام الشرعية من جهة بيع الرقيق وشرائه . وعندهم قاض يقيم في السوق ليحكم في الامور الطفيفة التي تعرض هناك

تلك كانت حال حكومة الدراويش سنة ١٨٩٦ ثم توالى عليها النحس وجندت الحكومتان المصرية والانكليزية لقهرها وبعد مواقع عديدة فتحوا أم درمان سنة ١٨٩٨ وفر التعايشي ورجاله الى الجبال في كردوفان فتبعوه بعد قليل وحاربوه سنة ١٨٩٩ فحاربهم مستهلكا حتى قتل هو وكل من كان معه إلا قليلين التجأوا الى الفرار وانقضت بتلك الواقعة دولة الدراويش

ناصر الدين شاه

ملك الفرس

ولد سنة ١٨٣١ وتوفي سنة ١٨٩٦

مملكة الفرس من الممالك القديمة التي عاصرت البابليين والمصريين واليونان والرومان وامتدت سطوتها الى الخافقين اجيالا متطاولة وتوالى على سرير ملكها دول متعددة اقربها عهداً منا الاكاسرة بدأ حكمهم فيها في القرن الثالث للميلاد حتى استخرجها العرب من أيديهم في صدر الاسلام وما زالت في حوزة العرب الى سنة ١٢٥٨ م فتولاها التتر الى سنة ١٥٠٠ م فأخرجها من أيديهم رجل عربي الاصل اسمه اسماعيل فتولاها ٢٣ سنة وسمى نفسه الشاه ثم تولى خلفاؤه بعده وعرفوا بالشاهات واشتهر بينهم افراد امتازوا بالحكمة والشجاعة . وآخر عائلة من شاهات الفرس عائلة قاجار اولها اغا محمد خان تولى الملك سنة ١٧٩٤ وخلفه ابن اخيه فتح علي شاه سنة ١٧٩٧ ثم محمد شاه حفيد فتح علي سنة ١٨٣٥ م ثم ابنه ناصر الدين شاه الذي نحن في صدده

ولد رحمه الله يوم الاثنين ٦ صفر سنة ١٢٤٧ (١٦ يوليو سنة ١٨٣١) واسم والدته البرنسس وليت فربي في حجر والده وتولى في صباه ولاية اذربيجان بحياة والده وفي ١٣ اكتوبر سنة ١٨٤٨ توفي والده محمد شاه فافضت السلطة اليه وهو لم يكد يتجاوز الثامنة عشرة من عمره فتولى الاحكام بعقل ودراية مع ميل الى الاصلاح ومجاراة التمدن الحديث . وكان في أوائل حكمه كثير الاعتماد على مشورة وزيره الاعظم الامير مرزا طاغي وكان وزيره هذا رجلاً محنكاً عاقلاً فكانت له باع طولى في سائر الاصلاحات التي احدثها الشاه في بلاده وعرف الشاه له ذلك فكافأه بتزويجه اخته وتلك نعمة قلما نالها وزير فحسده بعض زملائه فوشوا به الى الشاه فنفاه وقالوا بل قتله

على أن ذلك لم يقف في سبيل أعماله فتابع الاصلاح والاحكام بحكمة وثبات ولكن موقع بلاد ايران الجغرافي جعلها عرضة لمطامع دولتين من أعظم دول أوربا وهما الروسية من الشمال وانكلترا من الشرق فلافاة لما يخشاه تقرب من فرنسا فعقد معها سنة ١٨٥٥ معاهدة صداقة وتجارة ولما انتشبت حرب القرم التزم الحيادة وفي سنة ١٨٥٦ احتلت جنوده هرات فشق ذلك على حكومة انكلترا فجردت

عليه جنداً هنـدياً في آخر سنة ١٨٥٦ واستعرت نار الحرب بضعة أشهر وانتهت باخلاء هرات ومعاهدة عقـدت بباريس في ٤ مارس سنة ١٨٥٧ يعود النفع بها على انكلترا . ولم يكد يستريح من مناضلة ذلك العدو الشديد حتى ثارت عليه بعض الولايات المجاورة لمحاربها وتغلب عليها وارسل حملة الى التركمان وعاد ظافراً غانماً

فلما هدأ باله من الحروب والفتن عمد سنة ١٨٦٠ الى الاصلاح فغير نظام الجنـد وادخل الاسلاك التلغرافيـة الى بلاده . واول سلك نصبه احتفل بنصبه بنفسه سنة ١٨٦١ . وفي سنة ١٨٦٦ عقد مع انكلترا عهداً بشأن انشاء المواصلات



ش ٣٤ — ناصر الدين شاه ملك الفرس الاسبق

التلغرافية بين اوربا والهنـد عن طريق الفرس وانشأ المدارس والمكاتب ونشط المشروعات الادبية والعلمية على انه لم يخل من أعداء يتربصون له ويغتنمون الفرص للفتك به . ففي سنة ١٨٦٩ اكتشف على مؤامرة سعى فيها جماعة من رعيته فانتقم منهم انتقاماً جاوز به حد الرأفة وعرض اسمه للوم امم اوربا فهاجت خواطرها ولـكنها لم تحرك ساكناً

وفي سنة ١٨٧١ أصاب بلاد فارس قحط رافقه الهواء الاصفر والحمى فاصاب الناس جهد شديد فبلغ عدد الذين ماتوا في اصبهان وحدها ١٦٠٠٠

فلما زالت النكبات وعاد الخصب عزم ناصر الدين شاه على السياحة في اوربا فسار في ١٢ مايو سنة ١٨٧٣ من طهران شمالا فقطع بحر قزوين الى استراخان ومنها الى موسكو فبطرسبورج فالمانيا فبلجيكا فانكلترا فرنسا فسويسرا فايطاليا فسالسبورج ففينا ثم عاد الى ايطاليا وسار منها الى الاستانة ومنها الى تفليس ومنها الى باكو بالعربة وعاد الى طهران مسرعاً فوصلها في ٦ ستمبر سنة ١٨٧٣ وشاع عند عودته انه انما أسرع لملافاة مؤامرة كانوا يسعون فيها لخلعه فجازى المؤامرين بعصاً من حديد

وفي سنة ١٨٧٥ ثار الجهادية وتمردوا على الشاه حتى اضطروه لمغادرة طهران ولكنه ما لبث ان أخمد نارهم وعاد الى كرسيه . وفي سنة ١٨٧٨ ساح سياحة أخرى في روسيا . وفي سنة ١٨٨٠ ثار عليه الاكراد فابلى فيهم بلاءً حسناً فثابوا الى السكون وفي سنة ١٨٨٨ مد أول خط حديدي بين طهران وشاه عبد العظيم على ان السكك الحديدية دخلت بلاد الفرس منذ سنة ١٨٦٥ وفي أوائل سنة ١٨٨٩ خرج للسياحة في اوربا مرة ثالثة فلاقى ترحاباً عظيماً وعاد في أواخرها وقضى السنين الاخيرة بالراحة والسكينة مهتما في شؤون مملكته وترقية شأن رعيته وقد أخذ الايرانيون يشتغلون في اعداد المعدات للاحتفال بالعام الخمسين للملك ففاجأهم ذلك المصاب بمقتله بغتة

قتله رجل معتوه في أول مايو سنة ١٨٩٦ وهو داخل مسجد عبد العظيم ليصلي فاصابت الرصاصة قلبه فمات وافضى الملك بعده الى اكبر انجاله مظفر الدين شاه

النهضة العلمية الاخيرة في بلاد الفرس

تمهيد : اشتهر الفرس من قديم الزمان بالعلم والادب ونبغ منهم الشعراء والفلاسفة والحكماء والاطباء يوم كانت اوربا لا تزال محجوبة بظلمات الجاهلية . حتى اذا ظهر الاسلام ودخلت بلاد فارس في حوزته كان الفرس من اكبر العوامل الفعالة في نشأة التمدن الاسلامي

فلما قضي على الشرق بالتقهقر في الاجيال الاخيرة اصاب بلاد فارس من ذلك ما أصاب الشام ومصر فانغمست تلك البلاد في حمأة الجهل الا ما كان من بقايا العلوم القديمة الذائعة على ايدي المشائخ والفقهاء وغيرهم مما لا يلائم مقتضيات العصر الجديد عصر الاختراع والاكتشاف . وتفتخر مصر ويحق لها الفخر بانها سبقت سائر بلاد المشرق في اقتباس أنوار التمدن ثم نسج الشرقيون على منوالها

ومما لا يحسن السكوت عنه ان الفضل الاكبر في تأسيس النهضة العلمية في الشرق سواء كان ذلك في مصر أو الشام أو فارس انما هو للفرنساويين وأول من غرس

بذور التمدن فيه انما هو رجلهم بل هو رجل العالم وفرد أفراده « نابوليون بونابرت حمل هذا القائد على الشرق يريد اكتساحه كما اكتسحه الاسكندر قبله لكنه لم يأته بالعدة والسلاح فقط بل نقل اليه بذور التمدن وأصول المعارف فأرفق حملته الحربية بحملة علمية جمعت نخبة من علماء فرنسا في ذلك الحين . ولم يوفق بونابرت في فتوحه الشرقية فعاد على اعقابه وظلت تلك البذور كامنة حتى نهض من رجال الشرق من



ش ٣٥ : مظفر الدين شاه
ملك الفرس السابق

أحسن تعهدها وتربيتها فنمت وكان منها ما كان من نهضة مصر والشام . فالنهضة الاخيرة تبدأ فيهما من آخر القرن الثامن عشر وقد نمت وازهرت وأثمرت على يد أرومة العائلة الخديوية المغفور له محمد علي باشا الكبير ومن خلفه من اعقابه الكرام

اما بلاد فارس فان الفضل في نهضتها الاخيرة للمغفور له ناصر الدين شاه

(أساس النهضة) تبدأ هذه النهضة سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٤ م) لان في هذه السنة

أرسل المغفور له ناصر الدين شاه اربعين شاباً من ابناء الفرس وأهل العصبية برئاسة حسن علي خان أمير نظام من مشاهير قواد الفرس وأهل البيوت الرفيعة . سار اولئك الشبان الى فرنسا فتلقوا فيها العلوم الحديثة بانواعها من الطب والرياضيات والطبيعيات وعادوا الى بلادهم وعملوا على نشر تلك العلوم بانشاء المدارس كما سيجيء

(المدارس) كانت المدارس في بلاد فارس قبل هذه النهضة على نسق الكتاتيب المصرية القديمة وربما كان في البلدة الواحدة عدة مدارس ولكن التعليم كان على الطريقة القديمة يقتصر الخوض فيها على العلوم الدينية وشيء من العقليات والرياضيات والعلوم العربية . وكانت اللغة العربية يومئذ سائدة بعد الفارسية كما هي الآن فلما عادت البعثة المتقدم ذكرها سنة ١٢٧٧ هـ أنشئت المدارس على النمط الحديث في طهران وتبريز . ففي طهران اليوم سبع مدارس كبرى للحكومة وهي (١) مدرسة الطب (٢) المهندسخانة (٣) مدرسة الميكانيك (٤) مدرسة المعادن (الطبيعيات) (٥) مدرسة الصنائع (٦) مدرسة المبتديان (٧) التجهيزية ويطلق عليها جميعاً اسم « دار الفنون »

وفي تبريز مدرسة كبيرة تعلم فيها اللغات الفارسية والعربية والانكليزية والفرنساوية والروسية وسائر العلوم العصرية . وكل من المدارس المتقدم ذكرها كانت تحت رئاسة عالم فرنساوي واكثر أساتذتها ورؤسائها من متخرجي مدارس فرنسا

وأسس ناصر الدين شاه في مدينة طهران فضلاً عما تقدم مدرسة سماها دار الترجمة » اقامها في قصره وتحت رئاسته لترجمة الكتب العلمية من اللغات الافرنجية وكان ينفق عليها من ماله الخاص

(مدرسة الطب) ومما يحسن ذكره ان الطب كان قبل هذه النهضة على ثلاثة اشكال الطب الهندي والطب اليوناني والطب الفارسي . وكان كل منها يعلم على حدة وله قوانين خاصة . فلما أراد ناصر الدين شاه انشاء المدرسة الطبية استقدم من فرنسا طبيباً ماهراً اسمه الدكتور طولوزان كلفه بانشاء مدرسة طبية كلية على مثال مدرسة باريس وفرض على كل طالب ان يتعلم الطبين الحديث والقديم وأمر بترجمة الكتب الطبية من الفرنساوية الى الفارسية واستحضر سائر المعدات الطبية من الادوات والتماثيل ونحوها بحيث يخرج الطالب منها وشهادته مقبولة في سائر الممالك كأنها معطاة من اكبر مدارس فرنسا وقد توفي مؤسسها الدكتوز طولوزان وخلفه غيره . ونبغ من هذه المدرسة جماعة من الاطباء نذكر منهم الدكتور ميرزا علي خان والميرزا محمد خان وزين العابدين خان وغيرهم من نطس الاطباء

ولما تولى جلالة مظفر الدين شاه سنة ١٨٨٦ سار على خطوات المرحوم والده

فنشط العلم ووسع الساعين في انشاء المدارس فأنشيء منها تحت رعايته ست عشرة مدرسة بعضها في طهران والبعض الآخر في تبريز وبوشهر وغيرهما . ثم شغلت الامة بالقيام على الشاه المذكور التماساً للدستور حتى أفضى الامر الى خلعه سنة ١٩٠٩ وتولية أحمد شاه الحالي



ش ٣٦ : أحمد شاه ملك الفرس الحالي

﴿المطابع﴾ يظهر ان المطابع في ايران اقدم من المدارس الحديثة فيها وأول مطبعة انشئت في تبريز سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) سعى في انشائها عباس ميرزا ولي عهد فتح علي شاه ملك الفرس يومئذ فانه استدعى اثنين من فحول العلماء وهما ميرزا صالح شيرازي وميرزا محمد جعفر التبريزي الشهير بامير وارسلهما الى موسكو وبتروغراد فاستحضرا ١٤ آلة طباعة من الطراز القديم (مكبس) تطبع على الحجر (ليتوغراف) واسسا دار الطباعة في تبريز باسم الحكومة وبعد بضع سنين تنازلت لهما الحكومة عنها ثم انشئت في طهران مطبعة حرّوف (تيبوغراف) وأول كتاب طبع فيها القرآن الشريف . ولكن هذه الحروف لم يطل استعمالها اكثر من بضع وعشرين سنة فاهملت وانتشرت المطابع الحجرية في طهران وخراسان وشيراز ثم عادوا منذ بضع سنين فانشأوا مطبعة حروف في تبريز تسمى «مطبعة سركاري» سعى في انشائها محمد علي ميرزا ولي العهد يومئذ . وفي تبريز وطهران فضلاً عما تقدم كثير من المطابع الاجنبية الفرنساوية والارمنية

﴿ الصحافة الفارسية ﴾ أول صحيفة فارسية ظهرت للوجود جريدة « روزنامه » صدرت في تبريز في أواسط القرن الثالث عشر للهجرة وكانت اسبوعية ثم جريدة « ايران » الرسمية وجريدة « رومية » في اذربايجان . و « فرهنك » في اصبهان تحت رعاية السلطان مسعود ميرزا ظل السلطان الشقيق الاكبر للشاه السابق

وظهرت في أيام مظفر الدين شاه جريدة « تبريز » في تبريز و« صدى الفرس » بالفرنساوية و « اطلاع » و « شرف » (وهي جريدة مصورة) و « خلاصة حوادث » يومية و « تربيت » في طهران . ثم « شرافت » مصورة و « ناصري » و « احتياج » و « ادب » و « كمال » في تبريز . وجريدة « روميـة » ظهرت في رومية باللغة الكلدانية. ولما أعيد الدستور الفارسي ظهرت جرائد كثيرة لا محل لها هنا

أما الصحافة الفارسية خارج ايران فاولها جريدة « اختر » (الكوكب) صدرت في الاستانة سنة ١٢٩١ (١٨٧٥ م) لصاحبها آقا محمد طاهر تبريزي ظلت تصدر الى عام ١٣١٣ فتعطلت لضعف المِّ بصاحبها ثم صدرت « حكمت » في مصر القاهرة سنة ١٣١٠ وهي مجلة سياسية علمية لمنشئها زعيم الدولة الدكتور ميرزا محمد مهدي خان التبريزي رئيس الحكماء وهو من فطاحل علماء ايران وعليه كان معتمدنا في اكثر ما ذكرناه عن النهضة الاخيرة في بلاد الفرس . ثم صدرت جريدة « كوكب ناصري » في بومباي . ثم « حبل المتين » في كلكتة من بلاد الهند سنة ١٣١٢ للسيد جلال الدين الكاشاني . ثم ظهرت جريدة « ثريا » في القاهرة سنة ١٣١٦ لمنشئها ميرزا علي محمد خان وظهرت منذ بضع سنين جريدة « جهره نما » بالاسكندرية وهي الآن تصدر في القاهرة . والفرس ميالون الى المطالعة وكلهم يقرأون العربية لان تعلم هذه اللغة الزامي في مدارسهم

وفي بلاد الفرس جماعة كبيرة من العلماء وهم على اربعة اصناف (١) علماء العلوم الدينية وهم الفئة الكبرى ومنهم الفقهاء وكل اشتغالهم باللسان العربي مطالعة وتأليفاً (٢) الحكماء ويسمونهم الحكيمين نسبة الى الحكمة (أي الفلسفة) وهم كثار ومنتشرون ويكتبون بالعربية والفارسية (٣) علماء العلوم الحديثة ومنهم الاطباء والمهندسون وغيرهم وهم يعرفون العربية والفارسية والفرنساوية وغيرها (٤) الشعراء وهم جماعة كبيرة لهم شأن عظيم عند الدولة والملة لان الشاه وأهل دولته يعظمون شأن الشعراء ويجلون مقامهم . ومنهم شاعر خاص يسمونه « ملك الشعراء » وآخر لولي العهد يسمونه « صدر الشعراء » . وليس في بلاد فارس جمعيات أدبية أو علمية على ما نعلم الا جمعية نشأت منذ عدة أعوام تسمى « انجمن دانش » وفي النجف طائفة كبيرة من علماء

الدين عندهم كان لهم تأثير كبير في اعادة الدستور وهم الذين تعاقدوا مع ثريا بك مندوب جمعية الاتحاد والترقي العثمانية على الثبات في نصرة الحرية وهذا رسمهم وهم يتعاقدون (راجع تاريخ الدستور الفارسي في السنة ١٧ من الهلال)



ش ٣٧ ـ تعاقد علماء النجف وثريا بك

(نظام الجند) ولا باس من استطرادنا الى ذكر نظام الجند الفارسي لانه من جملة مقتضيات التمدن الحديث . دخل هذا النظام سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣) م بدأ بتنظيمه فتح علي شاه وكان قد سمع بنظام الجند الفرنساوي على ما وضعه بونابرت فبعث الى فرنسا استقدم احد مشاهير قوّادها ومعه عشرون ضابطاً جعلهم جميعاً تحت قيادة ابنه عباس ميرزا ولي عهده وكان يومئذ والياً على اذربايجان فدربوا الجند على نظام الجند الفرنساوي . ثم تراءى له ابداله بالنظام الانكليزي وسمي الجندي « سرباء » أي فادي الرأس . ثم ابدله ناصر الدين شاه بالنظام النمساوي سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٦ م) على أثر رحلته المشهورة الى اوربا واختار لجنده ضباطاً نمساويين عقد معهم اتفاقاً على خمس سنوات . فلما قضوا تلك المدة طابت لهم الاقامة هناك فتجنسوا بالجنسية الفارسية وتوطنوا ولا يزال هذا نظام جند فارس الى اليوم

الامير عبد الرحمن

أمير الافغان

ولد سنة ١٨٣٠ وتوفي سنة ١٩٠١

(استقلال أفغانستان) يبدأ تاريخ أفغانستان بالوضوح منذ استيلاء تيمورلنك عليها وهو القائد المغولي الشهير الذي دوّخ آسيا في أواخر القرن الرابع عشر للميلاد وفتح افغانستان في جملة فتوحاته وتولاها خلفاؤه بعده . وفي سنة ١٥٠١ م استخرجها من دولة آل تيمور ظهير الدين محمد القائد المغولي المعروف ببابر « بابر » في الهندية « النمر » سمي بذلك لما ظهر من أعماله الدالة على البطش والشجاعة . وهو من سلالة جنكزخان وفي عروقه شيء من دم تيمورلنك . ظهر هذا القائد في فرغانة بين سمرقند ونهر الهند . وكان أبوه أميراً على فرغانة فطمع هو في الغزو ففتح كابل ودوخ بلاد الهند وأسس فيها دولة مغولية دخلت أفغانستان في حوزتها

وما زالت افغانستان تابعة للدولة بابر حتى ظهر نادر شاه القائد الفارسي الشهير بنابليون الشرق (راجع ترجمته في الهلال ٢٢ سنة ٧) فكان من جملة غزواته انه فتح قندهار وكابل سنة ١٧٣٧ واكتسب ثقة الافغانيين فأحبوه وانتظموا في جنده وفي جملتهم شاب شجاع اسمه أحمد خان الدراني من قبيلة العبادلة وكان يعرف باحمد خان العبدالي

وظلت أفغانستان في حوزة الفرس عشر سنوات . فلما قتل نادر شاه سنة ١٧٤٧ اختار الافغانيون أحمد المذكور اميراً عليهم . فأصبحت أفغانستان مملكة مستقلة وملكها أحمد العبدالي وقد سموه احمد شاه . فتولى حكومتها بضعاً وعشرين سنة وفتح بلاداً كثيرة اخضعها للافغان . فأصبحت مملكته تمتد من بحر قزوين غرباً الى حدود الهند شرقاً . ومن اشهر حروبه واقعة بني بتان قرب دهلي حارب بها قبائل المهراتة من الهنود الوثنيين في ٦ يناير سنة ١٧٦١ والمهراتة يومئذ في ابان بطشهم وقد اعجزوا أعاظم السلاطين التيمورية في الهند حتى طمعوا بنزع السلطة من ايدي المسلمين وكانت جنود الهند في تلك الواقعة ثمانين الفاً وجند احمد شاه ستين الفاً نصفهم من الافغان ولم يكن احمد شاه يعتمد في حروبه على سواهم . فانهزمت المهراتة شر هزيمة ونكل بهم الافغانيون تنكيلاً عظيماً . فطار صيت احمد شاه في اقطار الهند وهابه الملوك والامراء وانتشرت سطوته هناك ففتح بنجاب وكشمير والسند وما والاها . ثم بلوجستان ومكران وبلخ وغيرها واتسعت مملكة الافغان في ايامه اتساعاً عظيما ونالت

ثروة وسطوة لم تبلغ لهما قبله ولا بعده . واحبه رعاياه واكرموه حتى لقبوه بابا وصار اسمه « احمد شاه بابا »

ولكن الممالك القائمة بقوة سلطانها او اميرها فقط لا تلبث اذا هو مات ان تسقط حتى يقوم من يقيمها بعده خلافاً للحكومات المؤسسة على النظام والمقيدة بالشورى فان موت الملك قلما يؤثر فيها . ومات احمد شاه سنة ١٧٧٣ فخلفه ابن له اسمه تيمور وكانت قصبة المملكة قندهار فجعلها كابل وهي لا تزال قصبة افغانستان الى الآن . وكان تيمور هذا حكيما عاقلاً فاجتهد في استبقاء ما خلفه ابوه من العز



ش ـ ٣٨ الامير عبد الرحمن خان

فبقيت المملكة سعيدة طول ايامه . وتوفي بعد عشرين سنة وخلف ٢٣ ولداً خلفه منهم ابنه الخامس شاه زمان وقام النزاع بين الاخوة فتضعضعت المملكة وخرج كثير من الولايات من حوزتها وصار القواد يختطفونها والاعداء يسطون عليها مما يطول شرحه . حتى افضى الامر الى انقسامها فاستولى على كابل أحد القواد من قبيلة البارکزائية واسمه دوست محمد (جد عبد الرحمن امير الافغان) في أوائل القرن الماضي . وطمحت مطامع نابوليون بونابرت في اثناء ذلك الى أواسط اسيا فبعث

الجواسيس الى أمرائها وملوكها وفي جملتهم شاه الافغان . فخاف الانكليز عاقبة تلك الدسائس فبعثوا سفيراً الى الشاه سنة ١٨٠٩ لمقاومة دسائس بونابرت وكان ذلك اول علاقات الانكليز بالافغان . ثم سطا الفرس على الافغان فحاصروا هرات سنة ١٨٣٧ وتحرك الروس فخاف الانكليز على أغراضهم فارسلوا سفيراً اسمه بارنس ليقيم في كابل وازدادت العلائق بعد ذلك بين دوست محمد وانكلترا وكتبت المعاهدات وانكلترا تنصره على كل مهاجم أو منازع . وكان دوست محمد شاه هذا حكيماً ينظر في شؤونه بعين الحكمة والدراية فاستفاد من علائقه الحسنة مع انكلترا فائدة كبرى



ش ٣٩ ـ تيمورلنك القائد المغولي الشهير

وتوفي دوست محمد عام ١٨٦٣ ونذكر من اولاده ثلاثة وهم افضل خان واعظم خان وشير علي خان وكان هذا أصغرهم ولكن اباه اختصه بولاية العهد من دونهم فشق ذلك على اخويه وقام النزاع بين الاخوة وشبت الحروب الداخلية فكان النصر حليف شير علي خان حتى قبض على اخيه افضل خان (والد الامير عبد الرحمن) والقاه في السجن وكان عبد الرحمن شاباً لا يزيد عمره على العشرين عاماً ففر الى بخارا ثم عاد الى افغانستان وانضم الى جيش عمه أعظم خان وحارب معه حتى تمكن من دخول كابل بجيشه ظافراً ثم طارد شير علي خان وتغلب عليه في مواقع كثيرة

ثم عاد شير علي ومعه القبائل والاحزاب فاخرج عبد الرحمن من كابل فاراد

الالتجاء الى الهند فمنعه حاكمها من الدخول اليها فاحتمى بروسيا نكاية بانكلترا واقام عبد الرحمن بين سمرقند وتشقند عشر سنوات والحكومة الروسية تجري عليه راتباً يزيد على مئة وخمسين جنيهاً في الشهر

(الامير عبد الرحمن) هو عبد الرحمن خان بن افضل خان بن دوست محمد خان ولد عام ١٨٣٠ ونشأ منذ نعومة اظفاره بين الفتن والحروب بما قام من التنازع على النفوذ في افغانستان بين الروس والانكليز . ناهيك بما استحكم من الخصام بين والده



ش ٤٠ ـ نادر شاه الفاتح الفارسي الشهير

افضل خان واعمامه أولاد دوست محمد خان فكان عبد الرحمن يناضل عن والده نضالاً حسناً واشتهر بالشجاعة والاقدام ولم تبق بقعة في افغانستان لم تتلوث أرضها بدماء قتلاه . حتى اذا حمي وطيس الحرب بعد دخول الانكليز لجأ هو الى الروسيين وتلك عادة أمراء الافغان في مثل هذه الاحوال . فاجري القيصر عليه الرواتب والوظائف حتى كانت سنة ١٨٨٠ وخلت كرسي الملك في كابل فاقامه الانكليز عليها على ان يراعي جانبهم

ثم أخذوا بناصره وعضدوه وبالغوا في تقريبه بالهدايا والرواتب وفي جملة ذلك راتب مقداره ١٨٠٠٠ جنيه في العام فضلا عن النياشين والرتب ولقبوه السير عبد الرحمن خان . وجهزوه بكثير من الاسلحة والمدافع وجعلوا من مقتضى المعاهدة المبرمة بينهم وبينه ان يمدوه بالمال وينصروه بالرجال عند الحاجة وأنشأوا له في كابل ترسانة للاسلحة وامدوه بالعملة والمهندسين . حتى صاروا يعتقدون انه صنيعتهم وخادم مصالحهم . أما هو فلم يكن يعترف بذلك ولا يريد ان يعترف به بل كان يعتبر نفسه حالفاً لانكلترا . ويؤيد ذلك أنه اراد ان يرسل سفيراً من قبله يقيم في لندن كما تفعل سائر الدول المستقلة . على انه كثيراً ما صرّح بصداقته لانكلترا جهاراً ومن جملة ذلك انه التقى باللورد دوفرين في بندي في ربيع عام ١٨٨٥ فاعرب الامير عما في نفسه من الاحترام لجلالة الملكة ورجال حكومتها وكانوا في وليمة جمعت جماً غفيراً من رجال الدولتين فاستل الامير عبد الرحمن سيفه من غمده المرصع ولفظ خطاباً قال في ختامه انه سيقتل عدو انكلترا بحد ذلك السيف

ولم يكن جلوسه على كرسي الملك كافياً لتأييد سلطانه فحارب حروباً كثيرة قبل ان استتب الامر له من جملتها ان ايوب خان أحد منازعيه ثار في قندهار فارسل اليه عبد الرحمن جنداً عادوا خاسرين فلم ير بداً من اقتحام الوغى بنفسه فحمل عليه وقهره ففر ايوب الى بلاد ايران وعاد عبد الرحمن وقد سكر بخمر الظفر وحكم رعاياه بعصا من حديد فنفر الوجهاء منه فساء الظن بهم وخيل له انهم يتآمرون على خلعه ولم يهدأ له بال حتى قتل كل من ظنه من اعدائه أو كان وجيهاً محبوباً يخشى منه على نفوذه . فازداد الناس كرهاً له ورعباً منه . ولكنهم لم يحركوا ساكناً لما يعلمونه من شدته واستبداده

على ان ذلك لم يمنع ظهور ثورات أخرى بل ربما كان داعياً لها فان الغازية حاربوه مراراً ولم ينج من مطامعهم الا بسفك الدماء

وفي سنة ١٨٨٨ حاربه ابن عمه اسحق خان وكان حاكماً في افغانستان تركستان وسبب حربه ان عبد الرحمن دعاه الى كابل دعوة ظاهرها حبي فخاف اسحق تلك الدعوة لما يعلمه من عاقبة المدعوين قبله فاعتذر عن القدوم فاعاد الدعوة وتفنن باساليب التجمل فلم يخدع اسحق وظل على عزمه فاتهمه عبد الرحمن بالعصيان وانفذ جيشاً للقبض عليه فشتته اسحق وطمع بكابل فحمل عليها . فاسرع عبد الرحمن لملاقاته وحاربه ففر اسحق الى بلاد الروس وأقام في سمرقند هو وانصاره تحت رعاية روسيا وحمايتها وهي تنفق عليهم وتبالغ في اكرامهم

ثم ثار عليه الهزارية بين كابل وهرات وهم من اهل الشيعة فحاربهم فاتعبوه ولكنه تغلب عليهم واستتب له الملك ثم أصيب بمرض النقرس ولا يزال يتردد عليه العام بعد العام حتى ذهب بحياته سنة ١٩٠١

﴿ صفاته واخلاقه ﴾ هو ربعة ممتلىء الوجه حاد البصر متناسب الملامح كما ترى في الرسم . يتكلم الفارسية والبوشتية وبعض العربية قال بعض الذين جالسوه انه حسن المحاضرة فصيح الكلام محتشم صحيح القياس مع مبالغة واطراء . وتظهر فيه هذه الصفات خصوصاً اذا وقف على منبر الخطابة فانه يؤثر على سامعيه تأثيراً شديداً . ومن غريب ما يروونه عنه مما يندر في امراء تلك الاصقاع انه معتدل المزاج لا نهم ولا شره لا يشرب الخمر إلا قليلا ويكره الافيون ولا يقبله الا اذا اشتد به الالم من مرض أو نحوه فيتخذه مسكناً . ولكنه شديد الاعجاب بنفسه كثير التحدث بما أوتيه من النصر حتى جعل نفسه قريناً للاسكندر الكبير فهو يعتقد انه متصل بهذا الرجل العظيم بحلقات كثيرة تفصل بينهما لكنها بالية لا يعبأ بها

ويؤخذ من بعض احاديثه انه مطلع على كثير من اخبار الامم قوي الذاكرة وشديد الحذر من الاجانب فلا يأذن لاحد ان يجتاز بلاده لتجارة أو نحوها الا في أحوال خصوصية . ولكنه مع ذلك كثير الاكرام للنزيل لا يدخر وسعاً في سبيل راحته

﴿ حكومته ﴾ هي ملكية مطلقة وتقسم مملكته الى اربع ايالات كابل وتركستان وهرات وقندهار وأضاف اليها مقاطعة بدكشان وما يتبعها . يتولى كل ولاة والٍ يسمونه « حاكماً » وكان يسمى في أيام شير علي خان « نائب » ويتولى القضاء قاض وبعض المفتين أو المحتسبين وهم الشرطة يجرون على نظامات لو روعيت لم يكن بها بأس

واما جنده فقد نظمه شير علي خان سنة ١٨٦٩ على نظام الجند الاوربي وكان قد أهمل هذا النظام فأعاده عبد الرحمن وعنده فضلاً عن الجند النظامي عدد كبير من الاهالي وفيهم الفرسان والمشاة يجدونه عند الحاجة . اما عدد الجند فلا يمكن تحديده لاختلاف الروايات في شأنه . فقد قدروه سنة ١٨٩٦ بخمسين الف ماش تحت السلاح واربعين كوكبة من الفرسان واما سنة ١٨٩٠ فقد بلغ جند الافغان ٢٠٠٠٠٠ مقاتل وعنده من الاسلحة النارية ست بطاريات جبلية تجرها البغال وبطارية تجرها الافيال ومراكز الجند في هرات ومزارع الشريف وقندهار وجلال آباد وتصنع الذخيرة في ترسانة كابل بادارة بعض الانكليز يصنع فيها في كل يوم ١٠٠٠٠ فشكة من فشك

مارتيني و١٠٠٠٠ من فشك سنايدر و١٥ بندقية ويصنع فيها مدفعان في كل اسبوع

ومما يذكره الانكليز من علائقه الحسنة بانكلترا زيارته الهند سنة ١٨٨٥ لحضور المجلس الاعلى (دربار) الذي عقد في روال بندي في شمالي الهند الغربية على أثر المؤتمر الذي تشكل يومئذ من روسيا وانكلترا بشأن الحدود الشمالية لافغانستان بعد احتلال روسيا لمرو. وقد جرى امير الافغان في هذا الامر على مقتضى مصلحة الانكليز فاكرموه واحتفلوا باستقباله في روال بندي احتفالاً شائقاً على النمط الشرقي وقدموا له سيفاً مرصعاً . وفي (ش ٤٢) صورته في أثناء ذلك الاحتفال



ش ٤١ ـ الامير عبد الرحمن في أثناء سياحته ببلاد الهند سنة ١٨٨٥
الى يمينه دوك كانوت والى يساره ماركيز دوفرين

﴿ حياته في بيته ﴾ اطلعنا على رسالة للدكتورة هملتن طبيبة بيت الامير عبد الرحمن نقتطف منها ما يأتي تتمة لما ذكرناه من مناقب هذا الامير قالت : —

« ﴿ اعتقاده في النساء ﴾ لم اسمعه يتكلم عن زواجه إلا قليلاً وكان ذلك بمناسبة ذكر زواجه الاول الذي تم وله من العمر ثمانية عشر عاماً فقد قال لي « قد يتزوج الرجل غير مرة لاسباب تدعوه الى ذلك ولكن قلبه لا يعرف إلا زوجة واحدة وتلك زوجته الاولى » وقال لي انه لكي يكاتب خطيبته الاولى ويراسلها تعلم الكتابة والقراءة فلهذا يجل تذكارها ويقدس ايامها فقد اقتطفت المنون زهرة شبابها في نضرة عمرها وهي بنت عمه الامير محمد أعظم خان واقول انها لو كانت كأفراد العائلة فانها

تستحق الشهرة التي نالتها في اللطف والجمال

« وفي السنوات الاخيرة لم يكن يحفل الامير بالنساء ولا يسمح لهن بحضور مجلسه إلا في القليل النادر واذا سمح لهن بذلك فانما يعاملهن كما يعامل الاطفال الصغار لا كما يستحق ان يعامل من في يده تربية الناشئة الجديدة . والحق يقال ان تربية الابناء ليست موكولة هناك الى الامهات . اذ لا يكاد يقدر احد انجال الامير على المشي حتى يسلم الى المعلم يتولى تربيته ويبقى تحت رعايته حتى يصير رجلاً . وأتذكر انني ابديت له استغرابي من هذه الطريقة فقال « ليت شعري كيف يكون حال اولادنا لو تركناهم الى تربية نسائنا ؟ وكيف ينشأ الولد الذي يتربى بين احضان هاته النسوة » ولما قلت له ان النساء الانكليزيات يتولين تربية ابنائهن في زمن الصغر حتى يقدرون على الذهاب الى المدرسة تبسم وقال « كيف يمكنك ان تقارني بين سيدة اوربية وسيدة شرقية » ولم اقدر على اقناعه بان نساء الافغان اذا تعلمن وتربين واطلقت لهن الحرية اصبحن كنساء أوربا لانه كان يرى ان الزمن لم يأت لهذه الحركة وان نساء الافغان لا يصلن الى درجة المرأة الغربية حتى قال ذات مرة « أي دليل اظهره نساؤنا على رغبتهن في التعليم أو ميلهن الى المعارف . هل طلبن منك أن تعلميهن شيئاً من الاعمال التي تقومين بها ؟ ألا يحتقرنك ويرين علمك ومعارفك من سقط المتاع ؟ ألا يحسدن عليك بدلاً من أن يغبطنك » فلم أقدر على الجواب ولكنني لا ازال أعتقد انه لو مهد لهن سبيل التعليم واطلقت لهن حرية الفكر فانهن يترقين شيئاً فشيئاً

« ﴿ اعتقاده في الدين ﴾ جمع الامير عبد الرحمن في صفاته الاخلاق المتضادة فبينما نظنه متمسكاً بعادات قومه وعقائد شعبه تراه يبدي لك رأياً أو يبرهن لك قضية لا يصدران الا عن استقلال فكر وحرية ضمير مع ثبات عليه وتمسك به مهما حاول احد اقناعه . وكان كثير الشغف بالمجادلات الدينية حتى انه طالما كان يتهمني بأني مشركة لا اعبد الهاً واحداً وكان لا يصغي كثيراً اذا اردت ان اشرح له حقيقة اعتقادي واتذكر اني تكدرت من هذه التهمة وظهر على وجهي التأثر الشديد فقال وهو يتبسم « خفي عنك وطأة الانقباض ايتها السيدة لانا انما ننظر الى المسألة من وجوه مختلفة وارجو ان تضحي هذا الاناء الصيني — وكان بالقرب مني — على المائدة » . ثم قال « اجلسي امامي » وسألني « ماذا ترين من النقش على هذا الاناء » فقلت « انني ارى صورة تنين أخضر فاغر فاه محملق بعينيه وله ذنب طويل » . فاجابني على الفور قائلا « هذا كلام لا حقيقة له فان المنقوش على الاناء صورة بحر واسماك ومغارة تتكسر عليها المياه وتحوم حولها اشباح صغيرة أظنها حشرات أو ما أشبه ذلك . والآن

أرجو ان تصغي ايتها الطبيبة وتعلمي انني لا امزح بل أنني حقيقة أرى ما وصفته لك ولا أرى ما ترينه أنت . . لانني لا أبصره ولم يقع تحت نظري — فاذا انا انكرت وجود البحر والاسماك فهل يقتضي ذلك ان نتشاجر ونتقاتل ؟ » ولا خلاف فانني فهمت كل ما أراد أن يعبر عنه لان مثل هذا التعبير ظاهر جلي ولكنني استغربت صدوره منه وزاد عجبي حينما رأيته بعد ذلك قد اضطجع على كرسي كبير وأسند رأسه



ش ٤٢ : الامير عبد الرحمن بلباسه الرسمي

على وسادته ثم قال « هكذا نحن في هذه الدنيا ننظر الى الامور من وجه واحد ولكن سوف نرى باعيننا الوجهين في العالم الآخر . بل سوف نعلم ان كل نظر الى جهة واحدة باطل وخطأ مبين

« قلت ان الامير كان ذا شغف بالمجادلات الدينية الا انه كان لا يحب ان يسمح لي تفسيراً عن معتقداتي . وفي ذات يوم أخذ برتقالة وعلقها في سلسلة ساعة ثم طلب مني خيطاً من الصوف وكنت جالسة بالقرب منه انسج شيئاً من القماش ومع رغبتي

في عدم قطع الخيط لم أتأخر عن اجابة طلبه ثم قال « والآن احضري لي خيطاً من الحرير وسلكاً دقيقاً من الحديد » ثم ربط كل خيط بالبرتقالة وانا واقفة انظر اليه ولا ادرك ما يريد ثم قال « انظري ايتها الطبيبة انني حينما اعلق هذه البرتقالة باحد هذه الخيوط لا تقع ولكنها ليست كلها متساوية في القوة فاحد هذه الخيوط امتن من الاخر انظري الى الخيط الصوفي والى سلسلتي الذهبية فهما متساويان متبادلان في تأدية المطلوب . وهذا مثال الاديان وقيمتها فبعضها اتقى وأطهر واعلى وهو بذلك



ش ٤٣ : حبيب الله خان امير الافغان

امتن سبباً واقوى رابطة . ولكنها كلها تربط الانسان بالخالق القادر المبدع سبحانه وتعالى حتى ادنى الاديان وأحطها انفع من لا شيء . فهذا الخيط الحريري لا يدوم طويلا بل ينقطع حالا . وهذا السلك الحديدي يفلت من البرتقالة كغيره فتمسكي بدينك فان الافضل ان يكون لك دين ولو فيه خطاء من ان لا تديني بشيء » (انتهى)

﴿ نظر الانكليز الى عبد الرحمن ﴾ قال أحد كتبة الانكليز يصف علاقة الامير عبد الرحمن بانكلترا « ان علاقة هذا الامير بنا لا يصح ان نعتبرها مرضية وان ظهرت لنا كذلك . نعم انه يسايرنا في كل ما نرجوه من نفعه ويقابل سفراءنا

بالاكرام والتعظيم وقد ارسل ابنه لزيارتنا في لندن — ولكن القرائن الاخرى تدلنا على انه كثيراً ما ساير ألد أعدائنا في الهند . ولا أظنه لو وفق في سعيه معهم الا رامياً بصداقتنا عرض الحائط . وغاية ما يقال في هذا الرجل انه صديق حميم وحليف مفيد للهند طالما كانت حكومة الهند شديدة البطش . أما اذا ضعفت فانه من أشد الجيران خطراً عليها قال — وأما خليفته حبيب الله خان فاننا لا نتوقع منه غير السكينة والمسايرة وهو لا يرى منا الا كل مساعدة ونصرة »

(حبيب الله خان) هو اكبر انجال الامير عبد الرحمن الجديد تولى الملك بعد وفاة ابيه بمقتضى نظام وضعه ابوه لذلك . وهو الان في حدود الاربعين من عمره ودلائل الصحة والشباب بادية في صورته . وقد تأتى له ان يتولى نيابة حكومة كابل في حياة ابيه وهو يحارب اسحق خان سنة ١٨٨٨ ورأى الامير بعد رجوعه ما حقق ظنه في ولده حتى عهد اليه مراجعة ما يرد من كتب الولايات فلا يقرأها هو الا بعد ان ينظر فيها ابنه ثم ولاه بيت المال سنة ١٨٩٧ وعهد اليه القضاء الاعلى

وكان من رغائب الامير عبد الرحمن ان يوطد العلائق بين ابنه والامر الافغانية الكبرى فلم ير وسيلة لذلك خيراً من المصاهرة فازوجه سبع زيجات . ولكن الغرض الذي رمى اليه الوالد بهذا الزواج لا يوازي ما يخشى من الفساد بتكاثر النسل والخصام على الملك . ولم يقتصر الامير عبد الرحمن على تزويج ابنه ولكنه ازوج ابناء ابنه المذكور بفتيات اختارهن من العائلات الكبرى المشار اليها

ومن الاعمال التي تولاها الامير حبيب الله خان في حياة أبيه نظارة الخارجية فقد كانت المخابرات مع الدول الاوربية على يده . على أن اسرار السياسة كانت منحجبة في صدر عبد الرحمن والغالب انه اطلعه عليها قبل موته واهمها أن يكون موالياً لانكلترا حليفاً لها . وكان في لسان حبيب خان لثغة أو عجمة تعيقه عن الاسترسال في الكلام يظن ابوه انها نجت عن سم دسه له بعض الاعداء ولم يمته ولكنه اضر بنطقه

تسي هسي

امبراطورة الصين

﴿ حداثتها ﴾ هي من اصل منشوي والمنشو قبيلة نزحت الى الصين منذ قرنين ونصف ومنها العائلة المالكة . وكان والد « تسي » في أول امره في سعة ثم نكب فخسر ماله وسيق منكسر الخاطر الى « كانتون » فاقام فيها ومعه امرأته وابنته (تسي) هذه وابن آخر . وربيت تسي قوية البنية نشيطة سريعة الحركة لان المنشو لا يحبسون اقدامهم في احذية الحديد كما يفعل سائر اهل الصين . ولعلها اشتغلت في حداثتها بجمع العيدان من الطرق والدروب وقوداً لبيت والدها

نزح والدها الى كانتون سنة ١٨٣٨ وسن ابنته أربع سنوات . فكان ذلك قبل حرب الافيون التي أذلت امبراطور الصين وكسرت نفوس الصينيين وكان والد تسي يغالب الفقر والفقر يغلبه فلم ير له مخرجاً منه الا ببيع ابنته . والصينيون اذا اصابهم فقر فرجوا ضيقهم ببيع بناتهم وهم يرون في ذلك حكمة لان الفتاة اذا بيعت امنت الجوع وخصوصاً اذا كانت جميلة وينتفع اهلها بثمنها . ويقال ان فتاتنا هي التي اقترحت على والدها أن يبيعها فابى عليها ذلك في بادىء الرأي لانه منشوي من اهل الشمال وبيع البنات شائع بالاكثر بين الصينيين الاصليين في ولايات الجنوب . ولكن الجوع اضطره بعد ذلك الى بيعها فاشتراها تاجر اعجب بذكائها ونباهتها . ومن غرائب الامور انها تعلمت القراءة والكتابة قبل الثامنة من عمرها بمجرد رغبتها مع صعوبة ذلك في الصين يومئذ حتى على الرجال . واغرب من ذلك ان بعض كتبة الانكليز يدعيها لامته فيزعم ان فيها دماً انكليزياً — وهو من غرائب الادعاء

﴿ زواجها بالامبراطور ﴾ ولما بلغت « تسي » بضع عشرة سنة اصبحت في بيت سيدها كاحدى بناته . واتفق لامبراطور الصين يومئذ « هيان فونغ » ان زوجته لم تلد له أولاداً فاعلن رغبته في فتاة يقع اختياره عليها فيتزوجها التماساً للنسل وعين يوماً تحضر فيه الفتيات اللواتي يطمعن في ذلك النصيب. على ان يكون سنهن بين ١٤ و١٨ سنة وان يكون حضورهن في قصر الامبرطور في بكين

قالوا : وكانت « تسي » مارة في بعض الشوارع فقرأت منشور الامبراطور على بعض الجدران فوجدت سنها يساعدها على ذلك مع كونها منشوية . فخطر لها ان تعرض نفسها في جملة العارضات . واكبرت ذلك في بادىء الامر ولكنها عولت على

التجربة فاستشارت سيدها فاستغرب جرأتها ولكنها أقنعته فسلم وادعى انها ابنته لعله يصيب خيراً بنجاحها

وجاء يوم الاستعراض فبلغ عدد المعروضات بضعة آلاف فتاة حاز السبق منهن عشرٌ وفيهن « تسي » ولما عرضن على الامبراطور اختارها هي من بينهن فتزوجها وسنها ١٧ سنة فولدت له بعد ثلاث سنوات ولداً ذكراً هو ولي عهد المملكة سموه « تونغ تشي »



ش ٤٤ ـ تسي هسي ـ امبراطورة الصين

وليس من الغريب في بلادٍ لجمال النساء سلطانٌ على قلوب ملوكها ان تنال المرأة حظوة في عيني الملك ولكن الغريب ان هذه الفتاة مع صغر سنها وانها دخلت على البلاط الامبراطوري وفيه امبراطورة قبلها — تمكنت بحسن سياستها ولطافة اسلوبها ان تجتذب قلب ضرتها وقلوب سائر أهل البلاط . وكانت منذ دخلت ذلك القصر تظهر اللطف والانس لرفيقتها الامبراطورة فلما صارت أم ولي العهد لم تغير شيئاً من ذلك

﴿ الامبراطور الجديد ﴾ وظلت الاحوال في استكانة ووفاق حتى كانت الحوادث المشومة على الصين سنة ١٨٦٠ يوم اغار عليها الانكليز والفرنساويون يداً واحدة فهدموا حصون طا كو وحملوا على بكين ففر الامبراطور بامرأتيه وابنه وعمره ست سنوات الى قصر له يسكنه في ازمنة الصيد في مكان يقال له « ياهو » . اما المهاجمون ففتكوا بالمدينة وأحرقوا قصر الصيف

وفي السنة التالية توفي هيان فونغ ووليُّ عهده لا يزال في السابعة من عمره . فعهد بالحكومة قبل موته الى مجلس أعضاؤه اميران من العائلة المالكة ووزيره « لونغ تشي » وترك العناية بامر الغلام الى الامبراطورتين . واختص الامبراطورة الاولى بعهد مختوم دفعه اليها وفيه تفويض تام في امر الغلام وتربيته . ولكنها كتمت ذلك التماساً للوفاق بينها وبين ضرتها . قال الكاتب « وهذه أول مرة اتفقت فيها سارة وهاجر »

وما لبثت « تسي » ان رأت نفسها امبراطورة بالاسم فقط وان الاحكام صائرة الى قبضة مجلس الوصاية فاغرت البرنس (كونغ) اخا الامبراطور المتوفى على مشاركتها في التخلص من ذلك المجلس . فوافقها واتهمهم بتقصير ارتكبوه في جناز الامبراطور فقبض عليهم وقتلهم . فخلا الجو للامبراطورتين في البلاط الملوكي واستبد البرنس (كونغ) في ادارة شؤون المملكة

مضى على ذلك ثلاث سنوات والبرنس كونغ عامل على رد ما فقدته الصين بالحروب الماضية والثورات المتوالية . فشاع في المملكة انه الفاعل لما يريد . فخافت (تسي) ان يجره ذلك الى الاستبداد بالامر دونها فاصدرت في ٢ ابريل سنة ١٨٦٥ امراً باغلال يديه عن مصالح الحكومة لانه تعدى الحد الذي وضع له . فاطاع واعتزل ولكن المملكة لم تكن تستغني عنه فاعادوه بعد خمسة اسابيع الى كل ما كان فيه إلا رئاسة المجلس

وفي سنة ١٨٧٢ ارشد الامبراطور وآن زواجه فاخذت والدته على نفسها ان تختار له زوجة . فاعلنت غرضها وتقاطرت الفتيات من انحاء المملكة يعرضن جمالهن وفي يد كل منهن لوح فيه اسمها وسنها . فاذا مرت بين يدي الامبراطورة دفعت اللوح اليها . فاذا وقعت منها موقعاً حسناً سألتها بعض الاسئلة والا امرت لها بحذاء من الفضة وزنه أوقية وخلت سبيلها

فالفتيات اللواتي لم يأخذن تلك الهدية مرون ثانية فاللواتي أخرجن منهن هذه المرة اعطين لفة من الحرير وفي المرة الثالثة عينت الفتاة التي وقع اختيارها عليها

واسمها « ألوتى » وهي جميلة عاقلة . وقبل الزواج بثلاثة أيام ارسل الامبراطور العريس الى عروسه حلة الملك ثم بعث اليها امراً بتسميتها امبراطورة وزفت اليه باحتفال لم يسبق له مثيل مشى فيه الامراء واستقبلتها حماتها « تسي » في القصر الامبراطوري بكل رعاية واكرام

وكانت تسي بعد ذلك لا تظهر لاحد من الوزراء ولا يراها احد من الناس ولكنها كانت تستطلع حركاتهم وتتبع خطواتهم من وراء الحجاب . ولم تظهر للوزراء وجهاً لوجهٍ الا بعد أن ادركت العام الستين من عمرها

وكان البرنس كونغ بعد ما آنسه من حرج مركزه قد احتال في الايقاع ما بين الامبراطورتين فلم يفز . وما زالتا في وفاق معاً حتى ارشد الامبراطور الجديد وتولى عرش الصين فافترقتا على وفاق . فسكنت تسي في جناح القصر الغربي وضرتها في الجناح الشرقي وسميت الاولى الامبراطورة الغربية والثانية الامبراطورة الشرقية

واقامتا في سلام الى سنة ١٨٧٣ على رواية مراسل كتب الى بعض الجرائد عام ١٨٨٨ قال « بعثت الامبراطورة الشرقية الى رصيفتها تطلب اليها الاجتماع في بعض شرفات القصر فاجتمعتا وبعد السلام والكلام صرحت هذه الامبراطورة ان من بواعث ذلك الاجتماع ان المهمة التي اجتمعتا لاجلها قد انقضت وآن زمن الافتراق . وانها تود من صميم فؤادها ان تتخلص من ثقل التبعة بعد ان وفقتا الى التضافر على العمل كل كل ذلك الزمن الطويل بوفاق تام لخير المملكة ومصلحة الامبراطور الصغير. واشارت الى التفويض الشرعي الذي بيدها من زوجها المتوفى ولم تكن ذكرته قبل ذلك الحين فاستخرجته حينئذ واطلعت رفيقتها عليه ثم احرقته وهي تقول (لم يبق له نفع الان) فأثر ذلك الفصل المدهش في (تسي) تأثيراً شديداً وابغضت ضرتها من ذلك اليوم »

هذا ما رواه المكاتب ولكن يظهر انهما ظلتا في وفاق مدة اخرى . ففي سنة ١٨٧٤ امر الامبراطور بخلع البرنس كونغ وابنه لانهما فاها بما لا يليق . ولكن كونغ عاد الى منصبه في اليوم التالي بامر الامبراطورتين وما زال فيه الى سنة ١٨٨٤ حتى عزلته الامبراطورة تسي نفسها

﴿ امبراطور ثالث ﴾ اما الامبراطور تونغ تشي فانه مات سنة ١٨٧٥ وترك زوجته (الوتى) حاملاً فاتفقت الامبراطورتان ثانية على العمل . وكان لا بد لهما من انتظار الولادة ليريا اذا كان المولود ذكراً أو أنثى . فاذا كان ذكراً كانت والدته هي الوصية على الملك ولا يبقى لحماتها وضرتها ذكر . واذا كان أنثى قضت شرائع الصين بان تتبنى الوالدة صبياً باسم الامبراطور وتكون مع ذلك هي الوصية عليه



ش ٤٧ : علي بن حمود

(سلطان زنجبار)

واسمها « ألوتى » وهي جميلة عاقلة . وقبل الزواج بثلاثة أيام ارسل الامبراطور العريس الى عروسه حلة الملك ثم بعث اليها امراً بتسميتها امبراطورة ووزفت اليه باحتفال لم يسبق له مثيل مشى فيه الامراء واستقبلتها حماتها « تسي » في القصر الامبراطوري بكل رعاية واكرام

وكانت تسي بعد ذلك لا تظهر لاحد من الوزراء ولا يراها احد من الناس ولكنها كانت تستطلع حركاتهم وتتبع خطواتهم من وراء الحجاب . ولم تظهر للوزراء وجهاً لوجهٍ الا بعد أن ادركت العام الستين من عمرها

وكان البرنس كونغ بعد ما آنسه من حرج مركزه قد احتال في الايقاع ما بين الامبراطورتين فلم يفز . وما زالتا في وفاق معاً حتى ارشد الامبراطور الجديد وتولى عرش الصين فافترقتا على وفاق . فسكنت تسي في جناح القصر الغربي وضرتها في الجناح الشرقي وسميت الاولى الامبراطورة الغربية والثانية الامبراطورة الشرقية

واقامتا في سلام الى سنة ١٨٧٣ على رواية مراسل كتب الى بعض الجرائد عام ١٨٨٨ قال « بعثت الامبراطورة الشرقية الى رصيفتها تطلب اليها الاجتماع في بعض شرفات القصر فاجتمعتا وبعد السلام والكلام صرحت هذه الامبراطورة ان من بواعث ذلك الاجتماع ان المهمة التي اجتمعتا لاجلها قد انقضت وآن زمن الافتراق . وانها تود من صميم فؤادها ان تتخلص من ثقل التبعة بعد ان وفقتا الى التضافر على العمل كل كل ذلك الزمن الطويل بوفاق تام لخير المملكة ومصلحة الامبراطور الصغير. واشارت الى التفويض الشرعي الذي بيدها من زوجها المتوفى ولم تكن ذكرته قبل ذلك الحين فاستخرجته حينئذٍ واطلعت رفيقتها عليه ثم احرقته وهي تقول (لم يبق له نفع الان) فاثر ذلك الفصل المدهش في (تسي) تأثيراً شديداً وابغضت ضرتها من ذلك اليوم »

هذا ما رواه المكاتب ولكن يظهر انهما ظلتا في وفاق مدة اخرى . ففي سنة ١٨٧٤ امر الامبراطور بخلع البرنس كونغ وابنه لانهما فاها بما لا يليق . ولكن كونغ عاد الى منصبه في اليوم التالي بامر الامبراطورتين وما زال فيه الى سنة ١٨٨٤ حتى عزلته الامبراطورة تسي نفسها

﴿ امبراطور ثالث ﴾ اما الامبراطور تونغ تشي فانه مات سنة ١٨٧٥ وترك زوجته (الوتى) حاملاً فاتفقت الامبراطورتان ثانية على العمل . وكان لا بد لهما من انتظار الولادة ليريا اذا كان المولود ذكراً أو أنثى . فاذا كان ذكراً كانت والدته هي الوصية على الملك ولا يبقى لحماتها وضرتها ذكر . واذا كان أنثى قضت شرائع الصين بان تتبنى الوالدة صبياً باسم الامبراطور وتكون مع ذلك هي الوصية عليه

القواد والوزراء ورجال الادارة

سليمان باشا الفرنساوي

مؤسس الجند النظامي المصري

ولد سنة ١٨٨٧م وتوفي ١٨٦٠ م

﴿ تاريخه في اوربا ﴾ ولد في ليون من اعمال فرنسا في اوائل افريل سنة ١٧٨٧ وسمي يوسف سيف وكان ابوه متوسط الحال يتعاطى الصناعة فلما بلغ يوسف أشده أراد والده ان يستعين به في اعماله ولكن الغلام كان يشعر بانه ارفع من ذلك المكان فضلا عن ميله الفطري الى الخروج والجولان فلم يستطع المواظبة فشق ذلك على ابيه فتوعده اذا لم يثابر على العمل بان يدخله في سلك الملاحة عقاباً له فلم يكن ذلك الا موجباً لسروره فادخله في مهنة البحرية سنة ١٨٩٩ وهو لم يتم السنة الثالثة عشرة من عمره فاعجبه جوب البحار وركوب الاخطار في سفن كانت الى ذلك العهد تسير بلا بخار حتى كانت حروب ترافلغار سنة ١٨٠٥ بين الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نلسون الشهير والاساطيل المتحدة لدول فرنسا واسبانيا تحت قيادة الاميرال فيلينوف واميرالين اسبانيين وكان الفوز للانكليز لكن صاحب الترجمة اظهر على صغر سنه اعمالا تدل على استعداده للشؤون الحربية وكان المنتظر ان ينال في مقابل ذلك مكافأة تستحق الذكر فاتفق انه تخاصم وأحد رؤسائه وكان سيف عنيفاً خشناً فجرتهما المعاتبة الى المضاربة فبدأ الضابط فضرب سيف ضربة جرحته فلم يستطع صبراً على ذلك فهم بالضابط وما زال يضربه حتى قيل كفى فقبض عليه وحوكم فحكم عليه بالاعدام وهو حكم عسكري لا مرد له

ولكن العناية سخرت له رجلاً من الاشراف اسمه الكونت بول دي سيغور يقال ان سيف كان قد انقذه من الموت مرة فذكر له هذا الجميل فلما علم بالحكم عليه توسط في امره فانقذه وارسله الى الجيش الفرنساوي الذي كان اذ ذاك في ايطاليا

ولما شبت الحرب بين فرنسا والنمسا كان سيف في جملة الاسرى عند النمساويين وبقي مغترباً عامين حتى اذا كانت حملة نابليون الشهيرة على روسيا سنة ١٨٠٢ فكان سيف في جملة جندها واظهر في أثناء وقائعها الهائلة بسالة اوجبت التفات نابليون

الخصوصي حتى أراد ان يقلده نشان اللجيون دونور فدعاه اليه بهذا الشأن فآنس منه استخفافاً فخنق عليه وحرمه من ذلك الشرف على انه ما لبث ان رقي في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (أمير الاي) بعد رجوع تلك الحملة السيئة الحظ

ثم كانت الوقائع المشهورة التي قضت على رجل فرنسا (نابليون) بالاسر والنفي فقضي على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية والانقطاع الى التجارة التماساً للتعيش ولكن انى للجندي المحارب أن يساوم امرأة أو غلاماً على مبيع سلعة فيبيح قبل اتمام



ش ٤٨ ـ سليمان باشا الفرنساوي

المبايعة وخصوصاً صاحب الترجمة فقد كان قليل الصبر على مثل ذلك فانفت نفسه التجارة ولم يفلح فيها . وسمع في أثناء ذلك ان شاه العجم في حاجة الى ضباط حاذقين في تدريب الجند فكتب الى صديقه الكونت دي سيغور المتقدم ذكره يلتمس كتاب توصية منه الى الشاه فنصح له الكونت ان يتوجه الى محمد علي باشا بمصر

(تاريخه واعماله في القطر المصري) فجاء مصر سنة ١٨١٩ ومعه كتاب توصية فاحسن محمد علي باشا مقابلته وكلفه بالبحث في جهات السودان عن معادن فحم الحجر

ولكنه لم يعثر على شيء منه فعاد الى القاهرة واتفق وصوله اليها يوم الاحتفال بغلبة الجنود المصرية على الوهابية

وكان محمد علي باشا لحسن نظره واهتمامه في تأييد دولته ما زال يفكر في سبيل يوسع به ملكه . وتوسيع الملك لا يكون إلا بتعزيز الجند والجند لا يقوم إلا بالنظام وكان قد شاهد الجنود الفرنساوية بمصر وأعجبه نظامها وهو النظام الذي وضعه بونابرت وتمكن به من التغلب على معظم دول الارض . وكانت الجنود المصرية الى ذلك العهد لا تزال على النمط القديم لا يعرفون الخطوط ولا المربعات ولا ما شاكل ذلك من النظامات العسكرية بل كانوا عبارة عن فرق او وجاقات وفيهم الارناؤوط والانكشارية والمغاربة ونحوهم ولكل من هذه الفرق قائد فاذا نزلوا ساحة الوغى ركب كل جواده واستل حسامه أو بندقيته أو رمحه وهجم على ما يتراءى له

فرأى محمد علي باشا رحمه الله أن يجعل جنده نظامياً ففاوض الكولونيل سيف بالامر فرغبه فيه فعهد اليه تأليف الجند على هذه الصورة وتدريبه على الحركات العسكرية فشق ذلك على جماعة الارناؤوط وغيرهم لان ذلك النظام في اعتبارهم بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار فلم يقبلوا الاذعان ونفروا وتمردوا وتجمهروا حول القلعة يطلبون الرفق بهم فرأى محمد علي ان يعاملهم بالحسنى فاجاب ملتمسهم واغضى عن تعليمهم ولكنه رأى أن يدخل ذلك النظام بين جماعة الوطنيين لقربهم من الاذعان فانشأ مدرسة حربية في الخانكاه قرب المطرية تعلم فيها اللغات والحركات العسكرية وجعل سراي مراد بك بالجيزة مدرسة للفرسان وأنشأ مدرسة للطوبجية ثم انشأ في القاهرة معامل لسبك المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند وعهد بذلك كله الى الكولونيل سيف وكان قد اسلم وسمى نفسه سليمان فصار يعرف باسم سليمان بك الفرنساوي واحبه المصريون وأذعنوا له فنظم جنداً نظامياً بلغ عدده ٢٥٠٠٠ جندي كانوا له عوناً في حروبه بالمورة والشام وغيرهما

ولما كانت حروب المورة المشهورة منذ سنة ١٨٢١ انفذ الباب العالي الى محمد علي باشا ان يجند جيشاً لمحاربة المورة فارسل عمارة بقيادة ابنه ابراهيم باشا سنة ١٨٢١ وكان سليمان بك من جملة ابطالها وتمكن ببسالته من الاستيلاء على جزيرة ميسولونغي سنة ١٨٢٦ ثم عين حاكما لتريبوبتزا فساس أمورها . ثم انقضت مشكلة المورة بمداخلة الدول الاوربية فعادت الجنود المصرية وعاد سليمان بك ومعه فتاة يونانية على مثل ما كان يفعل ابطال اليونان القدماء

ولكن هذه الحرب اثقلت كاهل الجندية المصرية فاعاد محمد علي اهتمامه في

عبد القادر الجزائري (١)

ولد سنة ١٨٠٧ وتوفى سنة ١٨٨٨

هو الامير عبد القادر ناصر الدين ابن الامير محيي الدين الحسيني يتصل نسبه بالامام الحسين ولد في شهر مايو (ايار) عام ١٨٠٧ في قرية القيطنة التابعة لايالة وهران في جزائر الغرب وكان والده من أكابر العلماء العاملين محترماً لدى أعيان الجزائر لبسط يده وكرم أخلاقه ودعته

وقد بذل قصارى جهده في تثقيفه لما آنس فيه من الذكاء والدراية حتى انه تمكن بمدة قصيرة من اكتساب جانب عظيم من العلم وحفظ القرآن الشريف حفظاً جيداً . واشتهر في السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية حتى كان يشار اليه بالبنان بين الفرسان لمهارته في ركوب الخيل واللعب على ظهورها وكان يطارد الخنزير البري في الغابات ويصطاده . على أن ذلك لم يشغله عن القيام بواجباته الدينية

وفي نوفمبر سنة ١٨٢٥ صحب والده الى الحرمين لاداء فريضة الحج فمرّا بحاشيتهما بالاسكندرية وزارا القاهرة وفيها المغفور له محمد علي باشا فاكرمهما . ومن القاهرة قصد الحجاز عن طريق السويس وعرجا بعد الحج نحو دمشق قضيا فيها زمناً وسارا منها الى بغداد لزيارة مقام سيدي عبد القادر الكيلاني فنالا كل رعاية واكرام . ثم عادا من هناك الى الحرمين ثانية ومنها الى وطنهما فوصلاه في أوائل عام ١٨٢٨

ولم يزدد عبد القادر بعد هذا السفر إلا شغفاً في العلم فاعتزل لتحصيله ولازم الخلوة يطالع كتب العلم والفلسفة فدرس رسائل افلاطون وفيثاغورس وارسطاطاليس وتعمق في درس الفقه والحديث والجغرافية والفلك والتاريخ وكتب العقاقير وجمع مكتبة من أثمن مكاتب تلك الايام

وفي عام ١٨٣٠ استولى الفرنساويون على الجزائر ونشروا المنشورات الرسمية بامتلاك البلاد واستخراجها من أيدي العثمانيين فشق ذلك على القبائل العربية القاطنة في تلك الانحاء وانتقضوا على الفرنساويين. وكان الفرنسايون تحت قيادة الجنرال برمونت وقد بلغوا جبل الاطلس فاضطروا للتقهقر الى الشطوط وأخذوا في تحصينها ثم عادوا فاستولوا على مدينة وهران

وتسبب عن تداخل الفرنساويين وخروج جانب من تلك البلاد من حوزة

(١) ملخصة من تاريخ سوريا سنة ١٨٦٠ لنعمان افندي قساطلي (لم يطبع)

الدولة العليـة اختلال الاحوال فسادت الفوضى واجتمع المرابطون ورؤساء القبائل وفي جملتهم الامير محيي الدين والد صاحب الترجمة وتشاوروا في الامر فقرّ رأيهم على الانضمام الى سلطان مراكش مولاي عبد الرحمن فبعثوا اليه بذلك فوافقهم فدخلت الجزائر في سلطانه وخطب الجزائريون له وبايعوه فغضب الفرنساويون وبعثوا الى مولاي عبد الرحمن يهددونه بالحرب أو يسحب جنوده من الجزائر ففضل الانسحاب فاجتمع كبار أهل الجزائر وتفاوضوا في أمرهم فقر رأيهم على ان يقيموا عليهـم الامير محيي الدين سلطاناً يرجعون اليه فذهبوا الى القيطنه (بلدته) وطلبوا اليه قبول اقتراحهم وأرادوا مبايعته فامسك عن الاجابة فاصروا عليه وهددوه بالقتل اذا تمنع فاجابهم على



ش ٥٠ : عبد القادر الجزائري

ان تكون تلك السلطة لولده عبد القادر فقبلوا وكان عبد القادر يحارب الفرنساويين في مكان يقال له حصن فيليب فبعثوا اليه وبايعوه وسنه اذ ذاك ٢٥ سنة فذهب الى الجامع وصلى وحثّ الناس على الطاعة والسـير بمقتضى الشرع الشريف والاقتداء بالخلفاء الراشـدين . وأول شيء باشره جمع كلمة القبائل وضمها بعضها الى بعض حتى يقووا على مقاومة العدو الاجنبي واخراجه من بلادهم . وحارب بهم عدة مواقع فاز في بعضها ولا سيما في موقعة وهران فانه انتصر فيها انتصاراً مبيناً وكانت الجنود الفرنساوية تحت قيادة الجنرال ميشيل فصار يهابه الفرنساويون ويخشون بطشه

وكانت فرنسا على رغبتها في التفرد بسلطتها في الجزائر لا تحب المخاطرة بحملة كبيرة من جندها تقهر عبد القادر فاوعزت الى الجنرال ميشيل ان يعقد معه معاهدة

فرأت (تسي) انها فاقدة نفوذها في الحالين فاتفقت مع رصيفتها والبرنس كونغ على حيلة أخرى. وذلك انهم قبل أن تلد الحامل تبنوا ولداً سنه اربع سنوات هو ابن (تشون) اصغر اخوة الامبراطور (هيان فونغ) فاصبحت (الوتى) في زاوية النسيان . وعادت (تسي) ورفيقتها الى الوصاية مرة أخرى . فبسطتا ايديهما في الحكومة واستبدتا في اعمال المملكة ومعهما البرنس كونغ

وعهدتا بتربية الغلام وتثقيفه الى رجل مشهور بالتعقل والصلاح اسمه (ونغ تونغ شو) وهو الذي غرس فيه الميل الى قبول الآراء الحديثة . ويقال ان الغلام شبَّ وفيه



ش ٤٥ : كوانغ سو امبراطور الصين

انعطاف الى الامبراطورة الاولى اكثر مما الى (تسي) . ولكن القضاء فصل بينهما فماتت تلك سنة ١٨٨١ وخلا الجو لتسي . وما زال كونغ على الحكومة الى سنة ١٨٨٤ فعزلته وولت مكانه البرنس (تشون) والد الامبراطور الغلام . ولم يكن تشون كفئاً لذلك المنصب العظيم ولكنها استخدمته آلة واستعانت في ادارة شؤون المملكة بالرجل السياسي الصيني الشهير لي هنغ تشانغ . وفي سنة ١٨٨٨ آن وقت انتخاب عروس للامبراطور الجديد فاستعرضت البنات واختارت له فتاة اسمها (تيت هونالا) ابنة احد رجال الحكومة

وفي سنة ١٨٨٩ جلس الامبراطور الجديد على كرسي المملكة وسمي (كوانغ سو (والصين ارقى حالا مما كانت عليه يوم تولاها سلفه . وكانت تسي قد شعرت قبل جلوسه ان النفوذ ذاهب منها فارادت حفظ حقوقها فكتبت عهداً اشترطت لنفسها فيه بعض الحقوق في السلطة وطلبت الى الامبراطور ان يمضيه قبل أن يتولى فامضاه فلما تولى الملك انكر ذلك عليها فاعتبرت انكاره خيانة ونشأ النزاع بينهما من ذلك الحين

﴿ الامبراطور كوانغ سو ﴾ كان هذا الامبراطور في حداثته ميالا الى الصناعة اليدوية والآلات الميكانيكية مع ميل قليل الى الدرس والمطالعة . ولما تولى الملك أظهر من الجلد على العمل ما يندر مثاله في الملوك بالنظر الى صغر سنه . فكان ينهض من فراشه الساعة ٣ ونصف بعد نصف الليل فيتناول فطوراً خفيفاً ويستقبل وزراءه من الساعة الرابعة الى الساعة السادسة ثم يخرج لاقامة الشعائر الدينية . ويتناول غذاءه الساعة الحادية عشر ويتعشى في العصر ويذهب الى الفراش باكراً جداً

وكان نحيف البدن أصفر اللون مع اسمرار . لوزيُّ العينين أسودهما مرتفع الجبهة منتظمها مقوَّس الحاجبين لطيف الفم بارز الذقن . اذا ابتسم ظهرت اسنانه صفراء مستطيلة غير منتظمة تلوح على وجهه النباهة يخالطها بعض السوداء . ولعل ذلك ناتج عن انقطاعه الى العمل الشاق مع تحمله التبعة الكبرى في هذا المنصب العظيم . وكان اعتماده الاكبر على وزيره لي هنغ تشانغ . وكل ما تم من المشروعات المفيدة على يده انما تم برأي هذا الوزير العظيم

وفي عام ١٨٩٦ ظهر شاب اسمه « كانغ يووي » كان استاذاً في كانتون . وكان مغرماً بتاريخ بطرس الاكبر قيصر الروس الشهير . فحدثته نفسه أن يصلح الصين كما صلح بطرس الاكبر روسيا . فرفع الى الامبراطور تقريراً في الاصلاح اللازم لمملكته حرضه فيها على نقض عوائد اسلافه وتقاليدهم . وان يتبع خطوات جيرانه اليابانيين والروسيين في التماس التمدن الحديث . وان يجمع وزراءه ورجال حكومته الى الهيكل الذي يصلون فيه ويأخذ عليهم المواثيق والعهود المقدسة بان يجروا الاصلاح في المملكة . وان ينقح قوانين الادارة ويفتح لرعيته سبيلا يرفعون به ظلاماتهم اليه رأساً . وان يختار لحكومته شباناً اذكياء نشيطين بقطع النظر عن حالهم في دنياهم أو انسابهم . وان ينشىء ١٢ ادارة كسائر الممالك المتمدنة . وبسط له كيفيات الحكومة ووضع الضرائب وغير ذلك مما يطول شرحه

ودفع هذا التقرير اولا الى أحد الوزراء فكان جوابه « وكيف نغير تقاليد

اسلافنا وعاداتهم » اما الامبراطور فاعجب بما فيه وعول على العمل به وشرع في تنفيذ ذلك سريعاً . ولكنه لسوء حظه لم يكن له ما كان لبطرس الاكبر من القوة والمنعة وكان في جملة مساعيه انه ابعد الامبراطورة « تسي » الى جزيرة في ساحة القصر . فلما هاج الشعب من صدمة تلك الاصلاحات خاروا الامبراطورة واتفقوا معاً على محاصرة القصر فحاصروه . ثم دخلته « تسي » وأصدرت سنة ١٨٩٨ أمراً بامضاء الامبراطور يعترف فيه انه بالنظر لعجزه عن ادارة شؤون المملكة قد كلف الامبراطورة « تسي » ان تنوب عنه فيها . فعادت الى ولاية الاحكام وفرّ رجال الاصلاح وفي مقدمتهم « كانغ يووي » وظل كوانغ سو محصوراً في قصره تصدر الاوامر باسمه وهو لا يعلم بها . أما نصراء الاصلاح فانهم طافوا في انحاء المملكة يطعنون في الامبراطورة واستبدادها . فشق ذلك عليها فامرت باعدامهم ووعدت من يأتي برأس زعيمهم « كانغ يووي » بجائزة كبرى

وقد يخيل للقارىء مما قدمناه ان هذه المرأة مفطورة على الاذى أو انها وحش بصورة انسان . ولكن بعض الذين قابلوها ودرسوا أخلاقها يقولون فيها ما يخالف ذلك ومنهم كاتب انكليزي قال في عرض كلامه عن فظائعها في القصر الامبراطوري « ولكنها بالنظر الى العالم الخارجي لا تقل شيئاً في اخلاقها وسجاياها عن الملكة فيكتوريا » وهو إطناب كبير وخصوصاً من رجل انكليزي . وذكروا لها حسنات أخرى . على أن بعضهم عدد سيئاتها وبالغ في فظاعتها حتى لم نعد نعرف الحقيقة والظاهر أنها جمعت الى قوة العقل كثرة المطامع والله اعلم



ش ٤٦ ـ منيليك ملك الحبشة

وفي سنة ١٨٤٨ ارسلت روسيا جنداً لاخماد ثورة المجرمين فدخل جندها بلاد الفلاخ فتعين عمر باشا قائداً لجند عثماني أقام هناك للمراقبة . ثم انتدبه الباب العالي لاقناع بعض ولاة البوسنة فاقنعهم وعادوا الى كنف الدولة . وفي سنة ١٨٥٣ سار في عشرين الف جندي لمحاربة رجال الجبل الاسود وارجاعهم الى الطاعة ففاز بذلك فوزاً عظيما فانتدبه الباب العالي لقيادة الجند العامة في البلغار وكان على ضفة الدانوب الاخرى جند الروس بقيادة البرنس غورتشاكوف الشهير . وحدث بين الجندين والقائدين حركات عسكرية ومناورات دلت على مهارة عمر باشا في الجندية حتى بهر البرنس المشار اليه . على انه مازال يحاربهم والنصر رفيقه في أكثر المواقع حتى اضطروا الى الانسحاب عن ضفاف الدانوب . وتعين سنة ١٨٥٥ في حرب القرم المشهورة فغلب الروسيين في يوباتوريا غلباً صريحاً فانتدبته الدولة لانقاذ القرص ولكنها سلمت قبل وصوله

وبعد الفراغ من الحروب تعين والياً في بغداد ولكنه ساء الحكومة وأغضب الباب العالي ففني ثم أعيد في السنة التالية . وفي سنة ١٨٦١ انتدبه الباب العالي لاخماد ثورة البوسنة والهرسك ففعل وهاجم الجبل الاسود وافتتح اعظم مدنه وفي سنة ١٨٦٩ تقاعد عن الاعمال العسكرية وقد نال رتبة الوزارة وصار من مشيري الدولة حتى توفي سنة ١٨٧١ وقد نال أعظم الرتب العسكرية العثمانية ونال من روسيا رتبة فارس من صنف القديسة حنه وكانت له منزلة رفيعة لدى رجال الحرب ولكنه كان شديد البطش صعب المراس وذلك شأن رجال العسكرية على الاكثر

عمر باشا

ولد سنة ١٨٠٦ وتوفي سنة ١٨٧١

هو نمساوي الاصل وكان ابوه ضابطاً في الجند النمساوي ولد له هـذا الغلام في بلاسكي على حدود بوسنه غرباً سـنة ١٨٠٦ فسماه ميخائيل وادخله في المدرسة الحربية في بورن قرب كرستات وحب الجندية موروث فيه . فلم تمض مدة حتى تعين في احدى فرق الجند النمساوي وارتقى الى درجة معاون في مساحة الطرق والجسور.



ش ٤٩ : عمر باشا

وفي الثامنة والعشرين من عمره نزح من وطنه وترك منصبه فيه وجاء بوسنه العثمانية فاعتنق الدين الاسلامي لسبب لا نعلمه وسمى نفسه عمر وتولى تعليم ابناء بعض تجار الاتراك هناك. ثم زار الاستانة ومعه تلامذته ففتح له باب التدريس في مدرسة للعسكرية أنشأتها الدولة هناك وكان ناظر الجهادية يومئـذ خسرو باشا فآنس في ذلك الشاب اقتداراً عسكريا فاضافه الى أركان حربه وجعله تحت عنايته وقدمه في مصالح الدولة فادى خدمات حسنة في امارات الدانوب ثم سعى له في وظيفة تعليم في البلاط السلطاني فتعين مدرساً للسلطان عبد المجيد قبل توليه السلطنة . وفي سنة ١٨٣٩ كان عمر باشا في جملة ضباط الحملة التي انفذتها الدولة لمحاربة ابراهيم باشا المصري في الشام وبعد ثلاث سنوات تعين قومندانا عسكرياً في احدى ولايات سوريا

وقت الغذاء ارسل اليه عباس باشا طعاماً شهياً متقناً فرفضه وقال لحامله « سحقاً لهذا الغذاء ألا يعلم عباس باشا اننا جنود لا نأكل الا مثل اكل الجنود » واصر على ارجاع الطعام بالرغم عن تقدم نجل عباس باشا اليه في قبوله . وله نوادر كثيرة تدل على صلابة طباعه وخشونته. وقد يتوهم بعضهم ان الخشونة والصلابة لازمتان في قيادة الجند ولكن اللين اولى بها والجند يطيع رئيسه اذا خشن طاعة الخائف واما اذا لان فانه يطيعه طاعة المحب وبينهما فرق واضح . أما سليمان باشا مهما قيل في اخلاقه فانه كان ماهراً في قيادة الجند وتدريبه وكان طلاباً للعلى فتمكن منه بجده واجتهاده

اصلاحها ثم كانت الحوادث التي قضت بتجريد الجنود المصرية على عبد الله باشا والي عكا سنة ١٨٣١ بقيادة المرحوم ابراهيم باشا وفوض قيادة الطوبجية الى سليمان بك فسارت الحملة الى الشام في حرب عكا ثم فتحتها عنوة فقبض ابراهيم باشا على واليها عبد الله باشا وأرسله الى الاسكندرية وأوغل في الشام وسليمان بك ساعده الايمن في كل المواقع الكبيرة . وكان قائداً لستة آلاف جندي فانفذ الباب العالي جنداً كبيراً لقهر الجند المصري فوكل ابراهيم باشا مقابلة جانب من هذا الجند الى سليمان بك وسار هو لمقابلة الباقين فحارب سليمان فرقة كبيرة قرب حمص فتغلب عليها في بيلان ثم في الاسكندرونة ثم في قونية وكانت قد تعززت بنجدات قوية . فاعجب ابراهيم باشا بشجاعة هذا الرجل ومهارته في الحركات العسكرية ورقاه الى رتبة باشا . وكان في عزم المصريين البقاء على الزحف لو لم تتداخل الدول وتقرر الصلح فعادت الجنود المصرية الى السكينة ولكنها ما لبثت ان عادت الى الحرب لهياج حدث في بيت المقدس فساروا ومعهم سليمان باشا فاخمدوا الفتنة

وبعد قليل أصدر محمد علي باشا أمره برجوع سليمان باشا الى مصر ثم عادت الحرب في سوريا فعاد اليها ابراهيم باشا وما زال يحارب بسيف المصريين حتى اقتضت السياسة الاوربية انسحاب الجنود المصرية من سوريا فرجع سليمان باشا معها الى مصر وتعين رئيساً عاماً للجيش المصري وما زال فيها عالي الكلمة مرعي الجانب حتى أراد ابراهيم باشا السفر الى جبال البيروني للاستحمام فانتدب سليمان باشا لمرافقته فرافقه وساعده الحظ ان يرى وطنه رأي العين بعد ان غاب عنه أعواماً طوالاً . ولما شفي ابراهيم باشا من مرضه زار فرنسا ثم لندرا وصاحب الترجمة معه فسرته تلك الرحلة لانه تمكن بها من تفقد الثكنات العسكرية في اكبر عواصم أوربا وملاحظة الحركات الحربية ثم عاد الى باريس وابراهيم باشا لا يزال في لندرا وبرح باريس الى البلجيك وهولندا ثم عاد الى ليون مسقط رأسه فاقام فيها مدة بين اهله وذويه ثم رجع الى الاسكندرية فمصر ورفع الى محمد علي باشا تقريراً بما رآه ولاحظه في اثناء سفره وعاد الى الاهتمام في تدريب الجند وما زال عاملا مجتهداً حتى توفي ابراهيم باشا فصار الامر الى عباس باشا الاول ثم الى سعيد باشا فتوفي صاحب الترجمة على عهده في ١١ مارس سنة ١٨٦٠

﴿ صفاته وأخلاقه ﴾ كان ربعة ممتلىء الجسم قوي العضل شديد التعلق بالجندية وكان عنيداً مع ميل الى خشونة المعيشة العسكرية ومما يروى عنه من هذا القبيل ان عباس باشا الاول رغب اليه مرة ان يخرج بتلامذة الحربية الى النزهة ففعل فلما كان

ثم ابتنى مدينة دعاها تقدمة وجعلها مركزاً تجارياً وأنشأ كثيراً من المعامل ونظم جيشاً على النمط الافرنجي الحديث تحت قيادة قواد أوربيين وانشأ معامل للمدافع والاسلحة في تلمسان وغيرها واستخرج المعادن ونشط الصناعة والزراعة والتجارة واخذ بناصر العلم فافتتح المدارس حتى في الاحياء الصغيرة وكان في عزمه انشاء مدرسة جامعة في تقدمة تجمع بين العلوم الدينية الأسلامية والعلوم الحديثة . وضرب نقوداً فضية ونحاسية نقش على احد وجهيها « هذه مشيئة الله وعليه توكلت » وعلى الوجه الآخر « ضرب في تقدمة السلطان عبد القادر » وكان شديد السهر والتيقظ على مصالح بلاده حتى كان يتفقدها بنفسه

ولكن الاقدار لم تسمح باستمرار الامن لان الفرنساويين بعد ان استولوا على قسطنطينة ارادوا مد سلطتهم على البلاد الواقعة بجوارها وكانت في حوزة الامير فعارضهم بدعوى ان معاهدة التافنا تقضي له بها فأصرُّوا على عزمهم وانكروا عليه الامر بتحريف كلة من كلمات المعاهدة فاستأنف امره الى باريس فلم تنصفه الحكومة الفرنساوية فأخذ على نفسه الدفاع بالقوة وحصن الاماكن التي عليها الخلاف وبعث الى قائد الحملة الفرنساوية والى المسيو تيرس وزير فرنسا الشهير اذ ذاك ينذرهم بان الاصرار على طلبهم لا يفيدهم الا سفك الدماء فلم يعبأوا بتهديده ولكنهم قوّوا جندهم واخذوا يتظاهرون بالتأهب للحرب ظنًّا منهم انه يخاف عددهم وعددهم فيذعن بدون حرب وكان الامر بالعكس فانه ثبت على عزمه حتى انتشبت الحرب وتقهقر الفرنساويون الى الشعلوط

فعظم الامر على الحكومة الفرنساوية وبعثت بالنجدات القوية فاشتد ازر الفرنساويين وقاتلوا الامير بجوار جبال الاطلس وتغلبوا عليه وكان جنده على النظام الافرنجي فعدل عنه الى النظام القديم فقوي على اعدائه وأعادهم على أعقابهم وكان يفوز عليهم في كل موقعة ودامت تلك الوقائع ست سنوات . فتعبت فرنسا منه وهو لم يتعب فأبدلت قائد الحملة وبعثت القائد القديم الجنرال بوحيد ومعه الجيوش المجيشة ولكنه لم يثبت امام ذلك البطل المغوار

ولما رأى الامير ان البلاد اصبحت برمتها ميداناً للحرب ابتنى مدينة ثقالة دعاها الزملة يلجأ اليها المنهزمون بنسائهم واولادهم ويقيم فيها الصناع والعمال والحفر حيثما انتقل الجند انتقلت تلك المدينة معهم وهي مؤلفة من خيم جعلها على نظام المدن فاذا نقلت من مكان الى آخر يعرف كل واحد خيمته . وامر رجاله ان لا يقتلوا اسيراً واجاز من يأتي بالاسير حياً . وعلم الفرنساويون بالزملة وبما لها من المنفعة للامير

ورجاله فاهتدوا اليها بخيانة بعضهم وهاجموها فاحرقوا وقتلوا ونهبوا ولم يبقوا عليها وكانوا قبل ذلك بقليل قد احرقوا تقدمة المدينة التي ابتناها الامير لنفسه

وكان الامير في احراج سيرسو فبلغه خبر حريق الزملة وتقدمة فتكدّر كدراً لا مزيد عليه لعلمه ان ذلك يقلل من نفوذه ويقود رجاله الى الفشل ولكنه اظهر الجلد وقال لمن حوله « لا تخافوا ولا تحزنوا لان اخواننا الذين قتلوا قد مضوا الى النعيم » ثم نهض وجدد قوّته والف زملة جديدة واستنجد حكومة انكلترا فلم تجده ثم استنصر سلطان مراكش فلم ينصره فاضطر لان يقوم باعماله بنفسه وهو ثابت العزم لا يثنيه شيء ولا يخيفه أمر

ولكن فرنسا انجدت جندها واغرت سلطان مراكش على معاضدتها فاشتد الامر على الامير ووقع في وهدة اليأس حتى حدثته نفسه بنشر راية الجهاد والمسير برجاله الى مكة المكرمة تاركا البلاد خراباً لمحتليها وفيما هو يفكر في ذلك جاءته نجدات عديدة من بعض القبائل فاشتد عزمه وعاد الى الحرب حتى اصبحت الجزائر بجملتها ميداناً للقتال وما زالت الحال كذلك الى نهاية سنة ١٨٤٦ فملّ العربان وانحاز جانب منهم الى سلطان مراكش فاغتنم الفرنساويون تلك الفرصة واثاروا المراكشيين وأنهضوهم على الامير وقتاله فبعثوا اليه جيوشاً حاربته في اماكن مختلفة وكان الامير يقاتل بالامر الممكن لا تثنيه كثرة أعدائه ولا شدتهم ولكنه استاء من خيانة سلطان مراكش فبعث اليه يذكره بالصداقة القديمة فاجابه اما ان يسلم نفسه أو أن يرحل الى براري الجزائر فكظم الامير على نفسه وفضل الاعتزال عن الناس على التسليم فاقام على الصلاة وتلاوة القرآن الشريف

وفي أواخر سنة ١٨٤٧ علم بقدوم المراكشيين لغزو زملته ولم يكن فيها اكثر من خمسة آلاف والمراكشيون يزيدون على الخمسين الفاً فخاف الامير على رجاله وان يكن لم يعرف الخوف قبلاً . فعادت اليه نخوته فهجم ليلاً بذلك الجيش القليل وفرق شمل المراكشيين ثم عادوا فاجتمعوا ثانية وهاجموه فطاردهم وظهر عليهم ولكنه خسر جانباً من رجاله فرأى الانسحاب افضل له فرجع الى الجزائر فوصل مكاناً علم بعد وصوله اليه أن الجيش الفرنساوي على مسافة ثلاث ساعات منه ورأى ان جيشه قد انهكه السفر والحرب فخشي أن يقع هو وزملته في يد الفرنساوية لانه لا يستطيع الرجوع والمراكشيون من ورائه يطاردونه — ولكنه عاد فرأى ان أن يبذل قصارى جهده فجمع اليه رجاله وخطب فيهم مفصحاً عما هم فيه من الضيق وقال « اراكم قد وفيتم بما بايعتموني عليه وبذلتم جهدكم في معاضدتي . وأما الحالة الراهنة

فتقضي علينا بالتسليم للعدو وعندي ان التسليم للفرنساوية خير من التسليم للمراكشيين فما رأيكم ؟ »

فاجابوه انهم على رأيه فنظر اليهم فاذا هم عدة من أحسن الرجال واشدهم وقد رافقوه في حروبه خمس عشرة سنة فشق عليه ان ينتهي جهاده هذا بالتسليم للعدو ولكنه اذعن لحكم الضرورة قسراً وهو غير خائب لانه جاهد الجهاد الحسن مدة ١٥ سنة حتى نفدت الحيلة

وأراد ليلة ٢١ دسمبر سنة ١٨٤٧ كتابة شروط التسليم فلم يستطع لتساقط الامطار وهبوب العواصف فبعث اثنين من خاصته دفع اليهما ختمه شاهداً على صدق نيابتهما عنه امام قائد المعسكر الفرنساوي الجنرال لاموريسير فذهبا وعرضا الشروط ومن مقتضاها ان يبارح الامير بلاده ويسكن في الاسكندرية بمن معه من الرجال والنساء والاولاد أو في مدينة بورصة . فقبل الجنرال الشروط بدون تردد وسرّ لانتهاء متاعب فرنسا في حروب هذا الامير واخبر فرنسا بذلك فابتهجت باريس . وهكذا سلم الامير ولكنهم احتفلوا به عند قدومه المعسكر احتفالا عظيما

وفي ٢٥ منه سافر الامير بمن أراد مرافقته من رجاله وعددهم ثمانون على دارعة الى طولون فقوبلوا بالترحاب ثم طلبوا اليه التنازل عن اشتراطه السكنى في الاسكندرية أو غيرها من المدن العثمانية وان يقيم في فرنسا بكل احترام وبكل ما يحتاج اليه من النفقات فابى ثم انقلبت حكومة فرنسا من الملكية الى الجمهورية وبعد أخذ ورد اجابوه الى ما أراد ولكنهم اشترطوا عليه أن يتعهد بعدم الذهاب الى الجزائر فتعهد بذلك كتابة هو ورجاله في اذار (مارس) سنة ١٨٤٨ وبات ينتظر الامر بالذهاب . فورد عليه الجواب على غير المراد ومفاده ان الجمهورية تعتبره أسيراً كما تركته الحكومة السالفة وزجوه في السجن مع رجاله . فتكدر الامير كدراً لا مزيد عليه ولكنه كان يتأسى في سجنه بالكتابة والتأليف ورأى رجاله يتذمرون من الاسر فالح عليهم ان يتركوه ويذهبوا لانهم غير مكلفين باحتمال الاسر من أجله فابوا الا مرافقته في السراء والضراء وبقوا في ذلك الاسر الى اكتوبر سنة ١٨٥٢

فقدر الله ان البرنس نابوليون كان متجولا في انحاء المملكة فمر بابيس حيث كان الامير مأسوراً فزاره ووعده بالانقاذ وبعد بضعة ايام اطلق سراحه ودعاه لزيارته في باريس فقوبل فيها بالتجلة والاكرام والباريسيون مطلون من الشبابيك والكوى لمشاهدة الامير البدوي الذي شغل دولة فرنسا ١٥ سنة بالحروب. ثم دعي لزيارة البرنس نابوليون في قصره فسار مع اربعة من اخصائه وكانت الحفلة حافلة فتكلم الامير معتذراً

من عدم معرفته العادات الجارية في فرنسا وطلب الاغضاء عما ربما يأتيه مما يخالف ذلك وتعهد له بعدم الرجوع الى الجزائر فشكره البرنس وبعد الغداء طاف به في القصر وأهداه جواداً عربياً وبالاختصار ان احتفال البرنس نابوليون بالامير عبد القادر كان عظيما جداً وبعد مضي شهر في باريس اتفق اجماع الفرنساوية على ارجاع الامبراطورية فكان الامير في جملة المنتخبين ووقع الانتخاب على البرنس نابوليون ولما تنصب زاره وهناه فلاقى منه كل رعاية وأعطاه سيفاً مكتوباً عليه « من الامبراطور نابوليون الثالث الى الامير عبد القادر بن محيي الدين » . وفي ٢١ دسمبر سنة ١٨٥١ برح الامير فرنسا فوصل الى الاستانة فاحتفل به سفير فرنسا هناك احتفالاً شائقاً وبعد ايام سار الى بورصة على نية الاقامة فيها وله نفقات معينة من فرنسا تبلغ أربعة آلاف جنيه سنوياً تنفق عليه وعلى رجاله ولم يطب له المقام هناك فاستأذن بالعود الى فرنسا فعاد ومكث فيها مدة ثم عاد الى بورصة قضى فيها بضعة اسابيع ريثما أعد نفسه ورجاله ومتاعه وبرحها الى بيروت فوصلها في ٢٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٥٦ ومنها الى دمشق فخرج لملاقاته جماهير كبيرة بالاحتفاء اللائق رجالاً ونساءً حتى وصل المحل المعد لاقامته ثم اتخذ مسكناً له في محل يقال له العمارة في دمشق واقام فيه وقد طابت له المعيشة في تلك المدينة الفيحاء الى آخر ايامه لما لاقى من لطف أهلها وأنسهم وكان يقضي معظم وقته في المطالعة والصلاة والتأليف لا يخلو مجلسه من العلماء والفضلاء

وفي سنة ١٨٦٠ كانت الثورة المشهورة في دمشق وهي المذبحة التي ذبح فيها المسيحيون وكان الامير من اكبر المعارضين لاجرائها . ولما نفدت حيلته في منعها أصر على بذل قصارى جهده في كف الاذى عن المسيحيين

فلما علم يوم الاثنين في ٩ يوليو (تموز) سنة ١٨٦٠ بابتداء المذبحة تكدر جداً وبعث حالا الى كل مغربي في دمشق وفرقهم في احياء المدينة لانقاذ من يستطيعون انقاذه من المسيحيين فكانوا يهجمون كالاسود بقلوب لا تهاب الموت ورؤوس قد ثارت فيها الحمية والمروءة فيأتون بمن يستطيعون انقاذه رجالاً ونساءً وأولاداً الى دار الامير ولما علم النصارى بما عزم عليه الامير كانوا يفرون اليه من تلقاء انفسهم ويقيمون في بيته حتى غصت داره فاخذ البيوت المجاورة له واخلاها وأقام فيها اللائذين به وفي جملتهم قناصل الدول وغيرهم وكان ينفق عليهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام وغيره وممن عاضده في هذا العمل الخيري العالمان الشريفان محمود افندي حمزه وأخوه اسعد افندي رحمهم الله اجمعين

صلح فخابره بذلك وتمت المعاهدة سنة ١٨٣٤

ولما هدأت الاحوال تفرغ عبد القادر لاصلاح شؤون داخلية بلاده واعداد المعدّات الحربية لاعتقاده ان الحرب لا بدّ من العود اليها فانشأ معامل لعمل الاسلحة وصب المدافع واصطناع البارود ونظم الجند . فاضطر من أجل كل ذلك للنفقات الطائلة فطالب القبائل بالزكاة عن المواشي فانتقض عليه بعضهم ولكنه تمكن بحسن درايته من اخضاعهم ولمّ شعثهم فاتسعت سلطته وامتد نفوذه فشق ذلك على الجنرال دي اوراين القائد الفرنساوي اذ ذاك فبعث اليه ان يلازم حدوده ولا يمد يده الى خارج وهران فاجابه ان دائرة سلطانه غير محدودة بمقتضى المعاهدة المار ذكرها . فدارت المداولة بين الفريقين بالمسالمة ولكن مطالب عبد القادر لم تحز قبولاً لدى الفرنساويين فاضمر لهم الشر وأمر بعض القبائل المقيمة بجوار وهران ان تنزح الى داخل البلاد تخاف هؤلاء بطش الفرنساوية وطلبوا حمايتهم فطلب الامير الى الفرنساويين ان لا يحموهم فاستاؤا واشهروا عليه القتال وساروا في خمسة آلاف ماش وعدة من الفرسان وبعض المدافع ولكنهم رأوا من رجاله ما اضطرهم الى الانسحاب حالاً فعلم الامير بجهة انسحابهم فسار لملاقاتهم في مضيق وهم لا يعلمون فلما بلغوا المضيق هجم عليهم برجاله فأبلوا فيهم ولم يبقوا الا على نفر منهم

وكان لهذه الغلبة رنة في باريس وقام الخطباء يحثون الحكومة على ارسال القوات اللازمة لقتال ذلك الامير البدوي وقهره وكان عبد القادر يعرف كل ما يدور في باريس من هذا القبيل لانه كان يطلع على الجرائد الفرنساوية بواسطة تراجمة يحسنون فهمها فكان على بينة من مقاصد عدوّه

وفي نوفمبر سنة ١٨٣٥ قدمت الجنود الفرنساوية الى وهران لمحاربته فقاتلهم ولكنه لم يفز فتفرق رجاله فعاد الى عاصمته (مسكرا) ونزل في بلد على مقربة منها وهو في حالة اليأس الشديد خوفاً من نهوض الفرنساويين عليه وكانوا معسكرين في مسكرا فأصبح يوماً وقد أخلوها لغير سبب يعلمه فعاد هو اليها ونزلها فعاد اليه رجاله واشتد ازره وأخذ في مقاصة الذين عصوه

أما الفرسان فاحتلوا تلمسان فلاقاهم أهلها بالترحاب ولكنهم ضربوا على يهودها ضريبة كبيرة اعتذروا عن دفعها فاجبروهم فندم هؤلاء على التسليم وصاروا يودون العود الى عبد القادر وكان ذلك مما شدد عزم الامير فجاء وطارد الفرنساويين واخرجهم من تلمسان

فغضب الفرنساويون في باريس فبعثوا بالنجدات القوية فحاربها عبد القادر مراراً ولكنه انكسر في واقعة منها انكساراً رديئاً انتقض من أجله العرب عليه وفي جملة المنتقضين قاض يقال له سيدي ابراهيم كان في نيته خلع عبد القادر والاستيلاء مكانه فحمي غضب الامير لذلك الخيانة فجرد سيفه وعلقه بسرج جواده وركب واقسم انه لا يغمد ذلك السيف حتى يقطع رأس ذلك الخائن . فلما بلغ منزله امر باحضاره فاحضروه وهو يرتعش فضربه ضربة قطعت رأسه فكان لذلك وقع عظيم في قلوب رجال عبد القادر فاجتمعوا اليه واستهانوا الموت في سبيله فحمل بهم على مواقع الفرنساويين وضايقهم مضايقة عظيمة حتى قلّت المؤن لديهم وقلّت الذخائر لديه

فدارت المخابرة بين الفريقين في أن يتبادلوا التجارة فيبتاع كل من الفريقين ما يحتاج اليه وتم الاتفاق على ذلك وهدأت الاحوال

وبعد ذلك يسير قدم الجنرال بوجيد من جانب حكومة فرنسا الى وهران يستحث الجند الفرنساوي على القتال حتى يبيد الامير ورجاله أو يقبل هذه الشروط وهي :

(١) اعتراف عبد القادر بسيادة فرنسا

(٢) تحديد مملكته الى نهر الخليف

(٣) اداؤه الجزية لفرنسا

فعظمت هذه المطالب على عبد القادر واجاب انه لا يحق لفرنسا ان تشترط هذه الشروط وهي ليست المنتصرة في مواقع الحرب معه وهددها . فشق ذلك على الفرنساويين ولكنهم فضلوا الصلح على الحرب لعلمهم ان عدوّهم عنيد باسل

وبعد المخابرات والاخذ والرد رأى بوجيد ان الحرب أولى له لانه لم يستطع التوصل الى وفاق موافق لدولته فعرض عساكره فاذا هم لا يستطيعون مناوأة عدوهم فاستأنف المخابرة بشأن الصلح وطال الجدال بشأنه حتى تم القرار عليه في ٢٠ ايار سنة ١٨٣٧ فعقدت المعاهدة المعروفة بمعاهدة التافنا وفي جملة بنودها ان لا يسلم الامير شيئاً من شواطىء بلاده لدولة اجنبية الا بعد مشورة فرنسا وان يكون لكل من الامير وفرنسا قناصل في بلاد الآخر

ولما ارتاح الامير من قبيل المعاهدة وجه انتباهه الى اصلاح الداخلية وتنظيم مملكته والاستعداد للحرب لانه علم لحسن فراسته ان الحرب لا بد من استئنافها فعصاه بعض القبائل فأخضعهم بالسيف وحسن الدراية وكان الفرنساويون ينصرونه عند الحاجة . وفي جملة القبائل التي اقلقت راحته بعصيانها قبيلة ارازق ولكنه ما انفك حتى أذلها وأدخلها تحت لوائه

في ثالث يوم من المذبحة هجم الاكراد الثائرون على بيت الامير للقبض على النصارى فدافعهم الامير ورجاله والشريفان بكل ما في وسعهم فعاد الاكراد خاسرين. ثم ان والي دمشق اذ ذاك وعد النصارى اذا سلموا ودخلوا القلعة انهم يكونون فيها آمنين من القتل فاجتمع فيها نحو من خمسة آلاف وكانه اراد بهم الغدر بعد ذلك بجماعة من الدروز كانوا قادمين للنهب فخرج اليهم الامير ورجاله وهددهم بالرصاص فخافوا وكروا على أعقابهم. وبقيت الثورة سبعة أيام متوالية لم يفتر فيها الامير لحظة عن نصرة المظلومين وانقاذهم من القتل وتطبيب الجرحى وتعزية الثكالى والارامل واليتامى

وكان يقضي أكثر الليالي ساهراً والبندقية في يده حرصاً على من هم في حماه فاذا غلب عليه النعاس اسند رأسه الى فمها قليلا. وفي ١٥ يوليو سنة ١٨٦٠ جاء دمشق وال جديد وعزل القديم وأخذت الاحوال في الهدوء وقد كان في حمى الامير من النصارى يوم جاء ذلك الوالي نحو اربعة آلاف نفس وفي القلعة نحو ستة آلاف وبعد يسير جاء فؤاد باشا لتحري المسألة ومقاصة المعتدين وهكذا انتهت المذبحة

اما النصارى فهم كافة مدينون لفضل هذا الرجل العظيم لانه جاء عملاً برهن على عظم نفسه ومروءته وشهامته وقد نال جزاءه من الدول الاوربية فبعثت اليه بوسامات الشرف ورسائل الثناء وخصوصاً الدولة العلية ايدها الله

ولما هدأت الاحوال عاد الى السكينة وعكف على المطالعة والصلاة والتدريس

وفي سنة ١٨٦٣ استأذن الامبراطور في الذهاب الى الحج فاذن له فزار الحرمين وقضى فروض الحج كما يجب وزار الطائف والمدينة المنورة وكان حيثما حل يلاقي كل رعاية واكرام وفي اثناء عوده من الحجاز سنة ١٨٦٤ مرّ بالاسكندرية وانتظم في سلك الجمعية الماسونية في ١٨ يونيو (حزيران) من تلك السنة. وبعد أيام عاد الى دمشق وعكف على ما اعتاده من التدين والصلاة واشتهر بالتقوى حتى كان الصوفيون يعتبرونه مكاشفاً وينزلونه منزلة سيدي محي الدين بن العربي والشيخ عبد الغني النابلسي وكان له في قلوب اعيان دمشق منزلة رفيعة جداً. وقد كتب كتباً في التصوف والتوحيد ولم يترك ملابسه العربية مطلقاً. ونظراً لمحافظته على عهوده مع نابليون كان يدعوه صديقه الباسل

وكانت معيشته في بيته في غاية البساطة مع الترتيب وما زال معظماً مكرماً محترماً لدى كل من عرفه حتى توفاه الله سنة ١٨٨٨ في منزله بدمشق فاسف الناس عليه واستعظموا المصاب فيه وابنه الكتاب والعلماء ورثته الجرائد في سائر الاقطار رحمه الله

عثمان باشا الغازي

ولد سنة ١٨٣٢ وتوفي سنة ١٩٠٠

هو عثمان نوري باشا القائد العثماني الشهير . ولد في طوقات احدى مدن سيواس في شمالي آسيا الصغرى . قدم الاستانة صغيراً وكان شقيقه حسين افندي استاذ اللغة العربية في المدرسة الاعدادية هناك فادخله في تلك المدرسة فتلقى فيها مبادىء العلم ثم انتظم في سلك المدرسة الحربية فنبغ بين رفقائه وخرج منها سنة ١٨٥٣ ضابطاً ملازماً في فرقة الفرسان (سواري)

ولما انتشبت حرب القرم ألحق باركان حرب عمر باشا القائد الشهير وشهد مواقع كثيرة اظهر فيها بسالة استلفتت انتباه رؤسائه فلما عاد من الحرب ترقى الى رتبة يوزباشي في الحرس الشاهاني بالاستانة

وكان عثمان باشا في جملة رجال العسكرية الذين توسطوا في اصلاح شؤون الحوادث السورية عام ١٨٦٠ وهو في رتبة بكباشي . واشتغل سنة ١٨٦٦ في اخماد ثورة ظهرت في كريد فارتقى على أثر ذلك الى رتبة قائمقام . وعاد الى الاستانة فارتقى هناك الى رتبة اميرالاي . وترى مما تقدم انه انما كان يرتقي على اثر اعمال تؤهله للارتقاء

وفي سنة ١٨٧٤ أحرز رتبة لواء وفي السنة التالية صار فريقاً وتولى قيادة الفيلق الخامس وخرج لمحاربة الصرب ففاز في كل المواقع وعاد وقد حمل الصربيين على التماس الصلح كما سيأتي فصدرت الارادة السنية بترقيته الى رتبة المشيرية مكافأة له

وفي سنة ١٨٧٧ انتشبت الحرب الشهيرة بين الدولة العلية والروس فتولى قيادة ٦٨ طابوراً و١٧ كوكبة و١٧٤ مدفعاً وحارب جند الروس في مواقع كثيرة . وفي هذه الحرب نال هذا القائد شهرته الكبرى

﴿ حرب الروس ﴾ وسبب هذه الحرب ان البوسنة والهرسك في غربي بلاد الروملي تمردتا على الدولة العلية سنة ١٨٧٥ وامتنع اهلهما عن دفع الرسوم الاميرية وربما كان سبب ذلك متصلاً بمطامع النمسا فيهما وتفاقم امر هذه الثورة حتى خيف منها على السلم العام . فاجتمع قناصل الدول العظمى في مستار بالهرسك في سبتمبر سنة ١٨٧٥ وأقروا على تسوية تقضي على الباب العالي ببعض الاصلاح وعلى الثائرين بالامتثال فلم يجد سعيهم نفعاً . فانفذت الدولة العلية جندها لاخماد الثورة بالسيف .

فجرت مواقع كثيرة سفكت بها دماء غزيرة ولكنها لم تقرر النصر لاحد الفريقين وتوقفت الحكومة العثمانية في اكتوبر من تلك السنة عن دفع فائدة الدين العمومي واصدر الباب العالي بلاغاً الى الدول يعدهن فيه بدفع نصف المطلوب معجلا واتخاذ الاحتياطات اللازمة لدفع النصف الآخر ولكنه لم ينجز الوعد . فوضع الكونت اندراسي رئيس وزارة النمسا لائحة طلب بها من الدولة العلية مطاليب اصلاحية صادقت عليها روسيا وايطاليا وفرنسا والمانيا وانكلترا ورفعوها الى الباب العالي في



ش ٥١ : عثمان باشا الغازي

٢١ يناير سنة ١٨٧٦ فوعد باجراء ذلك . ولكن البوسنة والهرسك لم تقبلا لان الدول لم تشركهما في كيفية التسوية . وفي مارس من تلك السنة عادت الحرب الى ما كانت عليه

ووقع في ٦ مارس المذكور خصام بين المسيحيين والمسلمين في سالونيك قتل فيه قنصلا فرنسا والمانيا فاحتجّ سفيرا هاتين الدولتين في الآستانة على الحكومة العثمانية فامر الباب العالي بقتل الجانين وعوض على عائلتي القتيلين ووعد بتجنب مثل هذه الحوادث في المستقبل

ولكن ذلك لم يمنع مطالبة الدول باجراء الاصلاح فاجتمع البرنس غورتشاكوف

وزير روسيا والبرنس بسمارك وزير المانيا والكونت اندراسي وزير النمسا في منزل البرنس بسمارك في برلين في ١١ مايو عام ١٨٧٦ واتفقوا على مذكرة وضعها غورتشاكوف يطلب فيها انفاذ لائحة اندراسي . فابت انكلترا المصادقة على هـذا الطلب لانه يقضي باتحاد الدول الست على استخدام السلاح اذا لم يتم ما طلبوه . وزد على ذلك ان البوسنه والهرسك لم تقبلا بتلك المذكرة فالغيت

وفي أثناء ذلك الشهر نزل المغفور له السلطان عبد العزيز عن العرش العثماني وحصل ما حصل من الاضطراب على أثر خلعه وتولى السلطان عبد الحميد

وكانت امارة الصرب منذ ثورة البوسنة والهرسك واقفة وقوف المتحفز للقتال وكذلك الجبل الاسود فانه انتصر للهرسك . فاصبح الباب العالي في حرب مع البوسنة والهرسك والصرب والجبل الاسود بدأت في يوليو عام ١٨٧٦ وقتـل فيها كثيرون حتى جرت الدماء سيولا . وكانت الجنود العثمانيـة تحارب الصرب بقيادة عثمان باشا صاحب الترجمة ودرويش باشا وحافظ باشا وسليمان باشا وعبد الكريم باشا وغيرهم . وكان الفوز نصيبهم في معظم المواقع . أما في الجبل الاسود والهرسك فكان الجنـد العثماني بقيادة مختار باشا وسليم باشا والبلاد هناك اكثر وعورة فقاسوا فيها عـذاباً شديداً . وأخيراً تضايق الصربيون فالتمسوا الصلح في سبتمبر عام ١٨٧٦

وكانت الثورة قد ظهرت في بلغاريا من مايو السابق فارسل البـاب العالي بعض الشراكسة والبـاشبوزق لاخمادها فارتكبوا في أثناء ذلك فظائع تقشعر من ذكرها الابدان دوى صداها في سماء اوربا فقام شعب الانكليز قومة واحدة يطلبون توسط دولتهم في هذه الشؤون . فتوسطت والتمست من الباب العالي تحري تلك الفعال ومعاقبة الجانين فوعد ولـكنه ابطأ في الانجاز وأصدر منشوراً يقول فيه انه سيوقف دفع الدين ريثما تخمد الثورات القائمة في ولاياته . وكان لانكلترا اكبر حصة في هذا الدين فآل ذلك الى فتور بينها وبين الدولة العلية

وعرضت الدول من الجهة الاخرى شروطاً للصلح بين الدولة العلية ومحاربيها طال أمـد المخابرة بشأنها وأخيراً رفضها الباب العالي فاعتبر الروس رفضها مهيناً لهم لعلاقاتهم الجنسية والدينية بالصرب . فنشأت الضغائن بين الدولتين . وتداولت الدول بشأن الاصلاح فاقترضت روسيا ان تتوسط الدول جميعاً يداً واحدة في شؤون تركيا فرفضت فرنسا وانكلترا والنمسا هـذا الاقتراح . فصرحت روسيا بميلها الى مساعدة الصرب وهو أول ما ظهر من رغبتها في الحرب فطلب الباب العالي هدنة ستة أشهر فلم تسمح روسيا الا بستة اسابيع واذاعت ذلك بمنشور على الدول العظمى قالت فيه

أنها اذا لم ينفذ طلبها هذا حملت على تركيا واكتسحتها . فاهتزت اوربا لذلك التهديد وأخذت كل دولة تتحفز وتتأهب وخصوصاً انكلترا فانها استاءت من الروس لانهم لم يساعدوها على طلب التعويض عن فظائع بلغاريا

أما روسيا فهيأت الجند في بندار وتفليس وقد عولت على محاربة الدولة العلية في اوربا واسيا معاً والدول تسعى من الجهة الاخرى في التسوية وسعيهن ذاهب هدراً وما قدر فقد كان

وليس من غرضنا البحث في ما دار من المخابرات ولا ما لعب من الايدي اذ لا محل له هنا . وانما المراد انه لما تقررت الحرب بين الدولتين زحف الروس على بلاد الدولة في اوربا واسيا . فزحف ١٧٥٠٠٠ مقاتل بقيادة الغراندوق ميخائيل والجنرال مليكوف نحو بلاد الدولة في اسيا الى ارمينيا وقلوب الارمن مع الروس ايضاً

ولا حاجة بنا الى الدخول في تفاصيل هذه الحرب ولكننا نقول بالاختصار انه كان من نصيب صاحب الترجمة ملاقاة الروس في الروملي ومعه عبد الكريم باشا وسليمان باشا ولم ينقض شهر مايو سنة ١٨٧٧ حتى احتلت جنود الروس ضفة الطونا (الدانوب) الشمالية من كلفات الى غلاتس . على ان معظمهم كان في جورجيفو مقابل روستجق . والطونا كما لا يخفى فاصل بين رومانيا وبلغاريا وكان عدد الجند العثماني في جنوبي ذلك النهر نحو مئتي الف مقاتل بقيادة عبد الكريم باشا ومركز المعسكر في شملة على حدود البلقان . ولكنهم احتلوا كل الحصون على ضفة الطونا الجنوبية واصبح الموقف حرجاً وصرحت الدول بحيادتها وهدأت الحال شهرين والطونا فاصل بين الجيشين . ثم حاول الروس عبور النهر وعددهم ٤٠٠٠٠٠ مقاتل وفي يونيو من تلك السنة عبروه من أماكن مختلفة واحتلوا بعض المدن في بلغاريا وزحف البعض الآخر الى جبال البلقان . وفي طريقهم هذه من الطونا الى البلقان لقيهم صاحب الترجمة في بلافنا وردهم الى الوراء في ٧ يوليو

ولكن قائداً روسياً اخترق حدود البلغار في جبال البلقان بشجاعة غريبة فكان لخبر تقدمه هذا وقع موجع في الاستانة . فنقل الباب العالي قيادة الجند من عبد الكريم باشا الى محمد علي باشا وهو بروسياني واسمه الاصلي شلوتز . وأصبح الجند العثماني في ساحة الحرب اربع فرق يقودها اربعة من القواد العظام وهم عثمان باشا في ويدين على ضفة الطونا في الغرب ومحمد علي باشا في شملة بالشرق وكلاهما شمالي جبال البلقان . وأما القائدان الباقيان وهما سليمان باشا ورؤوف باشا فكانا في جنوبي تلك الجبال

(حصار بلافنا) وفي ٣٠ يوليو هجم اربعون الفاً من الروسيين على بلافنا وفيها عثمان باشا وخمسة آلاف جندي فدافع العثمانيون دفاعاً حسناً ولكن الروسيين لكثرتهم وفقوا في اول الامر للاستيلاء على ذلك المكان الحصين وكان صاحب الترجمة نفخ في جنوده روحاً حية فانقضوا على الروس انقضاض الصواعق وصبوا عليهم ناراً حامية فتقهقر الروسيون وعاد العثمانيون الى حصونهم فتجدد القتال في اليوم التاني والفوز لا يزال مع العثمانيين . ففر الروس من ساحة الوغى وقد تركوا خمسة آلاف من جندهم بين قتلى وجرحى وحدث فشل عظيم في معسكرهم

وفي ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٧ عاد الروسيون الى بلافنا بمدافعهم وبنادقهم وأطلقوا القنابل على حصونها يومين متواصلين فاستولوا على تلال في جنوبها في مساء ٨ منه وواصلوا الاطلاق طول الليل . واليوم التالي والذي بعده وفي ١١ منه فتحوا حصن كريغتزا بعد جهاد اليأس . أما العثمانيون فتشددوا في اليوم التالي بتشجيع قائدهم الباسل وانقضوا على الروس بقلوب لا تهاب الموت فطردوهم واسترجعوا كل الحصون الا كريغتزا . وخسر الروس في هذه المعركة سبعة آلاف رجل بين قتيل وجريح . ولما بلغ خبر هذا النصر الى الاستانة أنعم جلالة السلطان على صاحب الترجمة بالنيشان العثماني المرصع مع لقب « غازي »

وعاد الروسيون مرة ثالثة بقيادة الجنرال تودلبن بطل سباستبول فحاصروا بلافنا وصبوا عليها النيران من مدافعهم . وفي ١٩ اكتوبر فتحوا حصن كريغتزا الثاني بعد أن ارتدوا عنه مرتين . على أن العثمانيين عادوا فاستولوا عليه في تلك الليلة بقوة السلاح وبنوا سوراً آخر داخلياً لزيادة المناعة

ونظر صاحب الترجمة في مركزه الحرج فعلم انه يحتاج الى النظام اكثر منه الى الرجال فامر كل من كان معه من الشراكسة والباشبوزق بالخروج من بلافنا وثبت هو بمن بقي من جنده فيها ثبات الجبال

وكان الروسيون في اثناء ذلك يحاربون ما يحيط ببلافنا من الحاميات العثمانية ويطاردونهم حتى خلت تلك البقاع من الجند العثماني الا بلافنا فانها ظلت ممتنعة الى ١٠ دسمبر وقد نفدت مؤونتها وانقطع عنها المدد . فخرج عثمان باشا من حصنه وهو ينوي ان يخترق صفوف المحاصرين لعله ينجو من حصاره . فسار في مقدمة رجاله ومشوا جميعاً الى جهة واحدة والروسيون يطلقون عليهم النار وهم لا يبالون فاخترقوا خطين من خطوط الجند الروسي ولم يبق لنجاتهم الا خط واحد كادوا يخترقونه لو لم يروا بطلهم عثمان باشا سقط الى الارض هو وجواده وقد أصيب برصاصة اخترقت

فخذه وأصابت الجواد فظنوه قتل فشلوا واضطروا للتسليم . فسلموا اسلحتهم بلا شرط وعددهم أربعون الفاً فضلاً عن ٢٠٠٠٠ بين مريض وجريح . فلما سلم عثمان بعث اليه قائد الروسيين مركبة يركب فيها الى بلافنا لمداواة جراحه فركب . وهو في الطريق لقيه الغراندوق نيقولا ومعه البرنس شارل أمير رومانيا فاوقفا عربته وسلما عليه مصافحة

وفي صبيحة اليوم التالي سار صاحب الترجمة يتوكأ على طبيبه الخاص الى القصر الذي نزل به القيصر اسكندر الثاني ببلافنا . فلما اقبل عثمان وقف له القيصر وسلم عليه واثنى على بسالته وامانته وأعجب بما أبداه من الشجاعة في محاولته الخروج من بين صفوف المدافع والبنادق الى أن قال « وهذا سيفك اردُّه اليك اقراراً ببسالتك واهليتك ولك ان تتقلده في بلادي وهـذه مركبتي وهؤلاء حرسي تحت امرك اذا شئت ركبت وان شئت مكثت »



ش ٥٢ : القيصر اسكندر الثاني

ولا يخفى ما في ذلك من الاكرام الذي لم يصدر من هذا القيصر الا لما يعتقده من فضل هذا القائد العظيم . ومما يزيد فضله في هذا الحصار ان الذين حاصروا بلافنا يزيد عددهم على ١٥٠٠٠٠ ومعهم ٦٠٠ مدفع وقوات هذا الغازي لم تكن اكثر من خمسين الفاً وثمانين مدفعاً وقد رأينا مع ذلك انه لما يئس من الزاد والذخيرة لم يطلب التسليم وهو داخل الحصون ولـكنه خرج مستقتلا فاما ان يسلم واما ان يسلم . وكان لسقوط بلافنا دويٌّ عظيم ففرح الروسيون واستاء العثمانيون

﴿ اواخر ايامه ﴾ وبعد انقضاء تلك الحرب وعقد شروط الصلح في مارس ١٨٧٨ عاد عثمان باشا الى الاستانة وتعين قائداً للحرس الشاهاني وفي ١٠ يونيو من تلك السنة عين مشير المابين ثم والياً لجزيرة كريد

وفي آخر تلك السنة انتدب لوزارة الحربية وتقرب من الحضرة الشاهانية ونال كل

التفات ورعاية وتقلب في أحسن مناصب الدولة واشرفها ونال اشرف وساماتها ووسام كومندور اللجيون دونور من فرنسا

ومن غريب ما تقوله الناس على أثر ما ظهر من بسالته في حصار بلافنا ان كل امة حاولت ان تدَّعيه لنفسها فقال الاميركان ان الرجل اميركاني الاصل وقال الفرنساويون انه فرنساوي وقال غيرهم غير ذلك ولكنهم تحققوا بعدئذ انه تركي لا شك فيه

وكان صاحب الترجمة في آخر اعوامه مشير المابين الهمايوني وقائد الفيلق الخاص ولا يجتمع مجلس في سراي يلدز إلا وهو من اعضائه . واليه النظر في شؤون جند المابين وملاحظة كل ما يتعلق بالمابين وكل ما يحدث فيه . وله دائرة خصوصية هناك يقيم فيها وله الكتاب والمأمورون

ومما ناله من التفات جلالة السلطان ان اثنين من أولاده تزوجا بكريمتي جلالته. ثم أصيب بمرض عز شفاؤه فتوفي في الاستانة في أوائل افريل ١٩٠٠ وهو لم يتجاوز الثامنة والستين من عمره وفي موته خسارة كبرى على الدولة العثمانية لانه من اعاظم افرادها

حميد بن محمد المرجبي

فاتح الكونغو

لم يتعود قراء هذا الزمان الاطلاع على اخبار الهمم العالية والنفوس الكبيرة وظهور نوابغ القواد ورجال الدهاء الا بين أهل الغرب . ويعجبهم على الخصوص اذا قرأوا عن قائد أو وزير أو ملك نبغ من بين الامة وتسنم عرش السيادة بجده وسعيه . ولكن بين اهل الشرق اليوم نوابغ لا تقل نفوسهم كبراً ولا هممهم سموًّا عن أولئك فقد ينبغون في أواسط آسيا وأفريقيا ويأتون بمعجزات السياسة والدهاء والقيادة ولا نعرف اخبارهم . واليك ترجمة رجل منهم ولد في الفقر والضنك وارتقى بهمته وسعيه حتى قاد الالوف وفتح البلاد — نعني به حميد بن محمد بن جمعة المرجبي الملقب بتيبوتيب فاتح الكونغو باواسط افريقيا وقد بعث الينا برسمه وترجمة حاله حضرة الشيخ ناصر بن سليمان بن ناصر اللمكي ساكن زنجبار فانبتفاها مع الثناء على غيرته في نشر مآثر الشرقيين قال :

تمهيد

كانت الاقطار الزنجبارية ملكا للبرتغال كما لا يخفى على ذوي الالمام بالتاريخ فلما اراد العرب تخليص هذه الاقطار من يد الافرنج بقوة سلطانهم سيف بن سلطان اليعربي جهزوا جيشاً من بلاد عمان مؤلفاً من قبائل شتى من العرب وفيهم القبائل المراجبة . فبرح هذا الجيش مسقط في سفن شراعية فوصل الى ممبسة سنة ١٦٦٥ مسيحية وهناك جرت بينهم وبين البرتغال وقائع كثيرة قضى الله بعدها بانجلاء البرتغال من تلك الاقطار واستلم العرب ازمة الملك . ولما رجع السلطان الى مسقط أحب بعض أصحابه الاقامة في تلك الاقطار فاقاموا وفيهم العائلات من قبائل الحوائم والنباهنة واليعاربة والمراجبة واتخذ كل فريق منهم المناخ الموافق له ولا تزال هذه القبائل باقية هناك الى الآن . ولكن رجالها لا يتكلمون الا اللغة الزنجبارية وانما حفظوا اسم القبيلة فقط . فالمراجبة اختاروا قرية بجنوب دار السلام اسمها مبوماجي مناخاً لهم ولا يزالون فيها الى اليوم

ثم آل أمر تلك الاقطار مع توالي الزمن الى الانحطاط حتى جاءها سعيد بن سلطان الازدري جد العائلة المالكة الآن في زنجبار وعمان فاخذت في التقدم وفتحت أبواب التجارة وجعلت عاصمة المملكة جزيرة زنجبار ثم رحل اليها العرب من عمان كما رحل اليها قبائل البراري والافرنج

ترجمة حاله

في هذه الجزيرة ولد صاحب الترجمة وهو حميد بن محمد بن جمعه المرجبي في سنة ١٢٤٨ هجرية وقد نشأ في عصر مظلم وبلاد مظلمة . ولم ير بين يديه الا اقواماً لباسهم الجهل وطعامهم الفقر خالين من كل فضيلة متردين بكل رذيلة لا يميزون بين الخير والشر . ولما بلغ السنة الخامسة من العمر اجتهد والده بتعليمه القراءة والكتابة وكتاب الله فاخذ منه بالقسط الاوفر في أقرب وقت ثم مكث في حالة الفقر عدة سنوات



ش٥٣: حميد بن محمد المرجبي

كانه على النار اذ كان يشعر في نفسه بشيء يستحثه على طلب العلى وهو لا يدري باي وسيلة يسمو اليها واتفق أن والده سافر الى داخل البلاد لطلب الرزق وترك ولده في زنجبار فالولد لم يقر له قرار لانه رأى في نفسه ضيقاً شديداً لم يعلم له سبباً — ذلك هو دأب عظماء الرجال يحسون بالكبرياء والعظمة وهم في المهد . فاذا اتيحت لاحدهم الوسائط لقضاء مراده وجد لذلك طريقاً يسهل عليه الامر واستعمل الحيلة والمال لبلوغ اربه ولكن المترجم لم يجد لنيل بغيته طريقاً مع مطالبة نفسه بها وظل

كذلك حتى تطرق الى قلبه اليأس فاخذ في طلب ما يسد رمقه به

ولما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة اقترض اثني عشر ريالا اشترى بها ملحاً سافر به الى دار السلام ومنها الى داخل البلاد الانجار ولبث شهوراً يتردد في بيع الملح وقد ذاق حلاوة الجد والاجتهاد وكانت اسفاره لا تزيد عن مسير يومين أو ثلاثة ثم طال سفره شيئاً فشيئاً واطمأن اليه التجار باموالهم فانجر في الثياب والمأكولات والكوتشوك وغيرها حتى اجتمع عنده شيء يسير من المال . ثم بلغه ان والده وصل الى مدينة تبوره وتزوج بابنة سلطان الانيموز (قبيلة من الزنوج لا يختتنون وهم كثيرو العدد) فشمر عن ساعد الجد وعزم على اللحاق به في تلك البلاد فسافر من باجمويو وبعد مسير ثمانين يوماً في البراري والقفار وصل الى تبوره فوجدها كبيرة وفيها من العرب نحو خمسمائة نفس وجملة سكانها اربعون الفاً ثم واجه السلطان وهو صهر والده فلقي منه اكراماً وأهدى اليه عاجا وقربه منه فقوي نفوذه لديه وبقي هناك متاجراً

ثم حصل خلاف بين صهر والده وسلطان آخر من سلاطين الزنوج فتحاربا مدة وخرج حميد بن محمد لنجدة صهر والده ببعض الزنوج والمماليك فدخل بلاد العدو ليلاً واحرقها واستباحها قتلاً وسلباً وجمع الكثير من العاج واستتب أمره في تلك البلاد حتى صارت ملكاً له وأطاع اهلها امره . ولما عاد الى والده منصوراً اخذ ما كان معه من العاج وقفل راجعاً الى زنجبار فحظي بمقابلة سلطانها يومئذ ماجد بن سعيد بن سلطان ثم باع ما معه من العاج ووفى ما عليه من الديون وأخذ في تجهيز ما يحتاج اليه في سفره فلما تم ما أراد تجهيزه عمد الى السفر

نشأته السياسية

لقي حميد في هذه النشأة من المصاعب والمشاغب ما تشيب له الولدان لانه كان يسافر الى مكان لم تطأه اقدام اسلافه ولكنه لم يتهيب من ذلك بل كان يسافر والسعد حليفه والعناية تساعده والاجتهاد نصيره على المصائب . برح زنجبار ومعه من الثياب والخرز والبارود والرصاص ما قيمته تسعون الف ريال حتى وصل باجمويو ثم برحها في سنة ١٢٧٩ هجرية وبعد مضي ١٥ يوماً من سفره قطع اللصوص الطريق عليه وأرادوا نهب ما معه فدافعهم لكنهم أخذوا بعض امواله فلم يرهبه ذلك وقد أصابت رجاله الشمس . فمكثوا ٥ ايام يشربون بول الدواب ثم اصابهم طاعون فمات منهم خمسمائة رجل ولم يجد من يحمل الخمسمائة حمل التي كانوا يحملونها فتركها ومضى الى حال سبيله وسار مجدًّا حتى وصل تبوره وقد انهكه التعب ومعه نصف أمواله فتاجر

به سنتين ثم مضى الى البلاد التي كان قد أخذها قبلاً فوجد سلطانها استنجد بسلطان آخر فحاربهما فانكسر شر انكسار وضل عن الطريق وتشتت اصحابه من الهزيمة فوصل تبوره مقهوراً مدحوراً ثم برحها الى اوجيجي فربح منها أموالاً طائلة وركب في بحيرة تنكنيكه فوصل الى الجانب الثاني منها سنة ١٢٧٤ هجرية فمكث هناك نحو سنة ونصف سنة بين الزنوج وقد خاف ان يسافر الى الكونغو لقلة معداته فعاد الى اوجيجي ومنها الى تبوره سنة ١٢٨٦

وبعد سنة وصلهم الخبر بوفاة سلطان زنجبار ماجد بن سعيد وتعيين اخيه برغش ابن سعيد مكانه فكتب حميد بن محمد لسلطان زنجبار كتاباً يهنئه بالملك ويطلب منه باروداً ثم سافر لمحاربة السلطان المغتصب للبلاد التي كان قد أخذها فوصل اليه فوجده متحصناً في مدينته فحاصره ستة اشهر ولم يقدر عليه فجمع اصحابه وحفروا قناة حولوا اليها النهر الذي يشرب اهل المدينة منه فانقطع الماء عن المحصورين فاسلم السلطان نفسه بشرط ان يسلم ماله لحميد بن محمد ويكون خاضعاً لامره فرضي السلطان وقويت شوكة حميد وهابه الاهالي فرجع والسلطان معه . وقبل وصوله الى تبوره جاءه احد اصحابه بكتاب من سلطان زنجبار برغش بن سعيد يخبره انه ارسل اليه الفي رطل من البارود فلما وصلته عزم على السفر الى اوجيجي فاخذ امواله وارسل العاج الى تبوره ليبيعوه ويبتاعوا له بثمنه الثياب فنزل أوجيجي واقام فيها حتى وصلته البضائع فقطع بحيرة تنكنيكه في أواخر سنة ١٢٨٧ وسار قاطعاً البراري بين همجية الزنوج وانياب الضواري يتلقى الاهوال مرة بالعطايا وتارة بالسيف والنصر حليفه والشهرة تتقدمه فترتعد الملوك خوفاً منه فيصالح المطيعين ويحارب العاصين ولم يشغله هذا عن البيع والشراء من العاج والثياب . اتجه جنوباً وعاد الى الشمال الغربي فوصل الى نهر الكونغو عند المدينة التي يسمونها (ستانلي فولس) ولبث فيها مدة يلتمس الراحة . ولما عزم على السفر في نهر الكونغو بلغه ان أحد سلاطين الزنوج قطع عليه السبيل ليأخذ أمواله فتركها في تلك المدينة وجهز جيشاً من رعاياه ومماليكه قدر ٣٠٠٠٠ نفس وامرهم بالسير الى الشرق فالشمال ليأتوا العدو من ورائه وجهز جيشاً آخر وسيره على شاطىء الكونغو بحذاء قواربه وعددها ٤٠٠ قارب . فاستمر السير شهرين كان في خلالها يبيع ويشتري وبعد هذه المدة التقى به العدو وكان شديداً عزيز الجانب والجيش الذي بعثه المترجم في البراري لم يصل بعد فانكسر حميد شر انكسار وغنم العدو القوارب واستولى على شيء كثير من ماله وبعد ١٤ يوماً من الهزيمة وفد الجيش فعاد به الى عدوه وهجم عليه فتحارب الفريقان ثلاثة أشهر انجلت عن قتل

السلطان واستيلاء حميد بن محمد على املاكه . واقام هناك مدة رتب فيها جيشه على اربعة أقسام قسم مؤلف من ٢٠٠٠٠ نفس أنفذه في الطريق الذي جاء منه ليصلوا الى ستانلي فولس ويخبروا اهله واصحابه بالنصر ويحفظوا الاموال التي له هناك ويذهبوا منها الى الشرق حتى يبلغوا وسط المنيما في مكان عينه لهم . وقسم مثل الاول عدة وعدداً سيره من المكان الذي هو فيه من الجنوب الشرقي ليدعوا الناس لطاعته ثم يتحولوا الى المحل الذي عينه للقسم الاول وقسم مؤلف من ٢٠٠٠٠ نفس امرهم بالبقاء في ذلك المكان وخرج بمن معه وهم ٦٠٠٠٠ نفس لمحاربة قبائل نيام نيام

ومن ينظر في هذه السياسة يندهل لصدورها من رجل لم يتعلم فنون الحرب ولم يدخل مدرسة حربية وقد اتخذ نقطاً عسكرية لحفظ خطوط الرجعة . اما الجيش الذي كان يقوده بنفسه فوصل الى قبائل نيام نيام وحاربهم وانتصر عليهم وأخذ أموالهم وسبى اولادهم ثم اتجه نحو الشرق فالجنوب فوصل الى النقطة التي عينها لاصحابه فوجدهم سبقوه ولم يلق في طريقه هذه المرة حرباً فاستتب الامن وامنت السبل قليلا. وادركه العرب من اصحابه وانفتحت طرق التجارة الى باجويو فكثرت مداخيل زنجبار

وقد يقول القارىء كيف يمكن لحميد بن محمد ان يجيش مائة الف وكيف كان يطعمهم ويكسوهم فنقول انه لا محل للدهشة لان الثوب الذي قيمته فرنك في زنجبار كان يباع هناك في ذلك الزمان بألف رطل من الارز . ثم ان الاهالي كانوا يحبون متابعته ليغنموا عند انكسار العدو . ولما استتب الامن عاد باملاكه وبعض مماليكه الى زنجبار تاركاً ولاية الامر لاخوته وصحبه . وفي عودته هذه عبر بحيرة تنكنيكه في السفن الشراعية . واتصل به في أوجيجي نعي والده محمد بن جمعه فبكى عليه وحزن لانه لم يجن شيئاً من ثمار اعمال ابنه ومرّ على تبوره فوجد ارملة والده وصهره فأقام عندهما ريثما استراح من عناء السفر ثم واصل السير حتى دخل دار السلام وقبل وصوله اليها لقيه في الطريق اخوه من أمه محمد بن مسعود الوردي وارسل سلطان زنجبار السيد برغش رجلاً يسلم عليه من قبله أو يهنئه بما ناله من النعمة والشهرة وكتب اليه كتاباً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من برغش بن سعيد .

الى حضرة الشيخ الاخم حميد بن محمد بن جمعة المرجبي سلمه الله تعالى وبعد السلام عليك اخبرني المحب ابن مسعود بانك واصل الينا قريباً فوجبت علينا التهنئة لك وارسلنا هذا الكتاب للسلام عليك والسلام »

وصل حميد بن محمد دار السلام ومعه ٧٠٠٠٠٠ رطل من العاج وغيره من انواع

التجارة فسافر الى زنجبار بحراً فوصلها في أوائل سنة ١٢٩٤ هجرية وباع ما كان معه من العاج وغيره فاجتمع عنده مبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه صافية بلا ديون

ثم تجهز للسفر فاشترى بضائع كثيرة خرج بها من زنجبار سنة ١٢٩٦ الى باجويو ومنها الى داخل البلاد يقتحم الاخطار والمفاوز . وبعد عشرة اشهر وصل البلاد التي اتخذها عاصمة له فوجد الامر على غير ما كان يعهده اذ شاهد التجارة كثيرة والارزاق واسعة والتجار من الافرنج والهنود والعرب عديدين . اما أهل البلاد فكانوا على ما تركهم من السذاجة والجهل وكان الامن متزعزعاً فتكبد مشاق جسيمة في محاربتهم ومضت ايامه في الحروب ولكنها لم تشغله عن التجارة بل كانت هي تجارته الرابحة لانه كان يكسب منها أموالا طائلة غير العاج والعبيد والغنم وكان جميع ما يحصله يرسله الى زنجبار لوكيله ويطلب منه البضاعة الصالحة للزنوج

فلما توفر عنده المال والرقيق عاد الى زنجبار سنة ٣٠٠ هـ وباع ما جلبه من البضائع فيها واشترى ما أراده ثم برحها سنة ١٣٠٢ قاصداً الجهات الداخلية ولسنا ذاكرين هنا جميع ما اصابه في طريقه من الحرب والجوع والعطش وما لقيه من اللصوص والوحوش وانما نقول انه وجد هناك عند وصوله هذه المرة رجلاً بلجيكيا قنصلاً لدولته وكان الخطر محدقاً به لانه طلب من سيف بن حميد بن محمد أن يأتيه بجميع العاج الموجود هناك ليكتب عليه اسم الدولة البلجيكية فقبض عليه سيف وارسله الى سردار الجيش راشد بن محمد فحكم عليه بضرب خمسين جلدة وحبس سنتين ولولا وصول حميد بن محمد في تلك الايام لنال البلجيكي جزاء شديداً . وكان البلجيكيون قبل ذلك يهاجمون العرب مراراً فيصدهم هؤلاء ويقتلون منهم كثيرين . وربما يسأل القارىء عن الرجال الذين كانوا ينصرون البلجيك اذ كان جميع الزنوج رعايا العرب فالجواب ان العرب كانت لهم عادة يكرهها الزنوج وهي انهم كانوا يحملون اولاد الزنوج يبيعونهم في زنجبار. فلما دخل الافرنج تلك الديار خدعوا الزنوج وزخرفوا لهم القول بانهم سيحررونهم ويعملون كيت وكيت من الخير وما زالوا بهم حتى استمالوهم واستعانوا بهم على محاربة العرب . ولم تخف على حميد بن محمد هذه الحيلة فكان دائماً يعرض عن محاربة الافرنج ويعدهم خيراً وكان يقول « دخلت هذه البلاد صغيراً فقيراً وملكت هذه الرقاب جميعها ولم يكن لدي مال ولا سلاح فهل اقوى بهم على الافرنج »

وكان يكلم أولاده دائماً بهذا المعنى ويحذرهم من غدر الزنوج . ولما باع تجارته هناك رجع الى زنجبار فوصلها سنة ١٣٠٤ هجرية فوجد الانكليز له بالمرصاد وقد اخبره قنصل الانكليز بما تم عليه الاتفاق وان البلجيك سيدخلون الكونغو ونصحه بعدم

معارضهم وانهم لا يريدون سوى التجارة وانه سيكون كسابق امره مطلق الحرية وتدفع دولة البلجيك له مقابل تجارتها ٦٥ جنيهاً شهرياً فابى أولا فقال له قنصل الانكليز ان انكلترا تعهدت بمساعدة البلجيك وانه اذا أصر على ابائه فأول شيء تفعله هو منعه عن السفر مرة أخرى

فلم يجد بدًّا من القبول وعندئذ قيل له ان أي شيء يطلبه من انكلترا يعطى له وتحقق إمانيه فيه فطلب من القنصل تحميل عبيده من باجمويو الى زنجبار وكان الانكليز متشددين في منع بيع الرقيق وتحميله ولكنهم اذنوا له بذلك لحاجة كانت في نفوسهم فحمل حميد بن محمد سبعماية عبد من باجمويو الى زنجبار ثم وصلت الاخبار من الكونغو ان البلجيك هجموا على العرب مراراً فصدوا عنهم وان العرب اخرجوا جميع الافرنج من تلك البلاد فلم يبق بها بلجيكي ولا الماني وكلما أراد البلجيك المسير اليهم التقوا بهم على ضفاف نهر الكونغو ورموهم بالرصاص فشق هذا الخبر على الانكليز وطلبوا من حميد بن محمد ان يعجل بالسفر الى الكونغو ومعه المعتمدان الانكليزي والبلجيكي فسافروا سنة ١٣٠٥ في باخرة عن طريق رأس الرجاء الصالح فوصلوا الى مدينة الكاب ومنها الى بناتا عند مصب نهر الكونغو ثم سارت الباخرة في النهر ٤ ساعات فوقفت بسبب الشلالات فركبوا الفلك وساروا بها شهرين حتى وصلوا الى مدينة ستانلي فولس . ولما اطل العرب على هذه الفلك ورأو فيها الافرنج رموهم برصاص البنادق فاشاروا اليهم انهم ليسوا محاربون فلم يقبلوا واخيراً رمى حميد بن محمد نفسه في النهر فلما رأوه عرفوه وامسكوا عن اطلاق البنادق ونزل هو والافرنج الذين معه وبوّأ لهم مكاناً وامنهم وبواسطته تم الاتفاق بين العرب والافرنج . وفي غضون ذلك أتتهم الاخبار بوفاة برغش بن سعيد سلطان زنجبار وارتقاء خليفة بن سعيد سلطاناً مكانه فمكث حميد يتاجر بماله الى سنة ١٣٠٧ ثم عقد النية على الرجوع الى زنجبار فسافر وبعد مسير عشرة أيام اتاه الخبر بوفاة خليفة بن سعيد وولاية علي بن سعيد مكانه فواصل السير حتى بلغ تبوره وفيها أصيب بمرض فتأخر هناك وبعد شهرين وصل اليه ولداه سيف وثابت فوجداه مريضاً فكانا قاصدين الكونغو فامرهما بالسفر اليها ومكث هو في تبوره سنة حتى اذ عوفي من مرضه برحها الى زنجبار فبلغها سنة ١٣٠٩ وبعد ان صفو الجو للبلجيك هجموا على العرب مراراً فصدوا عنهم وطلبوا منهم ان يسافروا جميعاً الى زنجبار فابوا ولما أعيت البلجيك الحيلة خدعوا الزنوج وزخرفوا لهم القول فانفضوا عن العرب وانحازوا الى البلجيك ثم هجموا على العرب فهزموهم وغنموا أموالهم وقتل سيف بن حميد وهرب ثابت أخوه ومحمد بن سعيد وغيره واستولى

البلجيك على أموال حميد بن محمد ويقدرونها بمائة الف جنيه وكان حميد بن محمد يتمثل دائماً بقول الشاعر

ومن يفعل المعروف مع غير أهله يلاقي كما لاقى مجير ام عامر

حيث ذهبت أمواله وقتل ولده جزاء احسانه الى البلجيك

وفي ١٣١١ وصلت أخبار الهزيمة الى زنجبار ووصل ثابت واخوته وانفار من العرب اليها اما بقية أولاد محمد بن سعيد فاسرهم البلجيك وبقوا في أسرهم الى ١٣٢١ حيث أطلقوا سراحهم وسمحوا لهم بالعودة الى زنجبار فبلغوها في حال يرثى لها وهكذا انتهت دولة العرب في أفريقيا الوسطى وتقلص ظل ملكهم منها وكانت نهاية امرهم انهم عاشوا في زنجبار فقراء

لكل أجل كتاب

ولما وصل حميد بن محمد الى زنجبار سنة ١٣٠٩ حسب ثروته فوجدها نيفاً ومائة الف جنيه الا ان وكيله الذي كان في زنجبار احتال عليه وقدم وأخر في دفاتره فاختلس من تلك الثروة نحو ٣٠٠٠٠ جنيه و٢٠٠٠٠ جنيه كانت في يد هندي أعطيت اليه للتجارة فذهبت ولم يحصل الا على ٤٠٠٠ و٧٠٠٠ جنيه أعطاها محمد بن خلفان الذي ادعى الشركة في ملكه وحكمت له محكمة دار السلام بدفع هذا المبلغ ونحو ١٦٠٠٠ جنيه دفعت الى المحامين عنه في دعاويه حينما أراد الدفاع عن نفسه في امر الشركة وغيرها من الدعاوي وكان دائماً يقول « ذهب ربع ملكي في أفواه المحامين »

والذي بقي عنده اشترى به بيوتاً وبساتين فعاش من ريعها . وفي سنة ١٣١٠ توفي سلطان زنجبار علي بن سعيد وعين حمد بن ثويني مكانه فنال منه رتبة . وفي سنة ١٣١٤ توفي حمد بن ثويني وهبت ثورة في البلاد فاطلقت الانكليز القنابل على القصر السلطاني ثم عين حمود بن محمد بن سعيد سلطاناً . وفي سنة ١٢٢٠ توفي السيد حمود بن حمد فخلفه ابنه علي بن حمود . مضى هذا الزمان وحمد بن حميد بين الدعاوي والشكاوي وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٢ أصابه مرض الاستسقاء ثم عوفي منه ولكن صحته بقيت ضعيفة فاشتد به الالم حتى كانت الساعة الخامسة من ليلة الاربعاء عاشر ربيع الثاني (١٤ يونيو) قبضه الله اليه وما شاع هذا الخبر حتى توافدت الجموع الى منزله وفي مقدمهم قنصل جنرال أمريكا وفيس قنصلها وتتابعت الجموع وسار في جنازته اناس كثيرون وفي الصباح جاء قنصل جنرال الانكليز وقنصل الالمان وغيرهما من معتمدي الدول والتجار الاجانب وأعيان العرب والهنود والزنوج لتعزية أهله ونقل البرق خبر وفاته الى العالم المتمدن فأتت جرائده مملوءة بالكلام عن سيرته

المعلم جرجس الجوهري

توفي سنة ١٨١١

كان للاقباط في أثناء دولة أمراء المماليك شأن كبير في مصالح الدولة فنبغ منهم في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر رجال اشتهروا بالحزم والدراية ونالوا نفوذاً عظيماً لدى الامراء حتى كانت الامور كلها اليهم . منهم المعلم رزق كاتب علي بك الكبير والمعلم ابراهيم الجوهري رئيس كتاب الامير ابراهيم بك وكان لهما تأثير كبير في تاريخ الامة القبطية وقد ذكر الجبرتي ان النصارى اعتز جانبهم في ايامهما بما كان لهما من التأثير على صاحب الامر والنهي . وجاء في تاريخ الامة القبطية لمؤلفه يعقوب بك نخله روفيله تفاصيل مهمة من اخبارهما ومن هذا الكتاب استخرجنا ترجمة المعلم جرجس هذا . وهو اخو المعلم ابراهيم الجوهري المتقدم ذكره فلما توفي اخوه قلده ابراهيم بك رئاسة الكتاب كما كان اخوه قبله ورافق أعمال هذا الامير الى آخر ايامه

وقد جاء ذكره في كتاب الجبرتي بين وفيات عام ١٢٢٥ هـ وهاك نص قوله :

« ومات المعلم جرجس الجوهري القبطي كبير المباشرين بالديار المصرية وهو اخو المعلم ابراهيم الجوهري . ولما مات اخوه في زمن رئاسة الامراء المصرية تعين مكانه في الرئاسة على المباشرين والكتبة وبيده حل الامور وربطها في جميع الاقاليم المصرية نافذ الكلمة وافر الحرمة . وتقدم في ايام الفرنسيس فكان رئيس الرؤساء وكذلك عند مجيء الوزير والعثمانيين وقدموه واجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس افندي . ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو وبجانب شريف افندي الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره ويراعون جانبه ويشاورونه في الامور . وكان عظيم النفس يعطي العطايا ويفرق على جميع الاعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والارز والكساري والبن ويعطي ويهب . وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والازبكية وأنشأ داراً كبيرة وهي التي يسكنها الدفتردار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد علي) وابنه (ابراهيم) الدواوين عند قنطرة الدكة . وكان يقف على ابوابه الحجاب والخدم ولم يزل على حالته حتى ظهر المعلم غالي وتداخل في هذا الباشا وفتح له الابواب لاخذ الاموال والمعلم جرجس يدافع في ذلك واذا طلب الباشا طلباً واسعاً منه يقول له هذا لا يتيسر تحصيله فيأتي المعلم غالي فيسهل له الامور ويفتح له ابواب التحصيل فضاق خناق المعلم جرجس وخاف

على نفسه فهرب الى قبلي ثم حضر بامان كما تقدم وانحط قدره ولازمته الامراض حتى مات في اواخر شعبان وانقضى وخلا الجو للمعلم غالي وتعين بالتقدم ووافق الباشا في اغراضه الكلية والجزئية وكل شيء له بداية وله نهاية والله أعلم » . اهـ

وذكر صاحب تاريخ الامة القبطية من سبب خوفه وهربه الى الوجه القبلي « انه لما كثرت معارضته لمحمد علي باشا وتوقفه له في تحصيل النقود التي كان في غاية الاحتياج اليها قبض عليه ومن معه من الاقباط بحجة انه متأخر عليه مبالغ من حساب



ش ٥٤ ـ المعلم جرجس الجوهري(١)

التزامه وحجزهم ببيت كتخداه وأحضر المعلم غالي وكان كاتباً عند الالفي (أحد كبار المماليك وعدو محمد علي باشا الالد) وعينه رئيساً مكانه وكلفه بعمل حساب التزامه عن الخمس السنين الماضية . وبعد سبعة أيام امر بالافراج عنه ومن معه على شرط ان يدفع أربعة آلاف وثمانمائة كيس فقام هو بدفع مبلغ عظيم من هذا المقدار ووزع الباقي على الكتاب والصيارف ما عدا المعلم غالي وشخص آخر يقال له المعلم فلتاؤوس لاسباب

(١) نقلت هذه الصورة بالفوتوغراف عن رسم له بباريس ولكنها أخذت من موضع منحرف فظهرت كما ترى

اختلفت فيهـا الاقوال نضرب صفحاً عن ذكرها فحصلت له ولهم مضايقات شديدة اضطرته الى التنازل عن اخفر أملاكه ولا سيما التي كانت على بركة الازبكيـة وقنطرة الدكة ولم تزل باقية في وقف القصر العالي للان ومن ذاك الحين أخذ نجم المعلم جرجس في الافول ونجم المعلم غالي في الظهور والصعود فلم يسعه غير الهرب الى الوجه القبلي حيث كان الامراء المماليك ثم نزع محمد علي باشا البلاد التي كانت تحت النزامه وطرحها في المزاد على الراغبين فاخـذها القادرون . وفي رواية انه لم يهرب بل ان محمد علي باشا نفاه الى الصعيد . وقيل قيامه الى الصعيد اما هارباً أو منفياً كما قيل جمع كل حجج املاكه وسلمها الى البطركخانة لتنفق من ريعها على أهل بيته فوضعت اليد عليها وبقيت في حوزتها للان



ش ٥٥ : مراد بك احد أمراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر

وبعـد اربع سنين صرّح له الباشا أن يعود بامان الى القاهرة فوصلها في اليوم الثالث عشر من شهر شوال سـنة ١٢٢٤ هـ — قال الجبرتي « ولما حضر ذهب الى

الباشا فقابله واكرمه ونزل في بيته الذي بحارة الوندك وفرشه له المعلم غالي وقام له بجميع لوازمه وذهب الناس مسلمهم ونصرانيهم وعلمهم وجاهلهم للسلام عليه » وفي سنة ١٢٢٥ هـ مات ودفن بمصر العتيقة بدير مارجرجس ولا يزال قبره موجوداً ولكنه قد تخرب وليس من يفكر في اصلاحه اه

المعلم غالي

توفي سنة ١٨٢١

هو من مشاهير رجال الادارة من الاقباط نبغ في أوائل ايام محمد علي باشا الكبير . قال صاحب كتاب تاريخ الامة القبطية انه كان في الاصل كاتب الامير الالفي من أمراء المماليك ثم تركه لسبب غير معلوم وتعلق بخدمة محمد علي باشا قال « وكان على جانب عظيم من الذكاء والنباهة ويعرف من أين تؤكل الكتف فلم يظهر للباشا معارضة في أوامره بل كان يساعده على تنفيذ اغراضه بتسهيل الامر له ولا سيما فيما يختص بتحصيل الاموال وقيل انه كان يعرف اللغة التركية ويتكلم بها فاحبه ورفع منزلته وعوّل عليه في الاعمال المالية وركن اليه وعمل برأيه وفكره فيها

« ولما قصد محمد علي باشا تأسيس حكومة منتظمة وكان لا يخفى على المعلم غالي انه توجد اراض كثيرة يزرعها اصحاب الاقتدار بغير دفع أموال عليها شرع في مساحة عموم اراضي القطر المصري فاخذ جملة اراض فربطت عليها الاموال وبذلك تمت الايرادات فكانت هذه خدمة وطنية عظيمة قام بها . وقسم اطيان كل بلد الى حيضان وقبائل وجعل لكل بلد زماماً مخصوصاً وغير ذلك مما لا تخفى فائدته فلا حاجة لاطالة الشرح فيه

« ولما نكب المعلم جرجس الجوهري وأسندت رئاسة الكتاب اليه طلب منه الباشا الف كيس فوزعها على المباشرين والكتبة وجمعها في اقرب وقت . ولكن كان جمعها بسرعة موجباً لغير ما يتوقعه المعلم غالي وسبباً في جلب الضرر عليه وعلى غيره فان الباشا بعد قليل أوقع الحوطة على بيته وبيت المعلم جرجس الطويل وحنا أخيه وفرنسيس اخي المعلم غالي والمعلم فلتاؤس واثنين آخرين واخرجوهم منها بصورة منكرة وسمروا دورهم وأخذوا دفاترهم فلما حضروا بين يديه قال لهم اريد حسابكم بموجب دفاتركم هذه وأمر بحبسهم ان لم يدفعوا ثلاثين الف كيس وبعد أيام أفرج عنهم بواسطة شخص يسمى حسين افندي الرونامجي على شرط أن يدفعوا سبعة آلاف

كيس فقاموا بدفعها ولكن لم تمض سبعة شهور حتى قبض عليهم ثانية وحبسهم في القلعة وختموا على دورهم ثم انزلوا المعلم غالي والمعلم فلتاؤس في مركب ليسافر الى دمياط كمنفيين وكان على ديوان الجمرك رجل يقال له المعلم منصور صربمون ومعه كاتبان آخران يسمي احدهما بشاره والآخر رزق الله الصباغ والبعض يقول ان الثاني من عائلة المعلم جرجس الجوهري فاحضر الباشا المعلم منصور وقلده مباشرة الدواوين

ثم سعى الساعون في مصالحة المعلم غالي ورفقائه فقبل الباشا العفو عنهم والرضا عليهم بشرط أن يدفعوا أربعة وعشرين الف كيس . ولما حضر المعلم غالي من دمياط طلع الى القلعة وقابل الباشا فخلع عليه وألبسه فروة سمور وتنازل له عن أربعة آلاف كيس وأمر أن ينزلوا به الى داره وأمامه الجاويشية بالعصي المفضضة واعاده الى الرئاسة كما كان اما المعلم منصور فجعله كاتباً لابنه ابراهيم باشا

« وتكرر حصول ذلك من الباشا فكان يغضب عليه تارة ويعزله ويقلد غيره من رفقائه ويرضى عليه اخرى فيرده الى منصبه بعد دفع مبالغ طائل لا يستطيع القيام به من ماله الخاص فيختص هو بجانب منه ويوزع الباقي على زملائه وغيرهم من رؤساء الكتبة فنتج من ذلك انه داخل بعض رفقائه الغيرة منه فانفكت رابطتهم وتفرقت كلمتهم وكان هذا غاية مقصد الباشا

« واتفق ان الباشا كان قد توجه الى الاسكندرية لمهمة واحتاج لنقود فخول على المعلم غالي صرف ستة آلاف كيس كانت باقية عليه فاعتذر بعدم الاقتدار على ادائها في الحال بدعوى انها بواق على اربابها وهو ساع في تحصيلها فلم يقبل هذا العذر منه وارسل الى كتخداه في مصر بالقبض عليه وعلى اخيه فرنسيس وامينه المدعو المعلم سمعان وسجنهم في القلعة حتى يدفعوا هذا المبلغ . وخاف المعلم جرجس الطويل وحنا اخوه سوء العاقبة وكان في نفسيهما شيء من جهة المعلم غالي فتحاملا عليه ووسوسا للباشا انه اذا حوسب يظهر عليه ثلاثون الف كيس وتعهدا بانه اذا فوض لهما عمل حسابه ولم يظهر عليه هذا المقدار فيكونان ملزومين بادائه للخزينة فاشتد غضبه عليه وعزله من رئاسة الكتابة وولى آخر مكانه يسمى المعلم منقريوس البتانوني وضيق عليه في الحبس واهانه اهانة شديدة وكرّر الضرب على امينه حتى اشرف على الهلاك وبعد ذلك افرج عن اخيه وامينه ليسعيا في التحصيل. اما المعلم غالي فبقي في الحبس مدة وبعد قليل شرع الباشا في تغيير هيئة الدواوين واستبدلها بأنظم منها بحيث تعود بالفائدة على الخزينة فرضي على المعلم غالي وأناطه بذلك فقسم البلاد الى مديريات واقسام والاطيان الى احواض وقبائل

« وبعد ان غاب المعلم غالي نحو سنة في الصعيد وهو يشتغل في ذلك عاد الى مصر وكان المتولي امارة الصعيد رجلا يدعى محمد بك الدفتردار فلما قصد المعلم غالي العود الى مصر زوّدهِ بكتاب منه للباشا يمدح فيه نصحه وسعيه في فتح أبواب تحصيل الاموال للخزينة وانه ابتكر اشياء وحسابات يحصل منها مقادير وافرة من المال فقابله الباشا بالرضا واثنى عليه ومن ثم اتخذه كاتباً لسره وخصه بمباشرة الاعمال الحسابية التي ابتكرها فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الاقاليم واستمر في هذا المنصب الجليل الى أن قتل سنة ١٨٢١ م لاسباب لا تزال حقيقتها خافية علينا . وبقيت جثته ملقاة في الخلاء ببعض بلاد مديرية الشرقية يومين الى أن استأذن أحد الاقباط في رفعها فأخذها ودفنها » اهـ

علي باشا تبه دلنلي

بطل البانيا

ولد سنة ١٧٤١ وتوفي سنة ١٨٢٢

﴿ البانيا ﴾ هي بلاد الارناؤوط يحدها الجبل الاسود من الشمال وبلاد اليونان من الجنوب والروملي من الشرق والبحر الادرياتيكي من الغرب وتقسم الى ثلاثة اقسام يسمى كل منها ايالة وهي(١) ايالة اشقودرا في الشمال وقصبتها مدينة اشقودرا (٢) ايالة يانيا في الجنوب وقصبتها يانيا وبلاد ابيروس داخلة في حكمها (٣) روميليا في الوسط وقصبتها موناستير . ويقسم الالبانيون باعتبار أصلهم الى ثلاث قبائل (١) قبيلة تجيج أو الغيج ويقطنون في اشقودرا وما جاورها (٢) التوسك ويسكنون اواسط البانيا في لبرات والباسان غربي موناستير (٣) الليار وهم احقر سكان البانيا ويقطنون الجبال بين التوسك وحدود ابيروس

والالبانيون معروفون بقوة الابدان ويضرب المثل بشدة بطشهم ولكنهم لانقسامهم وتنازعهم فيما بينهم لم تحد كلمتهم ولا تمكنوا من تأسيس الممالك وما برحوا عرضة لمطامع الدول العظمى من أول عهد العمران. وكانوا مع ذلك يدافعون عن اوطانهم دفاع الاسود فلا يرضخون للسلطة الا بعد شق الانفس فدخلوا اولا في حوزة دولة اليونان حتى اذا مالت شمسها استقلوا ثم طمع فيهم البلغار فحاربهم الالبان وردوهم . فلما ظهرت الدولة العثمانية وفتحت الروملي وجهت اسنتها نحوهم على عهد السلطان محمد الفاتح . وكان على الالبان قائد شهير اسمه جورج كستريوت ويسميه الاتراك اسكندر بك قاد الالبانيين بمهارة وحذق فردوا الاتراك عن بلادهم . ولكنهم دخلوا في حوزة الدولة العلية قهراً سنة ١٤٧٨ بعد موت اسكندر بك . على انهم ما انفكوا منذ أول رضوخهم للدولة يتذمرون ويتمردون فيكلفونها تجنيد الجند لقمع عصيانهم حتى لقد كان خيراً لها لو تخلت عنهم على انها استخدمت بعضهم في بعض حروبها . ثم لم ينل الالبان استقلالاً بعد ذلك الا ردحاً من الزمن على عهد علي الباشا التبه دنلي صاحب الترجمة واليك ترجمة حاله

﴿ علي باشا ﴾ ولد هذا الرجل في بلدة دبيلين على نهر فوبوتسا بجوار جبل كليسورا بولاية موناستير . ومنها لقبه بالتركية « تبه او دبه دلنلي » وهو من قبيلة التوسك وكان اسلافه من اشرافها ويلقبون ببكوات دبيليني ويتصل هذا اللقب في اعقابهم بالارث ولما كان حصار أهل البندقية لجزيرة كورفو سنة ١٧١٦ كان جد علي

باشا اذ ذاك في جملة المدافعين عنها فقتل هناك فورث اللقب ابنه والد علي باشا) ويقول بعض عارفيه انه كان رقيق الجانب محبا للسلام ونظنه كان ضعيفاً فسطا عليه جيرانه وسلبوه أملاكه فلا نعد ذلك حباً منه للسلام بل هو عجز. أما والدته فكانت عظيمة الانفة فلم يعجبها تصرف زوجها وقد توفي وعلي في الرابعة عشرة من العمر فبذلت جهدها في تربيته على الخشونة وارضعته حب الانتقام وكره الذين اختلسوا أموال والده . فشب على النهب والسلب والسطو والغزو شأن اكثر شبان البانيا فقضى شبابه الاول في الجبال مع زمرة من اصحابه يصادرون المارة ويسطون على أعداء والده ويحاربونهم حتى



ش ٥٦ ـ علي باشا تبه دلنلي

تمكن من استرجاع بعض أملاكه في دبيليني . ويقال انه قتل اخاه وسجن والدته وان والدته لم تعش بعد سجنها إلا مدة قصيرة

فلما استرجع املاكه وصار بيكاً ناقت نفسه الى السلطة بتوسيع دائرة سلطانه واتفق ان والي اشقودرا اذ ذاك كان متمرداً على الدولة فعرض على الباب العالي أن يخرج هو لتسكين الثورة فاذن له بذلك فحمل عليه وقتله فكافأته الدولة بحق التمتع بكل املاكه وعينته معاوناً لدروينـد باشا الروملي وهو لقب يسمى به حامي الطرق ومانع اللصوصية في الجبال

ولكنه طمع بالمـال وحاد عن واجباته فكان يشارك اللصوص بسرقاتهم ويطلق

صراحهم فعلمت الحكومة بذلك فاتهمت رئيسه بالامر وحاكمته وحكمت عليه بالاعدام اما علي فنجا بمساع خصوصية استخدم فيها الاصفر الرنان

ثم كانت الحرب بين العثمانيين والروس سنة ١٧٨٧ وكان علي باشا في جملة القواد فاظهر بسالة شديدة نال عليها انعاماً عظيماً فتعين والياً على تريكالا من تساليا (اليونان) ودرويند الروملي في وقت واحد مع لقب باشا فلم يمض زمن قصير حتى طهر البلاد من اللصوص بترغيبهم في الخدمة العسكرية فادخل في خدمته جماعة كبيرة منهم فألف تحت لوائه جنداً كبيراً . وكانت يانيا متمردة على الدولة فخرج عليها بجنده فاخضعها سنة ١٧٧٨ واصلح أحوالها فلما رأت الدولة منه ذلك ثبتته على كرسيها وسمي من ذلك الحين « والي يانيا » وهو اللقب الذي ما زال يعرف به الى اليوم

فلما رأى نفسه حاكماً وانه توصل الى الحكومة بعدته ورجاله حدثته نفسه ان يوسع دائرة سلطانه فجعل يتحين اسباباً يسطو بها على جيرانه كما فعل محمد علي باشا لما تولى مصر . وقد يرى القارىء مشابهة في ترجمة حياة هذين الرجلين من بعض الوجوه وسنأتي على ايضاح ذلك في ما يلي

فسطا علي باشا على حدود اليونان ففتح غربي شماليها وهي المقاطعة التي كانت تسمى ليفاديا وطمع في جبال سوليوتس في الجنوب الغربي من ابيروس وجارهم طويلاً فلم يخضعوا فضيق عليهم الى سنة ١٨٠٣ فقبلوا باخلاء جبالهم والهاجرة الى جزيرة كورفو فعاهدهم على ذلك ولكنهم لم يكادوا يخرجون حتى لقيهم رجاله وذبحوهم غدراً

وعلم علي باشا ان مطامعه هذه لا تسلم من عقاب الدولة إلا اذا تحصن واكثر من العدة فاتفق سنة ١٧٩٧ ان الفرنساويين استولوا على البندقية وكان كلما سمع ببسالتهم ونهضتهم اظهر اعجابه ولمح انه يريد المسير على خطواتهم ولكنه يحتاج الى الحصون والمعاقل فخابر بونابرت اذ ذاك بالامر فبعث اليه مهندسين بنوا له حصون يانيا التي لا تزال باقية الى هذه الغاية فضلاً عن حصونها الطبيعية . وكان عدد سكان تلك المدينة اذ ذاك ٣٥٠٠٠ بين مسيحيين ومسلمين ويهوديين

ولم يمض قليل حتى فشل نابليون في مصر فاغتنم علي باشا تلك الفرصة واستخرج بريفيزا عند خليج ارطا من أيدي الفرنساويين ثم نال مصادقة السلطان على ما فتحه من البلاد فاصبحت مملكته شاملة كل البانيا من الجبل الاسود الى ابيروس ولم تزل سنة ١٨١٧ حتى انضم اليها ابيروس وبعض تساليا والجزء الغربي من شمالي اليونان وتولى احد اولاده حكومة المورا فاصبح سلطانه واسعاً واتضحت مطامعه لدى الباب

العالي فلم تر الدولة طماً لينة الا بقتله وكان قد بلغ الثمانين من عمره فلم تجد سبيلا الى ذلك وهو يتظاهر بموالاتها مع الاستعداد للدفاع فلم تسمح العناية ببقاء دولته كما سمحت ببقاء دولة محمد علي في وادي النيل . فاتفق ان ضابطاً من جنده انتظم في جند الاستانة فغضب علي باشا وبعث اليه من يقتله سنة ١٨٢٠ فشق ذلك على الباب العالي فبعث الى سائر ولاة الدولة في تركيا اوربا ان يزحفوا عليه فلم ينالوا منه مأرباً لمناعة يانيا بالحصون فلم ير الباب العالي بدًّا من العدول الى السياسة فبعث اليه خورشيد باشا اول سنة ١٨٢٢ ان يسلم فينال العفو السلطاني فاذعن الشيخ تخلصاً من الحروب . وفي ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ دعا خورشيد باشا علياً اليه ليسلمه الخط الشريف الناطق بالعفو عنه فجاء وهو لا يدري ما نصب له فدخل عليه وجلسا برهة يتحادثان ثم مد خورشيد يده فاستخرج الفرمان المؤذن بقتله ودفعه اليه . فلما رآه علي احفل واعترض ودافع عن نفسه دفاعاً شديداً ولكن الكثرة غلبته فقتلوه وارسلوا رأسه الى الاستانة وانقضت دولته بعد حكومة بضع وثلاثين سنة

﴿ علي باشا ومحمد علي باشا ﴾ لا يقرأ المطالع ترجمة علي باشا إلا ويتذكر سيرة رجل مصر المغفور له محمد علي باشا لمشابهة بينهما في غرضهما الاساسي وهو تأسيس الدول . فقد سعى كل منهما في تأسيس دولة يستقل بها تمثلاً بمن سبقه أو عاصره من الرجال العظام . والمثال الاول لديهم بونابرت الذي كان معاصراً لهم وارتقى باقدامه وشجاعته وتدبيره من أدنى رتب الضباط الى اسمى رتب الملوك فكان قدوة الرجال في الاقدام ومثال الفواد العظام . وطبيعيٌّ ان ظهور مثل هذا الرجل ينبه اذهان معاصريه الى الاقتداء به فضلا عن النهضة العمومية التي نشأت في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن على اثر الحروب واشراق شمس العلوم وما نتج عنها من الاكتشافات والاختراعات فتحركت الهمم وثارت الافكار وكان ذلك بمنزلة الاحتكاك للاذهان فظهرت القوى الكامنة في الناس على اختلاف مراتبهم واصقاعهم فنبغ من نبغ ومات من مات عملاً بناموس الارتقاء العام

وكان في جملة من ثارت قواهم وظهرت مواهبهم العسكرية علي باشا في اليانيا ومحمد علي باشا في مصر وكلاهما من ولاة الدولة العلية فسعيا سعياً متشابهاً يلتمسان غرضاً متشابهاً فانتهى باحدهما الى الانقضاء وبالآخر الى البقاء . فبعد ان بلغ علي باشا اوج سعده واستقل تقريباً باليانيا وبعض ملحقاتها سقط وامحى اثره وظل محمد علي باشا سائراً في خطته وأسس دولة يتوارث الحكومة فيها أعقابه من بعده (تحت رعاية الدولة العلية) . فما هي الاسباب التي قضت بزوال الدولة الاولى وبقاء الثانية

يلوح لنا ان السبب الاول في ذلك اختلاف الرجلين في الاخلاق الغريزية فقد كان علي باشا شجاعاً شديد البطش كبير المطامع طلاباً للعلى ولكنه لم يكن عادلا حسن السياسة لين العريكة مثل محمد علي . يدلك على ذلك معاملته لاهالي سوليوتس المتقدم ذكرهم وفتكه باهل كارديكي من ولايته وذلك انه علم بان بعضهم ذكر والدته بالسوء فاعمل السيف فيهم وذبح منهم مذبحة هائلة على حين ان محمد علي باشا لم يكن يترك وسيلة في استرضاء المصريين واستجلاب طاعتهم بالبذل واجراء العدل ونشر العلوم وضبط الادارة

وقد يعترض على محمد علي بذبحه المماليك غيلة في القلعة ولكنه فعل ذلك مضطراً استبقاء لسلطته وتنفيذاً لاوامر الباب العالي السرية . أما علي باشا فانه فضلاً عن تنبيه ذهن الباب العالي لمطامعه مدَّ يده الى كرامة عاصمة الدولة فقتل أحد ضباط الجند العثماني في وسط الاستانة كما تقدم وفي ذلك من ضعف السياسة ما فيه . أما محمد علي فكان عوناً للدولة العثمانية في كثير من حروبها فدوّخ لها الوهابيين واعانها في اخماد ثورة اليونان وان لم ينجح

ثانياً . ان محمد علي باشا استعان في تأييد حكومته بمصر ونشرها الى ما يجاورها بواسطة أولاده فقد حارب الوهابيين بقيادة ابنه طوسون وحارب الشام والمورة بقيادة ابنه ابراهيم القائد العظيم . واخضع السودان بابنه اسماعيل وأيد سلطانه فيها كلها بحسن سياسته مع الدولة العلية والمحافظة على علاقته بها بالحسنى

ثالثاً . ان المصريين فضلا عن قربهم من الطاعة وسهولة حكومتهم فقد سبق محمد علي قبل ولايته وطبع على اذهانهم صورة حسنة من عدله وكرمه حتى حملهم على ان يطلبوا ولايته من الباب العالي رأساً فلما تولاهم احسن معاملتهم ورقى شؤونهم وحافظ على رضاهم فلم يأت عملاً يوجب نفورهم وحافظ مع ذلك على رضاء جنده القديم من الالبانيين وغيرهم الذين كانوا له عوناً في ارتقاء اريكة الملك حتى اذا أراد تنظيم جند جديد ورأى منهم تمرداً اقتصر على تنظم ذلك الجند من اهالي البلاد الاصليين بلا مقاومة واضمر للمتمردين من رجاله وسيلة يتخلص بها منهم فانفذهم لفتح السودان على ان يفتحوها او يبيدوا فيها وهم لا يشعرون وفي ذلك من الدهاء والسياسة ما لا يخفى على اللبيب . اما علي باشا فقد كان مطمعه في الولاية محصوراً في ما يرجوه من النفع الموقت . وزد على ذلك ان الالبان قوم يصعب التسلط عليهم لما تقدم من خشونة طباعهم وصعوبة مراسهم

رابعاً . ان مصر نظراً لبعدها عن مركز الخلافة كانت اقرب للاستقلال الاداري من البانيا لان هـذه في الروملي قريبة من الاستانة وكان الالبانيون انفسهم كثيراً ما يتجندون في خدمة الدولة العلية مأجورين فلم يكونوا قلباً واحداً مع واليهم فلما قتل لم يبدوا مقاومة . ناهيك بغنى هـذا القطر وما بذله محمد علي من المساعي الخيرية في تحسين الزراعة وتنشيط التجارة والصناعة ففتح المعامل ونظم الجند ونشط العلم فدرّت مصر ذهباً وفضة فاتقى اهلها رغداً وعيشاً هنيئاً انساهم ما كانوا يقاسونه من البلاء على عهد المماليك . ولم يتأت لعلي باشا ان يفعل شيئاً من ذلك ولعل طبيعة البلاد الخشنة من جهة وانطباعـه على السلب والنهب من جهة اخرى كانا من اكبر العقبات في سبيل الاصلاح

خامساً . ان مساعي محمد علي في الولاية انما كانت تحت ظل مصلحة الدولة وفتح ما فتحه من البلاد باسمها فلم يأت عملاً يوجب الضغينة عليه منها الا في حربه في الشام فلما سئل الرجوع عنها أذعن وتوسطت بعض الدول فجعلت لكل من الجانبين حدوداً رضي بها الفريقان ونال على أثر ذلك الامتيازات المعلومة

سادساً . وأخيراً ان علي باشا هذا انخدع باقتراح خورشد باشا انخداعاً آل الى قتله وانقراض حكومته ممـا لا نظن محمد علي يخدع به لو كان في مكانه — يدلنا على ذلك انه لما كان قائداً لفرقة الالبانيين قبل ان يخطر بباله أمر الولاية وتأخرت فرقته عن نجدة عساكر خسرو باشا في حرب المماليك اراد خسرو الفتك به غيلة وطلب مقابلته سرًّا في منتصف الليل فادرك محمد علي بذكائه ودهائه انه انما يريد به شرًّا فلم يقبل دعوته بل كان ذلك سبباً قوياً في سعيه الى الولاية

بوغوص بك

ولد سنة ١٧٦٨ وتوفي سنة ١٨٤٤

هو بوغوص بك يوسفيان ولد في ازمير سنة ١٧٦٨ وتثقف في مدارسها حتى برع في اللغات الارمنية والتركية واليونانية والايطالية والفرنسوية تكلماً وكتابة وتعاطى في أوائل شبابه التجارة عملاً بمشورة ابيه ثم تعين مترجماً في قنصلية انكلترا

وفي سنة ١٧٩٠ توفي والده فقضت عليه الاحوال ان يأتي رشيد بالقطر المصري فجاء وتعين في بعض مصالح الكمرك ثم انتقل الى كمرك الاسكندرية حتى اذا كانت الحملة الفرنساوية عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون بونابرت هاجر بوغوص الى وطنه ولما انسحب الفرنساويون سنة ١٨٠١ عاد الى الاسكندرية

وكان كمرك الاسكندرية اذ ذاك يحتكر بالمزايدة ففي سنة ١٨١٠ انتهى المزاد عنده على ان يدفع خمسين كيساً في العام والكيس يساوي خمسمئة قرش . وكان محمد علي قد تولى عرش الحكومة المصرية فلما دنا انقضاء مدة الاحتكار استدعاه اليه لتجديد الشروط وكان محمد علي على بينة من مقدار دخل الكمارك فلما اجتمع به طلب منه خمسمائة كيس في العام لمدة خمس سنوات . فلم يقبل بوغوص في بادىء الرأي خوف الخسارة فتعهد له محمد علي اذا قلَّ دخل الكمرك عن ٥٠٠ كيس في السنة أتمَّ له المبلغ من جيبه واذا زاد على ذلك قسم الربح بينه وبين الحكومة المصرية فقبل بوغوص بك بذلك لعلمه ان محمد علي لا يقدم على هذا الامر الا وهو ينوي للاسكندرية خيراً وبالواقع انه احتفر الترعة المحمودية فتسهلت وسائل النقل وعظمت تجارة الاسكندرية فربح بوغوص ارباحاً حسنة اقتسمها هو ومحمد علي فاصبح شريكاً للحكومة المصرية . وكان محمد علي قد جعل فوق يد بوغوص كاتباً يراقب حساباته فوشى به سنة ١٨١٣ بانه قبض مبلغاً لم يدونه في دفاتره فاستدعاه محمد علي اليه وكان يومئذ في دمياط وحاكمه فاثبت الواشي دعواه بالحساب فامر محمد علي باعدام بوغوص فساقوه الى السجن على ان يقتلوه في صباح الغد وتولى الاحتفاظ به تلك الليلة رئيس حرس الباشا وهو كردي الاصل وكان لبوغوص فضل عظيم عليه لانه انقذه مرة من القتل فعوَّل هذا على مكافأته بالمثل

فلما امره محمد علي باعدامه ساقه الى منزله في دهبية على النيل وجاء في الصباح التالي الى السراي فلما رآه محمد علي سأله عن بوغوص فأجابه بقوله « اطال الله بقاء سمو مولاي » ففهم محمد علي على انه قتله فلم يعد يذكره قط

واتفق بعد بضعة ايام ان محمد علي قدم القاهرة لتمهد شؤون حكومته فسمع باختلال احوال الولاية وكانت التقارير ترد عليه من الكشاف (المديرين) تناقض بعضها بعضاً فشق ذلك عليه وتذكر بوغوص لانه كان عمدته في حل هذه المشاكل

فصاح باعلى صوته قائلاً « من لنا ببوغوص الآن . . . كيف اني قتلته » وكان رئيس حرسه حاضراً فامتقع لونه واضطرب فادرك محمد علي ذلك فقال له والغضب ظاهر على وجهه « ادعه اليّ حالاً » فخاف الكردي خوفاً شديداً واسطكت ركبتاه



ش ٥٧ : بوغوص بك

فترامى على قدمي الباشا فرفسه محمد علي برجله ولم يزد على قوله « ادعه اليّ » فجاءه به وبوغوص يرتعد خوفاً ورهبة . أما الباشا فلم يبد ملاحظة ولكنه استشاره في حل المشكلة التي وقع فيها فتناول بوغوص الاوراق فتلاها وحل رموزها واستطلع ما بطن منها وما ظهر . فاصدر محمد علي حكمه فيها طبقاً لمشورة بوغوص . ولما انقضت الجلسة وانصرف الكتبة دعاه للطعام معه فتناولاه ولما همّ بوغوص بالانصراف قال له محمد علي « قد تناولت الخبز والملح معك ونسيت كل ما مضى فاذهب الى الاسكندرية بسلام »

فالتمس بوغوص منه ان يعفو عن رئيس الحرس فعفا عنه على شرط ان لا يرى وجهه بعد ذلك . فاخذه بوغوص معه واسكنه في أهله زمناً طويلا ثم اراد النزوع الى وطنه فجهزه بمال يكفي لمعيشته بالرخاء والنعيم كل حياته

واصبح بوغوص بك من ذلك الحين موضع ثقة محمد علي ومرجع مشورته ولم تبق ثمة حاجة الى تجديد شروط احتكار كمرك الاسكندرية. واصبح بوغوص بك من موظفي الحكومة المصرية بلا راتب معين فكان يستولي على ما أراده من دخل الكمرك بلا حساب على ان محمد علي لم ير منه طمعاً ولا اسرافاً فرقاه الى رتبة فريق مع لقب بك وأطلق له التصرف في كل اعماله . ولما نظم محمد علي حكومته وأنشأ فيها النظارات ولاه نظارة الخارجية والتجارة فقضى في ذلك المنصب نحواً من عشرين سنة ومحمد علي يعتمد عليه اعتماداً تاماً في كل ما يتعلق بعلاقاته السياسية والتجارية مع الدول الاخرى. وكانت كل محاصيل القطر المصري تمر تحت يده كأنه ناظر المالية ونظم له اقلام الحسابات فاكتسب صداقة محمد علي فضلاً عن ثقته

وتوفي بوغوص بك في الاسكندرية اول عام ١٨٤٤ عن ٧٥ عاماً وكان محمد علي يومئذ في القاهرة فحزن حزناً شديداً فاصدر أمره ان يحتفلوا بجنازه على نفقة الحكومة فدفنوه في كنيسة الارمن الغريغورية في الاسكندرية . ولم يكن من اقاربه في مصر يومئذ الا نوبار باشا وكان سنه ١٩ سنة فخدمه في أثناء مرضه

وكان محمد علي لما سافر الى السودان عام ١٨٣٩ لتفقد احوالها سلم الى بوغوص بك اوراقاً مختومة على بياض لاستخدامها في ما يقتضي اصداره من الاوامر او المنشورات سريعاً فبعد انقضاء مدة الحداد فتحوا صناديقه فوجدوا تلك الاوراق لا تزال كما كانت عليه ومعها جواهر ومصاغ كان محمد علي قد عهد اليه بها قبل سفره ويدل ذلك على امانته واخلاصه في خدمته

وكان ربعة مع ميل الى القصر قوي البنية يتقلد العمامة ويلبس القفطان والجبة لا يختار من ألوان الالبسة الا المظلمة ولم يلبس الطربوش قط . لم يخلف بوغوص اولاداً فورثه اخوه بدروس يوسفيان وكان يقيم في تريستا ولم يعش بعده الا قليلا

مصطفى رشيد باشا

ولد سنة ١٢١٥ هـ وتوفي سنة ١٢٧٤ هـ

هو الوزير الخطير والسياسي العثماني الشهير المعروف بحبه لوطنه وحسن خدماته لدولته وأمته ابن مصطفى افندي روزنامه جي الاوقاف الهمايونية ولد سنة ١٢١٥ هـ بالاستانة العلية وتهذب على أيدي والديه الى سن الشبوبية فادخل بقلم مكتوبجي الباب العالي وكان يختلس الفرص ويذهب الى المساجد لتناول العلوم العربية عن أئمتها

وكان رؤساؤه يحبونه لاستعداده ودرايته فترقى بمدة وجيزة وصار من الكتاب الممتازين في القلم المذكور ونال فوق ذلك رتبة رئاسة التعليم ولم تكن تعطى لحديث السن مثله وكان على صغره يفصل المشاكل المهمة فصلاً يقصر عنه الشيوخ فكان يسمع مدحه وتنشيطه من الرؤساء فيزداد همة ونشاطاً وكان برتو باشا الشهير من جملة من قدر مزيته واقتداره

ولما ارتقى الى درجة باش خليفة (باشكاتب) ارسلته الدولة العلية الى المورة برفقة الاردو الهمايوني تحت قيادة خسرو باشا فابتدأ من ذلك الحين يصرف ذهنه الى استطلاع اسباب تلك الحادثة وما يضمن رجوع النفوذ العثماني

وبعد رجوعه من المورة أرسل الى القطر المصري مرتين برفقة برتو باشا على عهد المغفور له محمد علي باشا فأظهر من الدراية في حل المشاكل ما اشتهر بين الخاص والعام

ولما تبوأ السلطان عبد المجيد خان كرسي السلطنة كان المشار اليه بمأمورية آمدي الديوان الهمايوني وكانت المذاكرات جارية بمجلس الوكلاء (الوزراء) اذ ذاك بشأن اصلاح شؤون الدولة لوقوعها في ارتباك عظيم بمسألة المورة واستقلال اليونان والغاء أجواق الانكشارية ومحاربة روسيا وكان السلطان حريصاً على امته وصيانة ممالكه حتى كان يود اصلاح ذلك كله دفعة واحدة ولكن مقاصد الوزراء اذ ذاك متباينة متضادة مثل ما كانت احوال الولايات . ولما لم ينتج من تلك المذاكرات نتيجة فعالة ضاق السلطان ذرعاً فجاء يوماً بغتة الى الباب العالي ودعا الوكلاء اليه وكان من جملتهم رشيد بك صاحب الترجمة

فاخذ السلطان في تلك الجلسة يبين الخطر العظيم المحيط بالدولة من جميع اطرافها وطلب الى الوكلاء ابداء آرائهم في تخليص الممالك والامة فلم يكن جوابهم الا التأوه والتأسف فأثر ذلك برشيد بك تأثيراً فوقف وصرح برأيه بكل احترام وأدب ووعد بان يقدم رأيه خطاً للاعتاب السلطانية وهكذا فعل فانه قدم لائحة كانت السبب الوحيد

لخلاص الامة والمملكة من تلك الوهدة المخطرة ونال بسببها الشهرة العظمى فوجهت اليه رتبة الوزارة مع لقب باشا ثم أرسل سفيراً الى باريس ولوندره لحل مسألة مصر وهو لم يتجاوز الثلاثين من العمر وزد على ذلك انه كان يجهل اللغات الغربية فارسل برفقته ترجمان يسمى المسيو كور . ولكنه رأى ان لا بد له من دراسة لغة أوربية فتعلم الفرنساوية وطالع بواسطتها نظامات الممالك وأسباب نجاحها وثباتها وكان ينظر الى تلك الممالك نظرة والى حال دولته نظرة أخرى ويقابل بين الحالتين توصلا الى دواء يشفي الدولة مما كانت فيه من الامراض العضالة

وكان الغربيون ينظرون الى الشرق نظر الاحتقار لما كان يتصل اليهم من المبالغات



ش ٥٨ ـ مصطفى رشيد باشا

بشأنه فكان صاحب الترجمة يبذل جهده لتكذيب تلك الاراجيف بالدليل والقياس استجلاباً لحسن ظنهم بالدولة العلية وكان الملك جورج (ملك انكلترا) اذ ذاك يصغي الى كلامه حتى اقتنع منه بان المحافظة على قوام الدولة العلية ووقاية ملكها يعودان بالنفع على سائر ممالك اوروبا فانعقدت المعاهدة المسماة (بروتوكول لوندرة) ومن مقتضاها التخلي لمحمد علي باشا عن ولايتي مصر وعكا طول حياته ولكن محمد علي باشا لم يوافق على ذلك فاضطرت دولة انكلترا اذ ذاك ان ترسل سفنها الحربية الى تلك الامصار وكانت النتيجة احتراق السفن الحربية المصرية امام بيروت واخراج عساكرها من البلاد السورية واعادة البلاد التي افتتحها الى الدولة العلية وحصر ولاية محمد علي باشا بالقطر المصري مدة حياته ثم يتوارثها اكبر أولاده بموجب الشروط المذكورة

بالفرمانات الهمايونية . وترى ذلك مفصلا في كتابنا تاريخ مصر الحديث

وكانت دول اوربا حينئذ تنظر الى الدولة العلية نظرها الى المغتصب ولم تكن تصادق على تملكها ولا تعد الدولة العلية من جمعية الدول الاوربية وربما كان ذلك ناتجاً عن اهمال عمال الدولة وما تمكن من الخلل في داخليتها حتى شغلهم عن علاقاتها الخارجية

وكان السلطان عبد المجيد خان قد تحقق صداقة رشيد باشا فصار يعتمد عليه الاعتماد التام فاتخذه مستشاراً خاصاً وفي سنة ١٢٥٦ هـ قام على الكرسي العالي بالنيابة عن جلالته في ميدان الكلخانة وقرأ الخط الشاهاني المعلن المساواة بين سائر أصناف العثمانيين فاعتقدت الدول الاوربية فلاح الدولة العلية بذلك وابتدأت تثق بالباب العالي كل الوثوق وكان هذا الخط الشريف صورة من لوائح صاحب الترجمة قد أفرغت بقالب رسمي

وعلم أيضاً ان قلة الرجال المقتدرين يقف عثرة في طريق الاصلاح فاخذ يرقي انجاب اللياقة والاقتدار من شبان الوطن الى أعلى المراتب بمدة قليلة وفي جملة من ترقى على يده فؤاد باشا وعالي باشا واحمد وفيق باشا الذين اشتهروا بخدماتهم للدولة العلية

ولما وجهت اليه الصدارة العظمى كانت الاحوال وخيمة جداً كما اتضح مما تقدم فاخذ باصلاح الامور الملكية والعسكرية فاسس سفارات دائمة في برلين وباريز وڤينا ولوندرة فكان يطلع بواسطتها على الحقائق السياسية في حينها ويتخذ الاحتياطات اللازمة والتدابير المصيبة لصيانة حقوق الدولة والملة وان ما ناله من التوفيق في مسألة اعادة المجرمين التي ظهرت بعد الاختلال الكبير في المجر سنة ١٨٤٩ كان نتيجة ما اتخذه من المسلك القويم في طرق السياسة وبرهاناً على فرط حميته وغيرته . وتفصيل ذلك انه لما ضيقت روسيا والنمسا على المجريين التجأ جماعة منهم الى حدود المملكة العثمانية فطلبت الدولتان المشار اليهما الى الدولة العلية تسليمهم اليهما وهددتاها بالحرب اذا خالفت طلبهما فاصدر رشيد باشا لهما رداً وفقه على الحقوق الدولية وصان شرف الدولة وكان السلطان يؤيد كل ما يقوله او يعمله ومن جملة كلام جلالته بهذه المسألة قوله « ومن المحال ان اسلم هؤلاء المساكين وقد التجأوا الى باب سلطنتي السنية وهذا ما تقتضيه الحمية والعدالة وقد اختار الحرب على تسليمهم » فعلمنا ان الدولة ساهرة على حقوقها وشرفها بهمة وزيرها رشيد باشا فاذعنتا الى ان يتلافى الامر بالمخابرات السياسية والقانون الدولي وتحققنا ان التهديد لا يفيدهما شيئاً

وتقلب رشيد باشا في مناصب متعددة على مقتضى الاحوال فتقلد منصب الصدارة ست مرات ونظارة الخارجيـة اربعاً وتقلد سفارات متعددة وتعين والياً لادرنه مرة واحدة . وكان الفوز مرافقاً له في كل أمر شرع فيه . وأول جريدة عثمانية نشرت في الاستانة « تقويم وقائع » كان هو مؤسسها. وقد أسس ايضاً نظارة المعارف ومجلس المعارف ونظامنامه المعارف وسالنامه الدولة والمكاتب الرشدية وغيرها من عوامل الارتقاء

واتفق في ايامه ظهور مسألة القدس وهي الاختلاف الذي حصل بين الكاثوليك والارثوذكس بحق التصرف في الكنيسة الشرقية وتداخلت روسيا في امره وارسلت (منشيقوف) الشهير الى الاستانة ليبلغ الدولة العلية مطاليب الدولة الروسية الباهظة فاتخذ رشيد باشا الاحتياطات اللازمـة فاودع المسألة حالا الى مؤتمر ڤينا وطلب تسويتها وفقاً لقانون الدول والملل . فاصدر المؤتمر لائحة الى الدولتين فقبلتها الروسية ولم تقبلها الدولة العلية لاشتمالها على شروط تحتاج الى التعديل فطلبت تعديلها واجراء المذاكرات بذلك فصرحت الدول الاوربية بانها لا تستطيع معاضدة الدولة العلية واذا لم تقبل بالشروط المذكورة فالمسئولية تعود عليها اذا آلت الحال الى حرب

فنهض رشيد باشا حينئذ بهمة وغيرة فائقتين وجمع الوكلاء والوزراء والعلماء والامراء والمأمورين والاعيان في الباب العالي بموجب ارادة سنية وشرح المسألة وابان لهم ان بعض مواد تلك اللائحة مخلّ بحقوق الدولة العلية وان الدولة الروسية لم تقبل تلك الشروط الا رغبة بمواد فيها قابلة للتأول . ثم أخذ رأيهم ودارت المذاكرات بذلك فاعلنت الدولة العلية الحرب على دولة روسيا سنة ١٢٦٩ هـ وكان رشيد باشا عالماً بقصور الدولة عن مناهضة الروس اذ ذاك ولكنه رأى قبول الشروط اكثر ضرراً من الحرب فاختار اهون الشرين . ولم تمض برهة على ذلك حتى تأكدت فرنسا وانجلترا وسردينيا ان الدولة الروسية قد تجاوزت الحد فاعلنّ عليها الحرب واوقفها وكانت نتيجة تلك الحرب الاعتراف بحقوق الدولة العلية وادخالها في عداد الدول الاوربية سنة ١٢٧٣ هـ وهذا ماكان يتمناه رشيد باشا ويسهر الليل والنهار لاجله وهي خدمة تكفي لتخليد ذكره الى الابد

وكان رحمه الله طويل الباع في الكتابة والاوراق المحفوظة الان بخطه في الباب العالي دليل واضح على ذلك

وفي سنة ١٢٧٤ هـ وافاه الاجل فلباه واودع حسرة في قلوب العثمانيين كافة ولم يزل العثمانيون يذكرون اسمه بكل احترام واكرام

فؤاد باشا

السياسي العثماني الشهير

ولد سنة ١٢٣٠ هـ وتوفي سنة ١٢٨٥ هـ

ولد في الاستانة سنة ١٢٣٠ هـ ووالده عزت ملا بن كيجه زاده احد الشعراء والعلماء في زمانه . سلك فؤاد باشا في عهد شبيبته المسلك العلمي ثم دخل المكتب الطبي الذي اسسه السلطان محمود الثاني في سراي غلطة وحصل فيه العلوم الطبية بنسبة زمانه واستعداده وارتقى لرتبة قائمقام . وعند ذهاب طاهر باشا بن چنكل والياً لولاية طرابلس الغرب تعين فؤاد (افندي) طبيباً للالاي في معيته

وفي سنة ١٢٥٣ كان مصطفى رشيد باشا في نظارة الخارجية وتوسم في صاحب الترجمة مستقبلا عظيماً في السياسة فحرضه على ترك الطب فتركه وتعين مترجماً في الباب العالي . ثم صار مترجماً اول للديوان الهمايوني . وفي سنة ١٢٥٤ هـ سافر رشيد باشا الى لوندره سفيراً موقتاً فاصطحب فؤاد افندي كاتباً أول للسفارة المذكورة . وبقي المشار اليه في لوندرة ثلاث سنوات ثم عزل الى الاستانة وبقي فيها سنتين معتزلا

ولما تعين رشيد باشا سفيراً في باريس للمرة الخامسة تعين فؤاد افندي سفيراً موقتاً لاسبانيا والبرتغال وبقي فيها سنتين وبعد عودته للاستانة نال الرتبة الثانية المتميزة وتعين ترجماناً للديوان الهمايوني في شهر جمادى الاخر من سنة ١٢٦١ وفي ربيع اول سنة ١٢٦٣ احسن اليه بالرتبة الاولى من الصنف الاول وتعين في ديوان (آمدىء همايون) أي ديوان الاستقبال الهمايوني

وفي سنة ١٢٦٥ هـ ارسل الى عاصمة الفلاخ والبغدان بمأمورية مخصوصة فقام بها حق القيام وبرهن على ما فطر عليه من الاقتدار الباهر فأرسل من هناك الى بطرسبرج سفيراً وفي اثناء وجوده في بطرسبرج عين مستشاراً للصدارة العظمى واعطيت له رتبة بالا في محرم سنة ١٢٦٨ .

وهذه اول خطوة خطاها نحو مراميه الشهرة البعيدة والمجد الباذخ ثم ارسل الى مصر بمأمورية مخصوصة بتعليمات من رشيد باشا فتكلل سعيه بالنجاح وحصل على رضاء السلطان عبد المجيد ورشيد باشا ومدحه على اجراآته وولاّه السلطان نظارة الخارجية مكافأة له . وكان فؤاد افندي الى هذا التاريخ مديناً بما أحرزه من التقدم الى رشيد باشا وغريس نعمته لكنه بعد ذلك خالف رشيد باشا في مسلكه السياسي ووطد اركان اقباله بالاتحاد مع عالي باشا تارة والانفراد بنفسه تارة أخرى

وكان المنتظر من فؤاد باشا تعضيد رشيد باشا ومضافرته في كبح من يعارضه في ترقية الامة والوطن لا مخالفته والتهالك وراء الرفعة والاقبال . وحب ترقية الامة الذي كان فؤاد باشا مفطوراً عليه يقضي عليه بذلك

وفي محاربة القرم ارسل الى يانيه لتأديب اشقياء اليونان فتمكن من اعادة الامن لتلك الجهات في ستة اشهر وفي سنة ١٢٧١ وجهت اليه رتبة الوزارة

وفي سنة ١٨٥٦ تعين مندوباً لمؤتمر باريس المنعقد لعمل معاهدة السنة المذكورة وكان ناظراً للخارجية في ذلك التاريخ ورافق عالي باشا بصفته مرخص ثان . اه — هذا هذا ما رواه ابو الضياء من ترجمة هذا الرجل في كتابه « نمونهٔ ادبيات »



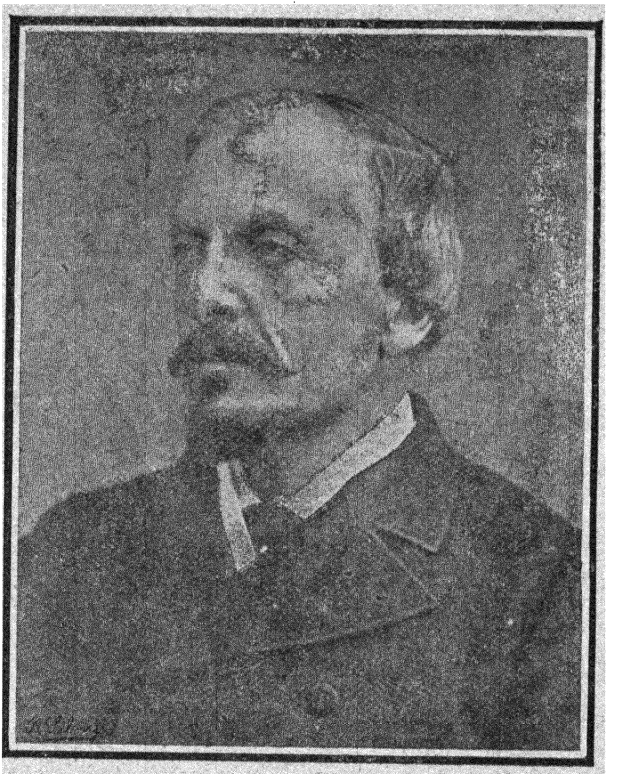
ش ٥٩ : فؤاد باشا

وفي سنة ١٢٧٦ هـ (١٨٦٠) حدثت الحوادث الشهيرة في بلاد الشام فاهتمت أوربا بشؤون المسيحيين فيها . وكان البادىء بذلك الاهتمام فرنسا فخابرت انكلترا واتفقتا على تكليف الباب العالي بتشكيل لجنة دولية من مندوب عثماني ومندوبين من سائر الدول العظمى تسير الى سوريا للبحث عن أسباب تلك الفتن ومعاقبة مسببيها وتقرير الخطة التي تضمن الامن في المستقبل . وان يرفعوا بذلك تقريراً الى الباب العالي . فتشكلت اللجنة المشار اليها واعضاؤها هم :

فؤاد باشا	من قبل الدولة العلية	اللورد دفرين	من قبل انكلترا
الموسيو بيكلار	من قبل فرنسا	الموسيو نوفيكوف	من قبل روسيا

الموسيو ويكيكر من قبل اوستريا الموسيو ريفوس من قبل بروسيا

واجتمعت اللجنة اجتماعها الاول في بيروت في ٥ نوفمبر سنة ١٨٦٠ ثم واصلت الاجتماع خمسة أشهر متوالية دارت في أثنائها المداولات للقيام بالمهمة التي تألفت اللجنة



ش ٦٠ : اللاركيز دفرين

لاجلها واهمها (١) اعادة النظام والامن (٢) ارجاع المسيحيين المهاجرين الى قراهم وبلادهم (٣) تقدير ما لحقهم من الخسائر وتعويضها عليهم (٤) تعيين الاشخاص الذين سببوا تلك الثورة ومقاصتهم (٥) الاتفاق على حكومة تضمن للبنانيين أرواحهم وأموالهم وراحتهم . وقد طال البحث في تفاصيل هذه الشؤون واحتدم الجدال خصوصاً بين فؤاد باشا المندوب العثماني واللورد دفرين المندوب الانكليزي وكلاهما من أعظم رجال السياسة

فكتبت القوائم باسماء المنكوبين حسب قراهم ومقاطعاتهم ودفعت لهم مساعدة وقتية فأصاب كل واحد منهم نحو عشرة قروش مصرية . وفرقوا فيهم الدقيق والاقمشة وانشأوا المستشفيات لجرحاهم ومرضاهم ونحو ذلك مما يخفف مصائبهم وقتياً

فلما سدَّ الناس رمقهم عادت اللجنة الى البحث عن مقدار التعويضات اللازمة فقدروا خسائر اللبنانيين وحدها بثلاثة ملايين جنيه وشخصت اللجنة الى دمشق للنظر في ما لحق تلك المدينة أيضاً فقدروا خسارتها بمليون جنيه . فرجعت اللجنة الى بيروت لاعادة النظر في هذه الشؤون فجعلوا خسائر دمشق ٧٠٠٠٠٠ جنيه فقط وقرروا أن يجمع هذا المال من مسلمي الولاية ثم والت اللجنة اجتماعاتها والآراء مضطربة. وفي اجتماعها الخامس عشر صرّح فؤاد باشا ان مسألة التعويضات اصبحت من خصائص الاستانة وللباب العالي وحده الحق في ذلك فارادت اللجنة مقاومته والاعتراض على قوله فلم تفلح وبعد مخابرات طويلة تقرر أن تكون تعويضات دمشق ٣٥٠٠٠٠ جنيه فقط تدفع تدريجاً . وطال الجدال أيضاً في المسائل الاخرى مثل معاقبة الجانين ومحاكمتهم واظهر اللورد دفرين ورفقائه ثباتاً كثيراً ولكن فؤاد باشا تغلب عليهم واجرى ما رآه اضمن لمصلحة دولته واحفظ لاستقلالها والدول الاوربية تراه مجحفاً بحقوق المسيحيين هناك

وكان في جملة مطالبهم سرعة تنفيذ القصاص على الدروز الذين ثبتت الجناية عليهم ولكن فؤاد باشا تغلب على سياستهم في ذلك واجّل القصاص وغيّر أوجه المسألة وخفف الجريمة فانتهت تلك المهمة الى ما هو مشهور من امرها وقد تغلب فيها رأي فؤاد باشا بوجه الاجمال

وفي سياحة السلطان عبد العزيز الى أوربا ألحق فؤاد باشا بمعيته لانه كان ناظراً للخارجية . وتعين وكيلاً لعالي باشا الصدر عند سفره الى كريد ولبث فيها مدة سنة. واصيب فؤاد باشا في أواخر حياته بمرض في القلب اشتدت وطأته عليه حتى ألزمه اطباء فرنسا الذهاب الى « نيس » فذهب اليها وتوفي فيها سنة ١٢٨٥ وعمره خمسون سنة وتقلد صاحب الترجمة منصب الخارجية خمس مرات ثلاث منها في عصر السلطان عبد المجيد واثنتان في عهد السلطان عبد العزيز والسر عسكرية . وتعين رئيساً للمجلس العالي (مجلس والا) وكان فؤاد باشا في صدارته الاولى يوقع على الاوامر بختم محفور فيه عبارة (الوزير الاعظم محمد فؤاد) وفي صدارته الثانية انضمت له السر عسكرية واحسنت اليه الذات الشاهانية بعنوان (ياور اكرم مقبل صادق)

ولفؤاد باشا شهرة طائرة في عالم السياسة ويذكرون له وصية اصلاحية لم نقف عليها كلها

محمد شريف باشا

ولد سنة ١٨٢٣ وتوفي سنة ١٨٨٧ م

هو الوزير الخطير الجامع بين العلم والسياسة والفضل والرئاسة والشهير بين اقرانه الوزراء بالغيرة على الوطن المصري غيرة خالصة من كل شائبة كما سيتضح لك من سيرة حياته رحمه الله

ولد في القاهرة في سنة ١٨٢٣ من عائلة تركية الاصل عريقة في الحسب والنسب وكان والده قد جاء الديار المصرية في أيام المغفور له محمد علي باشا بمنصب قاضي القضاة فاقام فيها زمناً ثم عاد الى الاستانة حتى أذن ساكن الجنان السلطان محمود الثاني نقاد الرجال بتقليده منصب القضاء في الحجاز فمرّ في طريقه بمصر أقام فيها اياماً وولده صاحب الترجمة معه وسنه اذ ذاك بضع سنين . وكان محمد علي باشا رحمه الله لحسن فراسته ينتقد الرجال بمجرد النظر اليهم فلما رأى الغلام تنبأ بعظم مواهبه وفرط ذكائه فاستبقاه عنده وجعله كاحد أولاده فادخله المدرسة العسكرية التي أنشأها في الخانكاه بضواحي القاهرة وجعل فيها أولاده واولاد الامراء والاعيان . وبعد أن درس فيها مدة بعثه محمد علي باشا في الرسالة المصرية التي كان يبعث بها الى أوربا للتخرج في العلوم وكانت تلك الرسالة مؤلفة من ثلاثة واربعين تلميذاً ارسلوا الى المدرسة المعدة لابناء مصر في باريس وكان في جملة تلك الرسالة محمد سعيد باشا ابن محمد علي والي مصر واسماعيل باشا الخديوي الاسبق وغيرهما من أبناء العائلة الخديوية وعلي باشا شريف وعلي باشا مبارك ومراد حلمي باشا وعلي باشا ابراهيم وغيرهم من أبناء الاعيان والوجهاء

وكان صاحب الترجمة رحمه الله ميالاً ميلاً طبيعياً الى العلوم العسكرية والحركات الحربية ولا سيما في ابان شبيبته فاختار تعلمها لان التعلم كان في تلك الرسالة اختيارياً فادخلته الحكومة مدرسة سان سير المعدة لتعليم الضباط العسكرية سنة ١٨٤٣ وبعد سنتين اتمّ دروسها وامتاز عن رفاقه فانتقل منها الى مدرسة تطبيق العلوم العسكرية قضى فيها سنتين اظهر فيهما كل ما دل على النجابة والذكاء فانتظم في الجند الفرنساوي للتمرن عملاً بمقتضى قوانين تلك المدرسة حتى توفي المغفور له ابراهيم باشا ووالده محمد علي باشا سنة ١٨٤٩ فلما تولى المرحوم عباس باشا حلمي الاول استرجع الرسالة المصرية فرجع صاحب الترجمة وقد نال رتبة يوز باشي اركان حرب في الجيش

الفرنساوي وألحق بالجيش المصري ولقب من ذلك الحين بالفرنساوي وما زال معروفاً بين عامة المصريين بشريف باشا الفرنساوي الى هذه الغاية

وكان أعظم قواد الجنود المصرية اذ ذاك سليمان باشا الفرنساوي (راجع ترجمته صفحة ١٤٤) فلما رجع صاحب الترجمة من فرنسا كما تقدم ألحق باركان حرب سليمان باشا وتقرب منه حتى تمكنت علائق المودة بينهما كثيراً وبقي في الجيش



ش ٦١ : محمد شريف باشا

المصري الى سنة ١٨٥٢ فلما رأى انه لم يرتق عن رتبته التي جاء بها من فرنسا اعتزل العسكرية ودخل في خدمة البرنس حليم باشا بوظيفة كاتب يده الى سنة ١٨٥٣ فلما توفي المرحوم عباس باشا الاول استقدمه خلفه سعيد باشا وانعم عليه بما كان يستحقه من الالتفات ورقاه الى رتبة اميرالاي لحرسه الخصوصي وبعد سنتين منحه رتبة لوا .

أما علاقته مع سليمان باشا فكانت لا تزال ودية حتى تصاهرا فتزوج صاحب الترجمة بابنة سليمان باشا وأخذت مواهبه بالظهور من ذلك الحين فاشتهر بالحزم والعفة والاستقامة. فرأى المرحوم سعيد باشا ان الادارة أحوج اليه من العسكرية فعينه ناظراً للخارجية سنة ١٨٥٧ فلما توفي سعيد باشا سنة ١٨٦٣ خلفه اسماعيل باشا فعينه ناظراً للداخلية مع بقائه على الخارجية نظراً لما كان له من المنزلة الرفيعة في عينيه فقام بما عهد اليه أحسن قيام وأظهر من الغيرة الوطنية والاخلاص في خدمة الديار المصرية ما زاد مولاه ثقة فيه حتى ولاه سنة ١٨٦٥ النيابة الخديوية أثناء غيابه في الاستانة العلية

ولما عاد اسماعيل باشا من الاستانة قلده نظارة المعارف مع نظارة الخارجية ثم رئاسة مجلسه الخصوصي سنة ١٨٦٧ ثم مناصب أخرى حتى لم يبق منصب من المناصب المصرية الرفيعة إلا تقلده بين داخلية وخارجية وحقانية ورئاسة مجلس النظار وغيرها في أيامه وأيام الخديوي الاسبق المرحوم محمد توفيق باشا

وكان صاحب الترجمة معروفاً بين الاهالي بالوطنية الخالصة حتى أن الاحزاب العرابية الذين قاموا بالدعوة الوطنية ولم يثقوا بأحد من وزراء مصر تقريباً ولم يرضوا سواه لتولي رئاسة مجلس النظار يوم حادثة عابدين الشهيرة وقد تردد زمناً في قبولها لما كانت فيه البلاد من الاضطراب ولكنه قبل بها غيرة على الامن العام. وهو الذي أسس مجلس النواب المصري مراعاة للامر الخديوي ولرغبة الاحزاب الوطنية اذ ذاك ولما اشتدت الازمة العرابية تنحى عن الوزارة ثم عاد اليها بعد تدمير الاسكندرية وبقي فيها الى عام ١٨٨٤ فتنحى عنها ولم يعد يتولاها ولا سواها من مناصب الحكومة

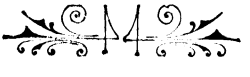
وتنحيه هذا جاء مؤيداً لاخلاصه للوطن المصري وصدق طويته وعزة نفسه — وسببه ان المتمهدي السوداني كان قد استفحل امره في الاقطار السودانية البعيدة وافتتح كردفان ودارفور وتهدد الخرطوم وكانت الحكومة المصرية قد بعثت حملة هيكس باشا وبادت عن آخرها فاشارت الحكومة الانكليزية باخلاء السودان وتركها للعصاة فلم يقبل شريف باشا بتلك المشورة بدعوى ان السودان كلفت الحكومة المصرية مالاً ورجالاً منذ افتتحها محمد علي باشا الى ذلك الحين وهي مصدر ثروة تجاري للقطر المصري فضلاً عما يتهدد مصر من الخطر بسبب اخلائها الى غير ذلك من الادلة القاطعة ولكن الانكليز اصروا على مشورتهم وطالت المخابرات بين مصر ولوندره وهو لم يتحول عن رأيه. ولما رأى من الحكومة المصرية ميلاً لموافقة الحكومة الانكليزية تنحى عن الوزارة حتى لا يكون هو المؤذن باخلاء تلك الاقطار

ولكي لا يجري عملاً غير مطابق لما يناجيه به ضميره . ومن تتبع الحوادث المصرية السودانية من وزارة شريف باشا الاخيرة الى الان يتحقق صواب رأيه وأفضلية استبقاء الاصقاع السودانية تحت كنف الحكومة المصرية ولكن حكم القضاء ونفذ المقدر

وبقي رحمه الله معتزلا الاعمال الادارية منقطعاً الى الدرس والمطالعة حتى أصيب بداء الكبد في أوائل سنة ١٨٨٧ م فاشار عليه الاطباء بتغيير الهواء فسافر الى الاقطار الاوربية ولم يكد يصل مدينة غرانس من أعمال النمسا حتى فاجأه المنون فتوفاه الله عن ٦٤ عاماً . ولما بلغ الحكومة الخديوية أمرت باقبال الدواوين يوماً كاملاً حداداً عليه وبعث رئيس النظار رسالة برقية الى ابن الفقيد يقول فيها « اننا اسفنا على الفقيد بقدر حبنا له »

وجيء بجثته الى القاهرة في ٢٧ افريل (نيسان) من تلك السنة ودفن بالتجلة والاكرام والناس يتأسفون على فقده ويستمطرون عليه الرحمة والرضوان

وكان شريف باشا حسن الخلق والخلق مهيباً جليلاً ممتلىء البدن طويل القامة تظهر في عينيه وجبينه ملامح الذكاء وحدة الذهن وكان متمكناً من اكثر العلوم العصرية وخصوصياً علم الفلك حليم الطبع لين العريكة وقد اجمع المصريون على ولائه ونال من انعام الحكومة الخديوية والحضرة الشاهانية وسائر الدول العظام من الرتب والنياشين ما تتحلى به صدور الرجال وتفتخر بنيله كرام الانام رحمه الله وتغمده برحمته ورضوانه



رستم باشا

ولد سنة ١٨٠٦ وتوفي سنة ١٨٩٥

هو الوزير العثماني الشهير سفير الدولة العلية في لندرا مؤخراً واصله ايطالي ولد سنة ١٨٠٦ من عائلة كونتية عريقة في الحسب والنسب ولكنه انتظم في خدمة الدولة العلية وتخلق باخلاق رجالها واتقن لغتهم فضلا عن لغته ولغات اخرى كما فعل كثير من خدمة الدولة العلية من الاوربيين وكانوا غالباً اذا انتظموا في سلك خدمتها اعتنقوا الاسلام . اما رستم باشا فبقي على مذهب آبائه وهو النصرانية وكان منذ نعومة اظفاره جريئاً مقداماً حاد الذهن ذكياً فما لبث ان انتظم في خدمتها حتى أخذ يرتقي ويتقلب في المناصب حتى تعين سفيراً للدولة العلية في ايطاليا على عهد ملكها فيكتور عمانوئيل الثاني وما زال في ذلك المنصب الى سنة ١٨٧٣ فاستقدمه الباب العالي ليتولى متصرفية لبنان

وكل الجبل قد حال بين احكامه والعدل نفوذ ذوي الوجاهة والرئاسة وخصوصاً طائفة الاكليروس وكان رستم باشا لحزمه وصرامته يتوخى القسط ولا يقبل الوساطة فشق ذلك على بعض جماعة الاكليروس وحاولوا استخدام نفوذهم فلم يروا منه الا البقاء على عزمه فنتج عن ذلك نفور بينه وبين جماعة منهم . وتمكن النفور حتى آل الى حكمه على المطران بطرس البستاني بالنفي الى القدس سنة ١٨٧٩ بواسطة قنصل فرنسا لنفور موقت كان بينهما . والمطران المشار اليه من ذوي الرأي والوجاهة والكلمة النافذة في الطائفة المارونية فتزعزعت اركان لبنان واشتدت الازمة فاعادت فرنسا النظر في الامر فتحققت خطأ فنصلها فعزلته ووافقت الدولة العلية على اعادة المطران الى كرسيه . على ان هذا الحادث كان عبرة لسائر الاحزاب والعصب في لبنان فسارت الاحكام على ما يرام من العدالة والقسط وساد الامن وعرف كل ذي حق حقه

ويقول المدافعون عن المطران بطرس ان سبب النفرة بينه وبين رستم باشا ذود المطران عن حقوق منحتها الدولة العلية لمواطنيه فاغرى رستم باشا ان تقويض نظام لبنان واثقال كاهله بضرائب جديدة يكسبانه رضاء الباب العالي ولعلمه انه لا يستطيع التسلط على أعضاء الادارة والمطران على يمينه سعى في ابعاده

وبقي رستم باشا في ولايته هذه عشر سنوات ولا يزال أهل الشام كافة وخصوصاً اهل لبنان يتذكرون حكمه وعدالته وقد شهد عقلاؤهم على اختلاف أغراضهم ونزعاتهم ان ولايته على لبنان خطت به خطوة كبرى نحو الاصلاح والتمدن . وفي سنة ١٨٨٣

عند انتهاء المدة المعينة لحكمه ابدل بالمرحوم واصه باشا فتوفي سنة ١٨٩٢ فخلفه دولتلو نعوم باشا ثم ابدل سنة ١٩٠٢ بمظفر باشا

اما رستم باشا فتعين سفيراً للدولة العلية في لندرا وهي أخطر سفاراتها وذلك دليل على ثقة الدولة به وما زال هناك حتى توفاه الله سنة ١٨٩٥ وله من العمر زهاء تسعين سنة ولم يخلف عقباً



ش ٦٢ ـ رستم باشا

وكان ربعاً نحيفاً سريع الحركة حاد العينين والذهن صارماً حرًّا وقد نال بسبب ذلك شهرة كبرى لدى رجال اوربا حتى صرح اللورد سالسبوري وهو يذكر وفاته ان موته ماتت رجال الدولة العثمانية كانه يريد انه فريد في الدولة وهو قول لا يخلو من المبالغة ولكنه يدل على منزلة هذا الرجل عند قهارمة السياسة في اوربا

نوبار باشا

احد وزراء مصر العظام

ولد سنة ١٨٢٥ وتوفي سنة ١٨٩٩

امتازت مصر عن سائر ممالك الارض بتعدد الجنسيات واختلاط اهلها بسائر اصناف الناس . وقد خدم حكومتها رجال من امم شتى وفيهم الفرنساويون والانكليز والالمان وغيرهم من امم اوربا . والاتراك والارناؤوط والارمن والشركس والسوريون وغيرهم من رعايا الدولة العلية

وقد تناوب رئاسة وزارتها من أول عهد العائلة الخديوية الى أمد غير بعيد ثلاثة من كبار الوزراء اثنان تركيان هما المرحوم شريف باشا وصاحب الدولة رياض باشا وواحد أرمني هو نوبار باشا صاحب الترجمة . وقد اشتهر الارمن بالاقدام وعلو الهمة والذكاء والثبات وقضت عليهم بيئتهم بالاغتراب وتجشم الاسفار التماساً للرزق بعرق الجبين والصبر والمواظبة فلم يعدموا حيثما حلوا نصيباً حسناً من ثمار أتعابهم . فنبغ بينهم رجال اشتهروا بالسياسة وآخرون بالثروة ومنهم في الاستانة جماعة كبيرة من أهل اليسار وجاء بعضهم مصر على عهد المغفور له محمد علي باشا فتولوا أعظم المناصب الادارية وخدموا الحكومة المصرية خدمات تستحق الاعتبار . اشهرهم بوغوص بك وارتين بك ونوبار باشا

ولد نوبار باشا في ازمير من اعمال آسيا الصغرى سنة ١٨٢٥ وتلقى العلم في مدارس سويسرا ثم فرنسا فخرج من المدرسة وهو في السابعة عشرة من عمره ونفسه تتطلب المعالي فقدم الديار المصرية سنة ١٨٤١ وقد حبب اليه الاقامة فيها بوغوص بك وكان ناظراً للتجارة والامور الخارجية فيها على عهد المغفور له محمد علي باشا وكان من ذوي قرابته فقدمه الى محمد علي فعينه سكرتيراً للامور الاجنبية ثم صار سنة ١٨٤٤ سكرتيراً ثانياً ومترجماً في مجلس محمد علي . ولم يمض قليل حتى ظهرت نجابته وعرف قدره فارتقى الى رتبة سكرتير أول ومترجم للمغفور له ابراهيم باشا . ولما شخص هذا القائد العظيم الى أوربا لتبديل الهواء سنة ١٨٤٥ سار نوبار في معيته وشهد ما لاقاه ابراهيم هناك من الحفاوة والاكرام

وفي سنة ١٨٤٨ توفي محمد علي وابراهيم وارتقى عباس باشا الاول الى منصة الاحكام فادخل نوبار في خدمته كما كان عند عمه ابراهيم ورقاه الى الرتبة الثانية مع لقب بك وحدث خلاف يتعلق بحقوق ورثة الاريكة المصرية فانفذه عباس باشا الى

لندرا سنة ١٨٥٠ لاثبات تلك الحقوق فعاد منها ظافراً فعرف عباس باشا له ذلك فلم يصبر عن مكافأته فسماه وزيراً وهو في فينا . وما زال في هذا المنصب حتى توفي هذا الوالي سنة ١٨٥٤ وتولى عمه سعيد فاسرع هذا الى خلعه . ولم يمض سنتان حتى استقدمه وعهد اليه انشاء مصلحة تتولى شؤون البضائع الصادرة الى الهند فقام بتلك المهمة قياماً دل على ذكائه وحكمته

فلما تولى اسماعيل باشا الخديوي الاسبق سنة ١٨٦٣ انتدبه للمسير الى الاستانة لهذا الشأن وللمفاوضة بأمور اخرى هامة . فلما عاد انعم عليه اسماعيل باشا



ش ٦٣ : نوبار باشا

بالرتبة المتمايزة وبعد قليل نال رتبة اللواء من السلطان عبد العزيز أثناء مروره بالاسكندرية في سياحته الى أوربا . ولم يزدد اسماعيل باشا الا ثقة في نوبار واعتماداً عليه فلما نشأت مشكلة قنال السويس بين الحكومة المصرية وشركة القنال سنة ١٨٦٤ عهد اليه السعي في حلها فسوّى ذلك على أسلوب رضي به الفريقان . فعينه اسماعيل

باشا عند عودته ناظراً للاشغال العمومية . وفي سنة ١٨٦٦ وكل اليه وزارة الخارجية

وفي السنة التالية دارت المخابرات بين الباب العالي واسماعيل باشا بشأن وراثة الحكم وكانت لا تزال في أكبر أعضاء العائلة واسماعيل يريد حصرها في نسله فانفذ نوبار باشا الى الاستانة لتسوية ذلك فعاد اليه بالفرمان القاضي بترقيته الى رتبة الخديوية مع توسيع دائرة استقلاله وحصر الحكومة في نسله

وفي تلك السنة شخص نوبار باشا الى أوربا مندوباً مفوضاً من اسماعيل باشا لمخابرة الدول العظمى في انشاء محاكم مختلطة تقوم مقام المحاكم القنصلية التي كانت مرجع محاكمة الاجانب في ذلك الحين فقضى في سعيه هذا سبع سنوات يتردد في اثنائها بين ممالك أوربا ويفاوض عظماءها وملوكها والخزينة المصرية مفتوحة بين يديه فانفق أموالا طائلة ولكنه عاد ظافراً غانماً . وكان قد عهد اليه سنة ١٨٦٧ ايضاً النيابة عن الحكومة المصرية في مؤتمر النقود في باريس فحضره

ولما قضى مهمته في انشاء المحاكم المختلطة عام ١٨٧٤ اعتزل الاعمال مدة ثم عاد اليها وأصاب مصر في أثناء ذلك ازمة مالية مما تراكم عليها من الديون لما أتاه اسماعيل من النفقات في سبيل عمارة القاهرة وغيرها كما هو مشهور حتى افضى الامر الى مراقبة الدول والسعي في غل يديه وضبط الميزانية والاقتصاد فيها ورأت الدول أن تقيد حكومته بالشورى فاقترحت عليه تشكيل مجلس النظار على ما هو عليه الان فلم ير اسماعيل خيراً من نوبار لتشكيل ذلك المجلس فاستقدمه اليه وكلفه بذلك سنة ١٨٧٨ فألفه وجعل في جملة أعضائه عضوين اجنبيين احدهما انكليزي وهو المستر ولسن والآخر فرنساوي وهو المسيو دي بليفير راقبان سير الاعمال بالنيابة عن انكلترا وفرنسا . ولكن ذلك لم يكن ليرضي اسماعيل باشا فلم تمض على تلك الوزارة الشورية سبعة أشهر حتى حلها اسماعيل فحدثت ثورة عسكرية نسبها الى الوزيرين الاجنبيين وحمل نوبار على خلعهما الباقي تبعة الامر عليه فاستعفى نوبار وكان ما كان على أثر ذلك من تداخل الدول في خلع الخديوي فصدر الامر الشاهاني في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ بخلع اسماعيل باشا وتولية نجله المغفور له توفيق باشا الخديوي الاسبق وسافر نوبار باشا من مصر . على انه كان يتردد اليها حيناً بعد آخر فحدثت الثورة العرابية وعقبتها الحوادث السودانية فظهر المهدي وفتح كردوفان ونوبار باشا معتزل الاعمال مشتغل بأحواله الشخصية . ثم استفحل أمر المهدي وأشارت انكلترا على الحكومة المصرية سنة ١٨٨٤ باخلاء السودان والتخلي عنه للدراويش وكانت الوزارة المصرية اذ ذاك برئاسة المرحوم الطيب الذكر شريف باشا فلم يوافق انكلترا على مشورتها فالحت عليه فضل

الاستقالة على ركوب ذلك الخطأ فاستقدم الخديوي نوبار باشا وعهد اليه تشكيل وزارة جديدة فشكلها وتولى هو أيضاً نظارة الخارجية ووافق انكلترا على اخلاء السودان . وما زال في ذلك المنصب الى ٧ يونيو سنة ١٨٨٨ فاستقال منه وانقطع الى خصوصياته حتى أصابه المرض الاخير فسافر الى اوربا للاستشفاء فادركه القدر المحتوم هناك فنقلت جثته الى مصر ودفنت فيها بما لاق بمقامه من الاكرام والوقار

فترى مما تقدم ان صاحب الترجمة خدم الحكومة المصرية خدمات ذات بال فعاصر كل ولاتها من محمد علي باشا الى الخديوي السابق عباس باشا الثاني وهو يعمل بنشاط وحكمة فلم يقم فيها مشروع عظيم الا كانت له فيه باع طولى . وقد نال من رتب الدولة العلية الى رتبة المشيرية وحاز نياشين شتى منها ونيشان اوفيسيه دي لجيون دونور من الحكومة الفرنساوية وغير ذلك

وكان رحمه الله ذكياً حازماً حسن السياسة لين العريكة وقد أحرز ثروة طائلة وهو يعد من أغنى سكان وادي النيل . وكان كريماً غيوراً على مصلحة ابناء جلدته فنال الارمن في ايام وزارته مساعدات كثيرة بذل لهم فيها المال الكثير

جواد باشا

ولد سنة ١٢٦٧ هـ وتوفي سنة ١٣١٨ هـ

هو نجل المرحوم مصطفى عاصم بك من أعضاء دار الشورى العسكرية المعروف بقبا اغاجلي وأصله من بلدة قره حصار . ولد صاحب الترجمة في دمشق الشام سنة ١٢٦٥ (رومية) الموافق ١٢٦٧ للهجرة . فسماه والده « احمد جواد » ليدل جمله على سنة ولادته . وتلقى مبادىء العلم في مدارس بورصة واتمه في الاستانة ونال الشهادة العسكرية الرسمية واتقن اللغتين التركية والفرنساوية مع مبادىء اللسان العربي

تخرج من المدرسة وفيه ميل شديد الى خدمة العلم فالف كتابين احدهما «المعلومات الكافية في الممالك العثمانية» والاخر « تاريخ عسكري عثماني » ثم انشأ مجلة سماها « بادكار » أي « تذكار » أصدر منها ٢٤ عدداً فقط . وترجم رسالة في علم الهيئة الى اللغة التركية سماها (سماء) وأخرى في تطبيق الصناعة على الكيمياء وأخرى في المباحث الرياضية الدقيقة . وشرع في تأليف تاريخ مطول للدولة العثمانية لكنه مات قبل اتمامه

فترى مما تقدم أن الفقيد فطر على حب العلم فجبل الاشتغال فيه باكورة أعماله ولكن الاحوال قضت عليه بعد ذلك بالتحول الى السياسة والادارة فانتظم في خدمة الحضرة الشاهانية وارتقى فيها حتى صار من القرناء برتبة بكباشي سنة ١٢٨٩ هـ ثم عين أستاذاً للرياضيات في المكتب الهندسي الملكي ثم مأموراً في الفيلق الخامس في دمشق الشام مسقط رأسه . ويذكرون من مآثره في تلك الخدمة انه بنى ثكنة عسكرية في جبل الدروز فكوفىء بزيادة راتبه . وما زال في ذلك الفيلق حتى انتشبت الحرب في السرب فنقل الى جند الطونة رئيساً لاركان حرب عزيز باشا وهناك ارتقى الى رتبة قائمقام سنة ١٢٩٣ هـ ثم صار رئيساً لاركان حرب نجيب باشا ثم ارتقى الى رتبة أميرالاي وتنقل في عدة قومندانيات تولى رئاسة أركان حربها في تلك الاثناء . وشهد مواقع ستان كوي وفانسلوي وعين بعد عقد الصلح مندوباً ثانياً لتحديد تخوم السرب بمكافأة شهرية مقدارها ٢٥٠٠ قرش فوق راتبه الاصلي ثم صار مندوباً أول ولما انتهت مهمة الحدود أنعم عليه ملك السرب بنيشان طاقوا من الدرجة الثالثة

ولما توجه المشير مختار باشا الغازي لتحديد تخوم اليونان صحبه جواد باشا . ثم تعين على تخوم الروس من جهة الاناطول وانتهى أخيراً الى تخوم بايزيد واحسنت عليه

الدولة العلية اذ ذاك بالنشان العثماني الثالث وأهداه القيصر نشان القديسة حنة من الدرجة الثانية

وما زال يرتقي من منصب الى آخر في الاستانة وفي الجبل الاسود وتتوالى عليه الانعام والنياشين والرتب حتى صار سنة ١٣٠٦ هـ فريقاً . وكان عضواً في لجنة التفتيش العسكري فانتقل الى رئاسة أركان حرب جزيرة كريد ثم صار وكيلاً لها ثم تعين والياً على كريد وأحسن اليه بالمدالية الذهبية . وفي سنة ١٣٠٨ هـ ارتقى الى رتبة المشيرية وصار راتبه ٣٢٥٠٠ وفي السنة التالية وجه اليه مسند الصدارة العظمى وأنعم عليه



ش ٦٤ : جواد باشا

بالنيشان المرصع العثماني ولقب بياور اكرم. ثم أهدي اليه النيشان المجيدي المرصع وتقلد مدالية اللياقة الذهبية فنشان الافتخار المرصع فمدالية الصنائع النفيسة فنشان الامتياز المرصع

وتوالت عليه الوسامات من الدول الاجنبية غير ما تقدم . فنال من ملك السرب نشان طاقوا من الدرجة الاولى ومن حضرة البابا نشان بي نوف الاول ومن امبراطور المانيا نشان النسر الاحمر المرصع ومن جمهورية فرنسا نشان اللجيون دونور الاول ومن شاه ايران نشان شير خورشيد المرصع ومن ملكة اسبانيا نشان الصليب الاول فضلاً عن مداليات الجمعيات العلمية وغيرها



ش ٦٥ : مختار باشا الغازي

وفي أواخر سنة ١٣١٢ فصل من الصدارة العظمى وتقلب في مناصب مختلفة إلى في كريد وانتدب سنة ١٣١٤ لاستقبال امبراطور المانيا اثناء زيارته فلسطين وتعين على أثر ذلك مشيراً للفيلق الهمايوني الخامس بدمشق وما زال في هذا المنصب حتى اعتل مزاجه فانتقل الى الاستانة قضى فيها بضعة ايام ثم وافاه الاجل المحتوم

احمد عرابي المصري

ولد سنة ١٢٥٧ هـ ونفي سنة ١٣٠٠ هـ وعاد من منفاه سنة ١٣١٩ هـ

نشرنا ترجمة هذا الرجل مراراً في تاريخ مصر الحديث وفي الهلال ثم كتب هو الينا ترجمة حياته بخط يده فآثرنا نشرها دون سواها ومن أراد زيادة التفصيل فليراجع الحوادث العرابية في كتابنا تاريخ مصر الحديث وفي أهلة السنة الخامسة والسنة التاسعة وأما ما يقوله احمد عرابي عن نفسه فهو :

﴿ نشأتي الاولى ﴾ ولدت في ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هـ من أبوين شريفين من ذرية العارف بالله السيد صالح البلاسي البطائحي ومقامه الشريف بقرية فاقوس بمديرية الشرقية وهو اول من قدم الى بلاد مصر من بلاد البطائح بالعراق في أواسط القرن السابع للهجرة وهو من ذرية الامام علي الرضا بن الامام موسى الكاظم من سلالة الامام الحسين بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء البتول بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم . واسم والدي محمد عرابي بن السيد محمد وفى بن السيد محمد غنيم بن السيد ابراهيم بن السيد عبد الله الى آخر السلسلة الشريفة . واسم والدتي فاطمة بنت السيد سليمان بن السيد زيد تجتمع مع والدي في جدي الثالث عشر المسمى ابراهيم مقلد رحمه الله تعالى . ومولدي كان بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقي بندر الزقازيق وهي بلدة قديمة جداً من ضواحي مدينة بوباسطة كرسي مملكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق بن نمرود التي يقال لها الان (تل بسطة) . وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها وكان والدي رحمه الله تعالى شيخاً عليها الى ان توفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ في زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة واربعة أولاد وست بنات . وكنت ثاني أولاده الذكور وسني ٨ سنوات وترك لنا ٧٤ فداناً ولو شاء لاستكثر من الاطيان الزراعية ولكنه كان رحمه الله تعالى يراعي صالح ابناء عمومته حيث ان اطيان القرية كغيرها كانت مكلفة باسماء المشايخ يوزعونها بمعرفتهم على اهل بلادهم بحسب الاحتياج الى عهد المغفور له عباس باشا الاول وهو اول من كلف الاطيان باسماء الافراد والزمهم بدفع خراجها وما زاد عنهم يترك للميري ويسمونه المتروك. وكان والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان عالماً فاضلاً تقياً نقياً اقام بالجامع الازهر ٢٠ سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع في كثير من العلوم النقلية والعقلية على كثير من المشائخ كشيخ الاسلام القويسني رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار — ولما آلت اليه وظيفة

الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية المذكورة وفيه أربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة وانشأ بجوار المسجد مكتباً لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيهاً صالحاً عالماً يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزازي والزم الاهالي بتعليم أولادهم وكان رحمه الله يشدد عليهم في ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعرف واجباته الدينية ومنهم نحو مائة وخمسين فقيهاً عالماً ومنهم المرحوم الشيخ



ش ٦٦ ـ احمد عرابي المصري

محمد حسين الهراوي من علماء الجامع الازهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصيلحي نفع الله به المسلمين . فلما بلغ سني ٥ سنوات أرسلني والدي الى المكتب المذكور . فاقمت فيه ثلاثة أعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمري اذ ذاك ثماني سنين وبضعة شهور . فلما توفي والدي كلفني أخي الاكبر المرحوم السيد محمد عرابي الذي توفي في ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى واخذت عنه مبادئ علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة بعض أشغال الزراعة ثم بدا لي المجاورة في الازهر حين بلغت اثني عشر عاماً فكنت أجود القرآن على أقاربي وأهل بلدي نهاراً وأتوجه الى بيت عمتي ليلا

وتلقيت شيئاً قليلاً من الفقه والنحو وبعد سنتين رجعت الى بلدي

﴿ سعيد باشا ﴾ وكان المرحوم سعيد باشا عليه سحائب الرحمة والرضوان قد تولى الحكومة الخديوية في ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ وأمر بدخول اولاد مشايخ البلاد وأقاربهم في العسكرية فدخلت من ضمنهم وانتظمت في سلك الاورطة السعيدية المصرية بقناطر فم البحر في شهر ربيع اول عام ١٢٧١ وجعلت فيها وكيل بلوك أمين من أول يوم صار انتظامي في سلك العسكرية بعد امتحاني بحضور ابراهيم بك امير الالاي وحسن افندي الالفي حكيم الالاي ثم ترقيت الى رتبة بلوك امين في شهر رجب من السنة المذكورة بعد اعادة الامتحان مع الطالبين لذلك من غير واسطة احد غير الجد والاجتهاد . وبعد عام نظرت فرأيت بعض الباشجاويشية المصريين ترقى الى رتبة الملازم الثاني وعلمت ان البلوك امين لا يرتقي الا الى رتبة الصول قول اغاسي وفيها يفنى عمره . فجزعت من ذلك وذهبت الى امير الالاي وطلبت منه ترتيبي في رتبة جاويش في اورطة كانت افرزت لارسالها الى مدينة المنصورة فسألني الاميرالاي المذكور عن سبب ذلك حيث ان راتب الجاويش اقل ١٠ قروش من راتب البلوك امين وان كانت الرتبتان متساويتين فافصحت له عما خالج فكري واني اذا صرت جاويشاً سهل عليَّ الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط . فعجب لذلك الخاطر وأمر في الحال بجعلي جاويشاً فمكثت في هذه الرتبة سنتين وفي تلك المدة حبب اليَّ الاعتزال عن الناس والاشتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التدبير في معانيها حتى اتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة وبعض فصول من تعليم الالاي . وفي اوائل عام ١٢٧٤ امر سعادة راتب باشا بجمع صف ضباط فاجتمعنا حوله في فسحة قصر النيل وبلغنا ارادة المرحوم سعيد باشا وقال — ان افنديتا بلغه انكم تقولون في ما بينكم كيف يصير ترقي الصف الضباط الجدد وتأخير من هو اقدم منهم في الرتب وانه أمر أن لا يترقى أحد بعد الان الا بعد الامتحان علماً وعملاً فمن فاق اقرانه في الامتحان ترقى الى الرتبة التي يستحقها ولو لم يلبث في رتبته الاولى غير شهر واحد فمن أراد منكم الامتحان فليتقدم الى الامام . فعند ذلك تقدمت امام سعادته وأحجم الآخرون خوفاً وهلعاً ظناً منهم انه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك . ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين في الامتحان نحو ٣٠ شخصاً فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسمعيل باشا الفريق فكنت اول فائز في الامتحان . ثم صار جميع الضباط والصف ضباط بمعرفة سعادة راتب باشا الذي كان وقتئذ اميرالاي وصار طلبي امام الجميع ووضع في صدري نيشان الباشجاويش واعلن

ترقيتي الى هذه الرتبة . وبعد عام أي في أول عام ١٢٧٥ صار امتحان الباشجاويشية بحضور سعادة راتب باشا ايضاً والمرحوم اسمعيل سليم باشا الفريق فكنت الفائز الاول وترقيت الى رتبة الملازم ثاني التي كنت أدأب في الحصول عليها منذ البدء . ثم بعد سبعة اشهر صار امتحان الضباط في القصر العالي فكنت اول فائز فيه وكتب اسمي في أول جدول الامتحان . ولما عرض الجدول على ساكن الجنان سعيد باشا أمر باعادة امتحاني وانتدب لذلك المرحوم سليمان باشا الفرنساوي رئيس رجال العسكرية . فطلبت ثانياً الى الامتحان وكان يوماً مشهوداً وبعد الامتحان التمس سليمان باشا المشار اليه خروج الخديوي المرحوم الى ميدان الامام الشافعي رضي الله عنه وهناك يصير امتحاني في الميدان باورطة من العساكر بحضرته الخديوية . فسأله الخديوي عما يقصده بذلك فقال انه مستحق لرتبة الميرالاي لان الذين ترقوا الى هذه الرتبة من المدارس الحربية لم يقروا في أجوبتهم مثله . فقال الخديوي رحمه الله تعالى لا يمكن ذلك . فقال له يحسن اليه على الاقل برتبة بكباشي فابى عليه ذلك وقال يلزم ان يتدرج في كل رتبة ليعرف واجباتها واحسن الي برتبة ملازم اول وامر باعتبار جدول هذا الامتحان وان يكون الترقي على مقتضاه بدون تجديد امتحان لمدة مجهولة وقبل مضي شهرين أحسن علي برتبة يوزباشي والتحقت بمعيته . وفي اوائل سنة ١٢٧٦ ترقيت الى رتبة صاغقول اغاسي في بني سويف

وبعد العودة الى مصر صار ختان المرحوم الطيب الذكر طوسن باشا النجل الوحيد للمرحوم سعيد باشا فأولم المرحوم الخديوي وليمة شائقة دعى اليها جميع اعضاء العائلة الخديوية في قبة عظيمة حضرها جميع الضباط والذوات وغيرهم من الاجانب وبعد الطعام انتصب الخديوي رحمه الله تعالى قائماً وقال خطبة ارتجالية ذكر فيها « ان من أمعن النظر في تاريخ بلادنا هذه وتوالى حوادثها المحزنة لا يسعه غير الاسف والتعجب كيف توالت الامم الاجنبية على اهلها وهم يظلمون سكانها كالكلدانيين والفرس قبل الاسلام والترك والاكراد والشركس وغيرهم بعد الاسلام وكلهم يفسدون ولا يصلحون واني عزمت على تثقيف ابناء البلاد وتهذيبهم وترقيتهم حتى تكون حكومة البلاد بايديهم بصفة كوني مصرياً منهم وبالله الاستعانة » — فوقع هذا الخطاب على من حضر من غير المصريين وقوع الصواعق وتهللت وجوه المصريين وشكروا ودعوا وانقضت الحفلة . ثم في اواخر سنة ١٢٧٦ ترقيت الى رتبة بكباشي وفي اوائل عام ١٢٧٧ احسن الي برتبة القائمقام الرفيعة كما احسن بها على السيد محمد باشا النادي وعلى المرحوم راشد باشا راتب الذي استشهد بحرب الحبشة في عام ١٢٩٣ وعلى المرحوم

عثمان باشا رفقي الذي صار ناظراً للجهادية قبل الثورة الوطنية . فكنا اربعة قائمقامات اثنين مصريين واثنين شركسيين وكل منا استلم قيادة الاي بيادة . وفي السنة المذكورة سافرت بمعية المرحوم سعيد باشا الى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام برتبة القائم مقام كما ذكرتم ذلك في كتابكم « تاريخ مصر الحديث »

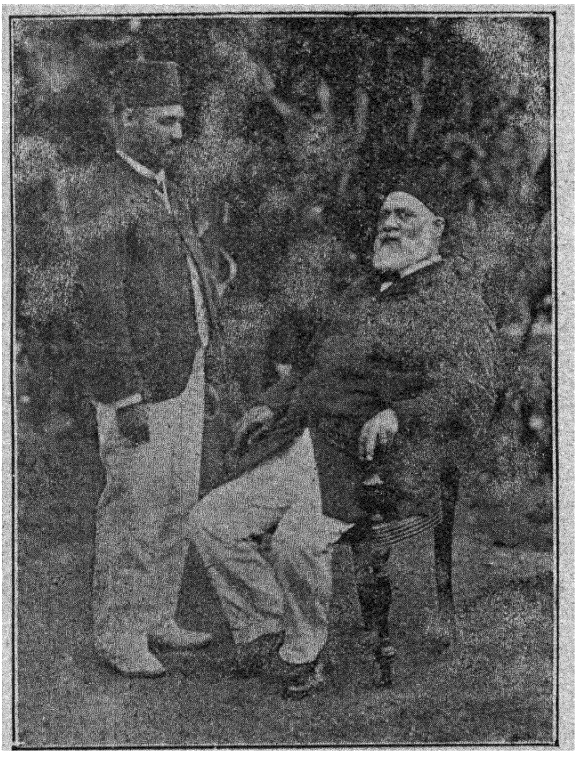
وفي عام ١٢٧٨ رأى سعيد باشا ان الحكومة سقطت في دين يبلغ مقداره ٦ ملايين جنيه مصري وذلك يساوي ايراد الحكومة في ذاك الوقت سنة كاملة تقريباً وكان ذلك المبلغ ثمن اسلحة ومهمات حربية وملبوسات وذخائر عسكرية موصى عليها في معامل اوربا وردت بعد وفاته رحمه الله تعالى . فامر برفت جميع الالايات وأبقى أورطة واحدة كان فيها يوزباشي سعادة مصطفى فهمي باشا رئيس النظار الآن وعلي فهمي باشا الذي نفي معنا الى سيلان . وامر باستيداع الضباط بالمحافظات والمديريات على حسب رغبتهم ومن له بلد يتوجه الى بلده ويصرف لهم نصف مرتباتهم في مدة استيداعهم وامر أن تضاف مرتباتهم على الاطيان موقتاً ريثما يتم تسديد الدين . فخص الفدان الواحد ٥٠ فضة أي قرش واحد وربع . وقد حصل ذلك فعلاً ثم صار بيع الخيول ومأكولات العساكر ومفروشاتها وكانت من البوسطى وغيرها وكذا الفضيات الموجودة في خزائن الامتعة والمسافرخانات وكذا الفوريقات الموجودة في جميع القطر المصري والاطيان المتروكة في كل المديريات كل ذلك رجاء تسديد الدين

وفي أوائل عام ١٢٧٩ سافر المرحوم سعيد باشا الى اوربا لمعالجة نفسه من داء السرطان وكان بمعيته المرحوم محمد علي باشا الحكيم المصري الذي استشهد في حرب الحبشة عام ١٢٩٣ فصدر امره الكريم الى قائمقام خديوي فخامة اسماعيل باشا الخديوي الاسبق بطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم واقامتهم في قصر النيل ومداومتهم على التدريس في القوانين العسكرية يقول فيه « ان الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد اشتغلوا بملازمة نسائهم وتركوا دروسهم ولو تركناهم على هذا الحال الذي لا يؤول عليهم منه الا بالوبال لفقدوا العافية والنظر وصاروا عبرة لمن يعتبر. وبما اننا نحن الذين ربيناهم ورقيناهم وأظهرناهم فلا يصح لنا تركهم في هذا الحال الذي ذكرناه فقد اقتضت ارادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكنهم من نسائهم حتى ولا بالنظر اليهن بالعين والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلاً ونهاراً في قصر النيل . » وبناءً على هذه الارادة صار اجتماعنا في قصر النيل . وفي ربيع الاول انتدبتُ لفرز الصف ضباط في الوجه القبلي وتعين معي حكيماً للفرز المرحوم سالم باشا سالم الحكيم وكان برتبة قائمقام ايضاً

وفي ٢٧ رجب من تلك السنة توفي المرحوم سعيد باشا ودفن في الاسكندرية بالمدفن المجاور لمسجد النبي دانيال عليه السلام بعد عودته من اوربا وجلس على الاريكة الخديوية ابن أخيه اسماعيل باشا الخديوي الاسبق وصار ترتيب الالايات فكان ترتيبي قائمقام ٦ جي الاي بياده . وأما سعادة نادي باشا فتعين على الاي جميع ضباطه من المصريين المترقين في زمن سعيد باشا وارسل الى السودان . وحاصل الامر اني دخلت العسكرية نفراً بسيطاً في اوائل سنة ١٢٧١ وبلغت رتبة القائمقام في اواخر عام ١٢٧٧ بجدي واجتهادي وسهر الليل والنهار على حد قول القائل ومن طلب العلى سهر الليالي . ونجح كثير من تلامذتي نجاحاً تاماً حتى كانوا في مقدمة جميع الضابطان في الامتحانات العمومية. وكان السبب في هذا الاجتهاد الغريب الذي فاقوا به المتخرجين من المدارس الحربية وكان اغلبهم اميين رغبة المرحوم سعيد باشا في تقدم ابناء الوطن ومساواتهم لغيرهم كما ذكر ومحبته لهم وانعطافه اليهم ومعاملته للجميع بالعدل والمساواة مع تفقد أحوالهم ومراعاة سيرهم وحسن سلوكهم كانهم اولاده وكفى بالامر الصادر منه وهو في بلاد اوربا في حقهم المذكور آنفاً برهاناً صادقاً على حسن معاملته للوطنيين كانه كان وصية منه عليهم لمن يخلفه . وهذا هو الذي أوغر علينا صدور اخواننا من الترك والشركس وغيرهم . ولقد قال لي مرة رحمه الله تعالى وانا برتبة قائمقام ان جميع الناس عادوني حتى اهلي رجالاً ونساءً بسبب مساواتكم بغيركم فحققوا أملي فيكم . فاجبته « ولكن الله سبحانه وتعالى يرضى عنك والامة المصرية ترضى عنك بمراعاتك للحق والانصاف » هذا وبسبب عدله وقناعته اثرت البلاد في زمنه واخصبت الارض وانتعشت الامة حتى صار الرجل المزارع بعمل يده يحصل له فوق ٢٠ جنيهاً في السنة وهذا ما حفظ مصر من الافلاس في مدة خلفه الذي بلغ دين الحكومة في زمنه ماية الف الف والف الف جنيه كما هو مدون في بطون الدفاتر

﴿ نشأتي الثانية ﴾ ولما تولى الخديوية المرحوم اسماعيل باشا وأمر بانشاء ٦ الايات بياده كنت قائمقاماً في الالاي السادس وكان المرحوم خسرو باشا امير الايا على الالاي الثاني ثم ترقى الى رتبة لوا باشا وكان رحمه الله متعصباً لابناء جنسه تعصباً أعمى وترتب قومندانا على الالاي ٥ و ٦ ولما وجدني وطنياً قحاً عظم عليه وجودي في الالاي وسعى في رفتي من الالاي لاجل اخلاء محلي لترقية احد ابناء المماليك مصطفى افندي سليم بن سليم بك المشهور بالحجازي . ولاجل هذه الغاية صار يترقب الفرص للايقاع بي الى ان صدر امر الجهادية بامتحان الضباط لاجل استكمال النقصان . وبعد ان صار الامتحان وتحررت العرائض للمستحقين وختم عليها من أرباب الامتحان وكنت من

ضمن اعضاء مجلس الامتحان تحت رئاسة الباشا المذكور ارسل لي عريضة احد الملازمين اسمه سيد احمد افندي وطلب اخذ ختمي من عريضته والختم على عريضة ضابط آخر من اورطة مصطفى افندي سليم البكباشي لكونه دائماً يباشر خدمة منزل البكباشي المذكور . فشق عليَّ هذا الامر وتوجهت الى مركز اللوا باشا واخبرته ان يعفيني من الختم على عريضة من لا يستحق. فقال لا بد من الختم لاجل خاطر البكباشي المذكور. فقلت ان هذا ظلم لا افعله واذا كنت تراعي خاطر البكباشي في الظلم فاولى لك ان



ش ٦٧ : احمد عرابي وابنه في حديقته في سيلان

تراعي خاطر رئيسه في العدل . وذكرته بعاقبة هذا الامر اذا تشكى المظلوم الى ديوان الجهادية وطلب امتحانه مع الاخر كما حصل مثل ذلك في زمن المرحوم سعيد باشا وصار عزل جميع اعضاء مجلس الامتحان مع رئيسهم بسبب ظلم نفر مستحق رتبة اونباشي وهي أدنى رتب الصف ضباط . ثم ذكرته بعاقبة الظلم غداً بين يدي العزيز الجبار . فحنق لذلك حنقاً شديداً وذهب الى ناظر الجهادية المرحوم اسماعيل باشا سليم وأخبره اني لا اطيع له امراً ولا اعبأ بأوامر ديوان الجهادية . وناظر الجهادية عرض

للخديوي الاسبق بذلك ثم صدر الامر برفتي من الجهادية بالقول اني قوي الرأس شرس الاخلاق (وما بي والله من شراسة ولـكن جبلني الله سبحانه على حب العدل والانصاف وكره الظلم والاعتساف) فترتب على ذلك رفتي من الخدمة وحرماني من المايتي فـدان التي صدر امر الخديوي بالاحسان بها على كل من القائمقامات الجهادية عقيب مناورة عسكرية حضرها الخديوي وكنت من ضمن من حضرها وكان اصدر ادارة سنية للمديريات بوجه بحري بتسليم تلك الاطيان الى المنعم بها عليهم . فصدرت ارادة سنية ثانية بتوقيف التسليم فيما يخصني وقد حصل . ولـكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون فانتقم بعدله ممن ظلم من غير امهال وذلك انه صدر امر الخـديوي في الاسبوع الذي رفتُّ فيه بالغاء الالاي ٥ و ٦ أي اللواء الثالث وارسل خسرو باشا الى السودان واصيب حسين باشا الطوبجي بالفالج ومحمـد بك أمين القبرصلي بالفالج أيضاً حتى ماتا وامين بك رئيس قلم تركي بديوان الجهادية انتحر بعد تكبيله في الحديد وارساله الى السودان وهكذا كل من اشترك في هـذه المظلمة اصيب بقارعة عظيمة . واما مصطفى سليم المذكور فقد رفت ايضاً واقام في بيته مرفوتاً نحو عشر سنين حتى اذله الله . واما اسماعيل سليم باشا ناظر الجهادية فانه مات في حرب كريد ولـكن ليس شهيداً بل مات بسبب أكلة من فريك القمح فانعقدت أمعاؤه وقضى نحبه وجيء بجثته الى مصر ودفن فيها سامحه الله تعالى . وفي شهر ربيع أول عام ١٢٨٣ عرضت للخديوي بواقعة الحال والتمست انصافه فصدر امره في ١٦ رمضان عام ١٢٨٣ نمرة ١٦ وهاك صورته

« ديوان جهاديه ناظري سعادتلو باشا حضرتلري

٦ جي بياده سابق قائمقامي احمد عرابي بك اشبو عرضحال منظورم اولدي خطاستي عفو ايتمش اولديغمدن حاله مناسب خدمه ظهورنده استخدام ايتدير لمسي حقنده ايجابتي اجراء ايلمكز ايجون اشبو امرم اصدار قلندي »

وحيث ان ناظر الجهادية المذكور كان مساعداً لخسرو باشا كرهت الخدمة في العسكرية وطلبت احالتي على ديوان المالية . وفي التاريخ المذكور صار تعييني محافظاً على بحر مويس وجزء من البحر الاعظم بمديرية الشرقية زمن فيضان النيل بمعرفة المرحوم الشهيد المخنوق في خرائب دنقله اسماعيل باشا صديق . وبعد انقضاء زمن النيل من غير أن يحدث أدنى ضرر في مديرية الشرقية كما حصل من الغرق بقطع نادر وقطع بطره وغيرهما ترتبت مأموراً لتشهيل بناء قناطر فم الاسماعيلية بقصر النيل وتشهيل قطع الاحجار في معامل طره والدقيقة بالعباسية والجبل الاحمر بانبسانين

وشحنها بالمراكب الى القناطر المذكورة والى سد فم الرياح في شبرا والى القناطر الخيرية والى جميع مديريات الوجه البحري وتشهيل مراكب النقل وتفريغها بقناطر الاسماعيلية وسد الرياح في شبرا وكان عملا شاقاً جداً من غير مراعاة الحكومة لاسباب التسهيل . فكنت أتنقل في كل يوم الى المحلات المذكورة على ظهر فرسي أو حماري حتى سنة ١٢٨٥ فانتدبت لتشهيل بناء كبري قشيشه العظيم بمديرية بني سويف وكبري الرقة بمديرية الجيزة وكبري أبو راضي على سكة حديد الفيوم وبعد تمام تلك الاشغال كوفىء غيري بخمسة آلاف جنيه مصري لكوني وفرت عن طلب المقاولين من الاجانب ٢٥ الف جنيه مصري . . . ثم احيل على عهدتي تمديد سكة الحديد من محطة المنيا الى محطة ملاوي وبعد نهوها تصادف جعل المرحوم قاسم باشا فتحي ناظر الجهادية وكان يعرف قدر أعمالي واقتداري فطلبني وكلفني الانتظام في سلك العسكرية ثانية . فاجبته الى ذلك وترتبت قائمقاماً في ٣ جي الاي بياده في أوائل سنة ١٢٨٧ وفي سنة ١٢٨٨ انتقلت الى رئاسة ٢ جي الاي بيادة ولكن برتبة القائمقام . وفي أواخر سنة ١٢٩٠ توجهت بالالاي المذكور برًّا الى رشيد للاقامة فيها وفي ٢٤ شعبان سنة ١٢٩٢ انتدبت الى ترتيب عساكر محافظين للقلاع الحجازية من أهالي تلك الجهات وارسال العساكر النظامية المصرية الى مصر فتوجهت اليها وحيداً فريداً على مصاريف نفسي من أول يوم من شهر رمضان حتى وصلت الى قلعة نخل ورتبت لها العساكر اللازمة للمحافظة عليها وجعلت فيها مكتباً لتعليم ابنائهم القراءة والكتابة ثم ذهبت الى قلاع العقبة والمويلح والوجه وأجريت فيها كما أجريت في قلعة نخل وأرسلت العساكر النظامية الى مصر ثم عدت قافلا بحراً الى بندر القصير ثم برًّا الى قنا وبحراً الى اسيوط وبرًّا الى مصر . ولما عرضت انتهاء مهمتي على ناظر الجهادية فخامة صاحب الدولة حسين باشا كامل قال لي اني لاعتمادي عليك ووثوقي بك قد عينتك مأموراً للحملة الحبشية فاستعد لذلك بعد عشرة ايام . فانتخبت من اعتمد عليهم من الضباط والكتبة وسافرنا جميعاً الى مصوع وبعد انتهاء تلك الحرب المشؤومة عدت الى مصر فامرني دولة المشار اليه أن أعود الى السويس لتشهيل المحضرين من مصوع وزيلع وارسال الذخائر اللازمة لتلك الجهات بدل المرحوم علي غالب باشا حيث انه تعين مديراً لمديرية الدقهلية فذهبت اليها . وبعد انتهاء تلك المأمورية أيضاً عدت الى الالاي الذي بعهدتي برشيد وفي أوائل سنة ١٢٩٦ صدر لنا الامر بحضور الالايات الموجودة برشيد الى مدينة القاهرة وتسليم الاسلحة والمهمات وارسال العساكر الى بلادهم فحضرنا .

وكنا ثلاثة الايات وسلمنا المهمات في يوم وصولنا وفي اليوم الثاني صباحاً ذهبت الى منزل سعادة محمد نادي باشا وكان أمير الاي أحد الالايات المحضرة من رشيد حينذاك فما نشعر الا واحد الضباط اسمه احمد افندي نجم حضر واخبرنا أن تلامذة الحربية وبعض الضباط أحاطوا بالمالية فجاءت العساكر من ١ جي الاي وضربت عليهم بالسلاح فاندهشنا لهذا الخبر المريع وأرسلنا غيره من الضباط ليستكشف الامر ويأتينا بالحقيقة فذهب وعاد وأخبرنا بما صار وبعد يومين صار طلبي وطلب نادي باشا بطرف سر تشريفاتي خديوي سعادة عبد القادر باشا حلمي . فذهبنا اليه في بيته فاخبرنا « ان الخديوي بلغه انكما وعلي بك الروبي قد أغريتم التلامذة والضباط على حصر المالية وانه سيجري تحقيق ذلك فان ثبت هذا عليكم صارت مجازاتكم باشد الجزاء » وصار يهددنا تارة ويوعدنا بالسلامة تارة أخرى فاجبناه بقولنا « يا سبحان الله اننا حضرنا أمس من رشيد وكنا مشغولين بتسليم الاسلحة والمهمات بمخازن العسكرية وصرف العساكر الى بلادهم فكيف يتصور اننا نغري تلامذة الحربية والضباط ونحن لسنا موجودين بالقاهرة ولا كان أحد من ضباط عساكرنا موجوداً في هذه الحركة أصلاً على أن هذا العمل الخارج عن حد التعقل يلزم تدبيره وترتيبه من قبل اجرائه بمدة » فضحك لانه يعلم ان تلك الحركة كانت بايعاز الخديو نفسه وعمل جاهين باشا جنج لاجل التخلص من نظارة وياسن المختلطة وأيضاً صار طلب المرحوم علي بك الروبي بطرف مأمور الضبطية محمود سامي باشا البارودي وبلغه تلك التهديدات بعينها والافترآت الظاهرة فتفصل منها . وبعد ذلك صار تشكيل مجلس عسكري فوق العادة تحت رئاسة رئيس اركان الحرب اسطون باشا الامريكي وعضوية سعادة أفلاطون باشا والمرحوم مرعشلي باشا وجميعهم يعرفون الحقيقة كما يعرفون آباءهم ولكن المسألة خرجت عن مركزها المعين . ثم بعد ذلك صار طلب الضباط والمتهمين من رتبة بكباشي فما فوقها بسراي عابدين وقام الخديوي يطيب خواطرنا ويوعدنا بخير ولكن .....

امور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

هكذا قلت لسعادة محمد باشا النادي والمرحوم علي باشا الروبي المتهمين معي في مسألة الاحاطة بديوان المالية . وفي ذلك الاجتماع صار جعلنا نحن الثلاثة من ضمن الياوران الذين بمعيته — عجباً والف عجب — لكن بعد اسبوع انخلع علي الروبي من العسكرية وتعين رئيساً لمجلس المنصورة وأبعد نادي باشا بالايه الجديد الى الاسكندرية ثم صار طلبي الى ديوان المالية فذهبت الى ناظرها المرحوم راغب باشا فاخبرني ان أهالي جرجا وأسيوط ومديريات الوجه القبلي قد انتخبوني اميناً من طرفهم

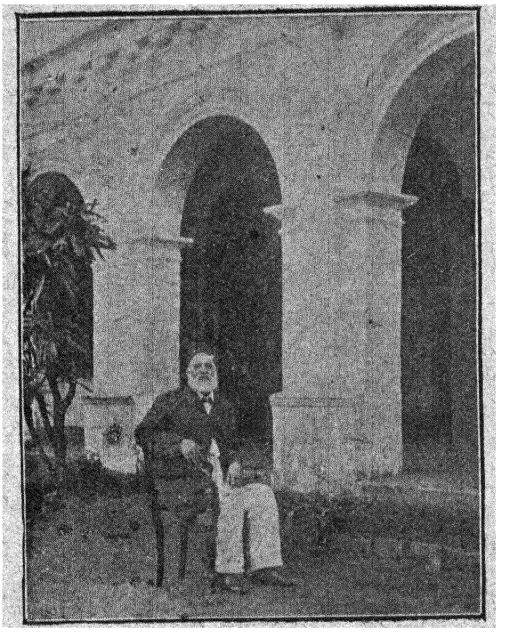
في تسليم ٧٠٠ الف أردب قمح وشعير وفول الى بنك قطاوي وبحة واجيون باسكندرية لسداد ما عليهم من الديون — والله أعلم ان الامر غير ذلك وانا أعلم أيضاً .... ومع ذلك توجهت الى الاسكندرية وأديت تلك المأمورية التي حقيقتها سلفة نصف مليون بنتو أخذتها الحكومة لتسديد بعض الاقساط من ارباح الدين المصري .

وفي ٧ رجب سنة ١٢٩٦ صار خلع المرحوم اسماعيل باشا وتولية المرحوم توفيق باشا وشاهدت الاحتفال بتوديع الخديوي المخلوع بحق حين انزاله في السفينة من اسكلة سكة الحديد منفياً الى بلاد ايطاليا كما انزل منها عمه حليم باشا منفياً الى القسطنطنية .

فانظر الى آثار قدرة الله تعالى واعلم انه يكال لك بالكيل الذي تكيل به . وعلى هذا انتهت مدة ولاية اسماعيل باشا كما علمت ولم أنل منه رتبة ولا نيشاناً ولا اختصني بجارية من جواريه ولا أعبت منه خيراً قط ولا اقسمت على الدفاع عنه كما ذكرتم ولا خدمت بمعيته أصلاً ولا انتهرني أبداً ولا صحت حول سرايه ولا قال عني ما ذكرت ان صوتي اكثر قعقعة أو قرقعة من الطبل وأقل نفعاً منه . وقد تحملت مدة ولايته بكل صبر وثبات جاش على تحمل الظلم والاستبداد بل الاستعباد ومكثت برتبة القائمقام ١٩ سنة وانا انظر الى اليوز باشية والملازمين الذين كانوا تحت ادارتي وقد صار بعضهم امير الاي وبعضهم أمير لواء وبعضهم أمير الامراء اعني باشوات وفرقاء وانهمرت عليهم سحب الانعامات والاحسانات فاقتطعوا الاقتطاعات الواسعة وأخذوا القصور العالية واغدقت عليهم الخيرات وهم يعلمون قوتي واستعدادي . ولقد اجتهد صاحب الدولة حسين كامل باشا عم الحضرة الفخيمة الخديوية اذ ذاك في ترقيتي الى رتبة أمير الاي ولكن لم يقبل منه وأخيراً قال لي « اني بذلت ما في وسعي في طلب ترقيتك ولكن قيل لي أنك من رجال سعيد باشا » فعجبت لذلك وقلت له اني من رجال الوطن وبلدي اسمها هرية رزنة بمديرية الشرقية ولست مملوكا لاحد . فطيب خاطري ولاطفني وقال لي « لا تفتر همتك وسأواصل السعي في انصافك » فشكرت له وخرجت وانا أشعر باني لا انال خيراً في مدة أبيه وكنت أتوسم كل خير في المرحوم توفيق باشا . ولكن من اعتمد على غير الله سبحانه وتعالى أخلاه الله منه لانه سبحانه غيور على عباده المؤمنين

﴿ خاتمة أمري ﴾ ولما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية وحضر الى الاسكندرية احسن عليّ برتبة امير الاي على الالاي الرابع فتوجهت الى رأس التين وقدمت تشكراتي وامتناني الى حضرته الكريمة ودعوت له بخير ثم جعلت من ضمن ياوران الخديوي ولما صار المرحوم عثمان رفقي باشا الشركسي ناظر الجهادية

في وزارة مصطفى رياض باشا واستبدوا بالادارة لا يسأل كل من النظار عما يفعل في ادارته واستخفوا بامر الخديوي كل الاستخفاف وخصوصاً عثمان رفقي لجهله وعجبه — خيلت له نفسه أن يمنع ترقية المصريين من العساكر العامل في الالايات والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحربية وصدرت أوامره بذلك . ثم أردفها باحالة عبد العال حلمي بك امير ألاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاوناً وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة ليس إلا ورتب بدله خورشيد نعمان بك من



ش ٦٨ : احمد عرابي امام منزله في سيلان

جنسه على الالاي المذكور وكان سنه فوق الستين وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية وبرفت احمد بك عبد الغفار قائمقام السواري وترتيب شاكر بك طمازة من جنسه بدله وهو طاعن في السن ثم ختمت تلك الاوامر وصار قيدها بدفاتر الجهادية . وكنت لا أعلم بشيء من ذلك أصلاً وانما دعيت الى وليمة وسماع تلاوة القرآن الشريف بمنزل المرحوم نجم الدين باشا لمناسبة عودته من اداء فريضة الحج الشريف وكان ذلك ليلة ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ ولما وصلت الى منزل الداعي وجدته غاصاً بالذوات العسكرية وغيرهم فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردي الاصل وبجانبه المرحوم اسماعيل كامل باشا الفريق وهو شركسي الاصل

ولكنه يتظاهر بحب العدل والانصاف فأخبر نجيب بك بما صار وانه نصح ناظر الجهادية بالاعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب ثم أوعز اليه أن يخبرني بما سمع منه . فاخبرني نجيب بك بحقيقة الحال همساً في أذني فقلت لاسماعيل باشا كامل « أحق هذا ؟ » فقال « نعم واعطيت الاوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها » فقلت له « ان تلك لقمة كبيرة لا يقوى ناظر الجهادية عثمان رفقي على هضمها » وبعد تناول طعام المأدبة حضر لي احد الضباط واخبرني بان كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزلي وفيهم عبد العال بك حلمي وعلي بك فهمي . فاسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأوني اخبروني بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت لهم « قد سمعت من غيركم فماذا تريدون » فقالوا « انه ليس ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكسة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيراً وكبيراً وهم يتذاكرون في تاريخ دولة المماليك في كل ليلة بحضور عثمان رفقي باشا ويلعنون حزبك ويقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا وانهم لا يغلبون من قلة وظنوا انهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل أولئك المماليك » . وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره فقلت لهم « وماذا تريدون اذاً ؟ » فقالوا انما جئناك لاخذ رأيك فيما دهمنا من الخطب العظيم » . فقلت لهم « أرى أن تطيبوا نفوسكم وتهدوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر في مصالحكم وهم ينتخبون لهم رئيساً منهم يثقون به كل الوثوق ويطيعون امره ويحفظونه بمعاضدتكم » . فقالوا كلهم « قد فوضنا اليك هذا الامر وليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك » فقلت لهم « لا . . انظروا غيري وانا اسمع له واطع وانصح له جهدي » فقالوا « لا نبغي غيرك ولا نثق إلا بك » فقلت « ارجعوا لانفسكم فان هذا امر عصيب لا يسع الحكومة إلا قتل من يقوم به أو يدعو اليه » فقالوا « نحن نفديك ونفدي الوطن بارواحنا » فقلت لهم « اقسموا لي على ذلك » فاقسموا . وفي الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقي لجنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين والتمست فيها تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية تنفيذاً للامر الخديوي الصادر ابان توليته . ثانياً ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفاً تطبيقاً لمنطوق الفرمان السلطاني . ثالثاً تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب . رابعاً تعيين ناظر الجهادية من ابناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التي بايدينا . ثم تلوت العريضة هذه على مسامع

الجميع فوافقوا كلهم عليها فامضيتها بامضائي وختمتها بختمي وختم عليها أيضاً علي فهمي بك أمير ألاي الحرس الخديوي وعبد العال بك امير ألاي السودان ولما تمّ ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الذات الخديوية وحفظ أعضاء العائلة الخديوية وحفظ الوزراء والامراء الوطنيين اذا حدث أي حادث من الضباط الشراكسة الطامعين في التغلب على البلاد مع ترتيب اللازم لحفظ البيوت المالية وبيوت التجار من الاجانب والوطنيين من مطامع الرعاع وحفظنا أيضاً من بطش الحكومة اذا أرادت الايقاع بنا وارفض الاجتماع على ذلك . وما دعانا الى طلب انشاء مجلس نواب للامة ينظر في صوالحها ومصالحها إلا ما حل بالمرحوم اسماعيل صديق باشا الحائز لرتبة المشيرية التي من لوازمها حفظ صاحبها ولو باستعمال السلاح في عهد الخديوي الاسبق اسماعيل باشا بسبب كلمة حق قالها — وما حل بحضرة السيد حسن موسى العقاد بسبب كلمة عدل أراد بها مساواة الاهالي الذين دفعوا للحكومة سبعة عشر مليون ١٧ ٠٠٠ ٠٠٠ من الجنيهات المصرية باسم المقابلة و٥ ٠٠٠ ٠٠٠ اخرى باسم السهام بالاجانب اصحاب الديون وما حصل لكثير من القتل والخنق في السجون بغير حق ولا تحقيق بل بمجرد ظلم واجحاف واستعلاء على الناس بالقهر والجبروت بما تأباه النفوس الشريفة وفي ضحوة الغد ذهبت الى ديوان الداخلية وقدمت العريضة المذكورة الى دولة رئيس النظار فقال لنا « سأنظر في هذا الامر واتكلم مع ناظر الجهادية »

وبعد يومين ذهبت الى بيت الرئيس المذكور ومعي الاميران المذكوران فلما تمثلنا بين يديه وسألناه عما تمّ في هذا الامر فقال « ان هذا الطلب مهلك وهو أشد خطراً من العرض الذي قدمه احمد افندي فهمي الذي أرسل بسببه الى السودان » (وتحرير الخبر ان احمد افندي فهمي هذا كان كاتباً بديوان المالية وكان طلب المساواة مع خدمة الديوان المذكور لظلم حاق به فكان جزاؤه ارساله الى مقبرة الابرياء من المصريين بالسودان) فاجبته « باننا لم نطلب الا حقاً وعدلا وليس في طلب الحق من خطر على أننا نعتبرك أبا للمصريين فما هذا التعريض وما هذا التهديد » فقال « انه ليس في البلاد من هو أهل لمجلس النواب » فقلت له « عجباً أنك مصري وباقي النظار مصريون والخديوي أيضاً مصري أتظن أن مصر ولدتكم ثم أعقمت لا بل فيها العلماء والفضلاء والنبهاء والبلغاء وعلى فرض انه ليس فيها من يليق كما ظننت أفلا يمكن انشاء مجلس يستمد معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية وبعد خمسة أعوام تخرج منها رجال يخدمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة في مشروعاتها الوطنية » فانبهر لذلك وقال لنا « سننظر بدقة في مطالباتكم هذه » فانصرفنا على ذلك . ولما كان يوم غرة ربيع

الاول سنة ١٢٩٨ انعقد مجلس تحت رياسة الخديوي بعابدين حضره جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدين وكلهم من الترك والشراكسة الا قليلاً من الاوربيين وقرروا فيه لزوم توقيف الثلاثة أمراء الالايات الذين امضوا على العريضة المتقدمة الذكر ثم اجراء محاكمتهم في مجلس مخصوص مختلط من رجال الجهادية . فقال رئيس النظار رياض باشا « اني أرى انه اذا صار توقيف الميرالايات المذكورين يلزم أيضاً توقيف ناظر الجهادية لانه في عدم توقيفه مثلهم خطراً عظيما وذلك لما رأيته فيهم من الجراءة » فلم يوافق المرحوم الخديوي على ذلك وتعهد ناظر الجهادية المذكور بانه ضامن لاخذنا بسهولة . وفي الحال دعي المرحوم احمد خيري باشا الشركسي وكان مهردار الحضرة الخديوية وصاحب الرأي النافذ فحضر وتلا بالمجلس المذكور أمراً فحواه « ان هؤلاء الثلاثة امراء احمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي مفسدون في الارض وانه يقتضي توقيفهم من الخدمة ومحاكمتهم على افسادهم ومجازاتهم باشد أنواع الجزاء في مجلس عسكري فوق العادة تحت رياسة ناظر الجهادية ويكون من اعضائه اسطون باشا رئيس اركان الحرب (وهو امريكي) وناظر المدارس الحربية أرفي باشا (وهو فرنساوي) » فوقع الخديوي عليه وسلمه الى ناظر الجهادية عثمان رفقي باشا وارفض المجلس بعد ذلك . وفي المساء أرسل ناظر الجهادية لكل منا تذكرة يدعونا فيها للحضور الى ديوان الجهادية بقصر النيل في غد يوم ٢ شوال سنة ١٢٩٨ لنشهد الاحتفال بزفاف شقيقة الحضرة الخديوية المرحومة جميلة هانم وكان وقت زفافها لم يحن بعد فتيقنا أنه يريد خدعتنا والبطش بنا . فالتجأنا الى جانب الحق سبحانه وتعالى واخذنا حذرنا ثم أعددنا ما يلزم لنجاتنا اذا اقتضت الحال ذلك . وحين حلول الوقت المعين ذهبنا الى ديوان الجهادية فوجدناه غاصاً بجمع الشراكسة من رتبة الفريق الى رتبة الملازم الثاني وجميع شبانهم بايديهم الطبنجات ذوات ٦ طلقات مملوءة بالخراتيش وكلهم في فرح ومرح ولا فرح هناك ولا زفاف . فلما حضرنا دعينا للحضور امام مجلس الهلاك فاجبنا طائعين وتلي الامر الخديوي الآنف ذكره ثم أمرنا بتسليم سيوفنا فاطعنا على هذا التسليم وما يعقبه من السجن وهو مخالف للفظ الحكم بالتوقيف ثم تعين بحضرتنا من يستلم امرة الالايات وساقونا الى السجن في قاعة بقصر النيل . فمررنا بين صفين من الشراكسة المسلحين وبعد اقفال باب السجن جاء خسرو باشا وكان رجلا صلفاً جاهلاً فوقف خارج السجن وقال (ايه زنبيل لى هرفلر) يعني فلاحين شغالين بالمقاطف ولما اقفل علينا باب الغرفة قال علي فهمي بك احدنا « والله لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار » وجزع جزعاً شديداً فأردت تثبيته وقلت له متمثلاً

بقول الامام الشافعي رضي الله عنه

ولربَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

فلا وابيك ما كان الا هنيهة حتى جاءت أورطتان من الاي الحرس الخديوي بقيادة الشهم الهمام محمد افندي عبيد البكباشي وأحدقوا بديوان الجهادية ثم اسرع بعض الضباط والصف ضباط وفتحوا الابواب وأخرجونا من السجن وقد فرَّ ناظر الجهادية الغشوم هارباً وكذا رجال المجلس وغيرهم من المجتمعين — ولما فرج الله علينا أسرعت الى العساكر وحذرتهم وانذرتهم وقلت لهم «لا تمدوا أيديكم بسوء الى أحد من الجراكسة فانهم مواليانا واخواننا استأثروا بانفسهم علينا ونريد الانصاف والمساواة معهم ليس الا» ثم نظرت فوجدت بجانبي المرحوم اسماعيل كامل باشا انفت نفسه أن يفر مع الفارين فاخذته بيده وضممته الى صدري أمام العساكر وقلت « هذا جركسي كما تعلمون ولكنه أخي حرام عليَّ دمه وماله وعرضه وكذلك غيره من الجراكسة » فانصرفوا بانتظام على بركة الله ثم سرنا جميعاً الى قشلاق عابدين وكانت الاورطة الاولى من الحرس الخديوي حكمدارية البيكباشي المرحوم احمد افندي فرج واقفة أمام سراي الخديوي لحفظها منها عسى أن يطرأ من الامور كما أمرت بذلك من قبل أمير الاي الحرس علي فهمي بك ولما تم وجود عساكر الالاي المذكور امر أمير الالاي العساكر بحمل أسلحتهم بحركة (سلام دور) وعزفت الموسيقى بالسلام الخديوي ونادوا جميعاً «يعش الخديوي » ثلاثاً وذلك كان اشارة واعلاناً للقوم باننا على اخلاصنا للحضرة الخديوية وكان جميع الذوات الذين كانوا بديوان الجهادية التجأوا الى حمى الحضرة الخديوية . ثم انهم تشاوروا فيما بينهم فقال اسطون باشا الامريكي هذا عصيان ظاهر والواجب حصر القشلاق المذكور بالطوبجية وآليات البيادة ويطلب من هذا الالاي تسليم الثلاثة أمراء فان أبوا تضرب عليهم المدافع وتمطر عليهم البنادق ناراً حامية حتى يضطروا الى التسليم فاستحسن الجميع ذلك الرأي الامريكي ولكن ابتدره المرحوم اسماعيل كامل باشا المذكور آنفاً وقال « انا أعتقد اتفاق جميع أصناف العساكر على رأي واحد فلا يجدي هذا الرأي نفعاً » . وفي أثناء مفاوضتهم حضر آلاي السودان من طره وانضم الى آلاي الحرس ثم عزفت الموسيقى بالسلام الخديوي وهتفوا جميعاً « افندمزجوق يشا » وانا العاجز الضعيف كتبت الى وكيل فرنسا السياسي في مصر الكونت « دورنج » من غير أن يكون لي به ولا بغيره من قناصل الدول الاوربية سابق معرفة ولا مقابلة التمس منه مخابرة باقي قناصل الدول بما حصل بيننا وبين حكومتنا من الخلاف وأطلب

منهم التوسط في اصلاح ذات البين . ثم بتنا على ذلك وفي صباح الغد حضر لنا المرحوم احمد خيري باشا مهردار الخديوي ومعه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف من قبل الخديوي وقالا لنا « ماذا تريدون » فقلنا « العدل والمساواة » . قالا « ثم ماذا » قلنا « استبدال ناظر الجهادية برجل وطني . وتشكيل مجلس نواب للامة ينظر في مصالحها وصوالحها وتعديل قوانين العسكرية وابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفاً ونحن على طاعتنا للحضرة الخديوية » . فذهبا الى الخديوي ثم رجعا وقالا « قد عزل عثمان رفقي فمن الذي تريدونه ناظراً للجهادية » قلنا » الذي يختاره الخديوي من الوطنيين « فذهبا وعادا ثانية وقالا « ان الخديوي يقول اختاروا أنتم من ترضونه حتى لا يحصل منه مثل ما حصل من عثمان رفقي » فقلنا « قد اخترنا هذا محمود سامي باشا وهو من أولاد المماليك الاول ولكنه صدق معنا ولم يقصد الغدر بنا » ثم صدرت الاوامر الخديوية باعادة كل منا الى آلايه وعزل عثمان رفقي وصار تولية محمود سامي على نظارة الجهادية مع نظارة الاوقاف وأخذ في سن القوانين العادلة وتعديل القوانين الاصلية وتنقيحها

ثم لما شاعت الاراجيف الكاذبة في أوربا بخروج العساكر المصرية عن الطاعة حضر من الحكومة العثمانية وفد برئاسة المشير علي نظامي باشا وبمعيته احمد راتب باشا والي الحجاز الآن لتحقيق أمر العصيان فرده الخديوي قائلا ان عساكري على طاعتي وان ليس ثم عصيان . وبعد ذلك اجتهدت الحكومة في غدرنا وأخذنا على غرة أو بحيلة من ضروب الحيل ولما لم يوافقها ناظر الجهادية محمود سامي باشا على نواياها صار عزله بتذكرة من رياض باشا رئيس النظار وتشددعليه بارلا يجتمع بنا ولا يقيم بالعاصمة وتعين بدله داود باشا يكن وهو عديل الخديوي ولكنه رجل جاهل أحمق مشؤوم فاسرع باصدار أوامر لا يستطاع قبولها فردت اليه ونفرت القلوب منه . فكتبت له في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ باننا سنحضر بجميع العساكر الموجودين في القاهرة الى ساحة عابدين لعرض طلباتنا على فخامة الحضرة الخديوية في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم الجمعة الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وكلفته عرض ذلك على الحضرة الخديوية ثم كتبت الى جميع قناصل الدول بذلك واعلنتهم بحفظ جميع رعاياهم فلا خوف عليهم ولا على اموالهم . وفي الوقت المعين اجتمعت الالايات البيادة والسواري والطوبجية في رحبة عابدين وكان ما هو مسطر في بطون التواريخ وهو اسقاط الوزارة وترتيب مجلس النواب وابلاغ الجيش الى القدر المحدد بالفرمان السلطاني . وقد حبانا المرحوم الخديوي باجابة تلك الطلبات العادلة . وقد تعرض لنا المستر كوكسن قنصل انكلترا

بالاسكندرية حين ذاك وهددنا فلم نعبأ بتهديده لاعتمادي على صدق عزيمتي وطهارة ذمتي . ثم صار استدعاء المرحوم شريف باشا من الاسكندرية وتعيينه رئيساً للوزارة على حسب اختيارنا له وتعين محمود سامي باشا ناظراً للجهادية ثانية وقد توقف شريف باشا في قبوله ٧ أيام ثم رضي بعد ذلك وصار توظيفي وكيلا للجهادية . وفي تلك النظارة صارت الامتحانات وترقى كثير من الباشاوات وأمراء الآلايات والقائمقامية وغيرهم من جميع الرتب واستكملت الالايات وانشئت القوانين العادلة وتعدلت الرواتب والماهيات بنسبة كل رتبة الى ما دونها . وصرفت الحقوق الموقوفة من زمن مديد وانشأ مجلس النواب وجعل رئيسه أبو سلطان باشا وعم العدل واستقامت الامور وحين ذاك عرضت عليَّ رتبة لواء (باشا) فرفضتها لئلا يقال اني انما أشتغل لمصلحتي فقط وبقيت في رتبة الميرالاي مدة وكالتي للجهادية . وأما رفقائي عبد العال حلمي وعلي فهمي فقد تشرفا برتبة الباشوية الرفيعة



ش ٦٩ : احمد عرابي وحفيده الى جانبه

ثم ان مجلس النواب قرر في لائحته الاساسية أن يكون لهم الحق في نظر ميزانية الحكومة ومعرفة كيفية ايرادها ومصروفها بشرط عدم الخروج عن دائرة التعهدات الدولية وقانون التصفية فلم يجبهم المرحوم شريف باشا لذلك لانه سامحه الله أخذ رأي

السير مالت وكيل انكلترا السياسي في مصر وقنصل فرنسا أيضاً فاشاروا عليه بعدم قبول لائحة المجلس فاصر مجلس النواب على الطلب في تنفيذ لائحتهم فلم يوافقهم وقدم استعفاءه واستعفت هيئة نظارته ثم تشكلت هيئة جديدة تولى رئاستها محمود سامي باشا وجعل من رجالها حسن باشا الشريعي رحمه الله تعالى والمرحوم سليمان باشا اباظه والمرحوم عبد الله باشا فكري والمرحوم محمود باشا فهمي وسعادة مصطفى باشا فهمي رئيس الوزارة المصرية الآن . وجعلوني أيضاً ناظراً للجهادية لاجل اطمئنان خاطر العسكرية الذين لا يأمنوا غيري في ذاك الوقت فقبلت ذلك . ثم أحسن علي برتبة لواء (باشا) من لدن المرحوم الخديوي توفيق باشا وكنت لا أريد ولكن قالوا انه لا يليق أن يكون ناظر الجهادية برتبة اميرالاي وفي نظارته اللوا آت والفرقاء . فقبلتها للضرورة وشكرت للحضرة الخديوية وقد انتظمت الامور وهدأت الاحوال وصارت العساكر في أمن من الغدر — ولكن أوربا لا يروق في نظرها انتظام حكومات الشرق فاقلقوا حكومة الدولة العلية فارسلت وفداً منـدوباً من طرفها تحت رئاسة المشير المرخص درويش باشا لتحقيق ما يقال من العصيان فجاء درويش باشا وبحث في الامر وكتب للحضرة السلطانية بأن العساكر على الطاعة وكذلك كتب المرحوم الخديوي بالحقيقة فأرسلت الحضرة السلطانية الى الحضرة الخـديوية اربعمائة نيشان من أنواع مختلفة للاحسان بها على المستحقين من ضباط العساكر واحسن عليَّ بنيشان الدرجة الاولى المجيدي وحضر بوابوار مخصوص يحمله سعادة سليم بك ياور الحضرة السلطانية فأبيت استلام النيشان المذكور إلا من مولاي الخديوي . ثم كتبت تلغرافاً الى المابين الهمايوني برفع تشكراتي الخيرية للحضرة المقدسة السلطانية وتشرفت تلغرافياً بقبول تشكراتي لدى جـلالة السلطان الاعظم وحصول المحظوظية لدى جلالته. كذا قيل بالتلغراف

وفي شهر مايو سنة ١٨٨٢ جاءت الاساطيل الحربية الانجليزية والفرنساوية الى ثغر الاسكندرية وتقدمت للحكومة المصرية لائحة مشتركة من دولتي فرنسا وانكلترا مجحفة باستقلال الحكومة المصرية وحقوق الدولة العلية وتقدمت نسخة منها للخديوي فرفضها مجلس النظار وقبلها الخديوي فاستعفت النظارة من وظائفها . وهاجت الافكار العمومية وطاشت العقول الزكية واجتمع النواب والقناصل حولي كعرف الضبع يطلبون مني حفظ الأمن والراحة العمومية فقلت لهم لاقدرة لي على ذلك لاني قد استعفيت . فذهب وفد من مجلس النواب وطلب من الخديوي اعادتي الى نظارة الجهادية حفظاً للنظام والراحة فصدر الامر الخديوي باعادتي الى النظارة المذكورة ثم دعيت الى

الحضرة الخديوية فوجدت عنده جميع قناصل الدول ما عدا وكيل انكلترا السياسي وبحضرته درويش باشا المندوب السلطاني فاخذ عليّ تعهد بحفظ رعايا الدول الاجنبية وصار اعلان جميع مصالح الحكومة بذلك

وفي ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ حدثت حادثة اسكندرية المشؤومة بتدبير ذوي الغايات لاجل تشويه اعمالي في نظر أوربا وخدش تعهدي بالحفظ والامن العمومي فاسرعت بارسال العسكر الى الاسكندرية حتى ملئت شوارعها بالعساكر وانتهت الفتنة التي ابتدأ بها أحد المالطية من التبعة الانكليزية مع أحد حمارة الاسكندرية بايعاز وتعليم ثم صار الشروع في تحقيقها في مجلس مختلط تحت رئاسة ذي الفقار باشا محافظ الثغر ومن الغريب العجيب انه لم يحث أصلاً في الدماء التي سفكت بل كان البحث قاصراً على معرفة مقدار البضائع التي انتهبها الرعاع لبس إلا . وبعد ذلك تشكلت الوزارة بمعرفة الخديوي تحت رئاسة المرحوم الطيب الذكر راغب باشا وكنت من رجالها أيضاً ثم انتقل الخديوي ودرويش باشا الى الاسكندرية . وفي يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وردت افادة الى قومندان عساكر الاسكندرية من طرف اميرال الاسطول الانجليزي يقول فيها انه جاري تهديد العمارة الانجليزية بترميم القلاع والاستحكامات وانه يطلب تخريب القلاع وهدمها بايدي العساكر المصرية والا ضرب الاسكندرية وخرب المدينة ودمرها. فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الخديوى حضره درويش باشا المندوب العثماني وقدري بك من رجال الوفد المذكور وجميع النظار وكبار الذوات المتقاعدين وبعد المذاكرة أجمعوا على رفض هذا الطلب والاستعداد للحرب ولكن لا يبدأ بها الا بعد اطلاق ثلاث قنابل من الاسطول الانكليزي حتى لا نكون نحن البادئين بالحرب فاعطيت الاوامر بذلك

وعند اشراق يوم ١٢ يوليو بدأت مراكب الانكليز بالضرب على مدينة الاسكندرية وجميع سواحلها وانتشب القتال بين مصر والحكومة الانجليزية . واما الاسطول الفرنساوي فاعتزل جانباً كالمتفرج . وضربت الطوابي حتى تهدمت استحكاماتها . وفي أثناء الحرب خرج سكان المدينة مهاجرين منها خوفاً وهلعاً وفي اليوم الثامن انهزمت العساكر فرجعت الى كفر الدوار واتخذت خطاً دفاعياً وتراجع المنهزمون اليّ . وفي ١٤ يوليو أرسلت القطار الخديوي لاستحضار الخديوي ومعيته ومن معه من النظار ولما وصلت القطارات الى سراي الرمل لركوب الحضرة الخديوية ورجوعه الى عاصمة بلاده أبى أن يعود وأسرع في الذهاب الى رأس التين بعائلته ومن بمعيته وانحاز الى العدو المحارب لبلاده. واستدام الحرب الى ان قدر الله تعالى شأنه بالخذلان العظيم في التل الكبير كما هو معلوم للجميع وتم الامر بنفينا الى جزيرة سيلان

وخرجنا من مصر في يوم ١٦ صفر الخير سنة ١٣٠٠ على قطار مخصوص الى السويس وفي سبعة عشر منه بارحنا الثغر المذكور على مركب انكليزي اسمه « مرتوطة » وفي أول شهر ربيع الاول خرجنا من السفينة الى ثغر (كولومب) ومكثنا بها تسع عشرة سنة الى أن تشرفت جريرة سيلان بزيارة كريم الشيم عظيم الرأفة والحنو الدوق (كرنوال ويورك) ولي عهد الحكومة الانكليزية وتشرفت بزيارة سموه في مدينة كندي وتفضل عليّ بالسؤال عن حالي وما أقاسيه من تبارح الغربة وذل النفي فقلت لسموه الامبراطوري اني أعتبر تشريف سموه الى هذه الجزيرة وتشريفي باقبال سموه عليّ سبباً عظيماً لانالتي نعمة الحرية والعود الى وطني العزيز من لدن مولاي الخديوي عباس باشا الثاني . فقال لي وهل تعرفه فقلت نعم وقبلت يد سموه مذ كان في سن ١٠ أعوام فوعدني خيراً فشكرت ودعوت ثم أحسن عليّ بسيجارة ملوكية قبلتها أدباً لحفظها تذكاراً للطف سموه ولم أحرقها بنار وفي ٦ صفر الخير سنة ١٣١٩ صدرت الارادة الخديوية بالرخصة لي بالعود الى مصر والاقامة فيها . واني أرجو من مكارم سمو مولاي الخديوي عباس باشا تمام رضاه وقد أعرضت لسموه العالي تشكراتي ودعواتي الخيرية الصادرة عن صميم الفؤاد واخلاص النية وقد تفضل حفظه الله سبحانه وتعالى بحملي وعائلتي الى مصر على مصاريف حكومته الخديوية . فأرجو من الله أن يوفقني لما يحبه ويرضاه هذا واني أبرأ الى الله من حولي وقوتي في كل ما ذكرته أو فعلته . وانى يكون للمخلوق العاجز الضعيف مثلي من قوة يدافع بها ارادة اوربا وقوة انكلترا العظمى فضلا عن بطش حكومة مصر الاستبدادية القادرة وموافقة جلالة السلطان الاعظم على الاعلان بعصياني في جورنال الجوائب وانحياز حاكم البلاد الى المحارب لبلاده وانما كان ما كان بقضاء الله وقدره ولا راد لقضائه وقدره وليس لي فيه الا مجرد الكسب الاختياري الذي أثاب أو أعاقب عليه ولم يخطر ببالي أصلا الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين كما ذكرتم ولا بتأليف دولة عربية كما ارجف المرجفون — لاني أرى ذلك ضياعاً للاسلام عن بكرة أبيه وخروجاً عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وآله والبرهان على ذلك ارتفاع صوتي بالمحافظة على حياة المرحوم الخديوي السابق كمحافظتي على نفسي بكرة وعشياً مع احترام أعضاء عائلته الكريمة يشهد لي بذلك ما هو واضح بدفتر الاخبار اليومية المحفوظ بالديوان الخديوي وارادته الخديوية الصادرة الى مجلس التحقيق بعد الخذلان العظيم بالتل الكبير وسجننا مع جميع رجال العسكرية واعيان البلاد وحكامها وعلمائها وقضاتها وتجارها مما هو معلوم لدى الجميع وغني عن البيان . والله الذي لا إله إلا هو فالق الحب وبارىء النسمة اني ما خدمت

بذلك دولة انكلترا ولا فرنسا ولا كنت آلة لدولة ما ولا للخديوي الاسبق المرحوم اسماعيل باشا ولا المرحوم حليم باشا ولا أوصي اليَّ بمساعدة الدولة العلية من عرش عظمتها . وانما كنت اجتهد في حفظ استقلال بلادي مع نيل الحرية والعدل والمساواة لأهل بلادي المساكين وانا خادم لهم وناديت سراً واعلاناً بتأييدها وتأييدات الذات الخديوية ولكن المقادير الالهية غالبة فانعكست المرئيات وتوالت الصعوبات لنفاذ ما هو كائن في علمه أزلاً سبحانه وتعالى . واني والله لا أكره شركسياً ولا روسياً لذاته وانما أكره الاعمال المغايرة للعدالة والانسانية والآداب الشريفة . وأحب العدل والمساواة بين جميع بني الانسان . والحمد لله اولاً وآخراً والشكر لله ولحضرة الفخيمة الخديوية التي منحتني نعمة العود الى وطني العزيز لاحظى برؤية ذاته الكريمة ورؤية ابناء وطني الكرام قبل ان أفارق هذه الحياة الدنيا والحساب على الله

خادم وطنه العزيز

مخلصكم

احمد عرابي الحسيني المصري

لي هونغ تشانغ

الوزير الصيني الشهير

ولد سنة ١٨٢٣ وتوفي سنة ١٩٠١

﴿ ترجمة حاله ﴾ ولد لي هونغ تشانغ في بلدة « سوي تشو » من مقاطعة « نجان هواي » في شرقي الصين في ١٦ فبراير سنة ١٨٢٣ . وفي سنة ١٨٤٩ نال رتبة « هان لين » وهي من رتب الشرف عند الصينيين . وفي السنة التالية مات امبراطور الصين « تاو كوانغ » وكان محباً للاصلاح وقد اشتغل في اواخر أيامه بادخال الصنائع الافرنجية الى بلاده حتى كادت تزهو وتنمو — فلما مات خلفه ابنه « هيانغ فونغ » وكان ضعيف الرأي معتسفاً فعمل على هدم ما بناه ابوه فشق ذلك على بعض رجال النفوذ وهاج الشعب الصيني وطلبوا خلع الامبراطور وطرد التتر من بلادهم . ورأس العصاة رجلٌ اسمه « تيان تيه » كان قد تثقف على يد بعض الافرنج وتعلم مبادىء الديانة المسيحية فنهض نهضة دينية وزعم انه معيدٌ عبادة « تشانغ تي » . وجعل يعلم التعاليم والشرائع مما استخرجه من التوراة وادعى انه سلطان أهل الارض قاطبة وسمى اتباعه « تاي بنغ » أي امراء السلام وكان الانكليز يومئذٍ ناقمين على الصينيين لاختلاف سياسي فجابر « تان تيه » الانكليز وعرض عليهم المساواة بالتي هي أحسن

وكان « لي هونغ تشانغ » في تلك الاثناء من حزب الامبراطور وعمل على مساعدته واصلاح ما فسد من اموره . وطالت ثورة « تاي بنغ » ١٤ سنة وانتهت أخيراً على يد صاحب الترجمة لحسن سياسته . فانحر زعيم الثورة وقبض الامبراطور على سائر قوادها وقتلهم سنة ١٨٦٤ . وكان لي هونغ تشانغ في أثناء ذلك قد تقلب في مناصب عديدة فتولى قضاء مقاطعة « تشي كيانغ » ثم حكومة « كيانغ سو » سنة ١٨٦١ فلما قدم الجنرال غوردون سنة ١٨٦٣ الى « كيانغ سو » لمطاردة العصاة كان صاحب الترجمة عوناً له في اخراجهم من تلك المقاطعة . فانقضت الثورة سنة ١٨٦٤ وكان الامبراطور هيانغ فونغ قد توفي سنة ١٨٦٢ وخلفه ابنه « تونغ تشي » فعرف هذا الامبراطور له فضله فخلع عليه الجاكت الصفراء وقلده ريشة الطاووس وهما شعار الاشراف . فاصبح لي هونغ تشانغ شريفاً من الدرجة الثالثة يتوارث أعقابه ذلك الشرف من بعده . وفي سنة ١٨٦٦ تعين حاكماً عاماً لمقاطعة « لیانغ كيانغ » وفي أثناء ذلك ثار المسلمون في المقاطعات الجنوبية بقيادة قائد منهم اسمه السلطان سليمان

وحاولوا خلع نير الصين والاستقلال فحاربهم الامبراطور حرباً عنيفة استعان بها برأي لي هونغ تشانغ وقيادته فانفثأت نار هذه الثورة سنة ١٨٧٣ فتناول السلطان سليمان السم فراراً من الوقوع في الاسر

وكان فوز « لي هونغ تشانغ » في هذه الحرب سبباً في ارتقائه الى ولاية مقاطعة تشبلي أرقى مقاطعات الصين لان بكين واقعة فيها وأصبح من ذلك الحين محل ثقة الامبراطور وسائر أهل البلاط . فتقلب بعد ذلك في عدة مناصب رفيعة فتعين مستشاراً



ش ٧٠ : لي هونغ تشانغ

أعظم للامبراطور ومندوباً سامياً في الامور الخارجية ومديراً عاماً للقوات البحرية في الثغور وناظراً للتجارة في الشمال وقائداً عاماً لجند الصين في مقاطعات الشمال . ولما انتشبت الحرب بين الصين واليابان ثم أرادت الصين المخابرة بأمر الصلح لم تر خيراً منه للتوسط في ذلك . فانتدبته سنة ١٨٩٥ لمخابرة اليابان كما انتدبته بعد ذلك لمخابرة دول اوربا

وفي سنة ١٨٩٦ بعد انقضاء حرب اليابان رحل الى اوربا رحلة تحدث بها الناس زمناً طويلاً ولم تبق جريدة من جرائد العالم لم تذكر تلك السياحة او تصف « لي هونغ تشانغ » وتعدد مناقبه واخلاقه فنشروا في ذلك المقالات الضافية وكلهم مجمعون على منزلة الرجل من التعقل والحكمة والدراية . على ان بعضهم بالغ في غرابة ما ظهر من عاداته مما يخالف عوائد الافرنج هناك فذكر احدهم في بعض الجرائد ان احد رجال السياسة أهدى « لي هونغ تشانغ » كلباً من جنس « البولدوك » المشهور بسمنه واكتناز لحمه فلما قابله في اليوم التالي سأله اذا كان مسروراً من ذلك الكلب فاجابه « انه سمين لكن لحمه مالح وقاس » فعلم صاحبنا ان رجل الصين ذبح الكلب وأكله

وكتب بعضهم الى جريدة الستاندرد يصف فيها اخلاق هذا السياسي من حيث المقابلات الرسمية قال — اذا جاءه رجل في امر استعجله في بيان غرضه وهو يصغي لسماع ما يقوله مخاطبه فاذا أطال الكلام أظهر رغبته في قطع الحديث باشارة يعرفها الذين عاشروه — وهي انه يرفع فنجان الشاي الى شفتيه ومعنى ذلك « اني مسرور بمقابلتكم لكنني لا أحب تعويقكم أكثر من ذلك » وفي حديثه مع الاجانب من الافرنج كثيراً ما كان يظهر الفظاظة والاستبداد في الرأي وكلما لان له جليسه زاد هو قسوة فاذا رأى القسوة من جليسه لان هو . فكانه من هذا القبيل يتشبه بما نقلوه عن معاوية بن ابي سفيان داهية الاسلام اذ قال « اني لا أضع سيفي حيث يكفيني لساني . ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقيل له « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين » قال « كنت اذا شدّوها أرخيتها واذا أرخوها شددتها »

ويكرم لي هونغ تشانغ زائريه بالسيكارة والخمر . واما هو فلا يدخن غير الشبق (الغليون) وله خادم خاص لاصلاحه . وقد يتناول كأساً من المرق او الاروط بين يدي زائريه ولا يعد ذلك مخالفاً لآداب المجالسة . وربما انصبّ بعض المرق على لحيته او صدرته فلا يلتفت هو الى ذلك لان بجانبه خادماً بيده منشفة يمسح بها ما انصب . على انه لم يكن أكولا ولم يشرب الخمر الا نادراً ولم يتعاط الافيون مطلقاً

الماركيز ايتو

اكبر سياسي اليابان

ولد سنة ١٨٤١

﴿ ترجمته ﴾ اسمه هيرو بومي ايتو ولد في ولاية تشوشو من أعمال اليابان سنة ١٨٤١ وتلقى العلم فيها على قدر ما كانت تسمح به حالة تلك الايام . فلما تجاوز العشرين من عمره تاقت نفسه الى اكتساب العلوم العالية . وكانت ذكرى أوربا ترن في أذنيه فجاء انكلترا سنة ١٨٦٣ فاطلع على علومها وتفقد أسباب تمدنها فاضاف معارف الغرب الى معارف الشرق واتخذ من المزيج قوة أهلته لاكبر المناصب فكان هذا الرجل اكبر وسيلة ساعدت أمة اليابان على النهوض تلك النهضة التي أدهشت العالم وبهرت العقول

وأخذ منذ عاد الى بلاده يتدرج في المناصب حتى بلغ أعلاها جميعاً . فتولى سنة ١٨٦٨ حكمدارية هيوجو وكانت في حال تدعو الى والذي دراية في السياسة الخارجية فلم يروا اليق منه لذلك . ولكنه لم يلبث سنة في هذا المنصب حتى رأت الحكومة انها تحتاج اليه في اصلاح المالية فولته وكالة نظارة المالية وشخص في السنة التالية (١٨٧٠) الى أميركا قضى فيها سنة يدرس نقودها وما يتعلق بها . فلما عاد الى منصبه ظهرت نتائج ابحاثه في سرعة تقدمه فترقى سنة ١٨٧٣ الى رتبة الوزارة وتولى نظارة الاشغال العمومية ومنزلته ترتفع في عيني الامبراطور يوماً عن يوم فلم تدخل سنة ١٨٨٥ حتى عهد اليه بتشكيل الوزارة . فتولى رئاسة الوزراء ثلاث سنوات متوالية ثم اعتزل هذا المنصب وتنقل في مناصب أخرى بخدمة الامبراطور . فكان تارة رئيس الخاصة وطوراً صاحب الختم وآونة رئيس مجلس الشرفاء وأنعم عليه الامبراطور بلقب كونت

وعاد سنة ١٨٩٢ الى الوزارة وما زال فيها الى سنة ١٨٩٦ وجرت الحرب بين اليابان والصين في تلك الاثناء فابان فيها من الدهاء والحزم ما خلد له الذكر الجميل . فلما انقضت الحرب كافأه الامبراطور بلقب ماركيز . ثم عاد الى الوزارة ثالثة سنة ١٨٩٨ ورابعة سنة ١٩٠٠ ولكنه لم يمكث في كليهما الا بضعة أشهر . ثم اقتضت صحته ومصالح بلاده انتقاله الى أوربا — وهذه هي سلسلة المناصب التي تولاها على وجه الاختصار

﴿ الشورى ﴾ ترى من سرعة ارتقاء هذا الرجل في مناصب الدولة انه ذو مواهب سامية . غير أن المواهب السامية لا تقتضي الاتيان بالمنافع الكبرى حتماً الا اذا تمهدت

لها الاحوال وكان صاحب المواهب راغباً في الاصلاح . أما ايتو فانه وفق الى خدم جزيلة يندر أن تتأتى لرجل وخصوصاً في الشرق وسبب نجاحه انه لم يشرع في عمل قبل أن يدرسه ويفحصه وقد سار الى أوربا وأميركا غير مرة لهذه الغاية . ومن أهم تلك الاعمال انه أدخل الشورى في الحكومة اليابانية فبعد ان كانت حكومة مطلقة وقول الملك فيها شريعة المملكة جعلها شوروية . ولا يخفى ما يحول دون ذلك من المشقة في أمة كان يزعم المتمدنون انها من الامم الخاملة

بدأ بتأسيس الشورى سنة ١٨٨٣ فوضع لها اللوائح وطال به أمر التنقيح والتعديل لغرابة هذا النظام عندهم حتى تقرر رسمياً سنة ١٨٨٩



ش ٧١ : الماركيز ايتو

وخلاصة نظام الحكومة اليابانية ان الامبراطور هو رأس المملكة وله سلطة الاجراء بمساعدة مجلس شوراه وهم مسؤولون بين يديه عن أعمالهم وهو يوليهم ويعزلهم . وهناك أيضاً مجلس خاص يبحث في المسائل الهامة المتعلقة بالمملكة مما يعرضه الامبراطور . والامبراطور أن يشهر الحرب ويدعو الى السلم ويعقد المعاهدات . وفي اليابان مجلس للاعيان ومجلس للنواب فلا يسن الامبراطور قانوناً الا بمصادقتهما

﴿ الجند ﴾ ومن أعماله ايضاً انه أصلح الجندية اليابانية في البر والبحر وبذل في سبيل ذلك العناية الكبرى . ولولا هذا الاصلاح ما استطاعت اليابان ان تتغلب على

الصين في حروبها سنة ١٨٩٢ وللماركيز ايتو لائحة في بناء السفن لا يزال العمل جارياً بها وقد جعلت أسطول اليابان من أمنع الاساطيل

﴿ الامبراطور ﴾ والسر في نجاح مشروعاته واخراجها من القوة الى الفعل انما هو ثقة الامبراطور فيه وانقياده له ولولا ذلك لذهب سعي الماركيز هباءً منثوراً . ولكنه تسلط على رأي الامبراطور تسلطاً عجيباً وهان عليه اقناعه في ما يشرع فيه من الاصلاح . ولا ينكر ما للامبراطور من الفضل في ذلك . وخلاصة القول ان الله رضي عن اليابان فمنحها وزيراً حكيماً وسلطاناً سامعاً فلم تمض عليها ثلاثون عاماً حتى انتقلت من مصاف الامم الخاملة الى أرقى مدارج المدنية

﴿ عيشته الخصوصية ﴾ يقيم الماركيز ايتو في عزبة له اسمها (أويسو) قرب مدينة طوكيو وهو يحب الرياضة البدنية كثيراً ولكنه يفرط فيها حتى تتوالى عليه النزلات الشعبية . قد وخطه الشيب ولكنه يخضب شاربيه ولحيته

وهو يلبس اعتيادياً اللباس الافرنجي وفوقه القباء الكبير المزرر من الامام كما تراه في الرسم وعلى رأسه طاقية أفرنجية وهو يحسن التكلم بالانكليزية واذا خاطبته وذكرت نهضة اليابان الاخيرة تنسمت من مجمل كلامه اعجاباً بما كان له من الباع الطولى في ذلك

ومن اخلاقه التي يجب ان تكون مثالا لكل شرقي — سواء كان من رجال السياسة او العلم او لاي فرد من أفراد الناس — انه مع رغبته في اقتباس عوامل التمدن الحديث والاقتداء بآداب المتمدنين وترغيب مواطنيه في اقتباسها لم يكن يقبل عادة افرنجية ولا عملا افرنجياً الا بعد أن يلبسه حلة يابانية محافظة على جامعة الوطن واحتراماً لعوائد البلاد وشعائر أهلها . فهان عليه نشر ما أراد نشره من الامور النافعة ولم يحط من منزلة أمته . فما أجدره أن يكون مثالا لاناس بين ظهرانينا نراهم اذا اقتبسوا عادة افرنجية بالغوا في المحافظة على أصلها اكثر من محافظة أصحابها عليها وان يكن في بعض تفاصيلها ما يخالف الآداب الشرقية

كتابه بالدعاء بحفظ العائلة . والكتاب مؤرخ في ٢٤ ستمبر سنة ١٨٨٢

فلما وصل الكتاب الى امرأته عرضته على سفير انكلترا في الاستانة فوعدها ببذل الجهد . واجتهد اللورد دفرين بالبحث عن صحة مدحت بواسطة ترجمان قنصلاتو فرنسا في جدة فاجاب بعد البحث على يد شريف مكة ان صحته حسنة . وتوفي في اثناء ذلك الداماد نوري باشا مجنوناً

وفي ٢٦ افريل سنة ١٨٨٣ كان مدحت راقداً في غرفته فدخلها بضعة رجال فقبضوا عليه وعلى رفيقه الداماد محمود وقتلوهما خنقاً . وكتب بذلك خير الله افندي تقريراً مطولا نشر في تاريخ مدحت الذي الفه ابنه علي حيدر . ولم ينج خير الله من القتل الا خوفاً من نقمة العلماء على الدولة لصبغته الدينية

وجاء في تقريره المشار اليه اسماء الاشخاص الذين اشتركوا في ذلك القتل وهم تسعة قتلوا مدحت و ١١ قتلوا محموداً . وهذه اسماء قتلة مدحت : اليوزباشي ابراهيم الشركسي والضابط الصغير نوري اصله من كوما احمد جاويش والانفار قندرجي اسماعيل واحمد ومحمد وكلاهما من كوتاهية ورجب وعثمان من قره حصار واسماعيل البربري . واما الذين قتلوا محمد الداماد فهم : الضابط الصغير مميش اصله من سبارطة ومحمد وحسن جاويش من كوتاهية وسليمان جاويش ومحمد الاونباشي وعثمان البلطاجي واحمد وعلي الروملي ومصطفى بربر . ويقال انهم بعد ان قتلوا مدحت ارادوا ان يثبتوا صدق خدمتهم للمابين فارسلوا الجمجمة في علبة عنونوها الى يلدز في الاستانة وذكروا انها تحتوي عاجاً يابانياً وادوات صناعية لجلالة السلطان فلم تفتح الا هناك

وكان مدحت كما رأيت من سياق سيرته ذكي الفؤاد حاد المزاج حرًّا حازماً هماماً مستقل الفكر جسوراً يحب وطنه ودولته ويتفانى في مصلحتهما . وكان مخلص النية في اقواله واعماله شديد الرغبة في الاصلاح يكره الاستبداد ولا يبالي بما يلاقيه في سبيل مقاومته — يدلك على ذلك انه ذهب ضحية في هذا السبيل . لكنه كان قليل الدهاء يحسن الظن في الناس حتى في اعدائه . ولم يكن كتوماً الى الدرجة التي تقتضيها حاله لما يحيط به من ارباب الدسائس . ولذلك رأيته انخدع في مواقف بيناها في اثناء الكلام عنه . فلو كان اكثر دهاء في تفكيره واقل حدة في مزاجه واسوأ ظناً في اعدائه واكتم لاسراره لما انتهت حياته بالكيفية التي ذكرناها . فذهب رحمه الله شهيد الحرية والدستور . فلما حدث الانقلاب الاخير وفاز الاحرار اعترفوا بفضله وسموه اباهم وصاحب دستورهم وسيبقى ذكره ما بقي التاريخ

بطرس باشا غالي

ولد سنة ١٨٤٧ وتوفي سنة ١٩١٠

نشأته المدرسية

هو اكبر انجال المرحوم غالي بك نيروز ولد في القاهرة سنة ١٨٤٧ ووافق نشوءه نهضة تعليمية ظهرت في الطائفة القبطية على يد المرحوم الانبا كيرلس الرابع المتوفى سنة ١٨٦١ بعد أن اسس المدارس القبطية في الازبكية وحارة السقايين . دخل صاحب الترجمة مدرسة حارة السقايين فنبغ بين اقرانه وكان البطريرك المشار اليه يتعهد المدارس بنفسه ويراقب سيرها فلحظ في الفقيد ذكاءً واجتهاداً ممتازين فتحدث في ما يرجوه من مستقبله . ويذكرون ان استاذه في اللغة الفرنساوية كان المرحوم مصطفى بك رضوان فلما صار صاحب الترجمة وكيلا للحقانية عينه رئيساً لمحكمة المنصورة

قضى بطرس ثماني سنوات في مدرسة حارة السقايين ثم انتقل الى مدرسة البرنس فاضل باشا (أبي الاحرار العثمانيين) وكان والده غالي بك يشتغل في دائرة البرنس المذكور . فاتقن فيها اللغتين العربية والفرنساوية وتعلم الفارسية والتركية . وفي تلك المدرسة ظهرت رغبته في العلم وتلذذه بالدرس — فقد حدثنا بعض الذين عاشروه في صباه انه كان يقضي ليله ساهراً لا يملُّ المطالعة حتى شكى بعضهم ذلك الى أبيه خوفاً على صحته . وقد ساعده على اتقان اللغات التي تعلمها انه كان قويَّ الذاكرة يحفظ الصفحة والصفحات بعد تلاوتها . ذكروا ان معلم الفرنساوية فرض على الصف مرة حفظ ثماني صفحات من الاجرومية فتذمروا من طول الامثولة وفي جملتهم بطرس لكنه جرَّب حفظها فاستسهله فحفظ ما بقي من الكتاب . ولما جاء التلاميذ للتسميع في اليوم التالي اعتذر الجميع بطول الامثولة إلا هو فسمع الدرس وسائر ما بقي من الكتاب فاثنى الاستاذ على ذكائه واجتهاده

ومن ادلة رغبته في العلم انه وهو يتعلم الفارسية والتركية في المدرسة المذكورة لم يكن يرتوي من شرح المعلم فاتخذ استاذاً فيهما من اهل خان الخليلي كان يدفع له اجرته مما يجمعه من البارات التي كان أبوه يعطيه اياها ليتفكه بها . وقد أتقن هاتين اللغتين وما زال الى أواخر ايامه يردد بعض الابيات الفارسية التي حفظها في صباه . اما التركية فاحسنها جيداً . وخرج من هذه المدرسة وهو يعرف أربع لغات ثم تعلم الانكليزية والايطالية والقبطية ولم يكن يحتاج في درس اللغة الا الى الارادة فاذا اراد

وعرم فثباته وذكاؤه يضمنان سرعة اكتسابه ذلك اللسان . وحكي لنا عن سبب تعلمه اللغة القبطية ان بعض المستشرقين لقيه في بعض سياحاته باوربا وكلمه بالقبطية فاجابه جواباً ضعيفاً لانه لم يكن يحسنها ووعده أن يكاتبه بها بعد عودته الى مصر ببضعة اشهر وقد فعل

دخوله في عالم العمل

خرج من المدرسة فكان أول عمل تعاطاه التعليم في مدرسة حارة السقايين براتب قدره سبعماية قرش وكان ناظر المدرسة يومئذ يعقوب بك نخله رفيله . لكنه لم يمكث طويلاً في تلك المهنة لان مطامعه كانت أوسع من ذلك كثيراً فعمد الى الاستزادة من



ش ٧٦ ـ بطرس باشا غالي

العلم الذي يؤهله للعلي . وكانت الحكومة المصرية يومئذ تهتم في اخراج المترجمين لمصالحها وقد انشأت مدرسة الترجمة للمرحوم رفاعه بك ونبغ منها طبقة حسنة من المترجمين فلازمها بطرس سنتين اتقن في خلالها ما كان يعرفه

واتفق ان مجلس تجار الاسكندرية أراد توسيع دائرته فاحتاج الى كتبة ومترجمين فتقدم بطرس في جملة الطالبين للامتحان فنال قصب السبق فتعين كاتباً . لكنه ما زال يرتقي ويحرز ثقة رؤسائه حتى صار رئيس كتاب المجلس وله فيه القول الفصل . وهو في ذلك المنصب نظرت قضية في المجلس المذكور لاحد صنائع المرحوم اسماعيل باشا المفتش وصدر الحكم ضده فادعى الرجل ان بطرس أضاع حقه بافشاء بعض

اسرار المصلحة وابلغ ذلك الى مولاه المفتش فابلغ المفتش ذلك الى ناظر الداخلية يومئذ شريف باشا وكانت مجالس التجار تابعة لها . فدعاه الناظر اليه بحضرة المفتش وسأله عن التهمة فتنصل منها وقص الحقيقة بحرية واستقلال فكر . فلم يعجب المفتش تنصله فأخذ يكلم شريف باشا بالتركية طعناً فيه فردّ عليه بتلك اللغة ردًّا بليغاً ادهش الرجلين وحكما ببراءته واعجبا ببراعته

ولما تأسست المحاكم المختلطة جعلوها نظارة مستقلة سموها نظارة الحقانية برئاسة شريف باشا وكان قد عرف اقتدار صاحب الترجمة فولاه رئاسة كتابها سنة ١٨٧٤ فاخذت مواهبه تظهر من ذلك الحين. فاشتغل مع المرحوم قدري بك في ترجمة قوانين المحاكم واكثرها يعمل به الى اليوم

ولما ارتابت الدولتان انكلترا وفرنسا في مالية مصر وعينتا مندوبين لتصفية ديونها شكلوا مجلساً من كبار رجال المالية وفيه رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية وعينوا بطرس مساعداً . ثم تبدلت الاحوال فصار رياض باشا رئيس المجلس وبطرس وكيلا في الدفاع عن مصالح الحكومة . وقد أتاه هذا المنصب على غير استعداد اذ لم يكن له المام في الشؤون المالية ولكنه عوّل على نفسه واكب على دراسة الموضوع فقضى ليلتين وهو يفكر فيه ويدرسه حتى تمكن من خاطره فوضع تقريراً ومذكرة عن الضرائب والاطيان كانه درس الموضوع من عدة أعوام وقد طبعا باللغتين الفرنساوية والعربية . وعول عليهما اكثر الذين كتبوا في مالية مصر واطيانها بعده . ويقال ان السير ريفرس ولسن مندوب انكلترا في ذلك العمل لما رأى اقتدار صاحب الترجمة قال له « انك ستكون ناظراً للمالية يوماً ما » ومنحته الحكومة الرتبة الثانية ـ والرتب يومئذ عزيزة جدًّا . ولكنه اصيب على أثر ذلك بحمى تيفوسية شديدة حتى يئس الاطباء من شفائه

وبعد الانقلاب الذي خلع فيه اسماعيل وخلفه المغفور له توفيق باشا عين صاحب الترجمة (بطرس بك غالي) وكيلاً لنظارة الحقانية . ولما تشكلت وزارة شريف باشا في أثناء الثورة العرابية عهدت اليه سكرتيرية مجلس النظار مدة ثم استقل بوكالة الحقانية وانعم عليه برتبة ميرميران الرفيعة سنة ١٨٨٢ وهو أول من حازها من الاقباط

ومن الخدم التي يؤثرونها له في اثناء الثورة العرابية ان العرابيين بعد ان فروا من التل الكبير وأتوا القاهرة عقدوا مجلساً للمفاوضة في ماذا يفعلون ودعوا اليهم كبار الرجال من الامراء العسكرية والملكية وشاوروهم في ما ينبغي عمله فكان رأي بطرس

باشا التسليم للخديوي والرجوع عن العصيان وكتبوا بذلك عريضة عهدوا الى صاحب الترجمة ومحمد رؤوف باشا بايصالها الى اصحاب الشأن في الاسكندرية فذهبا نائبين عن الامة المصرية في تقديم الطاعة للحضرة الخديوية

وظل وكيلاً لنظارة الحقانية عدة سنين بعد الاحتلال وفي سنة ١٨٩٣ رقي الى منصب الوزراة فتعين ناظراً للمالية في وزارة رياض باشا . ثم انتخب ناظراً للخارجية سنة ١٨٩٥ في وزارة مصطفى فهمي باشا . وظهرت مواهبه هنا بحل المشكلات التي تعرض لناظر الخارجية نظراً لكثرة علائق مصر مع الدول من حيث المالية والسياسة وغيرها . وقد شهد له اللورد كرومر بالاقتدار على حل المشكلات غير مرة . وما زال في هذا المنصب حتى سقطت الوزارة الفهمية فوقع الاختيار عليه لتشكيل وزارة جديدة فشكلها في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وتولى رئاستها مع نظارة الخارجية وهو اكبر منصب يرجوه ابن النيل . وفي عهد وزارته همت الحكومة بتوسيع اختصاصات مجلس شورى القوانين فقررت اشتراك الامة في النظر بمشروعاتها بعرضها على المجلس ويحضر الوزراء للمناقشة فيها واشياء اخرى . وقد انتقدوا عليه بعض اعمال الحكومة التي تمت في عهد وزارته مما يرونه مغايراً لمصلحة مصر او مخالفاً للشعور الوطني ولكنه اتاه وهو يعتقد نفعه لمصر لانها وطنه وهو شديد الغيرة عليها — او انه لم ير له بدًّا منه . وما زال عاملاً مجدًّا حتى قتل في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ وقاتله شاب اسمه ناصف الورداني أطلق عليه اربع رصاصات من مسدسه في باحة نظارة الخارجية وهو يهم ان يركب عربته . وقد قبض على الجاني واعترف بالجناية بلا تهيب وقال انه قتله لانه امضى اتفاقية السودان وترأس محكمة دنشواي واعاد قانون المطبوعات وقاوم الجمعية العمومية ورضي بمشروع القناة . وقد حوكم القاتل وحكم عليه بالاعدام

مناقبه واخلاقه

قد تبين مما ذكرناه من ترجمة حياته انه كان عالي الهمة كبير المطامع ذكي الفؤاد قوي الحافظة شديد العارضة . وكان قوي البنية ربع القامة ممتلىء الجسم ونظراً لثباته وقوة عزيمته لم يكن يصعب عليه عمل فارتقى من بين العامة الى اسمى المناصب المصرية بعد الامارة بجده وقوة عقله وثباته فيصح أن يكون مثالا لطلاب العلى . وكان واسع الاطلاع في أهم مناهج الحكومة المصرية في المالية والقضاء والسياسة فضلا عن معرفته اللغات فانه اتقن منها العربية والفرنساوية والانكليزية والايطالية والتركية ويعرف أيضاً القبطية والفارسية وبعض الالمانية

وكان مستقل الفكر يكره الدالة والوساطة وينظر الى حقائق الاشياء دون

اعراضها . ومما يروى عن تقديره الاشياء حق قدرها انه لما أخذت الحكومة في انشاء المحاكم الاهلية وكان هو وكيلاً للحقانية احتاجت الحكومة الى موظفين لتلك المحاكم فاعلنت ذلك وتقدم طلاب الخدمة بالعرائض ولكل منهم وسيط من الكبراء على جاري العادة في ذلك العهد اذ كان للدالة والوساطة شأن عظيم . واستخرج كتاب الحقانية اسماء الطالبين في كشف شبه جدول دوّنوا فيه اسم كل طالب وذكروا الى جانبه اسم الكبير الذي توسط له او أوصى به . ورفعوا ذلك الكشف اليه فقرأه فرأى اسم أحد الطالبين في آخر الكشف وليس له وسيط وكان قد تحقق بالفعل انه كفء للعمل فنقل اسمه الى اعلى الكشف وكتب بجانب اسمه في محل اسم الوسيط لسائر الطالبين « وسيطه الله » يريد ان لا وسيط له غير الله وقد نال الوظيفة

وكان واسع الاطلاع في أحكام الشريعة الاسلامية وقد شهد له أئمتها بالتبحر فيها . وكان لا يزال الى الامس يترأس كومسيون المجالس المختلطة والاولى بذلك رسمياً ناظر الحقانية . وكان دقيقاً في انجاز ما عليه لا يبالي بالتعب أو السهر . وكان لحسن أسلوبه ونفوذ كلمته وقوة حجته يكلفونه التوسط في حل ما يعرض من سوء التفاهم بين العناصر المختلفة أو القوات المتضادة في هذا القطر . فضلاً عما يدخل في واجباته من التوسط بين مصر والدول الاخرى وهو ناظر الخارجية . ومما يذكر من مآثره في حل المشكلات انه اغتنم ذهابه بمعية الجناب العالي الى الاستانة سنة ١٩٠٥ وتشرف بالمثول لدى جلالة السلطان وجرى الحديث بينهما بالتركية فحل مسألة دير السلطان بالقدس

وكان للجناب العالي ثقة فيه يعول عليه في الامور الهامة ولذلك كان أسف سموه عليه كبيراً حتى تنازل لزيارته وهو مريض في المستشفى . ثم شرف بيته بعد الوفاة لتعزية ابنائه وأخيه وهذا التفات لم يسمع بمثله في مصر

وكان يميل الى المطالعة في ساعات الفراغ واكثر مطالعاته في التاريخ وفيه ميل الى المواضيع الفلسفية النظرية وفي داره مكتبة نفيسة وكان يطالع الصحف كل يوم بسرعة غريبة

رجال الاعمال واهل البر والاصلاح

كيرلس الرابع

بطريرك الاقباط الارثوذكسيين الماشر بعد المئة

هو أحد رجال الاصلاح الذين يفتخر تاريخ الامة القبطية بذكرهم نظراً لما له من الايدي البيضاء في اصلاح الكنيسة القبطية في هذا القرن وقد آثرنا شرح ترجمة حاله اقراراً بفضله اسوة امثاله من أعاظم الرجال نقلاً عن أصدق المصادر وفي جملتها ما سمعناه من افواه جماعة ممن عاشروه ورأوا أعماله رأي العين

ولد هذا الرجل سنة ١٥٣٢ قبطية (١٨٠٦ م) في قرية الصوامعة الشرقية من مديرية جرجا في مصر العليا وكان اسمه داود وكان والده مزارعاً معروفاً بين قومه بالسذاجة وسلامة النية وكان أمياً لا يعرف القراءة ولكنه لم يغفل عن تربية ولديه وهما داود المتقدم ذكره ويوسف وهو أصغرهما . فعني في تعليمهما فتعلما القراءة والكتابة في اللغتين العربية والقبطية ومبادىء الحساب

فلما اكمل داود تعلمه على قدر ما سمحت به مدارس تلك الايام عكف على معاضدة والده في اعماله الزراعية فكان يقضي يومه بين المزارع والغياض في الاعمال الخشنة فنما جسمه وتشددت عضلاته أما أخوه فاختار الكتابة والحسابة فكان يقضي معظم يومه جالساً في الديوان عاملا فكرته مجهداً عقله فنما ضعيفاً نحيفاً خلافاً لداود الذي لما بلغ اشده اختلط بالعربان المجاورين لقريته وتعلم منهم ركوب الخيل حتى صار يراكبهم ويسابقهم ويرافقهم في أسفارهم في الجبال والبراري والصحاري والف كثيراً من طرق الصحراء حتى انه لم يحتج الى دليل يرشده الى طرق الدير عند ما أراد الترهب

وقلما نعلم عن حالة صاحب الترجمة قبل انخراطه في سلك الرهبنة وانما علمنا أنه لم يكن يهمه شيء من أعمال هذه الدنيا ولم يكترث بعمل من الاعمال العالمية كأن العناية حفظته لخدمة لا يقوم باعبائها الا نفر قليلون من بني الانسان . فلما بلغ الثانية والعشرين من عمره برح بيت أبيه وفارق اصحابه وخلانه وقصد دير القديس انطونيوس في الجبل الشرقي لمجرد الترهب والانقطاع للعبادة وخدمة الله فوصله بعد مسيرة ثلاثة أيام وترهب على يد القس اثناسيوس القلوصني رئيس ذلك الدير ولم يلبث هناك مدة

حتى اشتهر بين رفقائه الرهبان بالذكاء والورع ودماثة الاخلاق والهمة والنشاط . فكان الرئيس اذا غادر الدير لغرض له في العزبة أو مكان آخر يعهد بتدبير الدير لداود دون سواه لما رأى فيه من الاهلية وحسن التدبير والغيرة على مصلحة الدير والمواظبة على مطالعة الكتب المفيدة حتى رآه يجمع اخوانه الرهبان في ساعات الفراغ ويقرأ عليهم ويشرح لهم ويحثهم على المطالعة . وبعد دخوله الدير بسنتين توفي القس اثناسيوس المشار اليه فاجمع الرهبان كافة على اسناد منصب رئاسة الدير اليه فاستحضره الانبا بطرس بطريرك الاقباط اذ ذاك وثبته في ذلك المنصب ودعا له وباركه . فانصرف القس داود الى مقر وظيفته في بوش بمديرية بني سويف وشرع



ش ٧٧ : كيرلس الرابع

في مباشرة المهام التي عهدت اليه بهمة ونشاط ودراية . وكان على كثرة تجواله لقضاء مهام الدير المتعددة في البلاد المختلفة لا يهمل شيئاً من لوازم الدير في الجبل في أوقاتها حتى لا يتخذ الرهبان تأخرها ذريعة لمغادرة الدير والتجول في البلاد من جهة الى أخرى مما يخالف عهود الرهبنة . اذ كان في اعتقاده ان الراهب لا يجب أن يبرح ديره إلا اذا دعاه رئيسه الى ذلك فاذا خالف احد الرهبان هذا الامر كان يتظاهر القس داود بالاغضاء عنه ثم يعمل على اجباره بحسن السياسة على ايثار البقاء في الدير على الخروج منه . وما زال ذلك اعتقاده في الرهبنة الى آخر أيامه حتى انه لما صار بطريركا أصدر منشوراً يقضي بملازمة الرهبان الديور وان لا يخرجوا منها الا باذن

منه ولم يبق في العزبة في بوش الا الرهبان الذين لا غنى عنهم في الاعمال الزراعية ومتعلقاتها ومن أفواله من هذا القبيل « ان من يختار ثوب الرهبنة فقد مات عن الدنيا ودفن في الدير فلا يخرج الميت من قبره . والرئيس الذي يؤذن للراهب في الخروج من ديره فقد أخرج ميتاً من قبره »

ومما يذكر من آثاره في أثناء اقامته في بوش رئيساً للدير انه خصص مكاناً في العزبة جمع اليه ما كان هناك من الكتب وضم اليها بعضاً آخر من كتب الدير وكان يجمع الرهبان اليه في ساعات الفراغ ويستحثهم على المطالعة والمفاوضة في المواضيع الدينية والادبية والتاريخية . وانشأ مدرسة لتعليم شبان بوش الاقباط اللغة العربية بفروعها واللغة القبطية واعتنى هو في تعلم النحو والصرف فاكتسب منهما ما يكفي لضبط القراءة والكتابة وبالجملة فقد كان نوراً تنبعث منه اشعة الفضيلة والقدوة الحسنة في سائر مديرية بني سويف واجمع اهلها على اختلاف المذاهب على حبه واحترامه ومشاورته في مهامهم

وحدث في أثناء ذلك خلاف بين الانبا سلامة مطران الحبشة واكليروسهم وسببه ان المطران سلامة لما تولى اسقفية الحبشة رأى الشعب واكليروسهم هناك على ما هو مخالف لروح الكتاب واستغرب تساهل اسلافه المطارنة في هذا الامر وسكوتهم عنه فاراد ردعهم واهدائهم الى الطريق الحق فغضبوا واصروا على اعتقادهم بدعوى انه اعتقاد اجدادهم ولا يريدون الجنوح الى سواه . فلما يئس من ردعهم بالبراهين الدينية هددهم بالسلطة الكنائسية فشكوه للبطريرك الانبا بطرس المتقدم ذكره وكان مشهوراً بالحلم والوداعة والتقوى فكتب الى المطران سلامة يحرضه على معاملة الرعية بالرفق واللين وتجنب كل ما يؤول الى الشقاق . فلما قرأ هذا الكتاب شقّ عليه ما نسب اليه فيه من القسوة والحدة ولو تلميحاً فكتب الى البطريرك يبرىء نفسه من تلك التهم وقد شرح المسألة شرحاً وافياً . وقال في آخر الكتاب ان موضوع الخلاف ليس عالمياً حتى يتساهل فيه وطاعة الله اولى من طاعة الناس . فلما تناول البطريرك الكتاب سرّ لثبات المطران واخلاصه وكان يرجو أن تنفرج تلك الازمة على يده . ثم علم بتفاقم الخطب لتداخل بعض رجال الحكومة هناك ومقاومتهم له فخاف العاقبة فلم ير بداً من ملافاة الامر بالحزم فبعث القسيس داود واسرّ اليه حقيقة الواقع واظهر له اسفه مما حصل وانه يخشى وقوع الانشقاق في الطائفة بسبب ذلك وانه لشيخوخته لا يستطيع الذهاب الى الحبشة بنفسه لتسوية الخلاف ولذلك فانه لم ير من يليق لهذه المهمة

افضل منه . وعهد اليه بالمسير نائباً عنه لما يعهد فيه من الدراية والحكمة والعزيمة . فاذعن القسيس لامره ولكنه طلب اليه أن يصرح لكاهن آخر بمرافقته ليكون له عوناً في ذلك فاذن له فاصطحب راهباً اسمه القس برسوم الراهب (ثم صار الانبا يوأنس أسقف المنوفيـة) فسار القس داود أولا الى بوش يتأهب للمسير وفي اليوم المعين سار بكتاب من البطريرك للمطران وآخر الى القسوس وسائر الشعب الحبشي ولما ودعاه قال البطريرك للقس داود على مسمع من الناس « انك اذا أديت هـذه المهمة على وجه مرض تنال فيه نصيباً صالحاً عند عودتك مكافأة لك » وقال آخرون انه وعده بمنصب مطران عنـد رجوعه فسار على بركة الرحمن سنة ١٥٦٧ قبطية (١٨٥١ م) وقد أحسن بمرافقة الانبا يوأنس لانه جدير بثقته واهل لمثل ذلك المسعى الخيري

وفي يوم ٢٨ برمهات سنة ١٥٦٨ الموافق (١٨٥٢ م) توفى البطريرك الى رحمة الله في أثناء غياب القس داود بعد أن اقام في كرسي الكرازة المرقسية نيف واربعين عاماً وكان رجلاً كاملاً اسف الناس على فقده

وبعد وفاته بقليل جاء العاصمة اساقفة الوجه البحري والوجه القبلي لكي يتحدوا مع الشعب في انتخاب من يقوم مقامـه وفي اجتماعهم الاول في دار البطريركية كان اسم القس داود في جملة المرشحين لذلك المنصب فاعترض بعضهم على انتخابه لانهم لا يعلمون من امر حياته شيئاً بدعوى انهم سمعوا بخروجه من بلاد الحبشة منذ مدة ولم يعودوا يعلمون ما كان من امره وألحوا في انتخاب سواه فارفضت هـذه الجلسة ولم يتم الانتخاب . ومن غريب الاتفاق انه قبـل حلول ميقات الجلسة الثانية ورد من القس داود كتاب لبعض اصدقائه ينبئه بوصوله حـدود مصر وانه سيكون في القاهرة بعد قليل فسر منتخبوه بذلك فلما التأمت الجلسة صرحوا بكتابه وطلبوا انتخابه فطلب بعضهم انتخاب الانبا يوساب اسقف اخميم اذ ذاك وأوقفه جماعة من الحضور فاعترض منتخبو القس داود على ذلك وارفضت الجلسة بلا نتيجة فاخذ حزب القس داود في كتابة تزكية باسمه وقع عليها كثير من ابناء الطائفة لكي يكون شاهداً لرضاء الجمهور عن انتخابه . وكان في جملة احزابه تادرس شلبي وتادرس عريان وبرسوم واصف وحنا عبيد ويوسف نصر الله وحنين حنس واخوه اسطفانوس حنس وروفائيل الطوخي وحنا القسيس وبطرس نخله وابراهيم لطف الله ويوسف مفتاح وتادرس سيدهم وجميعهم من اعيان الطائفة ووجهائها وكان من اشد الناس اهتماماً في ذلك حنا افندي جريس وابراهيم افندي خليل

وبقي النزاع مدة وصل في اثنائها القس داود الى القاهرة فسرت احزابه وتقاطروا للسلام عليه وكانت مدة غيابه هذه المرة نحو ثمانية عشر شهراً

فلما رأت احزاب اسقف اخميم ميل الجمهور الى انتخاب القس داود عولوا على تنفيذ مآربهم بالحيلة بان يجتمعوا ذات ليلة ويسيموا الاسقف بطريركا فاذا أصبح الناس رأوا السهم قد نفذ وادعى بعض الراغبين في ذلك انه تحصل على امر شفاهي من المغفور له عباس باشا الاول برسم الاسقف بطريركا . ولكنهم لم يستطيعوا كتم تواطؤهم فعلمت احزاب القس بذلك فجاؤهم في الوقت الذي عينوه لذلك واخرجوهم من الكنيسة بالقوة واقفلوا الابواب وسلموا المفتاح لرجل حبشي اسمه سلطان كان في البطريركية مع جماعة من ابناء وطنه وكان يدعي انه من عائلة النجاشي ملك الحبشة. ثم اجتمعوا وعرضوا للحكومة يشكون سوء تصرف بعض الاساقفة في هذا الامر وألحوا في انتخاب القسيس لرضاء الشعب عنه بشهادة التزكية التي كتبوها عنه فاحالت الحكومة تسوية الامر على الانبا كيريل ورتبيت الارمن اذ ذاك فاخفق سعيه لتمسك كل من الفريقين برأيه وغرضه . ومن الغريب ان تلك المقاومة لم يكن لها أساس حقيقي سوى حب السيادة ونفوذ الكلمة . غير ان حزب القس داود كانوا على بينة مما دعوا اليه لانهم كانوا يعلمون صفات ذلك الرجل وانه لائق بذلك المنصب لما عرف به من شدة الميل الى اصلاح الطائفة وسعة اطلاعه وحسن درايته . وأما المتشيعون لغيره فكانوا يظنون انه يكفي لرئيس الطائفة والقابض على ازمتها ان يكون حسن السيرة ورعاً تقياً وقد يلتمس لهم في ذلك بعض العذر لانهم لم يكونوا يعرفون للبطريرك عملا غير الصلاة والفصل في بعض القضايا الجزئية كتأييد الصلح بين رجل وامرأته أو ما شاكل اما مصلحة الامة العمومية فلم يكونوا يفقهون لها معنى

ولما خابت مساعيهم جعلوا يختلقون على القس داود اقاويل وأراجيف لا أصل لها فادعى عليه بعضهم انه تزوج في الحبشة وله ولدان في قيد الحياة وكان المختلق لهذه الاكذوبة قسيساً حبشياً جاء مصر لضغينة بينه وبين القس داود بسبب ما ذهب القس الى الحبشة من أجله وكان في عزم ذلك الحبشي ان يشي به الى البطريرك فلما رأى البطريرك قد توفي والشعب قائماً على القس داود اختلق عليه تلك الاكذوبة واتهمه بالمداخلة في امور السياسة في الحبشة بما يشبه خيانة الحكومة المصرية ولكن حبل الكذب قصير فما لبثت هذه التقولات زمناً حتى ظهر فسادها ظهور الشمس لذي عينين وكان عباس باشا قد تغير عليه بسبب ما نسب اليه من المداخلات السياسية فلما تحقق الخبر اعتقد صدق طويته

وما زال الخلاف والنزاع قائماً بهذا الشأن نحو عشرة اشهر انتهت بواسطة ورتبيت الارمن بتعيين القس داود مطراناً على مصر ثم اذا اتضح من أعماله انه لائق بالبطريركية تقلدها فتنصب مطراناً في ١٠ برمودة سنة ١٥٦٩ قبطية (١٨٥٣ م) وأخذ من ذلك الحين في مباشرة اعماله وادارة البطركخانة واظهر من الاهلية والهمة والغيرة ما استدر الثناء عليه من القاصي والداني . وأول امر باشره بعد رسمه مطراناً بناء مدرسة للاقباط بجوار البطركخانة وهي اول مدرسة اقيمت لهذه الطائفة فاشترى عدة منازل واقام على انقاضها مدرسة ذاع صيتها وفاح اريجها في سائر الديار المصرية وغيرها

وكان بناء هذه المدرسة ونجاحها من موجبات اجماع الجميع على محبته حتى انتخبوه بطريركا في ليلة الاحد ١١ بؤونه سنة ١٥٧٠ قبطية الموافق (١٨٥٤ م) بحضور جميع الاساقفة ما عدا اسقفي اخميم وابي تيج ولقبوه انبا كيرلس الرابع

فلما اصبح مستقلا في عمله شرع في اخراج مقاصده من حيز الفكر الى الفعل فاتم بناء المدرسة وأحضر لها الاساتذة الماهرين وكان يقبل التلامذة فيها ويصرف لهم الكتب والادوات المدرسية مجاناً وكان يباشر التعليم بنفسه فلا يمر عليه يوم لا يفتقد فيه حالها مرة أو غير مرة . ولزيادة الاعتناء بها اتخذ له محلا فيها فاذا اتى اليه زائر من الاجانب أو غيره من ذوي المعرفة باللغات والعلوم وطرق التعليم كلفه بزيارة المكاتب وفحص التلامذة وابداء ملاحظاته فيما يعود الى تحسين حالها وتسهيل طرق التعليم فيها . وكثيراً ما كان يطيل الاقامة في المكتب مصغياً لما يلقيه الاستاذ على الطلبة ثم يقول مخاطباً التلامذة قبل خروجه « قد استفدت معكم اليوم فائدة لم اكن أعرفها قبلا » وكان احياناً يلقي على التلامذة عبارات ادبية وتاريخية مما يناسب سنهم وادراكهم. وقد جعل تعليم اللغة القبطية جبرياً وكان يلاحظ سير دروسها بنفسه

ولما رتب مدرسة الازبكية وارتاح باله من جهتها ورأى ان بعض الطلبة يأتون اليها من جهات بعيدة مثل حارة السقايين اشفق عليهم وأنشأ مدرسة وكنيسة هناك ولم يكن بها من قبل كنيسة وناط المرحوم حنا افندي القسيس بملاحظتها وتقديم ما يلزم لها من المعدات والادوات . وكان حنا افندي هذا من افاضل القوم الغيورين ولم يكتف جناب البطريرك بذلك بل كان يزورها ويفحص حالها مرة في كل اسبوعين على الاقل هذا فضلا عن تكليفه معلمها الاول بتعريفه عن حالها وكيفية سيرها اول فاول

ولكن مع كل التسهيلات التي أجراها رحمه الله وعدم تكليف الوالدين شيئاً لم يزد عدد التلامذة في ايامه بمدرسة الازبكية على مئة وخمسين تلميذاً مع انه لم يكن بمصر

واسطة لتعليم أبناء الامة القبطية غير هذه المدرسة وكثيراً ما كان يحمل الوالدين على احضار اولادهم الى المدرسة جبراً ولكنهم مع ذلك كانوا يفضلون وجود اولادهم بمكاتب العرفان القذرة الرديئة الهواء وكان معظم هؤلاء التلامذة من ابناء وجهاء القوم ومعتبريهم ولذا كان يعاملهم أحسن معاملة ويحث الاساتذة على تربيتهم التربية الحسنة وبذل الجهد في توسيع عقولهم وتثقيف اذهانهم بالنصائح الادبية والروايات الحكمية كما كان يفعل هو بنفسه في اكثر الاحيان

وعهد الى أحد قسوس كنيسة الازبكية المسمى القمس تكلا المشهود له باتقان فن الموسيقى والالحان الكنائسية ان ينتخب من بين تلامذة المدرسة الشمامسة عدداً معلوماً من ذوي الاصوات الحسنة وناطه بتعليمهم التراتيل الكنائسية بطريقة مضبوطة وجعل لهم ملابس مخصوصة على طرز جديد لطيف يلبسونها في اثناء وجودهم في الكنيسة في أيام الاحاد والاعياد والمواسم فنتج من هذا التحسين الظاهري فائدتان احداها اظهار مزايا المدارس وترغيب الاهالي في وضع أولادهم بها والثانية مواظبتهم على الحضور الى الكنيسة وهم منشرحو الصدر من سماع التراتيل وهاك ما قاله ابراهيم افندي الطبيب في كتابه المسمى « مصباح الساري ونزهة القاري » المطبوع في بيروت سنة ١٢٧٣ هـ في أثناء كلامه عن مصر ومدارسها قال :

« وفي حارة الاقباط مدرسة عظيمة يعلمون فيها اللسان القبطي القديم والتركي والايطالياني والفرنساوي والانكليزي والعربي وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة وهذه بناها البطريرك كيرلس القبطي وانفق عليها نحو ستمئة الف قرش وكل هذا بخلاف ما نعهده في بلادنا من الاكليروس واوجه الشعب

ولم يمض زمن حتى خرج من هاتين المدرستين عدة تلامذة . واتفق حدوث مصلحة السكة الحديدية بالديار المصرية فانتظموا في خدمتها وانتشروا في جميع محطاتها وكانوا يؤدون اعمالهم باللغة الانكليزية وبعضهم استخدم في البنوكة وعند التجار لمعرفتهم اللغة الطليانية وقد عرف جناب اسماعيل باشا الخديوي الاسبق مقدار هذه الخدمة الوطنية فاستدعى اليه الانبا ديمتريوس البطريرك خلف السعيد الذكر الانبا كيرلس واظهر ارتياحه للخدمة الوطنية التي قامت بها المدارس القبطية لان معظم مستخدمي السكة الحديد المصرية من تلامذتها وانعم عليه بالف وخمسمئة فدان ليتساعد بايراداتها على توسيع نطاق المدارس ورتب لها ايضاً مئتي جنيه مصري سنوياً ولكن هذه منعت عنها فيما بعد بسبب عسر المالية واضطرار الحكومة للاقتصاد

ووجه نظره الى تحسين حالة ادارة البطركخانة فانشأ لها ديواناً وعين له المستخدمين الاكفاء وقسم الادارة الى قسمين قسم يختص بالاوقاف والمكاتبات الرسمية وغيرها وقسم يختص بالاعمال الدينية والشرعية وخص ابراهيم افندي خليل بالقسم الاول وأحد القسوس ومعلمان مصر بالقسم الثاني وكلاهما تحت ملاحظاته الشخصية . ورأى ان اعمال الاوقاف جارية بطريقة غير منتظمة وكان بعضها ضائعاً ولم يعرف الضائع منها والموجود فامر بانشاء سجل لحصر جميع الاوقاف به من واقع الحجج واستخدم لهذا العمل عمالا اشتغلوا به زمناً حتى اتموه على الوجه الذي كان يريده وانشأ ايضاً مطبعة وبعث يستحضر ادواتها من اوروبا على يد المرحوم الخواجا رفله عبيد السوري الارثوذكسي . وقبل احضارها اختار من ابناء الامة القبطية اربعة من شبانها النجباء . ورتب لهم رواتب شهرية وملابس سنوية تصرف لهم في اوقاتها من الدار البطريركية وتحصل على امر من المرحوم سعيد باشا بقبولهم في مطبعة بولاق الاميرية ليتعلموا صناعة الطباعة اذ لم يكن في القطر المصري اذ ذاك مطبعة غيرها

ومما يدلك على شدة احترامه للعلم ورغبته في نشره وتنشيطه انه لما أنبأه الخواجا رفله عبيد المتقدم ذكره بوصول ادوات المطبعة الى الاسكندرية وكان البطريرك في الدير بالجبل بعث الى وكيل البطركخانة بمصر يأمره باستقبال تلك الادوات عند وصولها القاهرة باحتفال رسمي يقوم فيه الشمامسة بالملابس الرسمية المختصة بالخدمة الكنائسية يرتلون التراتيل الروحية وكان لاستقبال تلك المطبعة احتفال تحدث الناس به زمناً لغرابته غير ان التقادير لم تفسح له بالاجل حتى يتم المعدات ويباشر العمل بنفسه فتولى امرها بعده المرحوم رزق بك جرجس وطبع فيها عدة كتب دينية وأدبية ثم صارت المطبعة تحت يد أخيه الخواجه ابراهيم جرجس وعرفت بمطبعة الوطن

وفي آخر شهر مسرى سنة ١٥٧٢ قبطية (١٨٥٦ م) بعثه المغفور له سعيد باشا بمهمة سياسية الى الحبشة فذهب وقلبه عالق بالمدارس فاوصى المرحوم المعلم برسوم واصف بادارة البطركخانة والمدارس . وطالت مدة غيابه في الحبشة فقلق الناس خوفاً عليه ثم سمعوا انه قام من جهة الخرطوم مع اثنين من خاصة ثيودور ملك الحبشة فاطمأن الناس واستبشروا بنجاح مهمته وفي ٧ امشير سنة ١٥٧٤ وصل القاهرة فاستقبلوه باحتفال يليق به حتى غصت الشوارع بالناس ولا سيما جهات الازبكية وما وصل البطركخانة حتى تهافت الناس عليه يقبلون يديه ويتبركون به واعدوا له زينة فاخرة في المدرسة والبطركخانة . ولما انتهت الزينة عاد هو الى مباشرة اعماله في

بناء الكنيسة واحتفل بتأسيسها احتفالا عظيما جدًّا حضره جميع رؤساء الطوائف واعيان البلاد ورجال الحكومة يوم الخميس ٢٩ برموده سنة ١٥٧٥ (٢٢ افريل « نيسان » سنة ١٨٥٩)

وفي ليلة الاربعاء ٢٣ طوبه سنة ١٥٧٧ قبطية (١٨٦١م) توفي الى رحمة الله وحزن لفقده كل من عرفه أو سمع عنه ولا سيما الطائفة القبطية لانها خسرت بفقده خسارة جسيمة جدًّا وكانت مدة توليه البطريركية سبع سنوات

وكان البطريرك كيرلس الرابع طويل القامة ممتلىء الجسم قوي البنية صحيح الاعضاء اسمر اللون حاد النظر والذهن كبير الرأس عريض الجبهة كثيف اللحية اسودها طلق الوجه واللسان سريع الاقدام على ما ينويه كثير الامثال في حديثه فقلما يلقي عبارة لا يسندها الى مثل . وكان عالي الهمة وديعاً فطناً سديد الرأي قريب الرضا سريع العفو لا يشرب الخمر كثير الاحترام للرهبنة محافظاً على اصولها وكان شديد الكره لمقابلة النساء وجمع المال لا يحب الاستبداد في رأيه ولو كان مصيباً وكان كلفاً بمخالطة العلماء ومجالسة الفضلاء ومكالمتهم ومناظرتهم ولم يكن يستنكف من الاقرار بغلطه اذا اتضح له . ومن افضل ما اتصف به رحمه الله حبه لرعيته وسهره على مصلحتهم ورفع كل ما يوجب النفرة بينهم والسعي في كل ما فيه تهذيب الشبان بانشاء المدارس وتسهيل طرق التعليم

ومن أعماله الحميدة ان القسس كانوا قبل زمانه يعيشون على حسنات الطائفة وصدقاتها فرتب هو لهم رواتب شهرية تصرف لهم من البطركخانة . ورغبة في رفعة منزلتهم وحفظ مقاماتهم اصدر منشوراً يقضي بان الراتب لا يصرف الا لمن يعرف خدمة بانشاء القداس باللغة القبطية معرفة جيدة

وعند عودته من الحبشة رتب للقسس ميقاتاً يجتمعون فيه كل سبت في المدرسة يتباحثون في امور دينية وكان هو يحضر معهم يناقشهم ويشرح لهم واجبات القسوس وآدابهم وما يكسبهم مقاماً رفيعاً بين الناس وكان في نيته أن يعقب ذلك بتأسيس مدرسة اكليريكية فلم تمهله منيته وفتح في آخر أيامه مدارس للبنات ولكنها لم تثبت

وكان كثير التيقظ لاصلاح ما يقع من النفور بين أولاده أو بين الرجال ونسائهم على انه كان يكره مواجهة النساء حتى انه لم يكن يقابل والدته الا نادراً

وكانت العادة في الزيجة أن يعقد القسيس بين الشاب والشابة عقداً يدعونه « عقد تمليك » قبل الاكليل بمدة غير ان هذا العقد لا يقبل الحل أو هو بمنزلة عقد الزيجة فاصدر البطريرك منشوراً يجعل ذلك العقد « عقد صلح وسلام » حتى اذا عرض لاحد

الطرفين ما يمنع اتمام الاقتران يمكن حله وهـذا لا يزال جارياً في الطائفة الى الان . وكانت العادة ان يزوّجوا البنات صغيرات جداً فامر أن لا يتم عقد الزواج على الفتاة الا اذا تجاوزت الاربع عشرة سنة من العمر وجعل الاعتراف قبل الاكليل فرضاً واجباً على العروسين حتى لا يحصل ما يكره احد الفريقين بسبب ما كان من التحجب بين الرجال والنساء في تلك الايام وامر ان لا يعقد القسس اكليلاً إلا بعد استئذان البطركخانة حتى يسجل ذلك في دفاترها والبطركخانة لا تؤذن بالاكليل الا بعـد الاطلاع على محضر الاتفاق بحيث لا يكون ما يمنع الاقتران

ولشدة رغبته في تعليم ابناء طائفته ورفعة منزلتهم استأذن المغفور له سعيد باشا أن يدخل تلامذة مدرسته في مدرسة الطب وغيرها من المدارس الاميرية بصفة رسمية

وخلاصة القول انه كان قـدوة البطاركة وعنوان رجال الفضل ولو امهلته المنية بضع سنين اخرى لجاء من الاعمال العظيمة باضعاف ما جاء ولـكنها عاجلته فلم يتولَّ كرسي الكرازة المرقسية الا سبع سنين عمل في أثنائها اعمالاً لا يعملها غيره اضعاف تلك المدة

مصطفى كامل

صاحب اللواء

ولد سنة ١٨٧٤ وتوفي سنة ١٩٠٨

مصطفى كامل والنهضة السياسية

شاهد المصريون في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ما لم يشاهدوا مثله من قبل. شاهدوا حزناً على مصطفى باشا صاحب اللواء عمَّ القطر المصري من اقصاه الى اقصاه وانتشر في سائر العالم الاسلامي وسمع دويه في اوربا والشرق الاقصى مما لم يسمع بمثله في وادي النيل. توفي صاحب اللواء في أصيل ذلك اليوم ودفن في أصيل اليوم التالي فمشى في جنازته عشرات الالوف واشترك في المصاب أهل القطر على اختلاف طبقاتهم واعمارهم. فرثاه الشعراء وأبنه الخطباء وبكته الصحف وقضت اياماً في نشر ما يرد عليها من رسائل التعزية نثراً ونظما. واقيمت له المآتم في انحاء القطر فلم يبق جمعية خيرية او أدبيـة او نادٍ علمي او مدرسة وطنية للذكور او الاناث في القاهرة والاسكندرية او في الارياف الا عقدت جلسة لتأبين ذلك الفقيد حتى الجمعية الماسونية فقد احتفل بعض محافلها بتأبينه. وبعضهم أقام حفلات تأبين في الازبكية غير ما بعثوا به من تلغرافات التعزية الى ادارة اللواء من الافراد والجماعات كالجمعيات والمشيخات والمدارس وتبرع كثيرون عن نفسه للجمعيات الخيرية ونحوها. وغير ما جاء من رسائل التعزية من انكلترا وفرنسا وغيرهما ومن أطراف الهند. ونشرت التلغرافات العمومية والصحف الافرنجية نعيه وتكلمت عنه. وتألفت في القاهرة لجنة لاقامة تمثال يحيا به ذكره والناس يبذلون المال في هذا السبيل. وعينوا يوم ٢٠ مارس التالي للاحتفال بتأبينه بجانب ضريحه بقراقة الامام — فمن كان هذا وقع مصابه في النفوس جدير بان تنظر في ترجمة حاله وندرس أخلاقه وأعماله ونبين منزلته من التاريخ. ونقدم الكلام بفذلكة في تاريخ النهضة السياسية المصرية فنقول:

النهضة السياسية المصرية

فتح العرب مصر في صدر الاسلام فاصبح النفوذ فيها للفاتحين وأعظم مناصب الدولة في ايديهم فتغلب العنصر العربي على سائر العناصر. ثم دخلت في حوزة الاكراد (الايوبيين) فالشراكسة (المماليك) فالاتراك (العثمانيين) فكان النفوذ ينتقل من امة الى اخرى حسب ادوار حكمها. على ان العنصر الشركسي ظلَّ متسلطاً في أثناء حكم

الدولة العلية بمصر لانها ولتهم الاحكام تحت رعايتها ومنهم امراء المماليك والسناجق وبعض الجند . فاصبح العنصر العربي وهم المصريون الوطنيون أضعف سائر العناصر

فقضى المصريون أجيالا راضين بما قسم لهم وكان الجهل ضارباً أطنابه فيهم لاشتغال حكامهم بالحروب والخصومة عن ترقية شأن رعاياهم حتى أذن الله ان يتولى حكومتهم المغفور له محمد علي باشا الكبير فاقتضت سياسته ومقاصده احياء معالم اللغة العربية فانشأ المدارس وفتح المعامل وسهل دخول الاجانب الى هذه البلاد وأرسل بعض شبانها الى اوربا لتلقي العلوم واقتباس حسنات التمدن الحديث . فاستنارت أذهان المصريين وفتحوا



ش ٨٠ : مصطفى باشا كامل

أعينهم ففقهوا لما ضاع من حقوقهم ولكنهم لم يطالبوا به لضغط حكامهم على أفكارهم بقوة الاستمرار اذا لا يتأتى لهم ان ينتقلوا بغتة من الضغط الشديد تحت الامراء المماليك الى الحرية التامة تحت حكومة العائلة المحمدية العلوية . فتوالى على حكومة مصر محمد علي فابراهيم فعباس والمصريون ساكتون . فلما افضت الولاية الى سعيد باشا سنة ١٨٥٤ طلع على المصريين فجر الوطنية لانه كان يعد نفسه مصرياً فاخذ يبث روح الوطنية في جنده اذ لم يكن للعامة ساعد يرجى ولا سطوة تخشى . وجاهر بوطنيته في حفلة

احتفال نجله طوسون بحضور العائلة الخديوية وضباط الجيش وجماعة من الاجانب فوقف وارتجل خطبة قال فيها « ان من امعن النظر في تاريخ بلادنا هذه وتوالي حوادثها المحزنة لا يسعه غير الاسف والتعجب حيث تتوالى الامم الاجنبية على أهلها ويظلمون سكانها كالكلدانيين والفرس قبل الاسلام والترك والاكراد والشركس وغيرهم بعد الاسلام وكلهم يفسدون ولا يصلحون وقد عزمت على تثقيف ابناء البلاد وتهذيبهم وترقيتهم حتى تكون حكومة البلاد بايديهم بصفة كوني مصرياً منهم وبالله الاستعانة »

فكان لقوله وقع شديد على السامعين وفيهم (احمد عرابي باشا) وهو يومئذ صاغقول اغاسي وكان جريئاً فازداد جرأة واتسعت مطامعه وانبثت روح الوطنية في سائر الضباط وارتقوا في رتب الجندية واكثرهم غير متعلمين وانما رقاهم سعيد باشا تنشيطاً للوطنية فشق ذلك على الضباط الشراكسة والاتراك وأوغرت صدورهم على الوطنيين ووجدوا على سعيد باشا فاحس بجفائهم وتذمرهم فلم يبال وربما ذكر ذلك للوطنيين تحريضاً لهم على الثبات

١ ـ النهضة العسكرية

فلما افضت الولاية الى اسماعيل سنة ١٨٦٣ تبدلت الاحوال لانه كان على غير رأي سلفه في امر الوطنيين وقد بذل قصارى جهده في استقدام الاجانب الى بلاده بما انشأه من وسائل الرفاه وتسهيل التجارة وكان مع ذلك يعني بتعليم الوطنيين وارسال الارساليات الى أوربا فازداد المصريون معرفة لحقوقهم . ولكن الخديوي اسماعيل كان يرى من حسن السياسة ان يضغط عليهم ويقيد افكارهم ويطلق العنان للاجانب على اختلاف اجناسهم وخصوصاً الشراكسة . فكظم المصريون ما في نفوسهم اعواماً على انهم ظلوا يتهامسون به فيما بينهم ولم يكن حديثهم حيثما اجتمعوا الا التشاكي مما يقاسونه من الضغط مع خروج معظم مصالح البلاد من ايديهم الى الاجانب

وكان اكثرهم تشكياً جماعة الجهادية لظهور الاجحاف فيهم اكثرهم مما بسواهم لان القوة العسكرية كانت مؤلفة من المصريين والشراكسة وغيرهم . ولم يكن المصريون ينالون من الرتب الا امارة الالايات فما دونها بخلاف الشراكسة فقد كانت الالوية والفرقاء منهم والسلطة والنفوذ في ايديهم وكلما شاهدوا من المصريين تذمراً زادوهم تضييقاً فاذا اقتضت الاحوال تجنيد حملة الى السودان او غيرها من بلاد الشقاء جندوا اليها المصريين وبقي الشراكسة يتمتعون بنفوذهم ورفاهيتهم في القاهرة والاسكندرية فلم يكن ذلك الا ليزيد الوطنيين حقداً او غيظاً . ولما لم يستطيعوا التصريح بشكواهم

جهاراً ألفوا الجمعيات السرية يهمسون فيها بما في ضمائرهم سراً

ثم افضت الخديوية المصرية الى المغفور له الخديوي توفيق باشا وكان رحمه الله محباً للوطن المصري راغباً في ترقية ابنائه لانه تربى تربية وطنية محضة وكان حر الضمير فنظر في شكوى الوطنيين فرفع الضغط عنهم واعترف بما لهم . وهي فضيلة جديرة بكل حاكم ولكنها جاءت المصريين اذ ذاك على غير استعداد . فبينما هم تحت الضغط الشديد والنار كامنة في صدورهم اذ رفع الضغط بغتة فاتقدت نيران الثورة وانتشرت في سائر انحاء القطر

هذا هو الطور الاول من النهضة السياسية الحديثة والعامل فيه كما رأيت اطلاق الحرية فجأة بعد طول الضغط وقد قام بها الجند وجارهم الاهالي واكثر هؤلاء لا يدركون ماذا يعملون وان كانوا يرجون بذلك التخلص من امتياز الاجانب . وكان زعماء الجند اكثرهم من غير المتعلمين فلم يحسنوا التصرف في تلك الحركة فبعد ان كانت نهضة وطنية سياسية تحولت الى ثورة عسكرية آلت الى الاحتلال الانكليزي وامره معلوم

فلما ذهبت دهشة الحرب انتبه عقلاء الامة فوجدوا انفسهم قد نجوا من شر ووقعوا في شرين لاعتقادهم انهم سفكوا دماءهم وبذلوا اموالهم للتخلص من شر الشراكسة وهم يختلفون عنهم جنساً ويشتركون معهم في الدين فاذا هم قد دخلوا في سيطرة دولة اجنبية تختلف عنهم جنساً ودیناً . ونبغ على اثر تلك الثورة جماعة من رجال الفكر والحرية عملاً بسنة العمران على اثر كل حركة أهلية . وكان بعضهم قد مالأ واعرابي وحوكموا ونفوا ثم عادوا وقد زادتهم الغربة خبرة وعبرة ورأوا الاحتلال قد توطدت دعائمه فرضخوا له وهم يعللون انفسهم بجلائه قياماً بالوعد . على ان بعضهم يئس من الجلاء فتقرب من عميد الاحتلال واستعان به على خدمة مصالح الامة والبعض الآخر خدمها بنشر المبادىء الاجتماعية لترقية النفوس وتربية الاخلاق الحسنة وعمل آخرون على بث المبادىء الاصلاحية في نفوس المسلمين ومحاربة البدع ونحوها مما يباعد بين المسلمين وسواهم

اما الامة على اجمالها فما زالت تئن تحت نير الاحتلال وتتشكى همساً في الاندية الخصوصية او المجالس العائلية لا يسمع لها صوت والصحافة مقيدة يومئذ بقانون المطبوعات الا من كتب في جريدة افرنجية لا سلطة للقانون عليها . وكان أكثر الاجانب تظاهراً بتقبيح الاحتلال الفرنساويون

ولما توفي المرحوم توفيق باشا وخلفه سمو الخديوي عباس باشا تجددت آمال الامة بانقلاب سياسي يرفع ذلك النير عن رقابهم . وطبيعي أن يكون الجناب العالي اكثر الناس

رغبة في الجلاء . ولم يخف ذلك على المصريين فزادوا تعلقاً بعرشه واحس الانكليز بذلك فاستيقظوا وساعدتهم الاحوال على البقاء فبالغوا في استخدام نفوذهم واساء بعضهم معاملة المصريين فازدادوا كرهاً للاحتلال وتعلقاً بالخديوي كاولاد يستغيثون بوالدهم من غريب نزل في دارهم يحاول امتلاكها . ولنفس هذا السبب توجهت الآمال الى الاستانة واكثر المصريون من ذكر الخليفة وسيادته على المسلمين وقلما كانوا يفعلون ذلك من قبل

٢ — النهضة المدرسية

واقتضت سياسة انكلترا في اثناء ذلك اطلاق حرية المطبوعات ونبغ جماعة من الكتاب والمحررين تدرجوا في استقلال الفكر الى نشر مساوىء الاحتلال فحدثت نهضة سياسية صحافية انقسمت الصحف فيها الى حزبين حزب يعرف بجرائد الاحتلال يمتدح أعمال المحتلين وحزب يعرف بالجرائد الوطنية ينتقدها وعميد انكلترا يطلع على ما يقولون ولا يكلفهم السكوت . وكانت الجرائد الوطنية تعبر عن احساس الوطنيين وتطعن في جرائد الاحتلال لا يخرجون في ذلك عن المنافسة وقلّ فيهم من جاهر بطلب الجلاء . ونشأ في أثناء ذلك طبقة من الشبان تخرجوا في المدارس المصرية وتفقهوا في اوربا وتشرب بعضهم كره انكلترا من معاشرة الفرنساويين — وفرنسا الى ذلك الحين خصم انكلترا تساعد كل من يقوم عليها. وزعماء هذه الطبقة من الناشئة المصرية طلبة الحقوق لما يتعوده طلاب هذا الفن من استقلال الفكر والرضوخ للصواب والتمسك باهداب الحق . فتألف من الناشئة المصرية حزب جاهر بمقاومة الاحتلال وانضم اليه سائر طلبة المدارس العالية وهم في الغالب من ابناء الخاصة ويعدون بالآلاف منتشرون في انحاء القطر المصري فبثوا تلك الافكار في اهلهم وجيرانهم وهم سواد الامة فتكاثر الناقمون على الاحتلال وهي نهضة سياسية مدرسية تختلف عن التي تقدمتها بقوة الحجة والاقتدار على المطالبة بالاقناع . وهي الطائفة التي نصرت مصطفى كامل وهو من طلبة الحقوق

مصطفى كامل

١ - ترجمه حاله

ولد في القاهرة من ابوين مصريين في ١٤ اوغسطس سنة ١٨٧٤ وكان والده علي افندي محمد مهندساً من جهة الصليبة اشتهر بين معارفه وجيرانه بطيب العنصر وحسن الخلق ووالدته من جهة المحجر بالقاهرة . ولما بلغ السادسة من عمره اتاه والده بمدرس

لقنه القراءة والكتابة ثم أدخله مدرسة عباس باشا الاول . وقبل اتمام دروسه الابتدائية توفي والده فانتقل الى مدرسة القربية وعمره ١٢ سنة فاتم دروسه الابتدائية فيها وظهر ذكاؤه بامتيازه على سائر الرفاق فنال جائزة الامتحان الاولى بين يدي المغفور له الخديوي السابق سنة ١٨٨٧ ثم انتقل الى المدرسة التجهيزية قضى فيها اربع سنين نال في نهايتها شهادة البكلوريا وكان من النابغين واشتهر باستقلال الفكر وصراحة القول من ذلك الحين . وانتبه المرحوم علي باشا مبارك ناظر المعارف يومئذ لفصاحته وقوة عارضته فقال له مرة « انك امرؤ القيس وستصير عظيما » وأخبرنا أحد رفاقه في تلك المدرسة ان المرحوم علي باشا مبارك اختصه بجنيه يتناوله كل شهر مدة اقامته في المدرسة ودوّن اسمه في كشف ماهيات المعلمين واضطر مصطفى لنقش خاتم يختم به الكشف على اصطلاحهم وهو أول عهده بالاختام

وكان في اثناء اقامته بالمدرسة التجهيزية موضوع اعجاب الاساتذة والتلامذة جميعاً لما امتاز به من حسن الالقاء وفصاحة اللسان . ولم يكن ناظر المعارف اقل منهم اعجاباً به فكان ينشطه ويدعوه الى منزله ويناقشه في المسائل العلمية او الاجتماعية ويقدمه الى جلسائه من العلماء والوزراء والكل يعجبون به ويتوقعون له مستقبلاً مجيداً . فلما اتم دروسه التجهيزية سنة ١٨٨٩ دخل مدرسة الحقوق الخديوية على ان يعدّ نفسه لصناعة المحاماة لانها أحوج المهن الى الخطابة . ورأى في وقته متسعاً فالتحق بمدرسة الحقوق الفرنساوية ايضاً فكان يتلقى العلم بالمدرستين حتى نال الكفاية منه فذهب الى طولوز بفرنسا أدى فيها الامتحان ونال الشهادة وهو في التاسعة عشرة من عمره

وتنبه خاطره وهو يدرس الحقوق الى المسائل السياسية ومضارها على مصر والاحتلال وهو وطني حريص على وطنيته مستقل الفكر شديد الثقة بنفسه وقد تشرب من اساتذته الفرنساويين الاستهانة بانكلترا والوثوق بفرنسا فاصبح همه انقاذ مصر من الاحتلال . وكان عضواً عاملاً في عدة جمعيات ادبية يخطب فيها ويباحث واكثر بحثه في مصر والاحتلال والجلاء . وكان يتردد على الجرائد الوطنية ليكتب في هذه المواضيع . ولقي اصغاء وتنشيطاً فالف رواية فتح الاندلس التمثيلية وكتاباً في حياة الامم والرق عند الرومان والف بعد ذلك كتاب المسألة الشرقية وغيره وكلها ترمي الى تحبيب الاستقلال الى المصريين واحياء الشعور الوطني فيهم . فالتف حوله جماعة من المريدين والمعجبين واكثرهم من رفاقه في المدرسة ومن يرى رأيهم من تلامذة المدارس العالية فانشأ لهم مجلة شهرية سماها المدرسة يبث فيها آراءه وافكاره

واتفق في أثناء ذلك رجوع المرحوم عبد الله نديم خطيب العرابيين الى مصر سنة ١٨٩٢ وسمع بمصطفى كامل فقربه منه واقتبس صاحب الترجمة بعض اساليبه واطلع على دخائل الحوادث الماضية وتبين أسباب الفشل فاصبح قادراً على تجنبها وزاد رغبة في انقاذ مصر من سلطة الاجانب ولا يكون ذلك الا بالالتفاف حول امير البلاد فاستنبط فكرة الاحتفال بعيد الجلوس الخديوي فعرض رفاقه التلامذة على ذلك فاحتفلوا به في الازبكية في ٨ يناير سنة ١٨٩٣ فقربته المعية ورضي عنه الجناب العالي. وفي ذلك الاحتفال صرح مصطفى كامل للمرة الاولى بانتقاد حالة الحكومة ودعا المصريين الى مطالبة الانكليز بالجلاء عن بلادهم قياماً بوعودهم. وكان في جملة الحضور ناظر مدرسة الحقوق فاستدعى مصطفى اليه في الغد وعاتبه على تصريحه فاجابه انه مصري وله الحق ان يبحث بشؤون مصر وشدد لهجته فرفع الناظر امره الى نظارة المعارف فاصدرت أمراً بمنع التلامذة من الاشتراك في مثل ذلك ومن مكاتبة الصحف. فاعتبر مصطفى هذا الامر موجهاً اليه فازداد تمسكا برأيه وتضاعفت همته على اخراجه الى حيز العمل

وجاء مصر في ذلك الحين الموسيو دلونكل وهو فرنساوي كثير التظاهر بالغيرة على المصريين. وكان في مصر يومئذ حزب وطني تألف بطبيعة الحال من أوائل عهد الاحتلال ولم يكن حزباً منظماً له رئيس ونائب وامين وكاتب مثل احزاب هذه الايام ولكنه ضم نخبة النبهاء والوجهاء الذين يكرهون الاحتلال وينتقدون اعمال الانكليز اما رغبة في استقلال مصر أو نقمة لذهاب نفوذهم. ولهذا الحزب فضل على اكثر الصحف الوطنية التي نشأت في أوائل الاحتلال لانهم كانوا يساعدونها مادياً وأدبياً تحت طي الخفاء للاستعانة بها على جرائد الاحتلال. وكان مصطفى كامل طبعاً من جملة ذلك الحزب وكان دلونكل يحضر مجتمعات الوطنيين ويستحثهم على الثبات. فالتقى هناك بصاحب الترجمة واعجب بذكائه وفصاحته فرغبه في السفر الى فرنسا للتبحر في الحقوق فسافر الى باريس آخر سنة ١٨٩٣ واعجبته حرية القوم وموافقتهم اياه في انتقاد الانكليز فعرف كثيرين من رجال السياسة والصحافة فيها. وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٤ احتفل بعيد الجلوس الخديوي هناك احتفالا شهده اكثر المقيمين في باريس من المصريين وهم من التلامذة المرسلين لتلقي العلم على نفقة الحكومة المصرية. فالقى مصطفى فيهم خطابا استحثهم فيه على الثبات في طلب الجلاء فوافقوه وتواطأوا على استنجاد فرنسا في ذلك الطلب على ان تكون حجتهم وعد انكلترا الذي صرحت به

عام الاحتلال . وبلغ ذلك نظارة المعارف المصرية فاخرجت المشتركين في ذلك العمل من عداد الارسالية

وعاد مصطفى في أواسط السنة التالية الى مصر وتعاطى المحاماة اشهراً فرآها أضيق من ان تسع مطامعه وفي صدره غرضٌ أصبح جزءاً من وجدانه ولم يكتف بما كان ينشره في الجرائد فعول على القاء الخطب السياسية في المنتديات العمومية فالقى خطبته الاولى في الاسكندرية ونشرتها الجرائد فرأى فيها الناس من شدة اللهجة على الاحتلال وطلب الجلاء ما لم يعهدوه من قبل فاعجبوا بالشاب وشاركوه في احساسه وفيهم من يرى ذلك الطلب بعيد المنال ولكن الانسان يلتذ بالانتقاد على غالبه . فاطروه ونشطوه فازداد رغبة في الخطابة والصحافة ولذت له الشهرة ووطن النفس على الاستهلاك في طلب الجلاء وجعل ذلك وجهته وكعبة آماله ومدار أعماله وهو يعلم عجزه عن تلك الامنية بنفسه واهله فرأى أن يستعين بفرنسا وقد جرأه على ذلك ما آنسه في رحلته الاولى من الحفاوة وما سمعه من التأمين والترغيب على عادة الفرنساويين من الانقياد الى الوجدان . فكف عن صناعته وانقطع للمطالبة بالجلاء فشخص عام ١٨٩٥ الى باريس ومعه رسمٌ كبير يمثل مصر والاحتلال الانكليزي بشكل يرمز عن توسل المصريين الى فرنسا ان تساعدهم كما ساعدت الاميركان واليونان والبلجيكيين والايطاليان في نيل حريتهم

رفع هذا الرسم الى مجلس النواب الفرنساوي في ٤ يونيو من تلك السنة . ومعه عريضة قدمها باسمه ينوب فيها عن مصر في استنجاد ذلك المجلس على الانكليز .وكان لهذا العمل دوي في فرنسا فضلا عن مصر وتحدث الناس يومئذ بجرأة هذا الشاب وعلو همته واقدامه وهو الى ذلك الحين لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره . فلم يأت هذا المسعى بالنتيجة المطلوبة ولكن الفرنساويين رحبوا بالخطيب المصري وتقاطر اليه كتاب الصحف يقابلونه وينشرون آراءه في جرائدهم . وتسابق القوم يدعونه لالقاء الخطب في انديتهم وكلها ترمي الى الغرض عينه . واول خطبة سياسية القاها على الافرنج في طولوز صدرها بتاريخ الاحتلال وعهوده وفصل أحوال النظارات المصرية وسيطرة الانكليز فيها وبالغ في استئثارهم بالوظائف والنفوذ واحتقارهم الاهالي وأخذ يبرهن ان وجود الانكليز بمصر يخالف كل المعاهدات وان اخراجهم منها يوافق مصالح دول اوربا كافة . ثم القى خطباً اخرى وراسل الجرائد وكاتب الوزراء وكلها ترجع الى انتقاد الاحتلال وطلب الجلاء . أشهرها خطاب بعث به الى المستر غلادستون من باريس يسأله رأيه في مسألة مصر والاحتلال فاجابه غلادستون

مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم فكان شديد المدافعة عنه كثير السعي في نصرته . ومن أقصى امانيه أن يكون نصير المسلمين في أربعة اقطار الارض . وقد اطلعنا بعض الاصدقاء على كتاب من بعض رجال ابن الرشيد يؤخذ منه أن الفقيد سعى منذ بضع سنوات في السفر الى نجد لملاقاة ذلك الزعيم هناك . وقرأنا في تأبين بعض مريديه انه كان ينوي استئذان جلالة السلطان في أن يكون خطيب المسلمين في المدينة يوم وصول السكة الحديدية اليها وانه كان يهيء أسباب الرحيل الى اليابان لحضور معرضها ونقل نتائج الافكار الكبيرة لربط العلائق مع الشعب الياباني على ان يمر في أثناء طوافه ببلاد الهند ليرى أحوال النهضة الاسلامية هناك — كل ذلك يدل على كبر نفس هذا الرجل وسعة مطامعه . فهل كان مخلصاً في سعيه حسن القصد بما يقوله ؟ فاذا ثبت انه كذلك حق المصريين أن يبكوه ويعظموه وان لم يروا ثمر عمله لان الاعمال بالنيات . والا فلا فضل له . ويظهر لنا من تدبر اعماله انه كان مخلصاً واليك الدليل :

١ ثباته في المبدأ الذي قام في نفسه منذ كان تلميذاً لا يسمع صوته الا رفاقه حتى صار خطيب المحافل ومتكلم القوم وزعيم الحزب الوطني وصاحب الالوية الثلاثة — له دعوة واحدة كانت تجلى في مطالبه اذا كتب أو خطب أو ناقش أو باحث بين الاصدقاء أو الاعداء بالعربية أو الافرنجية على سواء

٢ انقطاعه لهذه الدعوة وتفانيه في سبيلها حتى شغلته عن سائر مطالب الحياة وملاذ الشباب فلم يتزوج ولا جلس لشرب أو لهو ولا التفت الى جمال أو طرب . لا يلذ له غير التحدث بالوطن أو الاستقلال أو الجلاء . وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك طمعاً بالمال وهذا باطل لان الرزق من القلم أضيق من شقه . ويقول آخرون ان غرضه الشهرة الواسعة وقد نال منها ما لم ينله سواه من أهل هذا الجيل حتى تناقلت ذكره صحف العالم الافرنجي وحدها ... ١١٥ مرة في أثناء جهاده فضلاً عن جرائد الشرق الاقصى والادنى وعرف اسمه كثيرون لا يعرفون اسم أعظم رجال مصر — ولكن طلب الشهرة في سبيل المصلحة العامة ليس من المعائب بل هو من اكبر دعائم العمران وطلاب الشهرة أعظم رجال العالم

٣ اجماع الذين عاشروه من رفقائه وأصدقائه على حبه واعتقاد الاخلاص فيه فضلاً عن الاخرين مما لا يتأتى لغير المخلصين . لان الانسان اذا سعى في مشروع عمومي طمعاً بمال او جاه لا تلبث حقيقة حاله ان تنكشف لعشرائه الاقربين أو شركائه في عمله فينفضون من حوله كما أصاب كثيرين من زعماء الاحزاب في العالم القديم والحديث . ففسدت نيات أصحابهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وقد يبقى مع الزعيم المنافق

اناس يداجونه ويداجيهم التماساً للكسب . ولكن أصحاب مصطفى كامل ثبتوا في ولائه حياً وميتاً وهم يستهلكون في سبيل نصرته وفيهم جماعة من نخبة العقلاء والفضلاء ومعظمهم اكبر منه سناً وأوفر مالا واعرض جاهاً وبعضهم اغزر منه علماً وقد نصروه بعقولهم وأموالهم وقلوبهم ولم يستنكفوا من تصدره في مجالسهم ولا داخلهم الحسد من رئاسته عليهم

٣ — هل هو رجل عظيم

يختلف الحكم في عظمة الرجال باختلاف الامم والاجيال فبعضهم يقيسون العظمة بكبر المطامع وسعة الفتوح أو بكثرة الاموال وبعضهم يقيسونها بمقدار النفع الذي يترتب على ظهور ذلك العظيم . فمن الفرنساويين من يعد بونابرت اكبر رجال فرنسا لكثرة فتوحه وكبر مطامعه وبعضهم يقدم باستور عليه لانه خدم الانسانية باكتشافاته الميكروبية وآخرون يفضلون رجال الدين والشارعين . وعندنا ان الرجل العظيم انما يكون عظيما بما يخلفه من الاعجاب والأثر الحسن في نفوس معاصريه . اذ قد يكون عظيما بنفسه ولا يوافق لاتمام عمله فيؤسس لمن يأتي بعده . وعلى هذا القياس نعد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده عظيمين لان الاول من مؤسسي النهضة السياسية والثاني من مؤسسي النهضة الدينية الاصلاحية . وعلى هذا القياس ايضاً نعد مصطفى كامل عظيما لانه أحيا في الامة المصرية جامعة الوطن وهو القائل « لو لم أكن مصرياً لوددت أن اكون مصرياً » . وعلم المصريين المجاهرة بطلب حقوقهم واسمع دول أوربا أصواتهم . فهو من اكبر مؤسسي النهضة السياسية المصرية . ولم يأت جمال الدين الافغاني عملاً لا يستطيع مصطفى كامل مثله وأعظم منه لو بلغ الى مثل سنه . ألم يواقف أعظم دول الارض حتى عرض نفسه للنفي او الطرد ؟ وقد تفانى في خدمة مبدإه حتى مات شهيداً في ريعان شبابه

على أن ذلك لا يمنعنا من انتقاد أعماله لان العصمة لله وحده ولكل امرىء رأيه. والذي نراه في الفقيد رحمه الله كان متطرفاً في آرائه يعادي من ينتقدها أو يخالفه فيها. واذا حمل على خصمه بالغ في الغض من فضله وقد ينكر حسناته ولو كانت ظاهرة كالشمس . وكان مغالياً في استسهال مطالبه لانه طلب الاستقلال العاجل وقرائن الاحوال تشهد ان ذلك الطلب سابق لاوانه . أو لعله تعمد التطرف جرياً على سياسة المتطرفين Radical من أحزاب الامم المتمدنة الذين يطلبون البعيد فاذا لم ينالوه نالوا بعضه ومن ثمار هذه السياسة في مصر نهوض المعتدلين وتجرؤ الخائفين من أرباب الصحف على طلب الاصلاحات الممكنة . ومن ثمار سياسة التطرف ايضاً سرعة نمو

الشعور الوطني لما في تلك السياسة من الحماسة المثيرة للاحساس والحاملة على التضافر والتعاون

على اننا نرى انه لو وجه تلك الهمة الشماء أو بعضها لاستدرار الاموال وانشاء المدارس العالية لكان ذلك اقرب الى الغرض المقصود من سعيه بدليل انه انما قام بموازرة ابناء تلك المدارس ولولاهم لم يستطع عملاً يذكر فكلما زاد عددهم زاد مشروعه قوة وثباتاً وتهيأت الامة ان تحكم نفسها فاذا طلب الاستقلال بعد ذلك لا يجد المحتلون حجة للبقاء . ولم يكن يعجزه انشاء عدة كليات كبرى بما فطر عليه من قوة العارضة وعلو الهمة وبما له من المكانة في نفوس الاغنياء . ولا ننكر ما للفقيد من الايادي البيضاء في نصرة التعليم والتربية ولكننا في حاجة الى أكثر من ذلك كثيراً

ان الفقيد احيا الشعور الوطني بحماسته وجرأته وجاءه الموت السريع في ابان جهاده فذهب شهيداً . وعرف المصريون له ذلك فاتحدوا في البكاء عليه وتعاونوا في تعظيمه وتكريمه فظهر الشعور الوطني بعد موته اكثر مما كان ظاهراً في حياته . فنتقدم الى الساعين في مصلحة الامة من مريديه وغيرهم أن يؤيدوا هذا الشعور بتعميم التعليم العالي ليكون اجتماع الامة عن تعقل وروية وذلك ادعى الى الغرض المراد والسلام

سليم صيدناوي

صاحب اكبر محل تجاري في مصر

ولد سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٩٠٨

المراد عندنا من نشر تراجم العظماء اما تدوين اعمالهم ليبقى ذكرهم اقراراً بفضلهم واعجاباً بمواهبهم أو نشر تلك الاعمال للاعتبار بسير اصحابها قدوة لسواهم أو للسببين جميعاً . فترجمة بونابرت والاسكندر ومعاوية وبسمارك وغلادستون يراد بها تخليد اعمال اولئك العظماء والاعجاب بما اتوه من الاعمال العظمى . وترجمة كولمبوس مكتشف اميركا وباستور مكتشف الميكروب وغوتمبرج مخترع الطباعة وغيرهم من اصحاب الفضل على المجتمع الانساني يراد بها على الغالب تدوين افضالهم على صفحات التاريخ . واما تراجم دزرائيلي وبالسي وسليني وروتشيلد وغيرهم من رجال النشاط والاجتهاد الذين ولدوا فقراء واكتسبوا الثروة أو العلم او الصناعة بجدهم ونشاطهم فيراد بها فضلا عن تخليد ذكرهم الاقتداء باعمالهم وكلما اقتربت سير هؤلاء من حاجات القراء زادت الفائدة من نشر تراجمهم . فترجمة رجال السياسة أو الادارة أو الحرب لا تفيدنا شيئاً في ما نرجوه من التقدم في اعمالنا . واما رجال العلم أو التجارة أو الصناعة اذا كانوا قد نالوا ما نالوه من الثروة أو الجاه بجدهم وامانتهم فترجمة حالهم فيها قدوة حسنة للشبيبة من ابناء هذا الجيل — ودرهم قدوة خير من قنطار تعليم

وقد جرت العادة ان يقتصر ارباب الاقلام عندنا على ترجمة العلماء أو القواد أو رجال السياسة ونحن اشد احتياجاً الى ترجمة التجار العصاميين الذين أثروا بالطرق القانونية الموافقة لشروط النجاح . لان التجارة اهم مصادر الارتزاق في بلادنا . ومن الاوهام الشائعة « ان الثروة لا تنال بطريق الحلال وان الانسان الامين المستقيم يعيش فقيراً ويموت معوزاً وانما يثري الكاذبون اهل الحيل والنفاق » . ولهم في ذلك اقوال واشعار وامثال . وهو عذر الذين يفشلون في سعيهم مع رغبتهم في العمل وسهرهم واستقامتهم فينسبون فشلهم الى صدقهم وسلامة نيتهم . وهم انما فشلوا لافتقارهم الى بعض معدات النجاح كالذكاء أو المعرفة أو الثبات أو نحو ذلك لان الاستقامة وحدها لا تكفي ولو رافقها السعي والسهر . واليك اهم ما يحتاج اليه الانسان من شروط النجاح على العموم :

شروط النجاح

١ المعرفة : أول ما يحتاج اليه طالب النجاح في هذه الحياة أن يكون متقناً

عمل من الاعمال الصناعية أو التجارية أو الزراعية أو القلمية كأن يكون نجاراً ماهر أو تاجراً محنكاً في اصناف التجارة أو عارفاً الحساب التجاري أو مزارعاً يعرف أصول الزراعة علماً وعملاً أو عالماً بفن من الفنون القلمية أو متقناً مهنة من المهن العلمية كالطب أو المحاماة أو الترجمة أو الانشاء أو نحو ذلك . ويكفي أن يعرف مهنة واحدة معرفة جيدة لا أن يعرف غير واحدة معرفة ناقصة فان المكثر لا يتقن والنجاح تحتاج الى اتقان



ش ٨١ : سليم صيدناوي

٢ حسن الاختبار : وهو أن يحسن الانسان اختيار المهنة الملائمة لمواهبه ويضعها في المكان الموافقة له . فلا يتعاطى الصناعة وهو مفطور على التجارة ولا يشتغل بالعلم اذا لم تتوفر فيه المواد اللازمة له . ولا يتعاطى عملاً حيث لا يرجى له رواج كأن يتجر بالاقمشة السميكة في البلاد الحارة أو ينشىء معملا لمصنوعات لا تروج في تلك البلاد أو

انها تكلف اكثر مما تكلفه اذا حملت اليها من الخارج أو نحو ذلك مما لا يمكن حصره وانما يتكفل بتميزه الذوق السليم

٣ الثبات : كثيراً ما يفشل العامل ولو توفرت فيه المعرفة اللازمة وحسن الاختيار ويغلب أن يكون سبب فشله استعجاله في استثمار عمله . فاذا لم يذق ثمر سعيه عاجلاً عدل عنه وشكا سوء حظه أو نقم على الزمان لانه لا يساعد غير الجهال . . . وقد يأتي بالشواهد القريبة عن اناس افلحوا وهم أقل منه معرفة وقد فاته انهم انما افلحوا بالثبات أو بغيره من الاسباب التي لم تتوفر فيه وهي لازمة للنجاح

٤ الاستقامة : من الامثال الشائعة على السنة صغار الباعة ان هذا الزمان لاينفق فيه غير النفاق ولا يروج فيه غير الغش وهم يقولون ذلك في كل زمان . وهو غير الواقع لان الاستقامة والامانة من اهم شروط النجاح ولا سيما في هذا العصر عصر الحق والحرية وما نجاح الكاذبين الا الى حين . على ان الاستقامة وحدها لا تفيد شيئاً لان المستقيم اذا جردته من المعرفة والثبات كان كالعجلوات لانها سليمة القلب لا تعرف الغش ويندر أن تسرق أو تخدع . . . وانما يشترط في الاستقامة أن تكون دعامة للمعرفة لا أن تكون هي رأس مال العامل وحدها

٥ الاجتهاد : قد تتوفر في الرجل المعرفة والاستقامة والثبات وحسن الاختيار ولا يصيب الا نجاحاً قليلا لكثرة المناظرين له في مهمته أو لاسباب أخرى فلا يتم نجاحه الا بالجد والسهر وقد يكون الرجل متوسط الذكاء والمعرفة فيعوض جده عن ذلك النقص

٦ مراقبة الفرص : ان اغتنام الفرص من اكبر اسباب النجاح وهي على الغالب اهم وسائل الاثراء . اذ قد تسنح للانسان فرصة اذا تنبه لها واغتنمها اغنته عن سعي كثير أو فتحت له باباً للكسب الطائل الذي لا يتوقعه من عمله الاعتيادي

٧ اسلوب المعاملة : هذا سرٌ عظيم من اسرار النجاح اذ قد يكون الانسان متقناً ثابتاً مستقيما مجداً ساهراً ولا يصيب نجاحاً كبيراً لانه لا يحسن معاملة الناس أو انه اتخذ في معاملتهم اسلوباً لا يرضيهم . وينبغي لطالب النجاح أن يتحلى بالاخلاق الرضية مع خفة الروح ورقة الطبع ودقة الشعور . فاننا نعرف غير واحد من اشهر المتقنين لاعمالهم وقد فشلوا لانهم لم يحسنوا الاسلوب في المعاملة وكثيراً ما يتوقف نجاح المرء على حسن أخلاقه اكثر مما على حدة ذهنه وذكائه

فسليم صيدناوي الذي نحن في صدد ترجمته ولد فقيراً ونال ثروة طائلة وشهرة واسعة بجده واستقامته وثباته وحسن اسلوبه على ما تراه في ما يلي :

ترجمة حاله

ولد سليم في دمشق سنة ١٨٥٦ من عائلة معروفة هناك وكان أبوه المرحوم يوسف صيدناوي سمساراً تجارياً . فربي في حضن والديه وتلقن مبادىء القراءة والكتابة على قدر ما تسمح به احوال تلك الايام . فقد كانوا اذا أتقن أحدهم القراءة في المزامير أو الاناجيل وعرف شيئاً من الحساب قالوا « انه ختم علمه » وكان والده كثير التفكير في مستقبل بنيه ويرى ان الشاب لا يأمن الفقر ما لم يتعلم صناعة من الصنائع الضرورية فادخل سليما في محل خياطة افرنجية وكانت حديثة العهد في سوريا يومئذ فتعلمها وما زال يشتغل بها حتى انتقل الى مصر سنة ١٨٧٩

وكان أخوه سمعان وهو اصغر منه بسنتين قد أتى مصر سنة ١٨٧٧ وفيه ميل الى التجارة من صغره فخدم وهو في دمشق في محل تجاري نحو ثلاث سنوات مع رغبة ابيه في تعليمه الصناعة عملاً بالمبدأ الذي قدمناه . وقد علمه صناعة الحياكة لكنه كان اكثر ميلاً الى التجارة . وجاء الى مصر سنة ١٨٧٧ بلا رأس مال فلقي فيها عمه المرحوم نقولا صيدناوي وكان تاجراً في الحمزاوي يبيع الحرائر والخرداوات فخدم عنده ونفسه لا تطاوعه على البقاء في الخدمة . واتفق بعد خمسة أشهر من خدمته عند عمه ان تاجراً سورياً اسمه الياس جهامي توفي عن اولاد قاصرين وله محل تجاري في الحمزاوي أراد الاوصياء تصفيته فاغتنم سمعان هذه الفرصة وتصدى لتصفيته فسلموه اليه وعمل في اثناء التصفية على استخدام بعض ما يقبضه من ثمن المبيع في ابتياع بعض الاصناف وتصريفها مع سائر البضائع على أن يكون له نصف ربحها وللمحل النصف الآخر . ولما قارب الفراغ من التصفية بلغت تلك الارباح ٢٨٥ جنيهاً نصفها له . فاتفق مع الاوصياء على استبقائها كلها بيده وان يدفع عن النصف الآخر وعن ثمن بضائع باقية في المحل قيمتها ١٤٠ جنيهاً فائدة قانونية . فكان رأس مال ذلك المحل نحو ٥٠٠ جنيه ثلثاها دين على سمعان يدفع فائدة ٢٠٠ قرش كل شهر

فصرف سمعان عنايته في طلب النجاح بالطرق الحلال وكان سبب نجاحه على الاكثر انه اهتدى بتفكيره وسهره الى المصدر الاصلي للبضائع التي كان يبيعها في محله وهي الحرائر والمناديل وكان تجار القاهرة يستوردونها من الاستانة فعرف هو ان تجار الاستانة يستجلبونها من اوربا فاستجلبها من هناك رأساً وباعها بارخص مما كان غيره يبيعها به فراجت تجارته واتسع شغله

فلما قدم سليم الى مصر كان سمعان في محله المشار اليه فاشتغل سليم اولا بالخياطة من طريق التجارة فاشترك مع الخواجه متري صالحاني في محل للخياطة والتجارة وحصة سليم من رأس المال دفعها أخوه . وبعد قليل احترق المحل وذهب رأس المال كله . وكان بين سليم وسمعان تالف وتحاب فوق تآلف الاخوة كانهما شخص واحد . وكان للمرحوم سليم انعطاف على أخيه منذ الصغر فلما احترق المحل أغضى سمعان عن تلك الخسارة وشارك أخاه في الباقي معه ففتحا حانوتاً في الموسكي عند مدخل شارع منصور باشا لا تزيد مساحته على اربعة أمتار مربعة أقام فيه سليم وظل سمعان في الحمزاوي . وعقدا الشركة رسمياً باسم « سليم وسمعان صيدناوي » سنة ١٨٧٩ وأخذا في العمل بنشاط وامانة وهما عازبان يقيمان في غرفة بوكالة يعقوب بك بالحمزاوي ليس فيها من الأثاث الا سرير ينام عليه أحدهما ومقعد ينام عليه الآخر . ويأكلان في مطعم بغاية ما يكون من البساطة والاقتصاد . وقد سمعناهما يذكران ذلك بعد أن بلغا ما بلغاه من بسطة الجاه وسعة الثروة لا يرون في ذكره حطة ولا صغاراً

اساس النجاح

واساس نجاحهما بعد الشركة حادث يشبه ما يروى عن نجاح بيت روتشيلد يدلّ على ثمار الامانة والاستقامة . وذلك أن سليما وهو في حانوته المشار اليه اتته خادمة من قصر البرنس مصطفى باشا فاضل وابتاعت منه ثوبي دانتلا بستة عشر قرشاً (تعريفة) وفهمت انه يعني ١٦ قرشاً صاغاً فدفعت المبلغ ومضت وهو لم ينتبه لمقدار ما دفعته لاشتغاله بسواها ثم عدّ النقود فرأى المرأة دفعت ضعفي ما طلب منها ولم يكن يعرف مكانها . فجاءت في اليوم التالي لتبتاع ثوبين آخرين وبيدها ١٦ قرشاً اخرى فاخبرها ان الثمن ٨ قروش وهي القيمة التي بقيت لها بالامس وأعطاها الثوبين ولم يأخذ منها شيئاً . فدهشت المرأة لهذه الامانة وهي نادرة الوقوع لا سيما في معاملة الاغنياء لطمع الناس باموالهم . وقصت ذلك على سيدتها فشاع خبر تلك الحادثة في بيوت الوجهاء من الامراء وأقاربهم فرغبوا جميعاً في معاملة ذلك التاجر المستقيم وكان سليم يعرف شيئاً من التركية سهل عليه معاملتهم وما زالوا يزدادون ثقة بامانته كل يوم حتى اصبحوا لا يبتاعون فرشاً أو ثياباً أو قماشاً الا بمشورته أو على يده

واشتهر بالامانة والاستقامة بين الاغنياء فزادت مكاسبه وضاق ذلك الحانوت عليه فانتقل سنة ١٨٨١ الى حانوت اكبر منه في الموسكي ايضاً يطل على الخليج — ثم وسعوه من داخله بعد ذلك وهو شطر محلهم السابق وفيه أصناف السجاد والفرش . ولما أخذ ذلك المحل اجتمع الاخوان للتعاون على العمل وظل محل الحمزاوي لهما .

وما زالت اشغالها تتسع ورأس مالها يكبر وكلما ضاق المحل وسعاه حتى لم يبق سبيل الى توسيعه فاخذا محلا تجاهه جعلاه المحل المركزي وفيه المكتاب والحساب

ومما يعدُّ خطوة كبرى في طريق النجاح اعتمادهما في المسواق على أوربا . بدأا بذلك سنة ١٨٨٥ في فرصة عرضت لهما وذلك ان المرحوم سليما أصيب بانحراف في صحته فوصف له الاطباء الاستشفاء باوربا فاغتنم وجوده هنـاك وخابر المعامل التي تشتغل باصناف تجارته ورأى فرقاً كبيراً بالاثمان فعاملها رأساً فصار ذلك قاعـدة في المسواق كل عام . وانقسم الشغل بين الاخوين فتولى سليم المسواق والحسابات وانفرد سمعان بتنظيم ادارة البيع وما زالا في تقدم والشغل ينمو ويتسع ويتفرع حتى أصبح محلهم في القاهرة اعظم محل تجاري في الشرق عدد عماله يناهز ١٥٠ عاملا من الباعة والمكتاب غير المستخدمين الصغار وغير مستخدميهم في أطيانهم وعقاراتهم واعمالهم الاخرى فضلا عن محلاتهم الفرعية في منشستر وليون وباريس والاسكندرية وغيرها وغير البنك الذي أنشأه قبل وفاته شركة مساهمة باسم « بنك صيدناوى وظريفة ونحاس وشركاهم » وانعم عليهما الجناب العالي بالرتبة الثانية مع لقب بك . وفي ذلك العام جعلا محلهما التجاري بالقاهرة شركة مساهمة اسمها « سليم وسمعان صيدناوي ليميتـد » وظلت شركتهما الاصلية في العقار والطين باسم « سليم وسمعان صيدناوي » اما ثروتهم فنحو ثمانماية الف جنيه ثلثاها عقار واطيان والثلث الاخر في التجارة (سنة ١٩٠٨)

حساب الحق أو العشور

قد رأيت انهما اسسا شركتهما على الاستقامة والامانة وقد سيجاها بالاحسان على أسلوب جعلا الاحسان فيه فرضاً عليهما لا يتوقعان عليه أجراً . وذلك انهما تعاهدا منذ تأسيس الشركة وهما في ذلك الحانوت الصغير أن يخصصا خمسة في المئة من الربح تفرق في الفقراء على سبيل الزكاة فاصبحا يجردان المحل في كل سنة فاذا عرفا الربح اخرجا خمسة في المئة منه للاحسان وسميا هذا المال « الحق أو العشور » ينفق في سبيل البر . وما زال ذلك دأبهما الى الآن وقد زادت أموال العشور بزيادة ارباحهما ففتحا لها حساباً خاصاً في دفاتر خاصة وربما بلغ مقدارها الآن نحو ٢٠٠٠ جنيه في العام تنفق في اعالة الفقراء لايفرقان في ذلك بين المسلم والمسيحي واليهودي وغيره للكساء أو الطعام أو المأوى أو بتزويج العذارى اللواتي يحول الفقر دون زواجهن . فكم من عائلة سترها احسانهما وكم من بيوت أمست لولاها خراباً . يفعلان ذلك ولا يعدانه احساناً واذا أردت التنويه بذكره تجاهلا وقد ينكرانه ولـكن الحق يأبى الا الظهور . فلا عجب اذا رأيت آثار احسانهما ظاهرة في الجمعيات والعائلات والمستشفيات والمدارس

والكنائس . وهي امثولة للاغنياء يحسن تحديها والعمل بها . فان المحسنين بينهم قليلون واذا عملوا برًّا نفخوا بالبوق وضربوا بالطبل وأشاعوا ذلك على صفحات الجرائد التماساً لحسن الاحدوثة

صفاته واخلاقه

كان سليم رحمه الله ربع القامة ممتلىء الجسم مخلص الطوية صادق اللهجة لا يحلف ولا يخلف وكان واسع الصدر طويل الاناة شديد الميل الى المسالمة والتساهل صبوراً على العمل شديد المحافظة على الوقت كثير الرغبة في مواساة الحزاني واعالة المساكين فاذا احتضر والدُه وعلم قبل موته ان سليم صيدناوي سيكون وصياً على أولاده مات قرير العين مطمئن الخاطر ولذلك كثرت الوصايات اليه وهو لا يبالي بما ينفقه في سبيلها من الوقت أو الصحة . فضلا عن اعماله في خدمة اوقاف الطائفة الكاثوليكية وعن توسطه في حل المشاكل بين الشركاء أو الاقرباء أو الاصدقاء

ومع كثرة شواغله كان كثير الائتناس باهله لا يبرح بيته زاهراً مشرقاً بقرينته وهي ابنة عمه نقولا صيدناوي الذي تقدم ذكره في صدر هذه المقالة بما فطرت عليه من الذكاء واللطف والتعقل وحب المطالعة فلم تكن تدخر وسعاً في سبيل راحته فاذا اوى الى منزله خففت عنه متاعب الحياة بلطفها وحسن اسلوبها كما ينبغي ان تكون المرأة الفاضلة . ويعمد هو الى ملاعبة أولاده أو اولاد اخيه ومداعبتهم فيذهب تعبه وتجدد قواه فيزداد نشاطاً على العمل

العبرة والموعظة

نحن في مقام ترجمة المرحوم سليم صيدناوي ولكننا لم نر بدًّا من الكلام عن اخيه ايضاً لارتباطهما في العمل وتعاونهما على الخير . اما العبرة بما تقدم فهي ان نجاح هذين الاخوين حجة دامغة على ان الاستقامة والصدق ضروريان للنجاح ولا يكون مأموناً ان لم يتعهده اصحابه بالاحسان زكاة أو صدقة فتزداد المكاسب وينجو صاحبها من غوائل الحسد . ليس لان الحسد يضر المحسودين ولكن الانسان اذا ارتقى باي باب من ابواب العمل كثر حساده ومنتقدوه وكلما كبرت نفسه كثر الطاعنون فيه — ومن الناس من لا يهمه ما يقال عنه وانما يهمه ان تزيد ثروته احبه الناس أو ابغضوه . ومنهم من لا يهمه الكسب بقدر ما يهمه حب الناس . فهؤلاء يتلافون الطعن والحسد بالاحسان والتواضع والتلطف وقد يكون احسانهم عن احساس ديني التماساً للثواب وكلا السببين الاخرين حسن نافع لان النتيجة منهما اعالة الضعفاء وعمل الخير . واما الذين يقتصر همهم على جمع المال لا يبالون بما يقال عنهم فانهم نموٌّ غريب في جسم

الاجتماع ينمو بامتصاص غذائه ويعود بالضرر عليه

اما الصيدناويان فانهما افضل مثال لما ينبغي ان يكون عليه رجال الثروة واهل الجاه وهما مع ثروتهما وجاههما يتوخيان البساطة في اساليب معاشهما ويبذلان الالوف في اعالة الفقراء . وهما مثال في الجد والنشاط يشتغلان من الصباح الى ما بعد العشاء شغلاً شاقاً يعرفه كل من زار محلهما ورأى حركة العمل فيه

ومن اسباب نجاحهما غير ما تقدم من الامانة والنشاط واغتنام الفرص حسن الاختيار فقد اختارا العمل وافتسماه على حسب استعداد كل منهما سليم للمسواق والادارة والحسابات وسمعان لادارة البيع . ومن تلك الاسباب ايضاً الثبات فقد ثبتا في شغل واحد ثلاثين سنة وهو الاتجار بالحرير والخرداوات لم يتحولا عنه وانما وسعوه بما يلائم ان يكون ملحقاً به . ومنها اسلوب المعاملة وهما مشهوران باللطف والتواضع فلا يخرج الشاري ولا البائع من محلهما الا راضياً

قاسم امين

نصير المرأة المسلمة والداعي الى اصلاح العائلة

ولد سنة ١٨٦٥ وتوفي سنة ١٩٠٨

اصيب الاسلام في اوائل هذا القرن بفقد غير واحد من كبار رجاله ونوابغ عماله نخص بالذكر اثنين من دعاة الاصلاح الاجتماعي أو الديني احدهما الشيخ محمد عبده زعيم النهضة الاصلاحية الاسلامية في هذا العصر والثاني قاسم بك امين نصير المرأة المسلمة والداعي الى اصلاح العائلة . وقد مات كلاهما و بينهما ثلاث سنين فخسرنا بذلك خسارة لا يعرف مقدارها الا الذين يعلمون افتقار الشرق الى ذلك الاصلاح ولا سيما العائلة فانها قوام الامة وقوام العائلة المرأة فلا تصلح الامة الا باصلاحها

المرأة العربية قبل الاسلام وبعده

تبين لنا من أبحاثنا في « تاريخ العرب قبل الاسلام » الذي صدر ملحقاً للهلال ان المرأة العربية كان لها مقام رفيع في التمدن العربي القديم فتناطت الكتابة وتولت الادارة وعانت سائر أعمال الرجال في الالف الثالث قبل الميلاد اي منذ اكثر من ٤٠٠٠ سنة . وعرفنا دولاً عربية في اعالي الحجاز لا يتولى الملك فيها الا النساء . ناهيك بما تناقله العرب من أخبار بلقيس صاحبة اليمن والزباء (زينوبيا) صاحبة تدمر . عدا اللواتي اشتهرن في أثناء الجاهلية من العرافات والكواهن ولا يتولى الكهانة الا الممتازون بالعقل والتدبير بعد ان ينالوا المقام الرفيع ويحرزوا العلم الواسع . ويقال بالاجمال ان المرأة في الجاهلية كان لها شأن وارادة وانفة ورأي وحزم . ونبغ غير واحدة منهن قبيل الاسلام وفي اوائله بالسياسة والحرب والادب والشعر والتجارة والصناعة على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول يومئذ فاشتهر جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال . وممن اشتهرن بالحزم والرأي خديجة بنت خويلد زوج النبي واسماء بنت ابي بكر وسكينة بنت الحسين وغيرهن [1]

ظلت المرأة العربية على انفتها وعزة نفسها وسمو منزلتها في أيام الراشدين وزاد توسعها في طلب المعرفة اذ اتسع المجال للعقول والمواهب فنبغت غير واحدة بالشعر والادب واتت بعضهن اعمالاً يعجز عنها كبار الرجال . فلما افضت الدولة الى بني أمية في اواسط القرن الاول للهجرة أصاب المرأة العربية صدمة قوية غيرت كثيراً من طبائعها لتكاثر الجواري والغلمان في دور الامراء وانغماس بعض الخلفاء في الترف

(١) ترى تفصيل ذلك في الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي

والقصف وانتشار الغناء والمسكر وتكاثر المخنثين في المدن وتوسطهم بين الرجال والنساء بالباطل

ولما استبحر عمران المسلمين في العصر العباسي زادوا انغماساً في القصف واللهو والخلاعة وفسدت النية بين الرجل وامرأته وهو صاحب الذنب لانه بدد شعاره وامياله بين عدة نساء فقلت ثقة امرأته به . ولم ينضج التمدن في ذلك العصر حتى تنوسيت المرأة العربية وذهبت حريتها وغيرتها وانحطت نفسها وذهبت انفتها واستقلال فكرها . فاحتقرها الرجل وساء الظن بها وصار يعاشرها على غل وسوء رأي يقفل عليها الابواب والنوافذ . وأصبح الطعن في طباعها وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة



ش ٨٢ : قاسم امين

الناس حتى الفوا فيها الروايات والقصص ونظموا بها الشعر وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها . هذه قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الاعصر الاسلامية الوسطى بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف . وأما الاشعار فاليك ما قاله ابو العلاء المعري :

اذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتني واضعت نصحي فانت وان رزقت حجاً بليد
ألا ان النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد

واصبح الكاتب اذا أراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله ابو بكر الخوارزمي اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه ببنته وهو قوله :

ولولا ما ذكرته من سترها . ووقفت عليه من غرائب امرها . لكنت الى التهنئة أقرب من التعزية. فان ستر العورات من الحسنات . ودفن البنات من المكرمات . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة . فقد استكمل النعمة . واذا زف كريمة الى القبر . فقد بلغ امنيته من الصهر . قال الشاعر :

ولم ارَ نعمة شملت كريماً كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر : تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت اكرم نزال على الحرم

وقال آخر : وددت بنيتي ووددت اني وضعت بنيتي في لحد قبر

وقال آخر : ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر : سمينها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت

هذا مثال من آراء ادباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة وقد زادت حطة وصغاراً في الاجيال الاسلامية الوسطى تبعاً للتقهقر العام وبلغت غاية ذلك في القرون الاخيرة قبل النهضة وقد تساوت في ذلك الانحطاط المرأة المسلمة وغير المسلمة من نساء الشرق الاسلامي على الاجمال والناس سكوت . لان القرائح جامدة والنفوس ميتة بما تولى الناس من فساد الاحكام وتفشي الجهل

فلما أخذ القوم باطراف التمدن الحديث واستنارت العقول بالعلم انتبه العقلاء الى المرأة وعمدوا الى النظر في تحسين حالها ورفع شأنها — بدأ بذلك المسيحيون لكثرة اختلاطهم باصحاب هذا التمدن وقداصابوا منه حظاً وافراً اذ ليس في تقاليدهم أو عقائدهم ما يمنع حريتها . ثم أخذ عقلاء المسلمين يفكرون في حال المرأة المسلمة ويشعرون بحاجتها الى الاصلاح لعلمهم ان الامة يتوقف اصلاحها على اصلاح المرأة . فطفقوا يتهامسون في ذلك تهيباً من مقاومة تيار العامة الذين يعدون التضييق على المرأة من حقوق الرجل

ثم أخذ بعضهم يتظاهرون بنصرتها وأنشئت المدارس لتعليمها وظهر القائلون بوجوب اصلاحها وليس بينهم من تصدى للمجاهرة بذلك على الملأ بالكتابة والخطابة لان الشجاعة الادبية كانت قليلة بيننا . واسبق المسلمين الى طلب الافراج عن المرأة في هذا العصر الاتراك في الاستانة لكثرة اختلاطهم بالاجانب وسبقهم في الاطلاع على أسباب التمدن الحديث . ولذلك كان كتابهم أسبق الى المجاهرة بوجوب رفع الحجاب وأول من فعل ذلك من العرب هناك الشيخ احمد فارس صاحب الجوائب

اما في مصر فما زال العقلاء يتهامسون في هذا الموضوع وفي غيره مما يشعرون بحاجتهم اليه من الاصلاح الاجتماعي أو الديني حتى صرح الشيخ محمد عبده بآرائه

فلاقى ما لاقاه من المعارضة والنقمة وكانت وجهته الاصلاح الاسلامي على العموم بحل قيود التقاليد وتحكيم العقل في التفسير والتأويل الى ما فيه ترقية شؤون المسلمين . فكثر مريدوه والمؤمنون على اقواله وان قلّ المجاهرون بذلك على المنابر أو في الصحف . ومن اولئك القليلون فقيد الامس قاسم بك امين فانه أخذ على عاتقه القيام باهم اسباب الاصلاح المطلوب نعني تحرير المرأة . تصدى لذلك بشجاعة يندر مثلها

الشجاعة الادبية

الشجاعة الادبية ان يقول الانسان اعتقاده ولو كان فيه ما يسيء الكبراء او يهيج عليه العامة مما يؤول الى الخطر على حياته او مصلحته . وأصحاب هذه المنقبة قليلون ولا سيما في الشرق بعد ما توالى على أهله من أصناف الذل والخسف . واما في ابان تمدنه فقد اشتهر من رجاله جماعة تضرب الامثال بشجاعتهم الادبية لسيادة العدل ونزوع ولاة الامور الى نصرة الحق والضرب على ايدي الظالمين . فلم يكن الناس يخافون ان يقولوا ما يعتقدون حتى كان الرجل من العامة ربما انتقد الخليفة أو الامير في وجهه لا يخشى بأساً وقد تعود المسلمون ذلك من زمن الراشدين . فلما أفضت الدولة الى بني أمية وعمدوا الى الدهاء والشدة في تأييد سلطانهم امسكوا على الناس حريتهم . ومع ذلك فقد نبغ غير واحد بذلوا حياتهم في سبيل شجاعتهم كما اصاب ابا ذر الغفاري وحجر بن عدي الكندي وسعيد بن جبير وغيرهم . ولا تقتصر تلك الشجاعة على المسائل السياسية أو الدينية بل هي لازمة في العلم والادب فقد عرّض غاليليو حياته للخطر لمخالفة الاولين في قولهم عن ثبوت الارض

والانسان من فطرته حرّ الفكر يدلك على ذلك ما يبدو في كلام الاطفال من الصراحة والحرية ولكن تربيته على الخوف والحذر وتضييق الفكر منذ الصغر بالخرافات والاوهام تقيدان العقل حتى يعجز صاحبه عن التفكير الا على القالب الذي صب عقله فيه — فعلى طالب الاصلاح قبل أن يحل لسانه من خوف العقاب أن يحل فكره من قيود التقليد — هذه هي الخطوة الاولى نحو الشجاعة الادبية . وجمهور العامة مقيدو الفكر لا تمشي أفكارهم الا على الخطة التي رسمتها عاداتهم فتبدو آراؤهم مسبوكة في القوالب التي اقتضتها تربيتهم أو معتقداتهم . فقبل أن نطالبهم بحرية القول أو الشجاعة الادبية يجب علينا أن نعلمهم « حرية الفكر » أي ان نجعلهم ينظرون في ما يعرض لهم من المسائل بعين العقل لا بعين الغرض وان يبحثوا عن الحقيقة المجردة

بقطع النظر عما غرس في أذهانهم مما يخالفها فيحكموا عقولهم وليس عاداتهم ومعتقداتهم — ذلك ما يعبرون عنه باستقلال الفكر

فمتى أطلق الرجل فكره من قيود الغرض أو التقليد بقي عليه أن يصرح بما يرشده اليه عقله اذ قد يكون في تصريحه ما يسوء سواه أو يعود عليه بالضرر فيمسك عنه خوفاً أو مسايرة فيسكت . وقد يتمادى في جر المنفعة لنفسه فيقول عكس ما يعتقده التماساً لرضى الآخرين ونرى أمثلة من ذلك شائعة بيننا لهذا العهد

فالناس من هذا القبيل ثلاث طوائف طائفة غلبت عليها الاوهام وقيدتها التقاليد فلا تنظر في الامور الا بعين الغرض وبما تقتضيه تلك القيود فلا يلام اصحابها الا على الجهل . وطائفة حلت افكارها من تلك القيود ونظرت في الامور بعين العقل فظهر لاصحابها في شؤون العامة خلل يقتضي اصلاحاً فمنهم من يسكت عن ابداء رأيه خوفاً من غضب الجمهور أو مراعاة لرئيس أو صديق — وهي جبانة وضعف . ومنهم من لا يكتفي بالسكوت عن الحق بل يجاري تيار الجهلاء فيقول عكس ما يعتقد — وهو النفاق والرياء . ومنهم من يقول ما يعتقده بشجاعة وصراحة لا يبالي بما قد يلحقه بسبب ذلك من الضرر — وهي الشجاعة الادبية واصحابها هم رجال الفضل على المجتمع الانساني ومنهم كبار المصلحين والشارعين . وليس المصلح أو الشارع الا رجلاً دعا الناس الى غير ما الفوه أو تعودوه من الاصلاح الديني أو الاجتماعي وضحى نفسه أو مصلحته في هذا السبيل — وصاحب الترجمة من اولئك المصلحين

ترجمة حاله

كان أبوه امين بك ابن أمير من أمراء الاكراد أخذ رهينة في الاستانة على اثر خلاف وقع بين الدولة العلية والاكراد . ثم جاء الى مصر على عهد اسماعيل باشا وانتظم في الجيش المصري ورقي فيه الى رتبة امير الاي وتزوج بكريمة احمد بك خطاب اخي ابراهيم باشا خطاب فولدت له اولاداً اكبرهم قاسم صاحب الترجمة

وليس في ترجمة قاسم امين ما نراه في تراجم رجال الحرب أو السياسة من الحوادث العديدة فقد ربي كما يربو امثاله من اولاد الوجهاء وتثقف في مدارس الحكومة المصرية وكان ممتازاً من صغره بالذكاء وحدة الذهن ولما اكمل دروسه كان في جملة الذين اختارتهم الحكومة للارسال الى أوربا يتعلمون بنفقتها على جاري العادة في ذلك الحين فدرس الحقوق في فرنسا وعاد الى مصر سنة ١٨٨٥ فتعين وكيلا للنائب العمومي في محكمة مصر المختلطة وما زال يرتقي حتى صار مستشاراً في الاستئناف وكان في كل اعماله

مثال الامانة والنشاط واستقلال الفكر حتى توفاه الله بالسكتة في ٢١ ابريل عام ١٩٠٩ وهو في الثالثة والاربعين من عمره

صفاته واعماله

كان رحمه الله ربع القامة اسمر اللون كثير التفكير قليل الكلام . وكان حرّ الفكر صادق اللهجة وقد زاده التبحر في القوانين والنظر في أقوال الفلاسفة الاجتماعيين استقلالا في الفكر وصراحة في القول لان القضاء يعوّد صاحبه التمسك بالحق واجلال قدر الحقيقة وممارسة القضاة الاحكام وتعودهم اذعان الناس لاقوالهم بلا مراجعة يزيدهم جرأة لابداء آرائهم في كل مسألة تعرض عليهم ولذلك رأيت المحاباة والرياء نادرين فيهم

وكان كبير النفس شديد الحرص على كرامتها ولذلك رأيناه محباً لامته راغباً في رفع منزلتها لان حب الامة من حب الذات ولا يحب أمته الا الذي يحب كرامة نفسه ومن يتغالى في خدمة امته فانما يفعل ذلك حباً بنفسه

واطلع قاسم على أحوال الامم الراقية في أثناء اقامته باوربا فتمنى أن تكون امته مثلها فنظر في أسباب الرقي فرآها كثيرة لا يمكن تناولها دفعة واحدة ولا يتيسر تناول شيء منها قبل اصلاح العائلة لان الامة تكون كما تكون العائلة والعائلة تكون كما تريد المرأة فوجه عنايته الى اصلاح المرأة المسلمة وليس هو أول من رأى ذلك أو فكر فيه كما قلنا ولكنه كان حازماً مقداماً لا يكتفي بالقول والتذمر أو الاستسلام على عادة اكثر المفكرين بيننا ومنهم طائفة لا يقلون تعقلا وسداداً عن المفكرين في العالم المتمدن ولكنهم يقولون ولا يفعلون — وهي آفة المشارقة . اما قاسم امين فكان فعالا اذا اقتنع بصواب فكر اخرجه الى حيز العمل . فلما عرف الطريق المؤدي الى اصلاح امته بادر الى مباشرته وهو يعلم ما يعتور مشروعه من العقبات وما سيلقاه من مقاومة تيار الرأي العام . لان اصلاح المرأة يقتضي منحها الحرية ويتناول تقبيح الحجاب والنهي عن الطلاق وتعدد الزوجات مما يعدّه العامة من قبيل العقائد الدينية وهو ليس من الدين في شيء فاضطر أن يبين ذلك في اثناء بحثه . وبعد اعمال الفكرة الف كتابه « تحرير المرأة » وأسمة يمّم على منزلة المرأة المسلمة في اعتباره فهو يعدّها مستعبدة وقد أخذ على نفسه أن يحررها . وعلم ان الناس سيكبرون قوله وينكرون عليه مشروعه — حتى المرأة لانها الفت الذل وتعودت ان تعتبر نفسها من ادوات المنزل . فلم يكن يتوقع ان يرى ثمرة سعيه في حياته فرضي أن يضع الاساس لسواه فصدّر كتابه المشار اليه بقوله :

« وغاية ما أريد هو ان استلفت الذهن الى موضوع قلّ المفكرون فيه لا ان

اضع كتاباً يوفي الكلام في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني . وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها في اذهان اولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها »

ثم بين حاجة المرأة المصرية أو المسلمة الى الاصلاح موجهاً كلامه الى الخاصة والعقلاء فاورد فصلاً في « ان حال المرأة في الهيأة الاجتماعية يتبع حال الآداب في الامة » لا يقرأه قارىء الا توسم من خلال سطوره الحماسة ونصرة الحقيقة وصدق اللهجة . فقد افتتح كلامه بقوله :

« اني أدعو كل محب للحقيقة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وانا على يقين انه يصل وحده الى النتيجة التي وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التي انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها اقلبها وامتحنها واحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضوع الفكر مني وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلني بورودها وتنبهني الى مزاياها وتذكرني بالحاجة اليها فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر »

ثم أخذ يبحث في علاقة المرأة بالامة ويورد الادلة والبراهين التاريخية والاجتماعية ويستنهض الهمم ويستحث القرائح على العمل بعبارات ملؤها الحماسة والاخلاص قال :

« ولا يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعدّه أهل الوقت حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الاولى او قضت به المصالح في الازمنة

« وكثيراً ما يكتفي الكسول وضعيف القوى في الجدل بان يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة في الاسلام . وما يرمي بهذه الكلمة الا حباً بالتخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل في البحث أو الاجراء . كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم واقالهم من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

« سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فاقول نعم اني اتيت ببدعة ولكنها ليست في الاسلام بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها »

واقاض في بسط الموضوع وتأييده فافرد فصلاً لتربية المرأة وهو يعتقد أنها مساوية للرجل لا تختلف عنه الا بما يستدعيه اختلافهما في الصنف . وان تعليمها العلوم

الطبيعية والعقلية والادبية يساعدها على القيام بواجباتها المنزلية وترقية نفوس ابنائها . وقسم الكلام في التربية الى التربية بالنسبة الى الوظيفة الاجتماعية وبالنسبة الى الوظيفة العائلية . ثم تكلم في الحجاب ـ وكان قد الف كتاباً بالفرنساوية قبل « تحرير المرأة » ردّ به على كتاب الدوك داركور الذي طعن فيه على المصريين وقبح أخلاقهم وعاداتهم واختصر قاسم في دفاعه عن الحجاب هناك فافاض هنا في حقيقة الحجاب من الوجهة الدينية ومن الوجهة الاجتماعية واستأنف الكلام في « المرأة والامة » وبين ارتباطهما في فصل طويل وختم كلامه بفصل في « العائلة » وتوسع في الكلام على الزواج وشروطه وبين ان الشريعة الاسلامية تأمر بحسن المعاملة وتنهى عن تعدد الزوجات وتقبح الطلاق مسنداً اقواله الى القرآن والحديث والقواعد الاجتماعية والاحكام العقلية . وفي كل فقرة دليل على صراحة فكره وصدق لهجته وتفانيه في خدمة امته . ومع ذلك فلم يكد يظهر كتابه وتتناقله الايدي حتى تصدى لتخطئته أقوام جاهروا بالسخط على صاحبه بين منتقد وهازىء اما تمسكا القديم أو مجاراة لاحساس العامة لارتباط ذلك بمصالحهم وطرق معائشهم . وفيهم من فعل ذلك عن اعتقاد خالص ولكن بعضهم تجاوز حد الانتقاد الى الاستهزاء والقول الهراء فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وآخرون بالخروج عن الاداب وزعم غيرهم انه يرمي الى قلب الهيأة الاجتماعية المصرية وممالأة الانكليز على ضياع البلاد ...

أما هو فاغضى عن ذلك كله ورجع الى الموضوع فزاده بسطاً بكتاب آخر سماه « المرأة الجديدة » تكلم فيه عن « المرأة في حكم التاريخ » من اقدم ازمنته الى الآن في الامم القديمة والحديثة تأييداً لرأيه في وجوب تحريرها ورفع شأنها وفي « الواجب على المرأة لنفسها » وفصول في « الواجب على المرأة لعائلتها » و« التربية والحجاب »

ولم يكتف بطلب تحرير المرأة لكنه وضع لحريتها حدوداً وبين ما يجب عليها وما يحق لها . ووضع للطلاق نظاماً جعله نموذجا تنسج الحكومة على منواله اذا شاءت تحرير المرأة واعطاءها حقها الشرعي والمدني . فقيد ارادة الرجل في الطلاق بحكم القاضي أو المأذون بعد ان يرشد الزوج الى ما جاء في الكتاب والسنة من كره الطلاق عند الله وينصحه ويبين له تبعة عمله واذا ابى الاصغاء وسط حكماً من أهله وحكماً من اهلها للاصلاح بينهما فاذا لم يفلح في ذلك كله اذن بالطلاق . ولا يخفى ما في ذلك من تدارك الاضرار التي تصيب العائلات بتسرع البعض في تنفيذ طلب الطلاق وقد يكون طلبه عن غضب موقت فاذا اثاب اليه رشده ندم على ما فرط منه

ظهرت كتابات قاسم في هذا الشأن من تسع سنوات فشغلت الالسنة والاقلام عاماً أو عامين تنبهت فيهما العقول وثارت الخواطر وقام الناس وقعدوا . وقد لاقى من

العقلاء اعجاباً كثيراً فنصره بعضهم بالسنتهم وافلامهم وسكت الاخرون مجاراة للعامة ونصرائهم . واكثر مجاهرة في نصرته وأخذاً بيده زميلنا ابراهيم بك رمزي فانه انشأ يومئذ مجلة سماها « المرأة في الاسلام » جعلها وقفاً على هذا المشروع ظهرت سنة ثم احتجبت ثم سكت الناس لا عن اهمال أو اغفال ولكنها فترة الحضانة ريثما تتكيف عقول الامة لقبول تلك الآراء — كالتلقيح بالجواهر النافعة فانه يحدث عند دخوله البدن تهييجاً وقد يولد صديداً ثم يسكن في الظاهر ويعمل عمله رويداً رويداً . وقد أخذت نتائج ذلك السعي تظهر برغبة الناس في تعليم بناتهم وانشاء المدارس لهذه الغاية . وهذا من أدلة تسرُّب فكر قاسم بالتدريج

ستتوالى الاجيال وتمر السنون قبل أن تحرر المرأة المسلمة لكنها ستتحرر وترتقي وتتولى الاعمال الهامة وترفع شأن العائلة كما كانت سالفاتها في جزيرة العرب منذ آلاف من السنين فاذا بلغت الى ذلك الرقي تذكرانه كان صاحب الفضل عليها ويعظم ذكره فيبقى اسمه منقوشاً بحروف من نور على تاريخ الاجتماع الشرقي في التمدن الحديث

أعماله في غير تحرير المرأة

قد تمر القرون والناس على ما ساقتهم اليه الفطرة في طلب المعاش لا يفقهون معنى الحياة ولا الاجتماع حتى تمخض الطبيعة فتلد من ابنائها أفراداً ينهضون بالامة الى ما يظنون فيه خيرها — هؤلاء هم أقطاب العالم ودعائم الهيأة الاجتماعية فمنهم من يرى ثمرة سعيه وينال الفخر بحياته ومنهم من يراها خلفاؤه ويطوبونه بعد موته

وصاحب الترجمة واحد من هؤلاء لم يجن ثمرة سعيه ولكن معاصريه عرفوا فضله واعترفوا بما طبع عليه من سعة العقل وسداد الرأي والرغبة في خدمة الامة فعهدوا اليه باعز المشروعات لديهم نعني انشاء « الجامعة » فولوه رئاسة اللجنة فلم يدخر وسعاً في سبيلها الى آخر ساعة من حياته

ذكرنا للفقيد فضله في نصرة المرأة لانه أظهر أعماله الاجتماعية ولكنه كان راغباً في سائر سبيل الاصلاح يطلبها من ابوابها القانونية مع تطبيقها على القواعد الاجتماعية الصحيحة لا يغريه اطراء ولا يخيفه صياح ولا يستغرب نقمة الناس وتخوفهم من كل جديد . وكان يشير الى ذلك في اثناء أقواله ويحتاط له ويدفعه . وله في الاصلاح على اجماله مقالات كان ينشرها في المؤيد عنوانها « أسباب ونتائج واخلاق ومواعظ » لم يذكر فيها اسمه وكان لها وقع حسن

وله أقوال مأثورة وجمل يتناقلها الناس عنه ويتخذونها قاعدة او مثلاً نشرتها ادارة الجريدة في كتاب سمته « كلمات لقاسم بك امين » هو عبارة عن مختارات افكاره أو

مذكراته وفيه حكم فلسفية اجتماعيـة وشذرات علمية يجدر بالادباء الاطلاع عليها والتمثل بها وهذه امثلة منها :

ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك

اذا استشارك عدوك فاخلص له النصيحة لانه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

تعصب أهل الدين وغرور أهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح انه يوجـد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فهما كثرت معارف الانسان لا تملا كل فكره بعد كل اكتشاف يحققه العلم بحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسألة تحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الان وغداً يشتغل عقل الانسان بالعلم أي بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف . هذا المجهول الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين

ان كان في الوجود انسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق

من اختباري لارباب الافكار الذين اختلطت بهم يظهر لي ان الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار تتوقد في القلب ـ حمية الفاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك اثراً بعدها

لا أدري ما هي غاية الكتّاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون انفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلا من كلمة الاوتوموبيل . ان كان القصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه اتم من الكلمة العربية وان كان قصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كلفوا انفسهم امراً مستحيلاً اذ لم يوجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها

لا تكمل أخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه (انتهت اقواله)

وجملة القول ان قاسم امين من المصلحين العظام الذين يحفظ التاريخ ذكرهم وتزداد منزلتهم رفعة وفضلهم ظهوراً بتوالي الاجيال . وفضله يشمل العالم الاسلامي على الاجمال بنصرته للمرأة المسلمة وله فضل خاص على القطر المصري بما نشره بين المصريين من النصائح الخاصة بهم . وبما كان له من القدوة الحسنة بين زملائه وأصدقائه وغيرهم . لانه خدم القضاء ٢٣ سنة كان فيها مثال النزاهة واستقلال الفكر والشجاعة الادبية لا يراعي في الحق صداقة ولا قرابة ولا مقاماً

بشاره الخوري

المحسن السوري الشهير

ولد سنة ١٨٣٨ وتوفي سنة ١٨٩٨

الاغنياء كثيرون في الارض ولكن المحسنين منهم قليلون . واقلُّ من هؤلاء من جمع منهم بين الغنى والاحسان والتقوى والمرحوم بشاره الخوري قد أضاف الى هذه الفضائل حسنات يندر اجتماعها في رجل واحد كالدعة واللطف وحب السلام والشهامة والغيرة وحسن الطوية فضلاً عن النشاط والسهر على العمل والعصامية فانه جمع ما جمعه من المال بجده واجتهاده كما يتضح ذلك من ترجمة حاله

ولد رحمه الله في عكا سنة ١٨٣٨ من اسرة كريمة نشأت على التقوى والبر فربي في الفضيلة منذ نعومة أظفاره ثم حدث في سوريا ما حمل تلك العائلة على المهاجرة الى القطر المصري فنزلت الاسكندرية وكان صاحب الترجمة لا يزال غلاماً وقد أحسن القراءة والكتابة فمال الى التجارة فعمل في بعض المحلات التجارية بصفة كاتب فلم تمض مدة حتى اكتسب شهرة بين التجار بالاستقامة فتهافتوا على استخدامه

ولكنه ابى الا الاستقلال بالعمل لحسابه فافتتح محلاً لنفسه فاكتسب ثقة الناس واستمال قلوبهم بحسن معاملته حتى صار مثلاً بالصدق والاستقامة . وطبيعي ان من كانت هذه خصاله لا بد من نجاحه فربح أموالاً طائلة واتسعت ثروته بما اكتسبه من مقاولات عقدها مع الحكومة المصرية فغلبت عليه القناعة ومال الى الراحة والتفرغ الى المبرات فاعتزل التجارة ونزح الى بيروت ولم يفتر منذ اقامته هناك عن بذل الاموال في سبيل المشروعات الخيرية والادبية وانتظم في جمعية القديس منصور ثم تولى رئاستها وهي من أعظم الجمعيات الخيرية في بيروت ثم تولى رئاسة الجمعية الخيرية للروم الكاثوليك هناك نحو ١٥ سنة ولم تقتصر حسناته على سوريا وجمعياتها ومدارسها لكنها بلغت الى وادي النيل فبذل الاموال الطائلة في تنشيط المشروعات الخيرية على اختلاف مواضيعها بقطع النظر عن المذاهب والطوائف . ومما يذكر من حسناته المأثورة انه لما احترقت الاسكندرية سنة ١٨٨٢ اثناء الثورة العرابية كان للمترجم في الاسكندرية مخازن مملوءة بالارزاق فلم تمسها النار مع انها التهمت كل ما جاورها فعدّ الناس ذلك نعمة خصوصية نالها هذا الرجل لتقواه وحسن نيته فلما أخذ مهاجرو المصريين بالعود الى بلادهم وقد أصابهم ضنك مما تحملوا من تلك الثورة فتح صاحب الترجمة يده بالبذل والعطاء وفوض

الى بعض الاصدقاء الانفاق على سفر اولئك المهاجرين من جيبه الخاص وتظاهر انه انما ينفق من اموال المحسنين وبلغ مقدار ما انفقه في ذلك العام ٢٥٠٠ جنيه

ومما يروى عنه رحمه الله انه لما أراد الاقتران قصد بعض مدارس البنات في بيروت فالتمس من الرئيسة ان ترشده الى اتقى تلميذاتها بقطع النظر عن حالها من الجمال او



ش ٨٣ — بشاره الخوري

المال او غير ذلك مما يبحث عنه شبان هذا العصر فارشدته الى اتقاهن فتزوجها وعاش معها بالسلام والوفاق وولدت له اولاداً رباهم بخوف الله وغرس في قلوبهم حب الفضيلة وقضى ايامه ساعياً في القاء السلام بين اهل الخصام يضرب المثل باحسانه وحسن سريرته حتى توفاه الله في بيروت

السيد عبد الرحمن الكواكبي

ولد سنة ١٢٦٥ هـ وتوفي سنة ١٣٢٠ هـ

العظمة والشهرة صديقتان يغلب أن تتصاحبا فلا تكون احداهما بدون الاخرى . ولكنهما كثيراً ما تفترقان فتكون العظمة بلا شهرة والشهرة بلا عظمة. فترى بين اهل الشهرة الواسعة من اذا لقيتهم وسبرت غورهم رأيتهم كالطبل يدوي صوته الى بعيد وجوفه فارغ . وانهم انما نالوا تلك الشهرة بما طبعوا عليه من الميل الى نشر محامدهم في الصحف فيقرأها الناس ويتحدثوا بها . وقد ينفقون المال ويحدون اوعر أسباب السعي في هذا السبيل. وترى بينهم من لا محمدة له فينتحل محامد غيره او تكون له حبة منها فيجعلها قبة . فاذا نشر ذلك عنه في صحيفة او نشرة او كتاب حمله وطاف به في الاهل والاصدقاء يترنم بقراءته عليهم ويتلذذ بما يلقى من آيات الاعجاب وخصوصاً في هذه البلاد — بلاد المجاملة التي يزداد فيها المغرور غروراً اذ لا يسمع من الناس الا اطراء واعجاباً ولو كانت حاله تدعو الى التقريع والتعنيف — ويعدون ذلك من آداب الحديث

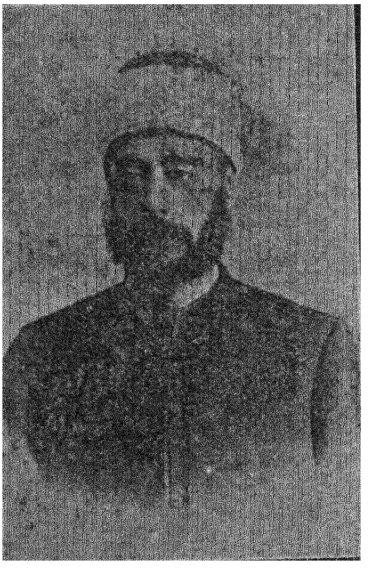
فما كل شهير عظيم ولا كل عظيم شهير فكم بين ظهرانينا من رجال توفرت فيهم شروط العظمة ولو رافقتها الاسباب لأتوا بالامور العظام . وقد تظهر مواهبهم من خلال اعمالهم وان ضاقت دائرة العمل . ولكنهم لرغبتهم عن الشهرة لا يعرف اسماؤهم الا القليلون فاذا اصابهم سوء اذاع مريدوهم أخبارهم وتحدثوا بافضالهم

ومن هذا القبيل المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي فقد جاء مصر سنة ١٣١٨ هـ وأقام في قلب العاصمة ومع سعة علمه وغزارة مادته لم يسمع بذكره احد ولا عرفه الا الاصدقاء والاخصاء . وهناك اناس يقصرون عن ادراك بعض منزلته علماً وفضلا ولكنهم لا تطأ أقدامهم مصر حتى تتناقل الصحف أخبارهم بما ينشرونه فيها من نفثات افلامهم أو ثمار قرائحهم — وقد لا تكون تلك الثمار شهية — وانما يعمدون الى نشرها رغبة في الشهرة . فالكواكبي رحمه الله لم يكن من اولئك ولكن همه كان منصرفاً الى خدمة الوطن ونشر المبادىء الصحيحة فيه بالتأليف والتلقين بعد ان قضى معظم العمر في خدمة الحكومة العثمانية في حلب وقامى اموراً صعاباً من وشايات ذوي الاعراض. فلم يلق تربة تصلح لغرس مباديه فجاء مصر ونشر بعض كتبه فعاجله الاجل فمضى ومضت معه امانيه وهي شبيهة بامالي المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وقد استهلك في سبيلها كما استهلك ذاك من قبله

(ترجمته) آل الكواكبي اسرة قديمة في حلب هاجر اليها اجدادهم منذ اربعة

قرون ولهم شهرة واسعة ومقام رفيع في حلب والاستانة . يرجعون بانسابهم الى السيد ابراهيم الصفوي أحد أمراء اردبيل العظام . ولهم آثار مشهورة منها المدرسة الكواكبية في حلب ونبغ منهم جماعة كبيرة من العلماء ورجال الادارة ومنهم فقيد العلم السيد عبد الرحمن وقد ولد في حلب سنة ١٢٦٥ هـ وابوه الشيخ احمد الكواكبي أحد مدرسي الجامع الاموي الكبير

تلقى السيد عبد الرحمن مبادىء العلم في بعض المدارس الاهلية ودرس العلوم الشرعية في المدرسة الكواكبية واتقن العربية والتركية وبعض الفارسية ووقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة . وكان ميالا من حداثته الى صناعة القلم فاشتغل في تحرير جريدة « فرات » التي كانت تصدر في حلب باسم الحكومة



ش ٨٤ ـ السيد عبد الرحمن الكواكبي

وهو في السابعة والعشرين من عمره . حررها خمس سنوات وانشأ في اثناء ذلك جريدة سماها « الشهباء » واشتغل بخدمة الحكومة فتقلب في عدة مناصب علمية وادارية وحقوقية وأهل النقد يذكرون فضله في كل واحدة منها كبيرها وصغيرها لان اقتدار الرجل يظهر في الصغائر كما يظهر في الكبائر . وكان حب الاصلاح وحرية القول والفكر باديتين في كل عمل من اعماله . فلم يرق ذلك لبعض ارباب المناصب العليا فوشوا به فتعمدت الحكومة حبسه ثم جردوه من أملاكه . فلم يقلل ذلك شيئاً من علو همته فغادر الوطن وطلب بلاد الله فجاء مصر ثم خرج منها سائحاً فطاف زنجبار

والحبشة واكثر شطوط شرق اسيا وغربيها ثم رجع الى مصر

ومما يذكر له ونأسف لضياع ثماره انه رحل رحلة لم يسبقه احد اليها وينـدر ان يستطيعها احدٌ غيره . وذلك انه أوغل في أواسط جزيرة العرب فاقام على متون الجمال نيفاً وثلاثين يوماً فقطع صحراء الدهناء في اليمن . ولا ندري ما استطلعه من الآثار التاريخية أو الفوائد الاجتماعية فعسى أن يكون ذلك محفوظاً في جملة متخلفاته . وتحول من هذه الرحلة الى الهنـد فشرقي افريقيا ايضاً وعاد الى مصر وكان اجله ينتظره فيها

كان الكواكبي واسع الصدر طويل الاناة معتدلا في كل شيء وكان عطوفاً على الضعفاء حتى سماه الحلبيون « ابا الضعفاء » وجاء في الرائد المصري انه كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث الى المحاكم من يأمنهم من اصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين

وكان واسع الاطلاع في تاريخ المشرق على العموم وتاريخ الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع في علم العمران . والف كتباً لم ينشر منها الا كتاب « طبائع الاستبداد » وهو فريد في بابه قرظناه في الهلال . وكتاب « ام القرى » ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها فقد كان بعيداً عن التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء لانه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة

ومن يقرأ ترجمة الكواكبي والافغاني وغيرهما من رجال هذه النهضة ويدرس أعمالهم والاحوال المحيطة بهم يعترف بفضلهم في نصرة الحقيقة وتأييد الحق والحرية

فهرس الجزء الاول

من تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر

صفحة

العائلة الخديوية

محمد علي باشا ١
ابرهيم باشا ابن محمد علي ١١ و ٢٥
عباس باشا الاول ٢٦
سعيد باشا ٢٧
اسماعيل باشا ٢٩
محمد توفيق باشا ٣٩
عباس باشا الثاني ٤٢

الملوك والامراء

السلطان محمود الثاني ٤٥
الامير بشير الشهابي الثاني ٥١
محمد احمد المتمهدي السوداني ٦١
ناصر الدين شاه ١١٦
عبد الرحمن امير الافغان ١٢٤
حبيب الله خان الافغان ١٣٤
تسي همي امبراطورة الصين ١٣٥
منليك ملك الحبشة ١٤٢
علي بن حمود سلطان زنجبار ١٤٣

القواد والوزراء ورجال الادارة

سليمان باشا الفرنساوي ١٤٤
عمر باشا ١٤٩
الامير عبد القادر الجزائري ١٥١
عثمان باشا الغازي ١٦٠

صفحة

حميد بن محمد المرجبي ١٦٧
المعلم جرجس الجوهري ١٧٥
المعلم غالي ١٧٨
علي باشا تبه دلنلي ١٨١
بوغوص بك ١٨٧
مصطفى رشيد باشا ١٩٠
فؤاد باشا ١٩٤
محمد شريف باشا ١٩٨
رستم باشا ٢٠٢
نوبار باشا ٢٠٤
جواد باشا ٢٠٨
مختار باشا الغازي ٢١٠
احمد عرابي باشا ٢١١
لي هونغ تشانغ ٢٣٣
الماركيز ايتو ٢٣٦
مدحت باشا ٢٣٩
بطرس باشا غالي ٢٦٦

رجال الاعمال واهل البر والاصلاح

كيرلس الرابع ٢٧١
الشيخ محمد عبده المصري ٢٨١
مصطفى باشا كامل ٢٨٩
سليم صيدناوي ٣٠٢
قاسم بك امين ٣١٠
بشاره الخوري ٣٢٠
عبد الرحمن الكواكبي ٣٢٢